

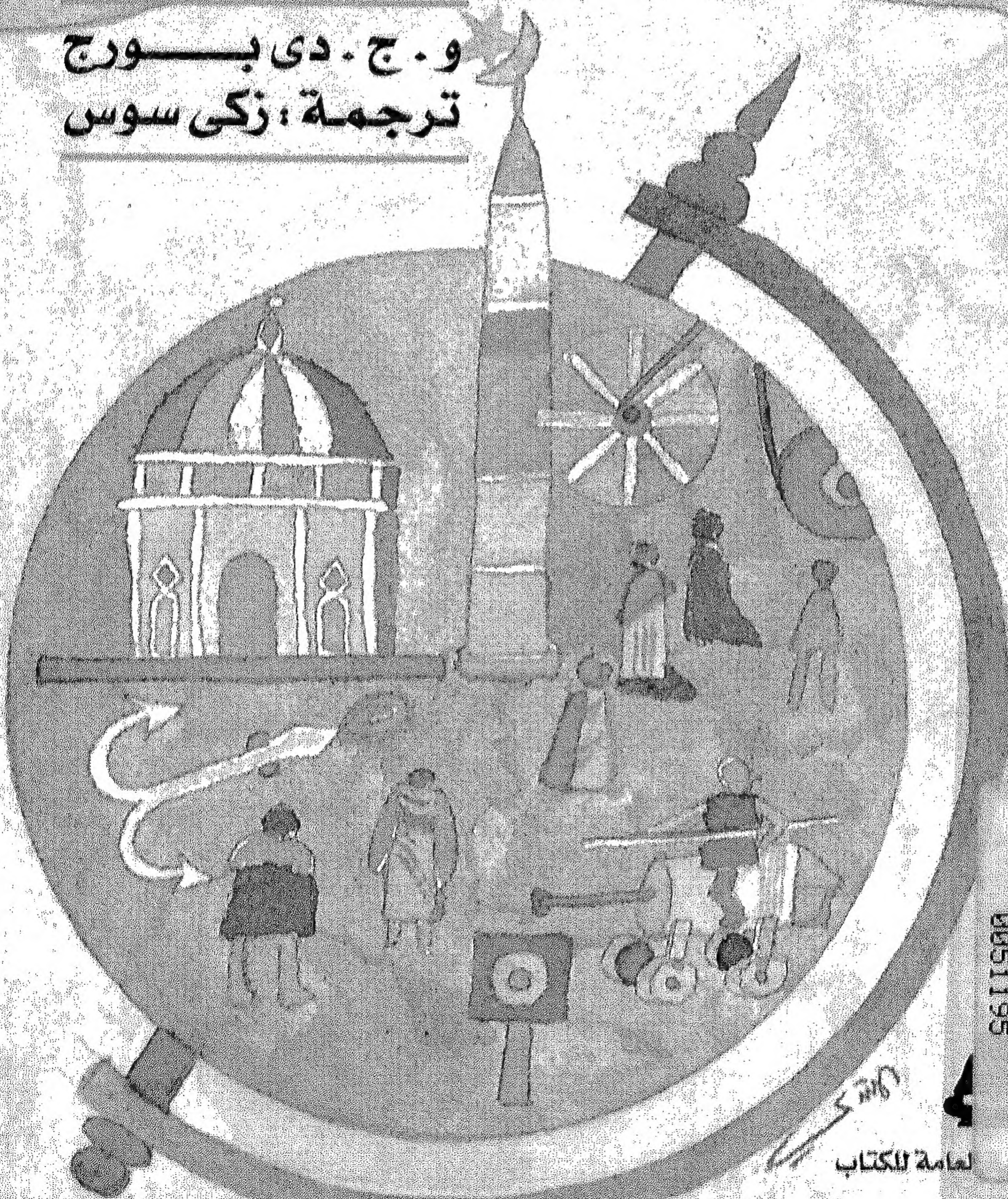
مهرجان القراءة للجميع

الاعمال الفكرية

مكتبة
الأسيرة
1999

تراث العالم القديم

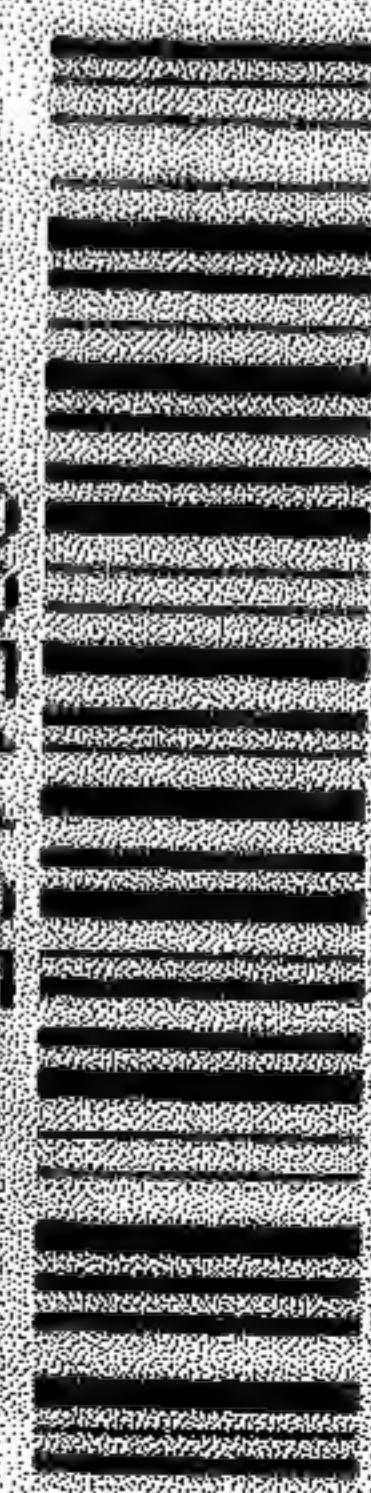
و. ج. دي بيروج
ترجمة: زكي سوس



مكتبة الأسيرة



Bibliotheca Alexandrina



0051195

لجنة الكتاب

تراث العالم القديم

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دى بورج
ترجمة: زكى سوس



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

تراث العالم القديم

تأليف: و. ج. دي بورج

ترجمة: زكى سوس

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب :
THE LEGACY OF THE ANCIENT WORLD

تأليف
W. G. DE BURGH

موضوعات الجزء الاول

المقدمة	٩
تذكرة	١٣

الفصل الاول

مقدمة

خلف تراث المدنية القديمة ثلاثة شعوب ، العبريون والاغريق والرومان عالم البحر المتوسط كمجال لنشاطهم في التجارة والمدنية الاصرات السامية والهندية - اوروبية . اضافة كل من هذه الشعوب الثلاثة الهامة لمدنية العالم . تاريخها سجل تغير مستمر وتعديل تراثها في عملية وصوله للعالم الحديث ، النسقية . تبرير المنهج الذي اتخذ في هذا الكتاب ... ١٥

الفصل الثاني

مدنيات الشرق الاول

١ - تمهيد : منهاج الفصل	٣٠
٢ - مصر : انتظام المدنية المصرية . اعادة كشف السجلات المصرية . عصور التاريخ المصري (ما قبل الاسرات ، الدولة القديمة ، الدولة الوسطى ، الامبراطورية الحديثة ، نهضة العهد الصاوي) الى الفتح الفارسي . الخصيصة العامة للثقافة المصرية	٣٠
٣ - بابل واشور . سهل كلديا . اول امرة بابلية وقوانين حمورابي الامبراطورية الاشورية . نهضة بابل الى الفتح الفارسي . الخصيصة العامة للثقافة البابلية	٣٨
٤ - الحيثيون والساميون الغربيون : الشعوب السامية بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط . الحيثيون . الفينيقيون . العبرانيون في كنعان	٤٥
٥ - كريت . اعادة كشف الثقافة الايجية الاولى . العصور المتعاقبة والخصيصة العامة للمدنية المانوية في كريت . دولة ليديا والفتح الفارسي لآسيا الصغرى	٤٩
٦ - امبراطورية فارس : الارومة الايرانية وخصيصة مدنيتهما ، الفتوحات الفارسية ونظام الحكومة . تدهور وسقوط الامبراطورية الفارسية	٥٣
٧ - الخاتمة . اهمية المدنيات المذكورة آنفا لتاريخ العالم	٥٧
حداول تاريخية	٥٩

الفصل الثالث

ديانة العبريين

١ - تقديم - ايضاح المسألة ، دين العبريين في ازمة ما قبل النبوة	٦٥
--	----

- ٢ - نبوة ما قبل السبى : قيام النبوة عند العبريين ، عاموس والتهديد
الاشورى . الانبياء وطبيعة رسالتهم ، فحواها الخلقى والدينى ،
اشعياء والتهديد الاشورى . اصلاحات يشوع ومدونه قوانين التشنية ،
ارميا والفتح البابلى ٧١
- ٣ - السبى وما بعده : نتائج السبى على حياة العبريين الروحية كما
توضحها نبوءة حزقيال ، العودة فى عهد عزرا ومدونة القوانين
الكهنوتية ، الدين الشخصى فى المجتمع المعاد . موضوع الالم والعدالة
الالهية ، الرجاء فى الملكوت فى ا زمن السبى وما بعد السبى ، قيام
الايمان فى بعت ٨٣
- ٤ - الخاتمة : قوة وضعف الدين العبرى ، اليهودية والمسيحية ١٠١
تذكرة اضافية : : عن التاريخ العبرى بعد السبى ١٠٥

الفصل الرابع

قيام الهلينة

- ١ - مقدمة : الغزوات الشمالية وأصول الشعب الاغريقى ١١٠
- ٢ - دولة - المدينة الهلينية : دولة المدينة والوحدة الهلينية . أهمية
دولة - المدينة (ا) فى تاريخ المدينة (ب) فى الحياة الاغريقية
(ح) فى النظرية الاغريقية عن الحياة ، الفردية ، والتشيع الحزبى ١١١
- ٣ - توسع اليونان : المغامرات البحرية فى اليونان الباكورة ، عصر
الاستعمار ونتائجه على الحياة العامة ١٢٠
- ٤ - بواكير أدب الشعر : قصائد هومر ، الشعر الغنائى وشعر
الملحمة ، شعر الامثال وتطور الآراء الخلقية - السفسوسونية والهبوس ١٢٣
- ٥ - مولد الفلسفة : خلق مبتكر للعبقرية الاغريقية ، الخصائص
العامة للفكر الايونى الباكر ، تطور الفلسفة فى الشرق والغرب
هيرقليطس والفيثاغوريون وفارمنيدس وأصحاب المذهب النرى ،
مسألة الفوسس فى الطبيعة وفى السلوك ، العلم والدين ، النهضة
الدينية فى القرن السادس وأثرها على الفلسفة ١٣٣
- ٦ - الخاتمة : المنطق الملازم للعبقرية الاغريقية ١٤٥

الفصل الخامس

عظمة أثينا

- ١ - دولة أثينا : أثينا كمركز للثقافة الهلينية ، تطور الدولة
الاثينية فى القرن السادس - المقابلة بين أثينا واسبارطة ، الحروب
الفارسية ومغزاهها لليونان وأثينا ، حرب التحرير والامبراطورية
الاثينية ، الحياة العامة فى أثينا فى عهد بركليس ، الحرب البلوبونيسية
وسقوط الامبراطورية الاثينية ١٤٩
- ٢ - الفن والادب فى أثينا القرن الخامس ، فن العمارة والنحت ،
البارثنون . خصيصة الفاجعة الاثينية وتمثيلها . ارتباطها بالدين
والأخلاق كما توضحه تراجيديات اسخولس وسفوكلس وبوريبيدس ،

المسلة الاتيكية وأرسطوفانس . نهوض أدب النثر . المؤرخان	
هيروdot و ثقوديدس	١٥١
٣ - السفسطائيون وسقراط ، استنارة القرن الخامس ،	
السفسطائيون ، مسألة الطبيعة والعرف ، شخصية سقراط ، رسالته	
الفلسفية ومنهجه ، محاكمته وموته	١٧٤
٤ - أفلاطون : كتابات أفلاطون وتصوره للفلسفة ، مسألتا المعرفة	
والموجود يجاب عليهما في حدود الفروق بين عالمي الفكر والحس ، ومبدأ	
الصور - صورة الخير في فلسفة أفلاطون ، مبدأ أفلاطون عن النفس	
وحياة العقل ، تصور له المدينة الكاملة ، الأكاديمية الأفلاطونية وعمليها،	
النفوذ الدائم لفلسفة أفلاطون	١٨٦
تذكرة اضافية : عن مركز النساء	١٩٩
عن الرق	٢٠٣

الفصل السادس

الثقافة الاغريقية - المقدونية

١ - الاسكندر ، نهوض مقدونيا ، مشروع حملة صليبية اغريقية	
ضد فارس ، فتح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ، مرامي الاسكندر	
وسياسته ، هليتيته ، امبراطوريته في عهد خلفائه الاغريق - المقدونيين	
سقوط دولة - المدينة الهلينية واستهلال عهد جديد في تاريخ الهلينية	٢٠٧
٢ - الثقافة الهلينية : المظاهر العامة للعصر الهليني : الادب	
والعلوم - الاسكندرية وغيرها من مراكز الثقافة - الفن الهليني	٢١٨
٣ - عصر ارستطاليس : مركز ارستطاليس في تاريخ الفكر الاغريقي	
مدى وخصيصة كتاباته ، مجمل عن (ا) مبدؤه عن الوجود (ب)	
مبدؤه عن الخير الأعظم للانسان ، منطق ارستطاليس وتاريخه - نفوذه	
على العصور اللاحقة	٢٣٤
٤ - الرواقيون والابيقوريون : الفكر الخلقى الهليني كمعبر عن	
السياسي والاجتماعي الذي اعتراه تغير ، الرواقية كاتجاه فلسفي	
الفرد ، المثل الأعلى الأبيقوري	٢٣٤
٥ - الخاتمة : أهمية العصر ٧٥٠ - ٣٠٠ ق م . في تاريخ العالم	٢٤٠

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

١ - أسس الدولة الرومانية : بداءات روما ، خصيصة السلالة	
الرومانية ، الأسرة الرومانية ، الأنظمة السياسية بين العهد	٢٥٢
٢ - قيام الجمهورية ، نظام الجمهورية وتاريخها الباكر ، الألواح الاثنى	
عشر وقيام القانون العام ، صلاحية الأنظمة الرومانية العملية - المقابلة	
بينها وبين أنظمة انجلترا	٢٥٢
٣ - توسع روما :	٢٦٢

- (١) فتح إيطاليا ، سياسة روما في الحرب ، خصيصة الحكومة
الرومانية في إيطاليا ٢٦٣
(ب) الحرب مع قرطاجنة ٢٦٧
(ج) فتح الشرق ، بدءات امبراطورية اقليمية ٢٦٨
١ - روما في العرون الثاني

- (١) روما والهلينية ، نتائج الحروب العظيمة الاقتصادية
والاجتماعية ، الأثر الهليني على الأدب الروماني الباكر ،
الهلينية والحياة الرومانية والفكر الروماني ٢٧١
(ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني ، سيادة مجلس الشيوخ ،
مذهب الحكومة الاقليمية ، تطور القانون والمراسيم
البريتورية ، قانون الأمم ٢٧٦
٢ - الخاتمة : علامات الثورة القادمة ٢٨٣

الفصل الثامن

الامبراطورية الرومانية

- ١ - أنظمة الامبراطورية :
(١) سقوط الجمهورية ، مغزاه التاريخي ، وجوه الأزمة ،
المنعاقبة (١) الاعادة التي قام بها سلا (ب) عصر شيشرون
وقيصر ٢٨٧
(ب) يوليوس قيصر ، سيادته وعمله ، حماية الحدود والمسألة
الشرقية ، مقتل قيصر ٢٩٣
(ج) أوغسطس ، نظرية وسلطات الزعامة ، سياسة أوغسطس
فيما يتعلق بإيطاليا والأقاليم ، الأخلاق والدين ، الحدود ٢٩٦
٢ - الامبراطورية في القرون الثلاثة الأوائل ، مظاهر العصر العباسية ،
الامبراطور هديران ، نمو الحكومة البيروقراطية ، الحياة الحضرية في
عهد الامبراطورية ، مسألة الدفاع عن الحدود ، أمثلة للحياة الاقليمية
والحكومة في الغرب (١) اسبانيا (ب) الغال «ج» بريطانيا ٣٠١
٣ - القانون والأدب ٣١٩
(١) تطور القانون والقضاء - المرسوم الدائم ، الدستور
الامبراطوري ، الشارعون العظام ، أمثلة عن الروح الجديدة
في القانون الروماني
(ب) الأدب في عصر شيشرون ، العصر الاوغسطي ، أوفيد
وسينقا ، العصر الفضي ، خاتمة الأدب اللاتيني ، الأدب
الاغريقي في عهد الامبراطورية الباكرة ٣٢٣
٤ - الخاتمة : التغيرات في الحياة والفكر أثناء هذه القرون ، فرجل
كرسول العهد الجديد ، الحكومة الامبراطورية والصالح الانساني ٣٣٣

مقدمة

ان الغرض من هذا الكتاب هو أن يكون نمهيذا لدراسة المدنية القديمة لأولئك الذين لا يلمون بتاريخها . فتوجد نم رغبة متزايدة بين الرجال والنساء من جميع الطبقات والوظائف ، فى الحياة - ممن لا يعرفون الا القليل عن العبريين واليونان وروما - فى أن يحيطوا بشئ من جلائل أعمالهم . ولا يمكن نلبية هذا الطلب بكتيبات أولية . وأولئك الذين لهم عقول ويريدون استخدامها ، ليسوا فى حاجة الى مجرد موجز عن الوقائع ، ولكن الى مرشد لأحسن أفكار الأزمنة الغابرة عن الانسان والأسباب التى تربطه بالعالم وبالله . ومن الخط الظن أن الجمهور لا يأبه أو لا يقدر على فهم مشاكل الدين والفلسفة . فثمة كثيرون ، لا فى الجامعات والمدارس فحسب ، ولكن فى العالم الفسيح فى الخارج وخاصة بين العمال فى المدن الصناعية ، يميلون الى اجتلاء هذه المعارف ويتوقون برغبة أكيدة الى الاحاطة بها وتقصى أخبارها . انهم يتحولون صوب تراث الماضى اعتقادا منهم بأنهم سيفيدون منه ضياء فى حل صعابهم الخاصة . انه لمثل هؤلاء - فى الاعتبار الأول - وضع هذا الكتاب .

والى جوار هؤلاء كثيرون ، أصابوا تعليما كلاسيكيا الا أنهم لم يكونوا رأيا متماسكا عن المدنية القديمة ككل . لقد درسوا أجزاء من العهد القديم وكتبوا مختارة لطائفة من المؤلفين الاغريق واللاتين ومجملا من التاريخ اليونانى حتى الاسكندر ، والتاريخ الرومانى حتى أوغسطس . ولكنهم مع ماتعلموه لا يحيطون الا بأفكار غامضة عن الروابط والعلاقات التى تكون منها بناء حياة الأزمنة العتيقة أو عن الطريقة التى تألفت بها مدنياتها العديدة لتؤثر فى عالم العصور الوسطى والحديثة . يا لهم من قلة أولئك ، حتى بين من تخرجوا فى الآداب فى جامعاتنا ، الذين يمكنهم أن يذكروا ، فى حدود قرن ، تواريخ قسطنطين وأوغسطين وجوستينيان ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وشارل الأعظم ، أو يدلوا ببيان فطن عن أهميتهم التاريخية ! ويا لهم من قلة أولئك الذين لديهم حتى مجرد فكرة مبهمه عن أثر امبراطورية الاسكندر فى حياة المسيحية الباكرة أو عن مكانة القسطنطينية فى تاريخ العالم ! ومرة أخرى يا لهم من قلة أولئك الذين واتاهم العلم بأن عاموس وهوشع قاما بدور ، خالد فى الأذهان ، فى تقدم البشرية الدينى كالدور الذى قام به كبرنيكس (Copernicus) وجليليو (Galilio) فى حياة العلم الحديث ! ان دراسة الأزمنة القديمة لاتزال محدودة لدرجة كبيرة ، فى غرف محكمة الغلق .

ان دراسات فى التاريخ العام يجب ، بكل تأكيد ، أن تكون جزءا من المنهج العادى فى كلياتنا ومدارسنا ^(١) .

وما هو حقيقة واقعة من أن العصر الحاضر هو عصر تخصص تاريخى ، هو سبب آخر فى أن كتابا من هذا النوع يجب أن يؤدى خدمة • ان تقدم المعرفة التاريخية يجرى فى الاصل ، بالعمل فى اتجاهين : عن طريق البحوث الدقيقة فى مناطق التخصص العالى ، التى تشتمل عليها المجلات الدورية التى يكتبها العلماء ، والمطبوعات التى تعتمد اعتمادا مباشرا على هذه البحوث والتى يكون لها مجال اوسع وتعالج حقبا عديدة من التاريخ ومظاهره • وتقع هذه المهام على عواتق المهرة المتمرنين الذين تكون كتاباتهم موجهة الى الباحثين المعترف بهم وليس للقارىء العام • ولكن يوجد خطر حقيقى فى الوقت الحاضر ، ليس فى التاريخ وحسب ولكن فى جميع فروع المعرفة ، فى الانفصال بين علم الاختصاصى وعقل الجمهور الذى لا يسير على النهج العلمى • والتاريخ نفسه يستطيع أن يعلمنا أنه اذا بقى هذا الانفصام دون التثام ، فان النتيجة ستكون وخيمة • وكان الأمر كذلك - على سبيل المثال - فيما نجم عن احتكار رجال الدين للعلوم اللاهوتية فى العصر الذى سبق عصر الاصلاح • وفى هذه البلاد ، على أية حال ، جهد التفكير العلمى والفلسفى على الدوام فى أن يكون على اتصال بتفكير العالم الاوسع • وكلما سارت المعرفة الى تخصص أعظم والجمهور القارىء الى ديمقراطية أعظم ، يجب ألا يسمح لهذا التقليد الكريم بالتوقف •

وقد حاولت ، وهذه المطالب لا تغيب عن بالى ، بأن أورد الى الافهام التواصل الى للتاريخ القديم • وأحسست أنه يكون من المجدى عرض سلسلة التقدم بأجمعها ، مع قصور هذا عن الكمال ، فى نظرة واحدة • ان تاريخ الازمنة القديمة ليس مجرد حاصل مجموع حقب وشعوب ولكنه كل يشتمل على أجزاء توثقت عراها فى تلاحم داخلى ، وعندما تدرس الأجزاء منعزلة ، يكون من شأن الوحدة أن تتوارى عن الادراك •

Dann hat er die Teill in seiner hans.

Fehlt leider nur das geistige Band.

عندما يكون الجزء فى يده

ينقص السفر الروحى وحسب

ولقد اعتبرت لفظة (تاريخ) فى شىء من معناه الواسع الذى كان يحمله

(١) ستأتى مثل هذه الدراسات بأعظم نفع على طلاب الجامعات فى العلوم وعلى الكليات بخلاف كلية الآداب •

لأول واضعيه ، الاغريق ، أى كامل سجل حياة الانسان بالنسبة الى العالم الذى يحيط به وأنه يشمل التفسير وكذلك الوصف القصصى^(١) واستدعت محاولة الالمام بمثل هذا النطاق الواسع التكثيف والاستبعاد جميعا ، ويقلب أن تذكر الآراء العامة دون الدلائل التى تدعمها . إذ أن وفرة التفاصيل يكون من شأنها أن تربك عقل القارىء . وإذا كانت الأمثلة قد استمدت من قادة الشخصيات وليس من مستويات الأعمال الوسيطة فإن الهدف لم يكن وضع مجمل لحياة الشعوب القديمة فى مدارها كله ولكن لتبيان تراثهم للعالم الحديث . ولا يوجد فى أى جزء من الكتاب معرفة سابقة بالوقائع ، سبق افتراضها . لقد وضع بحيث يترك القارىء غير راض وبحيث يوحى اليه بالرغبة فى دراسة مدنيات العبريين واليونان وروما ، دراسة أكثر استيفاء بمعاونة المصادر الأصلية .

أمران أهملتا يحتاجان لشرح موجز :

١ - فى معالجة التراث الهليني ، لم أشر الى الفن والفنار الالماما ولو أنهما مظهرتا الهلينية اللذان لهما أحسن وقع مباشر لدى جمهور القراء ، ولكنى أعترف بعدم ثقة عميقة فى حديث عن الفن والفنار يوجه الى أولئك الذين ليس لهم علم بأصولهما . ان نماذج الأدب الاغريقى العليا ، فى متناول الجميع ، فى الترجمات الانجليزية . فليبدأ القارىء بها . أما فيما يتعلق بالفن الاغريقى فعليه أن يزور غرفة الجن (Elgin) وابهاء العرض فى متحفنا القومى . وعلى هذا ، فقد اقتصرت على تقديم الكثير من الشرح التمهيدى الذى يمكن أن يبين الأوضاع التاريخية والعقلية التى أنتج الشعراء والفنانون الاغريق فى غمرتها ، عملهم .

٢ - فى الفصل التاسع ، عن المسيحية ، قد يظهر أن تركيزا فى غير موضعه ، أضيف الى تاريخ الكنيسة التأسيسى والى تطور العقيدة اللاهوتية . ولقد ذكرت فى صراحة أن هذين الأمرين لم يكونا الا المظاهر الخارجية للحياة الروحية الداخلية ، وهما اللذان أوحيا بالمجتمع المسيحى . ولكنى لم أقل الا القليل أو لم أقل شيئا عن طبيعة ذلك المبدأ الداخلى أو مصدره فى شخصية وتعليم يسوع الناصرى . ان المهمة تتطلب مؤهلات ، ليس فقط فى سعة التفقه ولكن فى البصر الدينى ، ولست أستطيع أن أدعى أنى أملكها . وبينما أؤكد اعتقادى بأن تاريخ المسيحية يمكن فقط الرجوع بسببه الى

(١) راجع قول يوريبيدس الرائع (fr 902, Dindorf) « سعيد ذاك الذى تمكن من تعليم التاريخ (historia) . . . ساعيا الى مشاهدة النظام الذى لا عمر له (Kosmos) والطبيعة التى لا تموت (physis) وطريقة تكوينها ومن أى مكان نشأت وكيف نهضت » . عن معنى (physis) للاغريق ، راجع ما سيجىء فى الفصل الرابع القسم الخامس .

شخصية مؤسسها الفريدة فقد حصرت الانتباه في أصولها في اليهودية واتصالاتها بروما والهلينية .

ان الغرض من التذكرات يعود بعضه الى الرغبة في ذكر المراجع لمثل هذه المصادر التي توجد في يسر في الترجمات ، ومثال ذلك ، العهدان القديم والجديد ، وأشهر ما عرف لدينا من المؤلفين الاغريق واللاتين ، وبعضها لتحديد العبارات التي تتطلب الحال استيعابها في تحفظ والبعض لاقتراح نظائر ، أقرب الى الاستدلال ، للتطورات والمشاكل الحديثة . وليست قائمة الكتب الملحقه شاملة ، انها مجرد مختارات ، لهذه المناسبة ، لتوايف انجليزية جيدة للهداية الى مزيد من الدراسة .

وانى أرغب في التعبير عن شكرى لجميع من عاونونى في اعداد هذا الكتاب . وانى مدين بصفة خاصة الى زميلى الاستاذ ف.ن.يور (P.N. Ure) الذى قرأ وعلق على مسودة الكتاب، والسيد فرنون رندال (Vernon Rendall) الذى لم يقدم الى فقط خدمة مشابهة ولكن وضع فى سخاء ، تحت تصرفى علمه الواسع بالأدبين الكلاسيكى والحديث ، والى زوجتى التى كان فى مساعدتها ونقدها من البداية الى النهاية أعظم تشجيع لى .

اشمور ، أغسطس ، ١٩٢٣

و . ج . دى ب .

تذكرة

لقد أكمل زوجى اعداد هذه الطبعة الجديدة من (تراث العالم القديم) قبل وفاته فى أغسطس عام ١٩٤٣ ، بزمان وجيز . وقد سجل أنه يرغب تقديم الشكر الى محرر (أعمال الجمعية الارستطالية) (Aristotelian Society's Proceedings) ومحرر صحيفة هبرت (Hibbert Journal) للاذن بطبع مواد ظهرت فى مطبوعاتهما . وكذلك كان يريد أن يقول انه عند مراجعة الفصول الأولى ، تلقى مساعدة عظيمة من سر جون ميرز (Sir John Myres) وفى الفصل الثالث لقي عوناً من دكتور هويلر روبنسن (Dr. Wheeler Robinson) . وبينما هو المسئول دون سواء عما طبع ، فانه كان يشعر أنه مدين ديناً عظيماً جداً لاهتمامهما الرفيق ومعاونتهما . وكان أيضاً يرغب فى الاعتراف بتقدير اقتراحات سر ريتشارد ليفنجستون (Sir Richard Livingstone) ، رئيس المجموعة ، والاستاذ فورددايس (Prof. Fordyce) من جلاسجو والاستاذ نوكس (prof. Knox) من سانت اندروز ، وأن يعبر عن دينه الى مراجعى الطبعة الأولى والى مراسليه عنها وعلى الأخص المغفور لهما الاستاذ اى . تيلور (A.E. Taylor) والراعى ف . هـ . وكستيد (Rev. P.H. Wicksteed) . وقد شعر بالتشجيع عند القيام باعداد اعادة طبع هذا الكتاب لعلمه أنه لقي تقديراً وتقريظاً من رجال لا يمكن انكار ما لحكمهم من شأن وخاصة جون بورنت (John Burnet) وصموئيل الكسندر (Samuel Alexander) والاستاذ تيلور (Prof. Taylor)

ويلاحظ أنه علاوة على تغييرات صغيرة متنوعة فى النص وادخال مواد جديدة فى شتى المواضع ، فانه يوجد ثلاثة ملاحق فى خاتمة هذه الطبعة الجديدة الغرض منها تعزيز أدلة ونتائج الكتاب .

ريدنج ، يناير ، ١٩٤٧

ي . دى ب .

تراث العالم القديم

الفصل الأول

مقدمة :

١ - بين شعوب العالم القديم ، ثلاثة خلفوا تراثا هو قوة حية فى الزمن الحاضر . أولئك هم العبرانيون والاعريق والرومان ومبتكرات عبقريتهم : نبوة العبريين ، وفلسفة اليونان وشعرهم ونحتهم ، والقانون والتنظيم السياسى لروما ، وكلها تكون تراثا فيه وحى دائم للانسانية . ولقد اضطلعوا بسهم لا يعزب عن البال فى تكييف مدنية ما ترادف من زمن . ولفظ « مدنية » كالألفاظ كثيرة تدور على الألسن من العسير تحديده ، ويوحى آنا بمعنى أوسع وآنا آخر بمعنى أكثر حصرا . وتعريف رسمى كالذى يتلاءم فى مستهل عجلة حسابية علمية ، اذا كان ليؤدى خدمة فى كتاب كهذا ، يجب ألا يجيء فى البداية ولكن فى الختام ، عندما يكون القارئ قد ألم بمختلف أنواع المدنية فى مدارجها المتباينة ، فى النمو والازدهار والنضوج والانحلال ويكون قد عرف أن عملا ثقافيا جليلا لن يفنى أبدا ، ولكنه يحمل ، حتى فى تفككه الظاهرى ، ما يكون فى الغالب أطيّب ثماره فى بعث الحياة فيما يعقبه « ان ما تبذره لا ينشط الا اذا مات » ، وهذه الكلمات تصدق على الشعوب وعصور الثقافة كما تصدق على الأفراد ، وهكذا انحطت الامبراطورية الرومانية ولكن لم تسقط كما سقطت الهلينية ومسيحية القرون الوسطى ، وانها لباقية فى حيوية تتجدد أبدا فى مدنية العالم الحديث .

وفى هذه الصفحات نعى بلفظ مدنية نوع الحياة الذى أبرزته السلالات العليا فى مختلف حقبة تاريخها . انها تحيط بعالم من المثل العليا وعالم من الحقائق المنجزة . انها تشمل مجموعة باتمها من العادات الاجتماعية والقانون الموضوع والنظم الدينية والخلقية والسياسية ، والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب والفلسفة التى تمثل ما تجمع من جهود شعب . ولكنها تشتمل على أكثر من هذا . ان الانسان حيوان يصور المثل العليا ويحفزه فى كل مرحلة من مراحل تدرجه نحو الرقى مطامح تسمو على المستوى الذى وصل اليه فعلا . ومدنية فى أية حقبة بعينها تشمل أيضا عالم قيمه الدينية والخلقية والاقتصادية ونظراته العقلية للحياة ومعتقداته الشخصية فيما يتعلق بوظيفته ومصيره ومعايره فى الصلاح الخلقى وفى خير المجتمع .

واننا فى ضوء مثل هذه المثل العليا التى تجدد تصورنا للتقدم الانسانى. نفرق بين المدنية والهمجية ^(١) . واذا طبقنا هذا التفريق على تاريخ الأزمنة القديمة ، نجد أنه قبل أن ينهض أسلافنا الكلتيون والالمانيون والاسكندناويون من غمرات الهمجية بآمد طويل ، كانت هذه السلالات الثلاث التى سلف ذكرها قد ظفرت بمستوى رفيع من المدنية . ولقد تاح لها ، عندما حانت ساعة الاتصال ، ان تؤثر تأثيرا عميقا فى الشعوب الاقل ثقافة التى أصبحت فى مكان القيادة من أمم عصرنا الحاضر . وعلى سبيل المثال ، عندما قبل أجلاف الهمج ، المسيحية ، فانهم تقبلوا أيضا معها تراث تقاليد العبريين الدينية والخلقية والفلسفة الاغريقية والمذهب الرومانى التشريعى والسياسى . وهدف هذا الكتاب هو تتبع قصة هذا الارث ، وسنبدا بإشارة موجزة الى الخدمة الخاصة التى قدمها كل من هؤلاء الشعوب الثلاثة لمدنية العالم الحديث .

٢ - العبرانيون : ان الدين الذى تحمله مدنيتنا الحديثة للعبرانيين يقع بكليته تقريبا فى مجال الدين . وشعرهم ، وهو أصدق مرشد الى أفكار ومشاعر شعب ، هو فى جوهره شعر دينى . وقيمته ليست فى أسلوبه الأدبى او البرهان النظرى أكثر منها فى البصر الروحى العميق الذى يعبر عنه . ولم يكن للسلالة العبرية الا شأن يسير فى الحرب أو السياسة فيما عدا فترة قصيرة وجيزة فى عهد الملك داود وعلى هذا فان ما حققه من عمل دنيوى جليل يمكن أن يمر دون أن يسترعى النظر تقريبا ، فى تاريخ العالم . انها العبرية الروحية لانبيا مثل عاموس وهوشع فى اسرائيل واشعيا فى يهوذا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، هى التى كانت أول ما أحال عقيدة قبلية مقصورة الى دين ذى معنى عام للعالم . ولم يعد يظهر يهو بعد كاله قبل غيور يقود شعبه الى النصر على آلهة أعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم الهى للكون يوقع القصاص على العبريين عن طريق أعدائهم لما يقتربون من خطيئة ، والذى كان يريد رحمة لا ذبيحة ويدعو لعبادته ليس بالهبة الشخصية ، ولكن بالمعاملة البارة بين الانسان والانسان . وهذا التحول فى الدين العبرى ، عاون فى الحق ، على حطم وحدة الدولة العبرية السياسية . ولكن البذرة التى بذرها الانبياء الأوائل نضجت خلال التجربة المريرة من المذلة القومية والاضر ، الى دين خالص النقاوة . وهو الذى ، فى الحين المناسب ، أنجب العقيدة التى غزت العالم المتمدين ، وكان العبرانيون أول شعب من الشعوب التى عرفها التاريخ ، وصل الى الاعتقاد بآله واحد خالق وحاكم الكون وأبى البشر أجمعين .

والمسيح الذى ولد من أم عبرية ، وكانت تنشئته على المحافظة الدقيقة للناموس العبرى أتى لا لينقض ذلك الناموس بل ليكمله . وأثر اليونان

(١) انظر السفر الثانى ملحق ١ .

وروما على نمو المسيحية - الذى سنتحدث عنه فيما بعد فى هذا الكتاب -
حجب ، ولكن لم يمح أبدا طابع أصله العبرى . وحسبنا أن نذكر الطهرين
(Puritans) فى القرن السابع عشر لنذكر العمق الذى استغرقت فيه
الروح العبرية المسيحية الحديثة .

٣ - الاغريق : انه أكثر عسرا أن نعبر فى كلمات قليلة عن عمل الاغريق
أو الهلنيين كما نعتوا أنفسهم فى التاريخ . لقد أثروا فى الديانة الحديثة
عن طريق فلسفتهم أكثر مما أثروا فيها عن طريق دينهم . ولقد صورت آلهة
الاولمب (Olympian) فى شبه الناس ولهم عواطف البشر ومصالحهم ، ولو
أنهم أعظم صولة وأوفر جمالا وأكثر غيرة وأشد تدلها فى الحب ، ولو أنهم
كانوا خالدين ويستمتعون بحياة أكثر خصبا من حياة الآدميين ، فانه فى
جميع الامور الجوهرية كانوا يشعرون ويفعلون كما كان يشعر ويفعل الرجال
والنساء من الاغريق . وسنرى كيف جهد الفلاسفة فى أن يجعلوا من العقائد
النسبية عقائد روحية ، وكيف أنه نتج عن هذا الجهد انفصام بين النتائج
العقلية التى وصلت اليها القلة وبين معتقدات الكثرة الدينية .

ولقد أوجد دين الاغريق فى جميع الاثمنة حقلا يانعا للفن والشعر مما لاتزال
فصصه بهجة للخيال . ولكن لم يكن ليستطيع أن يرضى المطامح العقلية
أو الخلقية التى تجيش فى جيل أكثر امعانا فى التفكير . هذا الى أن ما ندين
به للاغريق يشمل نطاق الثقافة الدنيوية بأجمعه .

ففى الفلسفة والعلم وفى الفن والأدب حققت العبقريّة الاغريقية نتائج هى
فى مداها وقدرها منقطعة النظير فى تاريخ البشر .

« ان الفترة التى وقعت بين ميلاد بركليس (Pericles) وموت أرسطو ، أى
القرنين الخامس والرابع ق م . فى تاريخ الاغريق هى دون ريب ، اذا اعتبرت
لذاتها أو بالاشارة الى ما كان لها من نتائج على أقادر الانسان المتمدين
اللاحقة ، أكثر الفترات رسوخا فى الأذهان ، فى تاريخ العالم » . هكذا كتب
شلى ، والمفكرون والشعراء قاطبة ، شهود على صدق قوله . والحرية والفردية
موجودتان فى كل مكان فى حياة قدامى الاغريق ، وأعظم ما يؤثر فى روعنا
هو نشاطهم العجيب . وتاريخهم بأجمعه سجل للتجربة الجريئة فى الفكر
والمراس ، ولقد كان يحدوهم الشوق والشجاعة جميعا فى البحث العقلى
وتغمرهم البهجة بالحياة والعمل . وعبقريتهم العقلية كانت أصل نبع الفلسفة
والعلم ، وعبقريتهم العملية ، وجدت مخلصا لها فى النشاط السياسى وفى
الحرب والتجارة ، وفيما ابتكروا من أدب وفن . وكل أنواع الشعر والتفكير
تقريبا ترجع فى نشأتها الى الاغريق وقد ساروا بها فى طريق الكمال .
ومثلهم الأعلى كان شخصية موهوبة منسجمة يسيطر عليها مبدأ داخلى
وعقل ، ونشاط ليس جامحا ولا ضابط له ولكن تتحكم فيه المعرفة بالذات
تراث العالم القديم

والحكم الجلى . ولا توجد سلالة تعدلها فى التحرر من النزوع الى عالم أفضل أو جهدت فى ادماج أهداف وقيم يمثل هذا السموول فى أحوال الاختبار الانسانى ، الراهنة . وبمقاومة كل نزوع الى المستحيل ووطنوا أنفسهم فى عزيمة ، على فهم طبيعة الانسان والعالم الذى يعيش فيه ، وبفهم واضح لحقائق الأشياء ، على استخدام العالم كحقل لتحقيق مثلم العليا فى الحياة .

وهو اهب السلالة التى اختصت بهم حملت معها لعنتها ، ان الفردية والحربة اللتين جعلتا للاغريق المكانة العليا فى الفن والعلم نجم عنهما دمار استقلالهم السياسى . انه حق كما سنرى فيما بعد ، أن الثقافة الاغريقية وجدت دافعها ومجالها فى جو النقاش المتحرر الذى كان سائدا فى دولة - المدينة وأن العبقرية الاغريقية تجلت فى نظريتهم السياسية وفى مراسهم السياسى على السواء . ولكن يوجد جانب آخر للصورة . ان الحياة السياسية فى مدن الاغريق تعرض مشهدا مظلما للمطمح القلق والتحاسد الشخصى والتشيع الحزبى والعزوف عن توثيق العرى الاتحادى ، والثورة المستمرة والتشاحن المدنى . ولقد كان انعدام الوحدة القومية ذاك ، هو الذى ترك اليونان فريسة سهلة لاعدائها، أولا للملوك المقدونيين وبعد ذلك للجمهورية الرومانية .

ولكن الروح الاغريقية استوفت جزاءها ، وكما فى عهد الاسكندر أثرت فى ثقافة الشرق فان الغزاة الرومان ، بعد ذلك تشبعوا بها وعن طريق روما صاغت فكر العالم الحديث وثقافته .

٤ - الرومان : كانت روما حكومة الازمنة القديمة ، القيصرية ، وكان الرومان بناء الامبراطورية العظام ، فى تاريخ العالم . وكان دينهم خاضعا خضوعا تاما للسلطة السياسية . ونورد مثلا يساعد على تفهم هذا .

لقد جازف قيصر - وهو المتشكك الصريح ، ولم تكن حياته الخاصة على اليقين ، فوق مستوى الشبهة ، جازف قيصر بكل شىء ، فى ظرف حاسم - بحياته العملية عند انتخابه كاهنا أعلى ، انها كانت مجرد خطوة فى سلم المطمح السياسى .

ان تأثير روما على المسيحية يتجلى فى أعظم وضوح فى مجال التنظيم الكهنوتى . والرومان بطبعه كان لديه اليسير من التقدير للفن أو العلم ، وفى الزمان الأول كان يعتبر الشاعر متشردا والفلسفة خطرا على الأخلاق . وعلى النقيض من هذا كثيرا كانت حال الاغريق فى شعر هومر (Homer) وعندهم كان الآلهة هم الذين حرّموا الشاعر الضريع من البصر ولكن بديلا عنه منحوه القدرة على الصدى بالاغنية الربانية . ولقد أتى الواقع للشاعر والفن الى روما من الاغريق ، ولو أنه بمجرد أن تلقن الرومان درسهم عبروا عن روحهم القومية ، دون محاكاة وضيفة ، فى شعر لا يأتى عليه الفناء .

ولقد علم شعراؤهم الموطن الذى تسنقر فيه عبقرية سلالتهم الحقّة وتعرفوه .
« قد يشكل غيرنا فى خطوط أكثر رقة البرنز الذى يزفر بالنفس - نعم ،
ويعملون على إبراز القسمات الحية ، من الرخام وقد يكونون أكثر اجادة فى
الجدل دفاعا عن قضاياهم القانونية ويتتبعون حركات السموات ومطلع
النجوم - ليكن قصارك يا ابن روما أن تحكم الأُمم : ستكون هذه فتونك أن
تفرض عادة السلم وأن تعفو عن المهزوم وتحطم المتعالي بالسيف »^(١) ،
وكجميع بناء الامبراطورية الذين قاوم عملهم ضغط الزمن لم يكن عند
الرومان تعطش جامح للغزو . لم يكونوا سلالة محاربين أكثر مما كانوا
شارعين واداريين . ولقد كانت رسالتهم الخاصة وضع قانون السلم ، سلم
روما (Pax Romana) وكبح الفوضى وعدم النظام ، حول أملاكهم التى
تتطرد رقعتها فى الازدياد . ولما كانوا بجانب الاغريق أطفالا فى الثقافة
وفيهم نزعة ظاهرة من التجرد عن الانسانية وغلظة فى طبيعتهم فان الرومان
كانوا أقوياء حيث كان الاغريق ضعافا فى توثيق عرى السلالة والاتحاد
السياسى وفى اخضاع الفردية لخدمة الدولة . وكانت الفضيلة التى يتجمل
بها المواطن الرومانى هى أن يفعل فى روما ، كما تفعل روما . ان تاريخ
الاغريق تاريخ مدن وأفراد، وتاريخ روما هو تاريخ شعب . ولما لم تكن تتحكم
فى الرومان سياسة مدبرة للغزو وانما كان الحكم لمنطق الواقع الصارم فان
أقدار الشعب الرومانى أدت بهم الى أن يضموا فى نطاق امبراطوريتهم العالم
المتمددين بأجمعه كما كان فى زمن ميلاد المسيح .

ان جمع الرومان شعوب ومدنيات الازمنة القديمة فى منظمة واسعة موحدة،
والقيام بحراسة البحر المتوسط وفرض السلام على عالم يسوده عدم النظام
وتسليم برابرة شمال وغرب أوروبا ثقافة الماضى ، وقد هذبتها عبقريتهم
الخاصة فى القانون والحكومة ، ان كل أولئك كانت مهام روما ومصيرها .
وبها سار المثل « كل الطرق تؤدى الى روما » وكما كانت الطرق العسكرية
العظيمة التى أنشأها الرومان تتشعب من روما وتجتاح الامبراطورية فان
تيارات التاريخ القديم والحديث على السواء تجد نقطة تجمعها فى روما وتدين
أهم العالم الحديث بجانب عظيم من شرائعها ولغاتها ونظمها الى عبقرية روما
القيصرية .

٥ - ان هذه الشعوب الثلاثة بأجمعها كان موطنها شواطئ البحر
المتوسط . ولقد كان البحر المتوسط وأراضيه الساحلية عالمهم . ولما كنا قد
تدربنا منذ الطفولة على أن يتجه تفكيرنا الى نصفى الكرة الأرضية بما فيها
من قارات ومحيطات فمن العمير أن نقدر زمنا كان يعنى فيه العالم مجرد

حلقة ضيقة من الأقطار تتجمع حول بحر داخلي ، وإلى ما يوالى هذه الأراضي الساحلية في كل صوب ، يوجد خواء لا حد له يكتنفه الغموض وإلى الغرب يقع المحيط الاطلنطي الذي لا يمكن اجتيازه وإلى الشمال والجنوب تقع مواطن الهمج المتوحشين الذين كانوا يهبطون بسلعهم للمقايضة مع سكان سواحل البحر المتوسط . وفقط صوب المشرق رفع الحجاب إلى البعد الذي يقوم فيه خط هضبة إيران (فارس) عالياً فوق سهول ما بين النهرين وبابل ، وداخل هذه الحدود كانت توجد مدنية .

وعلى هذا يظهر لشعوب الزمن القديم أن التفريق بين ثلاث قارات : أوروبا وأفريقيا وآسيا ، كان تفريقاً اصطناعياً لا طائل تحته ^(١) . وقبل أن يبدأ العبريون والاعريق والرومان القيام بدورهم في التاريخ ، بزمن مستطيل كان البحر المتوسط ، مكان تجمع تجارة العالم . وفي جميع العصور نمت التجارة والمدنية جنباً إلى جنب . إن الطرق التجارية وهي حلقات الاتصال الدولي ، تعاون على توزيع ، ليس مجرد المحاصيل المادية ، ولكن أفكار وعادات الحياة أيضاً ، وعلى هذا كان تاريخ المدنية منذ بواكير الزمن المدون ، هو تاريخ منطقة البحر المتوسط ، وظلت الحال كذلك حتى أتت كشوف عظام الملاحين في ختام القرن الخامس ، ثمارها في مدنية المحيط التي نعيش اليوم بين ظهرائها ^(٢) . إن رحلات دياز (Díaz) ودي جاما (da Gama) وكولمبس (Columbus) فعلت أكثر من اظهار أسواق جدد ، ومناطق للتوسع الامبراطوري في جزر الهند والعالم الجديد . ولقد غيرت مركز الثقل في الثقافة الانسانية . ومدنية المحيط التي قامت على أسسها لم تكد تنضج بعد لوضع تاريخها .

وإذا صدق القول ان ما تفكر فيه لنكشير اليوم تفكر فيه انجلترا غداً وإذا لم تعد جزيرتنا بعد عملاً خارجياً على تخم المدنية الشمالية الغربية ، ولكنها تحتل مكاناً مركزياً في التواصل الاقتصادي والعقلي بين الأمم ، وإذا كانت حياة العالم تنبض في أصقاع لم تكن معروفة للأقدمين - في أمريكا وفي المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار - فان مرجع ذلك إلى

(١) هيرودوت : ٤ - ٤٥ : « لا أستطيع أن أفهم لماذا أطلق على الأرض وهي واحدة ثلاثة أسماء مختلفة استمدت كلها من النساء ... ولا يمكنني أن أعلم من هم الذين وضعوا الحدود أو ممن استمدوا الأسماء التي أطلقوها » .
(٢) قال دكتور جونسون (Dr. Johnson) : « إن الغرض العظيم من السفر هو مشاهدة شواطئ البحر المتوسط . وعلى تلك الشواطئ قامت أربع امبراطوريات عظيمة في العالم : الآشورية ، والفارسية ، والاعريقية ، والرومانية . وكل ديانتنا ومعظم شرائعنا ومعظم فنوننا ، وكل ما يرفعنا فوق البرابرة ، تقريباً ، وصل إلينا من شواطئ البحر المتوسط » (Boswell)

تغيرات نشأت منذ أربعة أو خمسة قرون فقط ، ونتائجها التى يتسع نطاقها من ساعة الى ساعة أمام أعيننا تصلح بالحرق لأن تكون مادة للصحفى وليس للمؤرخ . والأزمة التى أخضعت فيها الامبراطورية الرومانية فى منطقة البحر المتوسط ، العالم المتمدين بجمعه تحت سيطرتها تظهر فى الحق سحيقة فى القدم .

ولكن هكذا يترابط التاريخ خلال حقب نموه المترادفة ترابطا وثيقا ، حتى أن هذه الثورة الهامة كان الواعز لها ارث الثقافة الاغريقية الرومانية . ولا توجد فجوة لا يمكن اجتيازها فى التواصل بين مدنية المحيط فى زمننا وتلك المدنية التى صاغها منذ أكثر من عشرين قرنا خلت ، شعوب عالم البحر المتوسط .

٦ - والعبريون والاغريق والرومان ولو أنهم كانوا يسهمون فى موطن مشترك على البحر المتوسط فقد كان يفرقهم اختلاف المنشأ الذى كان الى حد بعيد السبب فى قيام صفة مميزة لحضاراتهم .

كان العبريون فرعا من الجنس السامى الذى كان موطنه بلاد العرب احدى مراضع الجنس البشرى العظيمة . وفى الفصل التالى سنقابل أما أخرى ، بابليين وأشوريين ، والقاطنين فى فينيقيا وسوريا الذين كانوا أعضاء فى الأسرة السامية عينها .

وعلى النقيض كان الاغريق والرومان ينتمون أصلا فى جميع الأحوال الى الأسرة الهندية الاوروبية التى ربما كان موطنها أرض السهوب (الاستبس) الى الشمال من القوقاز .

وفى العصور السحيقة فى القدم كانت هذه الأسرة قد انقسمت الى شعبتين عظيمتين . ولقد سارت احدهما صوب الغرب الى أوروبا ومنها لم ينشأ فقط الاغريق والايطاليون ، ولكن أيضا أسلافنا ، الكلتيون والالمان والاسكندناويون .

وأخذت الشعبة الأخرى سمتها الى الجنوب الشرقى واستقر جزء منها على هضبة ايران ونسلوا الميديين والفرس الذين جاء ذكرهم فى التاريخ القديم بينما اجتاز جزء الجبال الى وديان السند والكنج واستعمر الهند الشمالية .

وقد حدثت كل هاتيك الهجرات فى العصور البعيدة . أما الشعوب القديمة التاريخية فيندر أنهم تحرروا من تمازج الأجناس ، اذا كانوا تحرروا إطلاقا منه .

٧ - ان تباين هذه الشعوب الثلاثة فى الحياة والصفات لم يكن بالقدر الذى يمتنع فيه التوحد النهائى . والحقيقة ، بالحرق ، على النقيض من هذا .

ولقد خلقت كل منها وورثت العصور التالية ، واحدا من العناصر الجوهرية في فكرة مدنية كاملة . وكان الاغريق أول من أدرك في مذهبهم العمل ، كما في مذهبهم النظري ، قدر الحرية الفردية وأنها التربة التي يمكن فيها فقط أن يزدهر خيال الانسان وعقله ويأثيان ثمارهما . وفي مجال الفن والفلسفة تكون الروح الانسانية الشرعة لنفسها ، ولكن الانسان مطلوب منه العمل أيضا ويستبدع تحقيق أغراضه العملية ، تحقيقا فعلا ، توطئتها على حقائق طبيعة الانسان الصارمة ، ودنيا الظروف .

والتسوية يمكن انجازها فقط بمعاونة السلطة الخارجية والحكومة . وهذه الوظيفة التأديبية في تاريخ المدنية نهضت بها روما . ولكن في مجال الفكر كما في مجال العمل ، فإن مصير روح الانسان الذهاب بددا في الفوضى أو العبودية الا اذا ألهم العلم بمرماها المثالي .

« بلا رؤيا يفنى الشعب » ^(١) ، كان العبريون قد رأوا الرؤيا ونقلوها عن طريق عقيدة تأصلت جذورها في حياتهم الروحية الى شعوب الغرب الآرية . الحرية والشرعية وملكوت الله - انهن تراث العالم القديم ، تراثه الثلاثي الذي ورثه عالمنا الحديث .

٨ - ان المؤرخ الذي يرجع ببصره الى الماضي ، من مدى عشرين قرنا يجد لزاما عليه أن يجلي في صورة بارزة الأوجه الهامة المميزة لهذه المدينيات، ولكن يجب ألا يدور تفكيرنا فيها وكأنها صبت في قوالب جامدة أو أن نغالي في وضوح خطوطها ، وستبين النتيجة كيف أن حياة الشعوب ، العبرية والاعريقية والرومانية ، كحياة الأفراد الذين كانوا يكونونها ، كانت أبدا دائبة على السير وتكييف نفسها كلما نمت وتتغير من لحظة الى أخرى وفقا لمجالها الطبيعي والاجتماعي .

انه لشوط بعيد بين العبرانيين الذين تجمعوا حول ايليا على جبل كرمل والعبرانيين الذين كانوا بعد ذلك بتسعة قرون يصيرون أمام وال روماني لاطلاق سراح بارباس .

ان الفريسي في اورشليم في زمن المسيح كان يسير في عالم مغاير لذاك الذي كان يسير فيه اليهودي الذي اصطبغ بالصبغة الهلينية في الاسكندرية . ان أوجه الخلاف بين أمراء التجارة الاغريق في القرن السادس والمستمعين للقديس بولس في كورنث أو أثينا كان مردها في اتساع الهوة التي تفصل الأولين عن جوابي البحار الجامحين الذين هجروا مقابر جدودهم وآلهة أسلافهم والتمسوا مواطن جديدة في بحر ايجاء في نهاية السنوات الألف الثانية ق.م .

١٨ - ٢٩ أمثال (النسخة الانجليزية المعدلة « يجمع الشعب ») .

ان الثقافة الهلينية كانت تعنى شيئا فى سيراكوز وشيئا آخر فى مليتوس (Miletus) وروما التى عملت على تأنييس الأسباني أيام كاتو (Cato) يشق على السلاف والبلغار ، الذين عرفوا فقط الامبراطورية المسيحية والبيزنطية فى بواكير العصور الوسطى ، تعرفها كروما .

ونستطيع أن نقدر هذا التغير المستمر فى المدنية ، على أفضل وجه اذا وجهنا الفكر الى العالم كما هو اليوم . ان جميع مصادر البراعة الحديثة لتسهيل الاتصال السريع واذاعة الأفكار مثل آلة الطباعة والبخار والكهرباء والطائرة والمذياع لم تأت بجدوى فى تحطيم الحاجز التى تفصل بين معاصرين من جذع مشترك . ان فلاحا فى دورست (Dorset) وعاهل منجم فى نورثمبريا يعيشان فى عالمين غريبين . ونظرة عالم اكسفورد الى الحياة لا تشترك الا بقدر يسير مع نظرة مواطن له فى مائيتوبا أو نيوزيلند . وأكثر اتساعا الهوة التى تفصل واحدا من هؤلاء الانجليز الذين يعيشون فى القرن العشرين عن أحد أسلافه فى القرن الثالث عشر . واذا أعملنا الفكر فى التباين بين انجلترا التى نعرفها وانجلترا البلاتاجنيت (Plantagenets) فسيتاح لنا أن نتصور شيئا عن صعوبة جمع أوجه مدنية الأزمنة القديمة دائمة التغير ، فى منظر واحد .

وكذلك سنرى كلما سرنا قدما كيف اعترى التراث التحوير خلال انتقاله الى العالم الحديث . ان ثمار العبقورية العبرية والاغريقية والرومانية انصهر بعضها مع البعض الآخر ومع عناصر استمدت من مصادر تيوتونية (Teutonic) واسكندنافية ، ولقد تغير مغزاها بدخولها فى شكول من النماذج جدد .

ان الحاضر بتمثيله الماضى يضيف عليه معنى قد يكون أزخر أو أضحل من ذاك الذى كان يحمله مرة ، ولكنه أبدا جديد . ان اوضح شرح لهذا تقدمه اللغة .

لا حاجة للانسان أن يكون ماهرا فى فقه اللغة ليتعرف أصل الكثير من مفردات اللغة الانجليزية . ان بعضها مثل (Law, order, state, colony, responsibility, person) من الواضح أنها استمدت من اللاتينية وأخرى مثل (dogma, atom, history, biology, logic) من الاغريقية وغيرهما مثل : (friend, body, king, God) تنم عن أسلاف لهن اسكندناوى أو ألماني .

ولقد تحورت أشكال هذه الكلمات فى أثناء ورودها فان لفظ (lex) أصبح (law) ولفظ (atomon) أصبح (atom) .

وفى بعض الحالات نجد التغير أكثر أن يكون أساسيا ويتطلب الأمر شيئا من المراس ليستبين المرء اللفظ اللاتينى (metipsimum) من اللفظ الفرنسى الحديث المشتق منه (même) .

وما يصدق على الصيغ اللفظية يصدق أيضا على معانيها . وتبين أمثلتنا كيف أن الالفاظ التي تدل على أفكار قانونية أو سياسية كان توارثها في الغالب عن الرومان الذين كانوا أساتذة العالم في هذين المجالين بينما تميل المصطلحات العلمية الى الاحتفاظ بلغة المبتكرين للعلم ، اليونانيين القدماء . ومع هذا فانه على الرغم من هذا التسلسل الذي لا تشوبه شائبة فان ألفاظا مثل (law - responsibility) تحمل لنا في مضمونها معنى مستمدا ليس فقط أو أصلا من تجارب شارعى الرومان ولكن من تجارب الأجيال التي ورثت تراثهم وزادته غنى خلال الفين من السنين .

ان المؤرخ وعالم الطبيعة في القرن العشرين يختلفان اختلافا عظيما عن هيرودوت (Herodotus) ودموقريطس (Democritus) في تصور لفظي (history, atom)

وما قلناه عن اللغة ينطبق على كل مظهر من مظاهر المدنية والماضى في تحوله الى الحاضر يغير صفته كماض ويموت ، كما تموت العنقاء^(١) ليعود مولده في شكل جديد .

٩ - وهذه العملية من التواصل بين تغير لا ينقطع من العسير كشف القناع عنها . ويمكن معالجة الأمر بوسيلتين مختلفتين ، يمكننا أن نعتبر مدنية اليوم نقطة بداية ، ونفقل راجعين الى الوراء خطوة خطوة ، الى مصادرها في الماضي . أو يمكننا أن نبدأ من البداية بسلاسل العالم القديم ونقتفى المؤثرات على الأجيال اللاحقة الى أن نصل الى أكناف التاريخ الحديث . والمنهج الأخير هو الذي ننوي تتبعه ، ومعالجته مع هذا ستكون خاضعة الى شرطين . ففي المكان الأول ، يجب أن نختار من المواد الموجودة بوفرة تلك المظاهر في حياة العبريين والاغريق والرومان التي أثرت على الحقب التالية أعظم تأثير . ويوجد دائما الخطر في أن نحسب الجزء كلا ونخال أن الأشجار هي الغابة .

وعلى هذا فسنركز الانتباه على ديانة العبريين وعلى علم الاغريق وفلسفتهم وعلى رسالة روما التي كانت الوسيط في مرحلة الانتقال من المدنية القديمة الى مدنية القرون الوسطى ، بعد أن نلمس لمسا خفيفا مظاهر تاريخهم الأخرى مهما بلغ من عظم أهميتها الجوهرية . والشرط الثاني يشير الى السلاسل الأخرى التي عمرت العالم القديم . ويمكننا أن نضع فارقا بينها من ثلاث شعاب ، فتوجد :

١ - سلاسل كالسكان البدائيين في جزء عظيم من أفريقيا الذين لم ينجحوا أبدا في الخروج من حالة الهمجية . وهي موضع اهتمام بالغ عند عالم الانثروبولوجيا (علم الانسان) والباحث في العادات الاجتماعية والدينية

(١) عنقاء مغرب أو فينقس . (Phoenix) (المترجم)

البدايتين ، ولم تترك أية علامات مميزة في مدنية الأزمنة القديمة العليا ، وعلى هذا فلا تدعو الحال الى التنويه عنها في هذا الكتاب . ويصدق هذا على : -

٢ - الشعوب المتمدينة في الشرق الأقصى ، وفي الهند والصين واليابان ولقد نحتها الحواجز الجغرافية تنحية تكاد تكون تامة ، عن الاتصال الفعلي بثقافة منطقة البحر المتوسط ^(١) والآن عندما توطد الاتصال بفتح طرق المحيطات العامة ويسرته الطائرة واللاسلكي ، فان فن الصين واليابان والفكر الديني لدى الشعوب الهندية ، العليا ، يثيران اهتماما متزايدا بين الأوربيين وقد يكون لدى المؤرخ ، بعد خمسة قرون من الآن الكثير مما يقوله عن نتائج هذا الاتصال في الشرق والغرب جميعا ولكنها الى الآن لاتزال محجوبة عن أعيننا . ان منح الحكم الذاتي ، مع نمو التجارة والتصنيع سيكون مآلهما ان يصبحا مؤثرات انفصال ، في النظرة التقليدية للحياة بين شعوب الهند ، وهذا ليس في مجال الاقتصاديات والسياسة وحسب ، وما اذا كان تعرف ارثهم الديني والمتافيزيقي عن قرب سيكون ذا أثر على مدنيتهما الغربية الى مدى مماثل فان هذا الأمر متنازع فيه كثيرا . ان الانفصام بين عقل الغرب وعقل الشرق بعيد الغور جدا . ان الغرب يسلم بالكثير مما يكون غريبا او حتى قد يكون معاديا للفكر الهندي الذي يجد نفسه وقد جابهته عوائق لا يكاد يمكن اجتيازها ، أمام نفاهم متبادل .

وأحد الأسباب هو أن مفكري الهند لم يهتموا اهتماما جديا بالزمن والعملية الزمنية التي تكون مادة التاريخ ظهرت لهم أنها أكثر قليلا من خدعة مايا (Maya) تحجب حقيقة المطلق التي لا تتغير . وهذا هو السبب في أن الهند التي انجبت عظماء الفلاسفة والمتألهين الدينيين لم تخرج أي مؤرخ ^(٢)

(١) والاستثناء الظاهر لهذه العبارة العامة جدا هو غزو الاسكندر الأكبر للبنجاب ، ولهذا فان ما توطد من اتصال بين الغرب والهند ، كان قصير الأمد وذكراه باقية للتأثير الاغريقي على الهند أكثر منه لتأثير الهند على الاغريق . ولقد استمرت التجارة على طرق القوافل البرية من الشرق الأقصى طوال الأزمنة القديمة ولكن آثارها على المدنية الغربية كانت ثانوية وغير مباشرة . كذلك لم ينجم عن غزوات التتار للغرب في الأزمنة التي وقعت بعد قيام المسيحية ومن الهون في القرن الخامس وما بعده أي شيء ايجابي للثقافة الغربية .

(٢) في أيامنا أخرجت الهند رامانوجان (Ramanujan) عالم الرياضيات العبقري ، ولكن الرياضيات كعلم ما وراء الطبيعة (المتافيزيقيا) لا شأن لها بسمير الأحداث الزمنية . حتى مؤرخو العصر الحديث للفلسفة الهندية مثل (رادهاكرشنان Radhakrishnan) وداسجوبتا (Dasgupta) بينما واتاهم النجاح في عرض المذاهب العديدة فانهم يعجزون عن استعراض تتابعها التاريخي في نشأة الواحد عن الآخر في ترتيب النمو الطبيعي .

وكذلك يظهر أن القادة السياسيين الهنود يجدون صعوبة في ادراك ما يكون لدى العقل الغربى شىء عادى ، وهو أن الحكومة الذاتية يكون لها نفع دائم اذا وصل الى تحقيقها كثمرة عملية نسقية تدرجية للتعليم السياسى واذا ، كما تعترف جميع الجهات ، كانت صالحة ، وعلى هذا مرغوبا فيها ، فما السبب في تأجيل اقامتها ؟ لماذا لا ننجز العمل الصالح على التو بجرة قلم ؟

وعقل الغرب على التقيض ، بكل ايضانه بحقيقة خالدة لعالم افضل - لم ينكر الا فيما ندر - وجود قدر من الواقعية الصادقة للعملية النسقية الزمنية^(١) . ويوجد انقسام آخر يدعو للانتباه . ان عقيدة بقدر الشخصية الانسانية ، الذى لا يمضى متصلة الجذور تأصلا عميقا فى العقل الغربى الذى يكاد لم تمسه الرغبة للاستغراق فى المطلق تلك الرغبة التى استولت على قلوب الحكماء الهنود .

هنا يوجد الاختلاف الاصلى بين التأله المسيحى والتأله الهندوسى^(٢) وهذه التماثلات تؤدى الى الراى أنه اذا كان قدر للحواجز الروحية التى تفصل الثقافتين الغربية والهندية أن تحطم فانما يكون ذلك بذىوع الدراسات التاريخية والمسيحية فى الهند . ومهما يكن من امر هذا ، فان مستقبل الشعب الهندى كمستقبل الشعوب الشرقية الأخرى يقع خارج نطاق هذا السفر . والحال غير ذلك بفريق ثالث هو المدينيات التى قامت فى الأزمنة القديمة جدا على شواطئ نهريين عظيمين النيل والفرات وفى جزيرة كريت وهى تسترعى انتباهنا ليس فقط لقيمة ثقافتها الجوهريّة ولكن لأنها قدمت السوابق التاريخية لقصة العبريين والاغريق وروما .

انها جزء من حياة عالم البحر المتوسط . وهذا جلى فى حالة كريت . ولكن مدينة مصر انتقلت بفعل ثقلها صوب الشمال الى شواطئ الدلتا . بينما كانت تمتد مدينة سهل بابل أبدا صوب الغرب الى بحر ايجة والمشرق .

(١) فمثلا اسبينوزا (Spinoza) الذى كان يذهب الى أن الزمن هو نتاج تفكير من درجة دنيا (Auxilium imaginationis) لم يناقش أبدا واقعية الحوادث الزمنية . لقد أنكر ببساطة انها ، كزمنية ، كانت حقيقة على الوجه الاتم . لقد علق الفكر المسيحى دائما أهمية عظيمة على العالم الزمنى المكاني (Spatis temporal) كمشهد لفترة اختبار الانسان ، ووظيفته هى أن يجوس خلال الأشياء الزمنية بحيث لا يخسر نهائيا الأشياء الأزلية . وهذا يحمل فى معناه أن الأشياء الزمنية ليست الا خدعة .

(٢) يطمح المتألهون المسيحيون الى الاتصال الروحى المباشر وليس بامتزاج الذات مع الله .

انه حق أن تأثيرها على العصور التالية كان تأثيرا غير مباشر وكانت
الواسطة فيه ثلاثة شعوب هي التي تكون الموضوع الرئيسى لهذه الدراسة .
ولكنها تركت طابعها على العمل الذى استغرق حياة العبريين والاغريق
وروما ، وكانت المجال التاريخى الذى قامت فيه هذه الأمم ، وأدت دورها .
وعلى هذا فأننا سنحاول القاء نظرة موجزة على هذه المدنيات الاولى فى الفصل
التالى . وسيعيننا هذا على ادراك التلاحم الجوهري فى العالم القديم وعلى أن
نعتبر شعوبه العديدة ، ليس كذرات منفصلة يمكن أن يعكف على دراستها
مقسطة الى أجزاء ، ولكن كأعضاء مجتمع من الأمم لها علاقات متبادلة من
العداء أو التعاون كيفت ما اختصت بتقديمه لسير تاريخ البشر .

الفصل الثاني

أقدم مدنيات الشرق

١ - مقدمة

١ - ان أقدم المدنيات التي تسترعى انتباهنا ، كتمهيد لدراسة العبريين واليونان وروما هي : (١) مدينة مصر (٢) مدينة الأُمم التي سيطرت ، على الولا ، على وادى دجلة والفرات - البابليين والآشوريين (٣) مدينة الشعوب التي قطنت بالأراضي الواقعة بين هذه الاَصقاع ، ورقة البحر المتوسط الساحلية ، سوريا وكنعان ، وآسيا الصغرى الشرقية (٤) ومدينة كريت التي تغلغت فى بحر ايجا ، وشطر عظيم من منطقة البحر المتوسط . وسنسير قدما بنظرتنا الموجزة على هذه المدنيات الى الزمن الذى كانت فيه ، فى جل أمرها مستغرقة فى امبراطورية فارس العالمية ، العظيمة (القرن السادس ق م) . وأخيرا (٥) سنلمح الى طبيعة الامبراطورية الفارسية ومدنيتها حتى الغزو اليونانى المقدونى ، الذى قام به الاسكندر الأكبر (٣٣٤ - ٣٢٣) . وأما التاريخ اللاحق لمصر والشرق الأوسط تحت السيادة اليونانية - المقدونية ، والسيادة الرومانية فانه يتعلق بطبيعة الحال بالفصول الأخيرة التي تعالج اليونان وروما .

٢ - مصر (١)

٢ - كتب هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد « ان مصر هبة النيل » (٢) والتربة والحاصلات والنبات والحيوان

(١) فى موضوع التاريخ المصرى المبكر ، كما فى كثير غيره فى هذا الفصل اقتفيت ما استخلصه برستد من نتائج كما وردت فى تاريخ مصر الذى وضعه (الطبعة الثانية سنة ١٩١٩) ، وبينما الغالبية من علماء الآثار يتفقون فى الجوهر على تأريخ برستد للأسرات الأولى الا أنه يجب ألا يغرب عن البال أن التواريخ لاتزال موضوع مساجلة قبل الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق م) وعلى القارئ أن يرجع الى جداول الأزمنا المتعادلة فى الأسفار الأولى من تاريخ كامبردج القديم فى جميع مسائل التاريخ التى تعرض له ، فيما يتصل بهذا الفصل .

(٢) هيرودوت ٢ ، ٥

والحياة الانسانية كلها على السواء ، يقرر أمرها النهر العظيم وهو الذى ، قبل مجيء الانسان بزمن مديد ، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى ، الى فجوة وملا الفجوة بركام من المرتفعات الجنوبية وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا . والقطر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الاول ، الحد الجنوبى القديم ، الى الدلتا . والوادي ، ويتراوح اتساعه من عشرة الى ثلاثين ميلا ، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب . ويعتمد رخاؤه ، الآن ، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا غبرت ، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة ، فيضان النيل السنوى ، الذى تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية . وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل فى حياة وعادات الشعب . ولقد عكف الفلاحون تحت حكم محمد على فى القرن التاسع عشر الميلادى على المهام الراتبة عينها من فلاحه التربة وأعمال السخرة كعبيد لأرض أولئك السذين لا نعرف لهم اسما ، الذين بنوا الأهرام فى الألف سنة الثالثة قبل الميلاد . ان ثروة مصر الاقتصادية كانت دائما زراعية وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم الأرض السوداء فى التفرقة بين الصحراء « الحمراء » على الجانبين والتربة الفيضية السوداء فى وادى النيل التى قام الدليل على أنها ، تحت نظام للرى محكم ، ذات خصب يفوق المعتاد .

والنهر كان الطريق العام الذى تمر عليه تجارة الحنطة الى مرافىء الدلتا وحلقة الاتصال بين مصر والعالم الخارجى . ومن عهد سحيق حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الانسان الى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين الى آخر . ولا يوجد مكان آخر صاول فيه مكر الانسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاول هنا . كانت البلاد تشيع فيها القنوت والسدود والخزانات ، وأظهر المهندسون فى مصر القديمة فى انشائها تمكنا من الفن الآلى . وخزان بحيرة مورييس الفسيح ، وهو من عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة (فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على نفس الهمة لبلوغ القصد كخزان أسوان ، الذى أتمه المهندسون البريطانيون تحت ارشاد اللورد كرومر (١) .

٣ - ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨) . وفى سنة ١٧٩٩ كشف ضابط فرنسى بالقرب من رشيد

(١) نحن لا نقر المؤلف الى ما ذهب اليه من نسبة مشروع خزان أسوان تنفيذا ورأيا الى البريطانيين فان تعاون هؤلاء المهندسين البريطانيين مع زملائهم المهندسين المصريين الذين حملوا العبء الأكبر فى المشروع كان بحكم وظائفهم فى الحكومة المصرية ولا شأن للورد كرومر به اذ قامت بتنفيذه نظارة الاشغال المصرية فى ذلك الحين .

عن حجر ، موجود الآن فى المتحف البريطانى ، يحمل كتابة بسلامة أنواع من الخطوط ، الهيروغليفى ، والديموطيقى أو الشعبى ، والاغريقى . وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الاغريقية كما فى الهيروغليفى ، هى التى أرشدت ، بعد دراسة مستطيلة ، عن الدليل الى نعرف الكتابة الهيروغليفية على الآثار المصرية ، ولقد رأى القرن الماضى كشف الغشاء الذى يخفى الماضى البعيد ، بالتدرج . ان الخيال يبهز عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى ، الذى يمتد الى الورا ، على الأقل ، الى الألف الرابعة قبل الميلاد . وهو ليس مجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك ، ولكن تاريخ عمائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدينيات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس الى ذلك الحين .

٤ - وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها نحت حكومة واحدة فى الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق.م سلسلة من حقبة المدنية ، كل حقبة بعهدوها من الصعود والهبوط ، وتفصل الواحدة عن الأخرى فترات من الركود والانحطاط . وقد رجعت أبحاث علم الآثار الحديثة بالسجل الى الحلف ، الى زمن أبعد عندما كانت قبائل من أصل افريقى ، ولكن أتت عليها الهجرات السامية بالتحوير ، تقطن بمراكز محلية يحكمها رؤساء منعزلون . وكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون الى ما قبل الأسرات قد حذقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووضعوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما والتى اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة ، يوليوس قيصر ولا يزال العمل يجرى بها حتى يومنا الحاضر (١) .

وفى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخرى فى مصر العليا أدمجهما مينا ، أول ملك فى الأسرة الأولى (حوالى ٣٤٠٠) فى حكومة واحدة . ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى

(١) أدخل التقويم سنة ٤٢٤١ ق.م وكان أول تاريخ ثابت فى التاريخ . وقد أقام برستد (Ancient records, Egypt) (١ ، ٢٥ وما بعدها) الحجة على أن التقويم استهل فى بداية فيضان النيل ، الذى كان من زمن الى آخر يجيء على التقريب آوان عيد طلوع الشعرى اليمانية (Sirius) فى مشرق الشمس فى الأفق الشرقى فى ١٩ يولية . ولكن سنة الشعرى اليمانية (الفترة الواقعة بين مطلعى الشعرى اليمانية المتعاقبين) ، كانت أطول من السنة التقويمية التى تبلغ مدتها ٣٦٥ يوما ، بربع يوم . ولقد بدأت سنة الشعرى اليمانية والسنة التقويمية فى نفس اليوم ، فى السنوات ٤٢٤١ ، ٢٧٨٠ ، ١٣٢٠ ق.م ، ١٤٠ - ٤١ الى ١٤٣ - ٤٤ . ومع هذا فقد حام الشك حول مشاهدة دورة مبكرة ترجع الى سنة ٤٢٤١ وأكثر ترجيحاً انه وجد حساب لاحق يرجع الى الورا .

حول قيام وسقوط ثلاث حقبة عظيمة من التطور : الدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والامبراطورية الحديثة (١) .

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى الى السادسة) (٢) - وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة الى ذروته إبان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيس (من ٢٩٠٠ ق م) وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة ، واستغلوا مناجم سيناء ، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم فى البحر الأحمر والمشرق .

ولقد كانوا إداريين عظاما وبنائين عظاما ، ووضعوا نظاما ماليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين ، وأوصلوا رى البلاد الى درجة عالية من الكمال ، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم . ويمكن أن تتعرف مهارتهم فى استخدام الوسائل الآلية والموارد العظيمة للعمل الذى تستلزمه هذه الأبنية ، من الحقيقة الواقعة وهى أن هرم خوفو بنى بأكثر من مليونى قطعة من الحجر يبلغ متوسط وزن الواحدة منها ٢ ١/٢ طنا . وفن هذا العهد ، عينه ، وخاصة نحت الصور والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية .

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١ - ١٢) سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدى الأشراف أصحاب الأراضى ، الذين كانت قد أوجدتهم لما كان فيه خطر عليها . ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام ، وقد عقد السلطان ، كما كان فى عصر ما قبل التاريخ للرؤساء المحليين الى أن قامت ملكية ثانية مركزة ، تعرف بالدولة الوسطى فى طبقة فى مصر العليا تحت حكم الفراعنة أولى الصولة (٣) من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠ - ١٧٨٠) وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع بنط (الصومال) فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان ، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط . ولقد وجدت فى مصر مصنوعات من الخزف منوي (Minoan) ترجع الى هذا العصر . ويظهر على الفن المنوى أثر الفن المصرى (٤) . وتحت حكم الدولة الوسطى ،

(١) لم تعرف مصر أبدا أى شكل للحكومة الا الاستبدادى . وأسس الحرية السياسية توضع لأول مرة فى زمننا الحاضر .

(٢) جمع مانيثون وهو كاهن مصرى عاش فى عهد البطالمة الأوائل (القرن الثالث ق م) ملوك مصر فى واحد وثلاثين أسرة . ويغلب أن يكون جمعه غير دقيق ، ولكنه لا يزال يستخدم ، بوجه عام ، كمرجع تاريخى .

(٣) فرعون (بر - عا) يعنى حرفيا البيت العظيم ، كان لقباً أطلق فى الأصل على مقر الحكومة وبعد ذلك على شخص فرعون .

(٤) انظر بعده فقرة ١٦ .

وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم ، وازدهر الأدب ، وإذا كانت فنون النحت يغلب أن تكون تقليدية ، فانها تنافس نظيراتها في الأسرتين الرابعة والخامسة .

(٣) الامبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة)
اعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة غامضة كانت فيها مصر المنقسمة ، تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس أو ما يطلق عليهم الملوك الرعاة) يضمون في الراجع سبطا عبريا ^(١) وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة ، ويبدأ أعظم العهود روعة ، اذا لم يكن في النافقة المصرية ، فعلى الأقل في السلطة السياسية ، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق . م) . كان المصريون بطبيعتهم شعبا لا ينزع للحرب ولكن الفوضى الداخلية كانت قد أدت الى تكوين جيش مهني منظم وغدا فراعنة الامبراطورية الحديثة الحكام العسكريين لدولة عسكرية . وقد غزوا سورية وفينيقية ، وحاربوا الميتاني (قبيلة يتولى أمرها رؤساء آريون) والحيشيين على الفرات الأعلى ودانت لهم السيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية ، وأكناف الحبشة . وقد وصلت اليهم الجزية مما يوالى البحر المتوسط ، فكانت مصر مفتوحة لتجار بحر ايجه الكفتير (Keftiu) وكانت منتجاتها تستخدم في كنوسوس (Cnossus) وأثر فيها الزخرفى الخاص على مهرة الصانع الميسيني (Mycenaen) ^(٢) ، وقام على تدبير أمور الامبراطورية لقيف عظيم من موظفى الدولة ، وعلى دين الدولة طبقة من الكهنة ، منظمة . وكان هذا أعظم عصور الفن المعمارى المصرى . وكان معبد الاله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة . وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة تحوتى مس سو (تحوتمس) الثالث . وبعد انقضاء قرنين من العظمة الامبراطورية بدأت بوادر الانحلال الذى لا معدى عنه ، فى الظهور . ولقد أثار الجهد الغريب الذى بذله المصلح الدينى اخ ن اتن (اخناتون) (امنحتب الرابع ١٣٧٥ - ١٣٥٨) لاقامة عبادة اله واحد روحية ، شعور الشعب والكهنة ^(٣) . وأخفقت.

(١) تحمل جعلان ملك فى هذه الفترة اسم يعقوب - هر ، أو يعقوب آت (برستد صفحة ٢٢٠) .

(٢) عن الحبشة انظر ما سيجىء بعد ، فقرة ١٢ ، وعن كنوسوس وميسينيا الفقرات ١٥ - ١٦ .

(٣) تلقى خطابات تل المعمارنه ، وهى سجلات رسائل اخناتن الأجنبية التى كشف عنها فى سنة ١٨٨٥ ، الكثير من الضوء على سياسة الامبراطورية الجديدة . ان تل المعمارنه هو موقع العاصمة اخناتن التى أسسها اخناتن كمقر لعبادة الاله الواحد (اتن) وعن دين التوحيد هذا انظر ترجمة اخناتن لاتن التى ترجمت فى كتاب برستد الصفحة ٣٧١ وما يتلوها .

تراث العالم القديم

الأسرة التاسعة عشرة في المحافظة على هيبة مصر في الخارج ، وقبل ختام السنوات الألف الثانية (ق ٠م) بزمن مديد ، كانت سوريا وكنعان قد أفلتتا من أيدي المصريين ، وكانت شعوب البحر في ايجيا تعمل في الدلتا نهبا وتخريبا ، وحدث في غضون هذه الفترة من بداية نشوء الانحطاط أن قطن العبرانيون ^(١) في جاسان (Goshen) وكان الخروج الى صحراء سيناء ليس متأخرا عن عهد واحد من فراعنة الأسرة التاسعة عشرة (حوالي ١٣٢٠ - ١٢٠٠) .

وفي قرون الانقسام والتفكك الذي أعقب سقوط الامبراطورية الحديثة نجد الرؤساء المرتزقة ، الليبيين يحكمون في الدلتا ، وأمراء اثيوبيين في مصر العليا ^(٢) . وفي أواخر القرن السابع (٦٧٠) غزا الاشوريون الذين كانوا يهددون استقلال مصر ردحا من الزمن ، الدلتا تحت امرة أسر حدون .

وجعلوا من مصر ولاية تابعة ^(٣) وبدأ عهد الحكم الأجنبي . ولما وهنت قوة آشور أمام قوة بابل واثت فرصة أخرى للاستقلال وفي ولاية ملوك الأسرة السادسة والعشرين (في سايس بالدلتا ٦٦٣ - ٥٢٥) نشهد احياء للثقافة قصير الأمد ومصطنعا الى حد ما ، واعادة توكيد عقيم للمطامح القيصريه . وقد تحالفت مصر مع ليديا والاغريق الآسيويين وجند المرتزقة الاغريق في الخدمة الملكية . وخصص مقر للتجار الاغريق في نقراش (نوكراتيس ومعناها القوة البحرية) في الدلتا . وغزا نيخو (٦٠٩ - ٥٩٣) كنعان وحارب نبوخذ نصر ملك بابل على الفرات . وتقديمه العباءة التي كان يلبسها قربانا عندما أوقع الهزيمة بيوشيا في مجدو ، لمعبد أبولو المليزي في برانخيدا (Branchidae) مال ذو مغزى عن الاتصال

(١) يتوارى القفتو (المتيون) عن الآثار المصرية حوالي سنة ١٣٥٠ ويظهر بعد ذلك بقرن ونصف الاقيوشا (Akalusha) (الاخيون) - انظر ما يلي .
(٢) كان شيشنق الأول (شيشق العهد القديم) واحدا من الأولين وكان حليف سليمان وآوى يربعام مؤسس المملكة الشمالية (الافرامية) وحارب رحبعام الى المملكة الجنوبية (يهوذا) حوالي سنة ٩٢٦ (ملوك الأول ٩ : ١٥ - ١٧ ، ١١ : ٤٠ ، ١٤ : ٢٥) .

(٣) كانت جيوش آشور قد وصلت الى تخوم مصر مرتين في القرن الثامن وقد حدثت غزوة سنخارب العقيمة في سنة ٧٠١ ، ولقد أدرك ضعف مصر في جلاء أشعيا ، الذي استنكر سياسة التحالف بين يهوذا ومصر ضد آشور (اش : ٣٠ ، ١-٧ و ٣١ ، ١-٣) :

التاريخي بين مصر ويهوذا وبابل واليونان ^(١) ولكن إعادة الاستقلال كان ذا أمد قصير ، ولما سقطت بابل أمام الفرس كان مصير مصر قد أصبح قاب قوسين . وفي سنة ٥٢٥ غزا قمبيز مصر وظلت البلاد خاضعة لامبراطورية فارس فيما عدا ثورات متقطعة خاطفة حتى مجيء اسکندر المقدوني (٣٣٢ - ٣٣٠) .

٥ - وبقي أن نسأل الى أى مدى اثرت مدنية مصر فى المدنية التى نهضت فى غضون السنوات الألف الأخيرة ق.م . فى عالم البحر المتوسط . وإذا القينا النظر (أ) الى الدين الذى كان فى مصر كما كان بين السلالات الأولى جميعها ، بؤرة الثقافة ، فاننا نجد طائفة عظيمة من المعتقدات والعبادات المحلية ، وقد وحدها فراعنة الأسرات الأولى فى دين دولة ، فيه ثم آلهة مركزيون صاغ الكتاب الكهنة من قصصهم وفرائضهم ، على سير الزمان ، شكلا ذا مذهب راسخ وله طابع ثابت . وانها لتحوى اليسير من القيمة الفكرية أو القيمة الروحية ما خلا استثناء وحيدا هو محاولة اخناتن التى أشرنا اليها آنفا ، بأن يستبدل العبادات الدينية المقررة بعبادة توحيد لآتن اله الشمس . ويظهر أن الواقع لثورته كان مثالية فكرية صادقة ولكنها كانت عقيمة ولا تأثير لها حتى فى بلاده ذاتها . والكتابات الدينية ، مثل كتاب الموتى ، التى تتعلق بأقدار الروح فى حياة أخرى ، وهى مجموعة كان منشؤها فى الدولة الوسطى ، واتخذت شكلها النهائى فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، كان يسيطر عليها السحر ، وتكشف عن تصور مادي تماما للروح . والاعتقاد فى محاكمة خلقية بعد الموت ، وهو يرتبط بعقيدة أزوريس كان له ثمة قيمة من حيث الإخلاق . وفى نصوص الأهرام المبكرة ، يمكن أن نطالع كيف تصور المصريون القدماء نظاما خلقيا فى العالم مرده ما شاع بين الناس من أحكام على السلوك « وفقا للقواعد المرعية » فى الأسرة وفى القرية ، على أنه مع ما تقدم لا يوجد دليل على أن دين المصريين أثر شيئا خطيرا فى العالم الخارجى ، وعبادة يهوه كان موطنها صحراء سيناء وليس فى مصر . وفى عصر لاحق ، عندما تقابل الشرق والغرب تحت حكم أمراء مقدونيين فى الاسكندرية ، ذاعت العبادات المصرية ، كعبادات ايزيس وسيرايس ، وكذلك الاعتقاد فى الخلود والشفاء بالايمان الذى يرتبط بتلك الآلهة وممارسة القصص الرمزية الخلقى الذى تميز به تعليم الكهنة المصريين

(١) هزم ينخو فى قرقيش سنة ٦٠٤ وحدث غزو بابل ليهوذا سريعا فى أعقاب هذا النصر ، أنظر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ وهيرودوت ٢ : ١٥٩ ، وكانت «بناو» فى سهل يزريل أو اسدريلا مشهد المعركة التى وقعت بين العبرانيين وسيسرا (قضاة ٤ : ٥) والارمجدون (وفى النسخة المنقحة هرماجدون - جبل ماجدو) الرؤيا ١٦ : ١٦ . نص الفقرة الأخيرة هو على أية حال موضع شك .

وجد ذيوغا واسع النطاق فى العالم الرومانى الاغريقى . ولكن قبل هذا التاريخ كانت ديانات العبريين واليونان وروما قد وصلت الى نضوجها .

(ب) ومرة أخرى كان ما يسمى « حكمة » المصريين أمرا ذا قيمة علمية يسيرة . لقد كانت موضوعات اهتمامهم العقلية نفعية ولم يظهروا الا ميلا ضئيلا للعلم الخالص أو الفلسفة . ولقد ابتكروا قواعد يتجلى فيها الحدق ، لقياس الحقول والأبنية ولكن كان يعينهم من الهندسة مساحة الأرضى ولاشئ أكثر . ولم يستتب منهم فى هذا أو فى علم النجوم الذى كان لديهم ادراك للمنهج العلمى . وعندما كانت تظهر بواق لا قبل لهم عليها فى تقديراتهم فانهم كانوا يهملون شأنها ببساطة . وقد كان افلاطون على حق تماما عندما انتقد الرياضيات المصرية بأنها قاصرة على أغراض عملية بحثة ^(١) . والطب أيضا كان خليطا من الوصفات الجاهزة والتعازيم السحرية . وتظهر الكتابات الطبية الأولى ملاحظة دقيقة ، لجسم الانسان وعلاج الاصابات بما يمليه الحس العام وآراء عن الوظائف الفسيولوجية التى ربما تكون قد وصلت الى الاغريق وكانت الحافز للأوائل من رجال العلم الهلينيين ، ولكنها ظلت ، الى أن اضاءها البحث عن الأسباب والمسببات ، لا أكثر من مجموعات من المعطيات ، السابقة ^(٢) للمنهج العلمى ^(٣) .

(١) القوانين ٧٤٧، أنظر وصف بردية رند (Rhind) فى فلسفة اليونان الأولى لبرنت (Burnet) الطبعة الثالثة الصفحات ١٨ وما بعدها ، وملاحظاته . النتائج العلمية المزعومة التى وصل اليها المصريون . وعن الطب المصرى بمقابلته بطب الاغريق ، أنظر برت (Brett) « تاريخ علم النفس » الصفحات ٢١٩ وما بعدها .

(٢) أنظر بردية ادون سمث الجراحية (Edwin Smith Surgical Papyrus) لبرستد . ان العلاج يوصف وفقا للقاعدة (عليك أن تقول الخ) ودراسة لهذه الوثيقة المشوقة تترك القارىء وقد دخل فى روعه أن الذى يمهّن الطب فى زمننا ، ولو أن دعامة عظيمة النطاق من الحقائق تشد أزره ، فانه يحتفظ بمقدار ليس باليسير من عقلية سالفه البدائيين .

(٣) نحن لا نقر الكاتب فيما ذهب اليه من انكار أهمية الطب المصرى القديم وأثره فى الطب اليونانى ، ذلك لأن الطب المصرى القديم جدير بأن يدرس فى اهتمام حتى يومنا . لقد وصل قدماء المصريين الى تقدم عظيم فى الطب والجراحة واقتبس الطب الاغريقى من الطب المصرى نصيبا عظيما حتى يمكن اعتباره امتدادا له . وليست أدراج البردى ، كاهون وادون سمث وايرز وهروست ولندن وكارلسبرج وبرلين ، الا مقتبسات من أسفار أصلية . وهى تذكر الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم من الاختصاصيين بما فيهم الأطباء البيطريين ، وتضم عجالات طبية وتذكرات وضعها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة : الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون . وقد عرفوا القلب =

وعندما زار الاغريق البلاد في عهد الأسرة السادسة والعشرين تأثر خيالهم بطبيعة الحال بقدمها : « أنتم معشر الاغريق أطفال على الدوام اذ لا يوجد رجل هرم بينكم » هذا ما قيل ان الكاهن المصرى أنبأ به صولون . والاحترام للآثار التى طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة وما يتسم به من وقار ، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا ، فى حدود ما وصلوا اليه من أعمال عقلية جليلة ، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد (١) ومن الجهة الأخرى كان تأثير مصر ، فى الفنون الآلية ، عظيما فى العصور التالية (٢) .

(ج) كانت الثقافة المصرية ثقافة فن لا ثقافة أدب ، ولو أن القصص الشعبية والفاجعة (الدراما) الدينية نشأتا فى الدولة الوسطى واثاح البردى وهو هبة مستنقعات النيل ، للرسائل والسجلات المكتوبة أن تكون قابلة للحمل وسهلة . ولكن كان فن مصر هو الذى فرض طابع نفوذه على العالم الخارجى ، كما يتضح من العلامات التى يمكن تبينها فى مصنوعات الحرف والنقوش البارزة فى الصناعة المنوية والميسنية وكان هذا قبل أن يبرز فجر

== و « الأوعية التى تذهب الى كل عضو » ، والعلل التى تصاب بها أجهزة التنفس كالنزلة الشعبية والتهاب الحنجرة . وتعوزنا القدرة على ترجمة كل الألفاظ التى تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير ، لكننا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن ، وضمادات الأعشاب والتخميلة والحقنة وزيت الخروع . وتشير النصوص الى علاج الأسنان وعلمنا من فحص الموميات أنهم كانوا يعرفون كيف « تحشى » الأسنان بنوع من الأسمنت المعدنى وأنهم استخدموا الذهب لربطها . ولقد عنوا بعلاج العيون وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج الرمد الحبيبي والكتركتا والعشى الذى استخدموا له مزيجا من كبدة الحيوان ولا تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبد فى علاج هذه العلة .

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة والأدوية التى استخدموها ناجعة المفعول . أما جراحة العظام ، كما جاءت فى بردية ادون سمث ، فإنها تكاد تكون علمية .

وكان للطب المصرى القديم ذبوع فى الشرق الأدنى ، ولم ينكر ابقرات وجالن أن بعض ما حصلوا عليه من علم بالطب جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد درسها فى معبد امحوتب فى ممفيس .

ويمكن لمن يريد الاستزادة أن يرجع الى ما صنقه بعض أعلام الطب من أمثال البكاترة : حسن كمال، ومحمد كامل حسين، وغلioniجي، والبطراوى، ونجيب رياض .

(المترجم)

(١) أفلاطون تيمايوس ٢٢ .

(٢) كان فى قدرتهم تحريك الأشياء الثقيلة وتكوينها ولكن لا أكثر من ذلك ، وكونهم لم يحاولوا أبدا إيجاد قناطر للنيل يبين القدر المحدود الذى كانت عليه دربتهم كمهندسين .

الثقافة الهلينية ، وعندما أهل ذلك اليوم كان الفن المصرى قد تدهور مع استثناء واحد هو الفن المعماري . لقد شيد المصريون معابد عظيمة وقبوراً واستخدموا الأساطين وطرق العمد للسماح للضوء بالانسياب الى الأرجاء الداخلية بينما اقتصروا على أبسط الأبنية واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز الوطىء وعلى اللون . ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الاغريق فى مراحلهم الأولى ولكن سرعان ما تجاوزوا تقاليده الصارمة ، ولقد أعاد حكماء مصر المقدونيون احياء الفن القومى ولكن ما استنسخه الاغريق كان يجافى الذوق والدقة . واليوم بفضل علماء الآثار فان الحال غير تلك الحال . ان أعمال النحاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشف فى جمالها لتكون مصدراً جديداً للوحى ، لفنانى العالم الحديث .

٣ - بابل وأشور (١)

٦ - والمدنية الفيضية الثانية العظيمة فى الأزمنة القديمة ، كانت مدنية بابل . ان سهل كلديا الفيضى بين مجرى الفرات ودجلة السفليين كان على غرار مصر تحت نظام للرى ملائم قمينا بخصب وفير . ولقد قام فى العصور القديمة بأود جم غفير من القاطنين . واليوم بعد أن دمرت قرون من سوء الحكم رخاءه ، يتطلب الأمر كد الخيال ليدرك أن بابل كانت حيناً من الدهر ، شبيهة بمصر ، أحد مخازن غلال العالم الرئيسية حيث كانت المعاصيل تؤتى ثماراً مائتين أو ثلاثمائة ضعفاً . وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثانى تهيىء الكثير من المراعى (٢) .

وحاضرة الملك التى قامت على شواطئ الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقراً عظيماً للإمبراطورية كانت لحجمها الشارح ، أعجوبة الأزمن القديمة . وكان محيط دائرة السور الداخلى زهاء أربعين ميلاً . يقول أرسطو:

(١) وهنا أيضاً لم يجزم برأى فى التأريخ القديم . وعندما يوجد انقسام فى الرأى بين العلماء يكون التفضيل لأقرب التواريخ على أبعدهما . وعلى سبيل المثال تواريخ سرجون ملك أكاد والأسرة البابلية الأولى . أنظر الجداول التى جاءت فى تاريخ كمبريدج القديم .

(٢) حطم المغول مدينة بلاد ما بين النهرين وعجز الأتراك عن إعادة سيرتها الأولى . وقد أورد ثيوفراستس (Theophrastus) أبعد تلاميذ أرسطو صيتاً فى كتابه (تاريخ النبات) : « فى بابل تحصد حقول القمح مرتين فى النظام ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات . وعندما ينجز هذا ، فان محصول الأرض التى تفلح فلاحاً سيئة يكون خمسين ضعفاً بينما يأتى محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف » . (اقتبسها روجرس (Rogers) : ١ ، ٤١٩) ، وازن ما جاء به هيرودوت من تقدير أكثر سخاء .

« ان بابل أمة أكثر منها مدينة » (١) . ولقد أضيف الى مواردها الزراعية الثراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة (٢) ، ومنذ الألف سنة الثانية ، كانت بابل سوق الشرق ومركزا عالميا ، اجذب الى أسواقه وأرصفتها محاصيل الهند وايران وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية الى الفرات من اقطار البحر المتوسط الى الغرب . والطريق الطبيعي لتوسع بابل ، كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كالديا كانت تكتنعه من الجنوب ومن الغرب الصحراء ، ومن الشرق هضبة ايران . وفي الألف سنة الثالثة كان سرجون الاكادى مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح آشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال الصحراء حتى سوريا وكنعان (٣) وعلى هذا ، فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود مدينة سهل فيضى لتكون إحدى مدنيات البحر المتوسط . ولو أنهم عندما بلغوا البحر ، لم يستخدموه الا قليلا . وخلال ألفى سنة كان حكام وادى دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب الى مياه البحر المتوسط كهدف مطمحهم .

٧ - كانت ثقافة بابل وأشور التاريخية سامية ولو أنه تبيل مبول الساميين من بلاد العرب ، أنشأت القبائل الوطنية مدنية تعرف بالسومرية (سومر - كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التي ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم . وقطع الجواهر هو فن مهره البابليون ، وكان قد بلغ في الأزمنة السومرية درجة عالية من الكمال . وكانت النقوش تحفر بالكتابة بالصور وبعد ذلك بالخط المسماري ، حروف (رؤوس سهام) وانا لنقرا عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وأنشاء مكتبة ملكية . وفي أواخر الألف سنة الثالثة أو في بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى ، ومقرها بابل ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة آسيا الغربية . والدين له كل الخطر في تاريخ بابل وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين ، وكان الملوك يعتمدون كثيرا على حظوتهم .

(١) ارسطو - « السياسة ٣ ، ٣ ، ١١٢٧٦ » ، يجب قراءة وصف هيرودوت (١ ، ١٧٨-٨٧) ولكن روجرس (١ ، ٤٣٨) وجه النقد الى تقديره لمحيطة دائرة السور ، على ضوء الحفائر الحديثة .

(٢) وعلى هذا لم تكن الحال تستدعى واد الأطفال لتحديد النسل ولكن مناخ سهل كالديا كانت تلازمه نسبة من الوفيات عالية .

(٣) يعتبر روجرس تاريخ قيام سرجون حوالى ٣٠٠٠ ق م ، ولكن الخطأ في هذا التاريخ أنه أبعد مما يجب . أنظر الجداول في تاريخ كمبرج القديم ، ويمكن أن يلاحظ أن بابل كانت معرضة للغزو ، حتى من الجانب الجبلى ، أكثر من تعرض مصر له .

وحتى فى أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته فى بابل الا بتقديم فروض الاحترام لمردوك .

ولقد كان حمورابى ، أعظم ملك فى هذه الأسرة ، هو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلدنيا فى عبادة مردوك الاله - الراعى ، لبابل .

وقد نظم حمورابى المذهب الادارى للامبراطورية وأخضع عيلام الى الشرق وآشور الى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط^(١) وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم ألواح عقود ورسائل ملكية . ولكن أهم أثر تذكارى لحكمة هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى سوس^(٢) .

وهذه المدونة - أحكام الاسنقامة التى وضعها حمورابى ، الملك العظيم - نظمت فى دقة واحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبني والارث وكذلك سير المرافعات القضائية ، وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت اليها فى تجارة الأمم . وهى تكون مذهباً محكماً لقانون الدولة ، ولو أن آثاراً منها ترجع الى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمنزل (العين بالعين) ، وهى تمثل تقدماً عظيماً بالقياس الى قانون العادات فى المجتمعات الأولى . وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعة المثل بالمثل (lex talionis) على اجراءات المحاكم المقررة ، والناس من كل الطبقات ، الغريب والمولود فى البلاد ، على السواء تنتظمهم حماية القانون . ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف ان أمثال هذه المسائل الحديثة كالأعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمر ، وأدائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف

(١) حمورابى (حامورابى وحيمورابى) يمكن أن يكون امرافل (Amraphel) سفر التكوين ١٤ : ١ ويضع روجرس تاريخ الأسرة البابلية الأولى من ٢٢٣٢ الى ١٩٣٢ وحمورابى من ٢١٣٠ - ٢٠٨٧ .

(٢) وقد كشف أيضاً عن أجزاء منها فى مكتبة آشور - بنى - بال فى نينوى ، وقد ترجم المدونة القس س . هـ . و . جونز (Rev. C.H.W. Johns) « أقدم مدونة قوانين فى العالم » .

الثالثة ق.م. وبامتداد المدنية البابلية الى سوريا وفلسطين فان مدونة قواني حمورابي والقانون الذى جاء بعد ذلك مستندا اليها وضعا طابعهما على تشريع الساميين الغربيين (١) وظلت المدونة نفسها ناغذة المفعول زمنا مديدا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين ، وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل على بسط المدنية فى آسيا الغربية ، وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم ، وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن ، وكان فى قدرة الانسان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى الى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابي .

٨ - وبتقادم أعوام السنوات الألف الثانية ، حل الوهن بمملكة بابل ونهضت فى الشمال سلالة جديدة تصعد نحو العظمة ، على شواطئ دجلة ، حول نينوى . وهذا الشعب ، أبناء آشور أو الآشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ومن رعايا حكامها فى بادئ الأمر ، أصبحوا غزاتها حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م.

وقد كان البابليون شعبا من الزراعة والتجار . وكان الدين أجل قدرا فى أوضاعهم العامة من فن الحرب . أما الآشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية الى النهاية سلالة حرب . وكان ملوكهم قيادة تحت امرتهم أشرف عسكريون . ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة فان تاريخهم هو سجل حروب وغزوات . وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل ، وكان التقدم الوحيد الذى حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالآجر . وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة فى المتحف البريطانى قصة متواصلة عن الحروب الوحشية .

وقد كتب أحد الأمراء الآشوريين القدامى عن أعدائه : «ملاأت بجسومهم وديان الجبال وقللها ، بترت رؤوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم ، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز ، أشياء لا تحصى » . وكان الآشوريين يخلصون ، فى تعصب ، لدينهم ، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الههم آشور ولجده ، ولكن لم يكن للكهنة الا أثر قليل فى استشاراتهم . وكان أمراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوى بجيش دائم وكانت انتصاراتهم الحربية ترجع الى حد عظيم الى ادخال الفرسان لشدة أزر المركبات . ويشهد على قدرتهم على

(١) عن الموضوع الطريف عن العلاقة بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية ، انظر س. أ. كوك (S.A. Cook) « نواميس موسى ومدونة قواني حمورابي » وأوجه التشابه ترجع بالحري الى الأصل السامى المشترك لا التأثير المباشر وربما يرجع تاريخ تأثير بابل على شريعة العبريين الى السبى (القرن السادس ق.م) .

تنظيم الامبراطورية ، طبقات الموظفين المحكمة ، وفرض ضريبة سنوية ثابتة على الأقاليم ، وبلغت قوتهم أوجها في ثلاث حقب في تاريخهم ، في القرن الثاني عشر ، ومرة أخرى في غضون القرن التاسع ، ثم في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع ^(١) .

وكان في القرن التاسع أن نزل سوط الجيوش الآشورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة إسرائيل ووصل إلى شواطئ البحر المتوسط . وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية (الإفرامية) التي حاصرها شالمنسر الرابع ، أمام سرجون عام ٧٢١ . وقد رأينا كيف اجتاحت منخارب ، بن سرجون ، بعد ذلك بعشرين عاما ، مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان ، خليفته اسرحدون الذي امتدت امبراطوريته من هضبة إيران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضا مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص . وأعقب موته (عام ٦٦٨) ، تدهور ^(٢) قوة آشور ، فقبل ختام القرن ، هوت بها الحال إلى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم في عهد نابوبلسر . وبسقوط نينوى (٦١٢) توارت امبراطورية آشور من التاريخ وسرعان ما طوت زمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها .

ان مجدها تعفى وانقضى

من نينوى باقية الذكر .

إلى أن أزاح بوتا (Botta) وليار (Layard) ، في القرن التاسع عشر الميلادي الأحجار التي تقص قصة شراستها وغزواتها ^(٣) .

(١) الفترة الثالثة والأخيرة من عظمة آشور استهلها تجلات بليسر الثالث (Tiglath Pileser III) (٧٤٦ - ٧٢٧) الذي غزا بابل ودمشق ، ثم واصلها شالمنسر الرابع (Shalmaneser IV) (٧٢٧ - ٧٢٢) ، وسرجون (٧٢١ - ٧٠٥) وسنخریب (٧٠٤ - ٦٨٢) ، واسرحدون (Esarhaddon) (٦٨٠ - ٦٦٨) ، آخر ملك عظيم ، وفي عهد ابن اسرحدون - آشور بنى بال (٦٦٨ - ٦٢٦) الذي وضع قناعا رقيقا من الثقافة على وحشية الحكم الآشوري ، تدهورت قوة الدولة سراعا . ومكتبة آشور بنى بال العظيمة هي مصدر أساسي لعلمنا بتاريخ بابل وآشور .

(٢) ساعدت الغزوات السيثية (القمرية) (Scythian Cimmeric) على هذا التدهور . راجع الفقرة ١٧ فيما يلي .

(٣) روسيتي (Rossetti) : (The Burden of Nineveh) . استقبل سقوطها بالابتهاج من الشعوب التي تحيط بها . ونقرأ في ناحوم : ٣ ، ١٩ : « كل الذين يسمعون خبرك (أي سقوطك) يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام » . وسقطت المدينة أمام الميديين الذين استولوا على آشور الأصلية ، وأما بلاد ما بين النهرين والأراضي السورية - الفينيقية ، فقد أصبحتا من نصيب البابليين .

٩ - وتقاسم الظافرون الأسلاب فيما بينهم ، ما خلا مصر التي استعادت استقلالها في سنة ٦٦١ ، بعد سنوات أربع من الخضوع . ولكن انتصارهم كان قصير الأمد . وقد انحطت قوة ميديا سريعا بعد موت مؤسسها قواكسرس (Cyaxares) أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها في عهد نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢) الذي أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا الى الأسر في بابل (٥٨٦) (١) .

وقد جعلت أبنيتها ومعابده وقصوره وجناته المعلقة من بابل إحدى عجائب الدنيا . ولكن قبل مضي زمن طويل حل بأسرته المصير المقدر ان أجلا أو عاجلا ، على كل امبراطورية شرقية . يهبط المحاربون الأشداء من المرتفعات المجاورة الى السهول الخصيبة ويظفرون بمستعمرة جديدة ويلمون شملها لتخضع في دورها ، عندما يمتص الترف العصاراة الحيوية في قوة حكامها وشعبها ، لسلالة جديدة من الغزاة . ونجد الفرس الآن (٥٥٣) وهم زراع اولو نشاط ينزعون للحرب ، ومن الجذع الهندي - الاوربي ويسكنون الصقع الجبلي الى الشرق من الخليج الفارسي قد قاموا ضد أسيادهم الميديين تحت امره زعيمهم قورش (Cyrus) وبعد انقضاء أربعة عشر عاما (٥٣٩) يغزون بابل . وتمر الف سنة من السيادة واذا الامبراطوريات السامية تكون قد هوت ولون آخر من المدنية جديد ، من أصل آري يبسط سلطانه على الشرق (٢) .

١٠ - وقد أدى امتداد سلطان الامبراطورية البابلية وسيادتها التجارية في آسيا الغربية الى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر . وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ولو أن قطع الاحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما الى هذه الفنون ازدهرت في بابل وغدت حلل بابل مضرب الأمثال في أرجاء العالم القديم . وكانت العمارة الوطنية من الآجر ولا شكل لها ، نسبيا ، وكانت المعابد ، وهي أبنيتهم الرئيسية ، تقوم على منصات مستطيلة وترتفع في طبقات متتابة الى علو

(١) كانت الأسرة المشار اليها ، على التحقيق كلدية . كان الكلديون محاربين أكثر مما كان البابليون ومع هذا كانوا مثلهم قادرين على تبوء مستوى عال من الثقافة . وقد أطلق الكتاب الاغريق اسم كلديا على بابل ، على وجه عام ، ومعناها في الأصل أرض كلدی ، وهم ساميون كانوا يقطنون بالمكان الذي يقع حول مصبي الفرات ودجلة بين بابل والخليج الفارسي .

(٢) كان قورش ملك اتران في عيلام ينتمي الى عشيرة فارسية من الاكمينيين ، وفي سنة ٥٥٣ ، بعد أن غزا ميديا ، نادى بنفسه ملكا على الفرس . وفي سنة ٥٤٦ دارت الدائرة على كرويسس (Croesus) ملك ليديا ، الذي كان قد شن الهجوم عليه وأصبحت كل آسيا الصغرى في قبضة يدي قورش . ويرجح روجرز (Rogers) تاريخ سقوط بابل الى سنة ٥٣٩ .

عظيم • وبعد ذلك استخدم الاشوريون أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتمائيل هائلة وبالرسوم البارزة بروزا وطيئا التي يعهدا كل زائر للمتحف البريطاني • وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأ زمن القديمة • أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة في الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها نقرأ عن جنة عدن والطوفان والتابوت وعن برج بابل وتبليل الألسنة • وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم في مرحلة بداءة قطنوا مدة من الزمان بكنديا • ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة في التقاليد الى الاتصال المباشر مع بابل في الأ زمن البعيدة • والى أى مدى للاختلاط الذي حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا ، على اليقين ، ديانة بابل المتأخرة والى أى مدى ، مرة أخرى ، للاتصال المباشر زمن الأمر (١) • ومهما يكن من أمر هذا ، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم ، تبقى الحقيقة الواقعة وهي أن تطور ديانة العبريين على أيدي النبيين الى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات افلاطون وأرسطو التي جاءت بها عبقرية اليونان العقلية • ثانيا يوجد موضوع تأثير علم الفلك الكلداني على الفكر العلمي الاغريقي • لقد سجل الكلدانيون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تربو على ألفى سنة • وتعرفوا الكواكب السيارة وسموها وقرروا ، بالطريقة التجريبية ، ترادف حدوث الكسوف والخسوف الدوري واخترعوا المذهب الستيني في الحساب (٢) وقد صنعوا المزولة وهي أداة تبين بظلمها ، الانقلابين والاعتدالين • ولقد عرف الاغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية ، حفزتهم على البحث العلمي • ولكن

(١) ينقسم العلماء في الرأي عن هذه المسألة ، والقصص المنوه عنها يحويها ذلك القسم من سفر التكوين الذي وضع في يهوذا فيما يرجح ، في القرن التاسع والمعروف باسم قصص يهوه (ي) • انها على التحقيق قبل السببي ، ويجب الرجوع بسببها الى أحد الأمرين الأولين اللذين جاءا في النص ، وفي أثناء السببي أثرت بابل مرة أخرى على الثقافة العبرية في الدين والقانون جميعا • وفي تاريخ آخر لاحق أدى امتزاج الشرق والغرب تحت الحكم المقدوني الى مزيد من تأثير الفكر الديني البابلي على الفكر الديني عند العبريين ويمكن اقتفاء أثر ذلك على سبيل المثال ، في أدب الرؤيا العبري ، في القرنين الأخيرين قبل الميلاد وكذلك في أفكار الغنوصية في بكور أزمنة المسيحية •

(٢) انظر بورنت (Burent) ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢١ وما بعدها والتذكرات • وقد أقرت بحوث الأب كجلر (Father Kugler) حدود معارفهم الفلكية ، وفي بابل ومصر كان ما يسمى « علما » وقفا على طبقة الكهنة •

هنا أيضا ، مجرد بالملاحظة ليس بعلم • ويتضح هذا عندما نبحث عن النفع الذي حققه الفلكيون البابليون من هذه السجلات • وبينما كشف الاغريق في قرن واحد من الزمان السبب الحقيقي للكسوف والخسوف ، فإن البابليين لم يواتهم أبدا حتى أن يصلوا الى التفسير المعقول لهما • لقد استخدموا معطياتهم لاغراض فلكية خالصة فاذا حدث أن كسوفاً أعقبه ، مرة ، حرب مع عيلام ، فإن حرباً مع عيلام كان قد تنبىء به من حدوث الكسوف • والملاحظات مهما كانت دقتها ، انتهى ينتفع بها لمجرد أن تكون أساساً لاستنتاجات يجمع فيها الخيال ، لا يأتي من ورائها معرفة علمية ^(١) • وأخيراً كان للمدنية البابلية تأثير صادق في حياة العالم الغربي الصناعية والتجارية والطريق العام التي كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى الى سرديس وساحل بحر ايجا كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان • وعلى الأخص ، لاقت العملة والمقاييس البابلية في الألف سنة الأولى انتشاراً واسع النطاق في آسيا وعالم البحر المتوسط • واستخدم الهنود والاعريق ، على السواء ، المنة البابلي (Mna) الاغريقي كميّار للوزن • وعلى هذا فمنذ زمن باكر في بابل الى الشرق كما في غرناطة الى الغرب ولح السامي دوره التاريخي ، في تاريخ البشرية الاقتصادية •

٤ - الحثيون والساميون الغربيون

١١ - رأينا كيف أن الثقافة السامية وضعت طابعها على مدنية مصر واستغرقت مدنية السومريين الأوائل في وادي دجلة - الفرات • وكانت الحال على هذا المنوال في الاقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط • وكانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمن بعيدة جداً ، ويمكننا أن نميز فروعا متباينة من هذه الأرومة : الساميين الجنوبيين في بلاد العرب واثيوبيا ، والساميين الأوسط في كنعان ، والساميين الشماليين (الأراميين) في سوريا والشرقيين في بابل وأشور ، ولكن كلهم على السواء كانوا أولاد بيت عربي واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز في وضوح كأواصر العديد من الجماعات التيوتينية في أوربا القرون الوسطى وأوربا الحديثة • وغلبنا أن نتحدث الآن هنا عن الفرعين الشمالي والأوسط ويشمل الأول شعوب سوريا والثاني الفينقيين ، والقاطنين بكنعان ومن بينهم العبريون • وهذه جميعها ، بالنظر الى موقعها الجغرافي بين امبراطوريتين

(١) يجب أن نقيم حداً يفرق بين علم التنجيم غير العلمي عند الكلدانيين الأوائل و(١) الأثر المتأخر لعلم التنجيم ذاك ، وعلى الدين الاغريقي الشعبي ، و(٢) التطور العلمي لعلم الفلك تحت التأثير الاغريقي في بابل ، وكلاهما لاحق للفرز المقدوني •

عظيمتين ، تقوم بدور الدول الحاجزة ، ولما كانت الوسيطات في التجارة وبيادق اللعبة السياسية لجارتهم اللتين تفوقانها قوة ، فان تاريخها تقرر مصيره ، للخير أو الدمار ، علاقتها بأشور ومصر .

١٢ - وبين هذه الوسيطات قامت أمة ، تكاد على التحقيق ألا تكون سامية ، بلغت ، طوال قرون كثيرة ، مرتبة دولة تمت لها القيادة في آسيا الغربية . وتبين سجلات الألف سنة الثانية ، المصريين (في عهد الأسرة الثامنة عشر) وبعد ذلك ، هونا ما ، الآشوريين يصابولون على الفرات الأعلى شعبا يطلق عليه اسم خيتا أو الحِيثِيِّين ^(١) . ان أصلهم يحيط به الغموض ونقوش كتابتهم التي اتخذت أشكال صور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشاكل التي تنتظر حلا . ويظهر من المحتمل أن بعضهم ، ان لم يكونوا كلهم ، كانوا يتحدثون بلغة هندية - أوروبية ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى وجلبوا معهم ثقافة ولغة خاصتين بهم ، أتت عليهما بالتحويل ، بعد ذلك ، المؤثرات السامية التي كانت سائدة في أرجاء الشرق الأوسط ^(٢) . وكان أول مركز لما استعمروا من أراض ، هضبة كبدوكية (بلاد القباذق) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحيثية ، ثم اتسع نطاقها حتى شمل كيليكية وشمال سوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى (أفروجيا وليديا) ^(٣) حدث هذا بين عامي ١٧٠٠ و ١٢٠٠ ويظهر أنهم حوالي هذا التاريخ الأخير ، فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق الى تجارة البحر المتوسط والبحر الأبيض ، وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية في منطقة بحر إيجه وسقوط سيادة كريت البحرية . ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحيثيون السوريون وأساد آسيا الصغرى الجدد (ربما كانوا أفروجيين) نشاطهم الى الشرق ، والجنوب الشرقي وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين

(١) انهم يظهرون باسم خيتا في المدونات المصرية وختي (Khatti) في الآشورية وفي سفر التكوين « أولاد حث » (التكوين ٢٣) وفي غيره من أسفار العهد القديم باسم الحِيثِيِّين .

(٢) بعض الكتابات المسمارية من بوغاز - كيوي (عاصمتهم في كبدوكية) سامية وبعضها غير ذلك . كانت السامية اللسان الشائع في التواصل الدولي في الشرق . وقد وجدت النقوش الهيروغليفية في آسيا الصغرى وكذلك في شمال سوريا ويظهر أنها جاءت متأخرة عن الخط المسماري ، ولقد خططت الدراسة الجدية للآثار الحيثية خطوات عظيمة في النصف قرن الأخير . وكان روادها رايت (Wright) (١٨٧٢) وساييس (Sayce) ، أنظر كاوي (Cowley) (الحِيثِيُّون) محاضرات اشفايش ١٩١٨ (Schweich Lectures)

(٣) وجدت آثار حيثية في ايوك في شمال آسيا الصغرى حتى حمص في سوريا ، ومن الفرات في الشرق حتى أراضي ساحل ايبيدة في الغرب .

الغنية . ومن مركز رياستهم الجديد فى قرقيش^(١) فى أعالي الفرات أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب . وتعاملوا على قدم المساواة مع مصر وأشور كليهما . ولعدة أجيال رأسوا تحالفا أوصد الطريق أمام توسع الساميين ، الساكنين بلاد ما بين النهرين ، صوب الغرب وفى القرنين التاسع والثامن اتخذت قوتهم تحت وطأة جيوش آشور وأوقع عليهم الضربة الفاضية كروسس (Croesus) ملك ليديا فى الغرب ، قبل مجيء الفرس نؤمن وجيز .

١٣ - وإذا تجاوزنا الولايات السورية - وهى سامية دون نزاع - التى كانت تقع على طريق القوافل من آشور الى البحر المتوسط وأصابته حظها من الثقافة من مصر بصفة جزئية ، ولكن أساسيا من البابليين ، فاننا نصل الى الأراضى الساحلية فى كنعان الشمالية حيث كان يستوطن ، على الأقل منذ السنوات الألف الثالثة ، الفينيقيون الساميون . وكانت حياتهم بأجمعها تتركز فى التجارة البحرية . ولما كانوا يستحذون على رقعة من الأرض ضيقة ، فى موطنهم ، فقد أقاموا الحصون والمحطات التجارية فى مجاذة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطئ البحر المتوسط . وكانت صيدا فى الأزمن الأولى ، المدينة الفينيقية الهامة .

وحوالى القرن الثامن عشر تخلت عن مركزها لصور . وانا نقرأ فى العهد القديم عن التحالف الذى عقد فى القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور . وكان الفينيقيون يسكنون دول - المدن ، تحت حكومة ملكية ، وبهذا كانوا يستبقون ، ولو فى نتائج جد متباينة ، دول - المدن فى العالم الهليني . ويقع عصر القوة البحرية الفينيقية العظيمة وجلال أعمالها التجارية بين سنتى ١٢٠٠ و ٨٠٠ فى أعقاب سقوط قوة منوى البحرية فى البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان . وقد كانت سفائن فينيقية تجارية العظيمة تبخر صوب الغرب الى ما وراء عمد ملقارت (جبل طارق) فى عرض المحيط الأطلنطى ، واستوطنوا تارشيش (طارطسوس (Tartessus) على مقربة من قادس (Cadiz) وجابوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضا صوب الشمال الى البحر الأسود ، وأينما ابحروا ، كانوا يقيمون المستعمرات ، فى صقلية واسبانيا وأفريقيا وأقدم ما جاءت به المدونات كانت أوطيقا فى إفريقيا الشمالية (حوالى ١١٠٠) وأبعدها صيتا كانت قرطاجنة وبترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها ، صيدا وبسطت سيادتها

(١) جاء أول ذكر لقرقيش فى المدونات المصرية حوالى سنة ١٤٨٠ وكانت مركز دولة الحيثيين بين القرنين الثامن عشر والتاسع . يجب أن نذكر الحيثيين ، أصلا كحاجز بين بابل وأشور من جانب وآسيا الصغرى وبحر إيجه من الجانب الآخر .

على الأراضى التى تجاورها فى أفريقيا وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة فى مياه البحر المتوسط الغربية • ولاتزال باقية بين أيدينا نسخة اغريقية ترجع الى القرن الخامس لرحلة قام بها حنو القرطاجنى الى ساحل أفريقيا الغربى •

ومنذ القرن السابع كانت قرطاجنة مشتبكة فى صراع تجارى لا ينقطع مع المدن الاغريقية فى صقلية وفى الغرب استمر حتى القرن الثالث عندما استهدمت الحال مجابهة قوة روما التى كانت تسير فى صعود • وسنعود لقصة هذا الصراع فى فصل آت • وقد وجد الفينيقيون فى مناجم الفضة فى أسبانيا مصدرا لثروة هائلة • وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب ، وقد كانت حتى ذلك الزمن يعسر العثور عليها فى آسيا وافريقيا ، كمعدن له أعلى قيمة • واحتكر الفينيقيون أيضا حيناً من الزمن ، صبح الأرجوان الذى يستخرج من الرخويات البحرية • وبعد القرن الثامن فقدت فينيقية استقلالها • وفى زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد الفرس بالأسطول • وكنا نفتبط أن يكون لدينا مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلى لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم • ومع كل ما وصلوا اليه من حذق فى التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم فى البحار ، فإن الفينيقين لم يكونوا مبتكرين • لقد كانوا الوسطاء العظام فى زمنهم وكان عملهم ببساطة ، أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط •

١٤ - ويدين سكان كنعان الساميون ، الى جنوب فينيقية بأهميتهم التاريخية لما كان يربطهم من آصرة وثيقة مع العبريين ، بعد الفترة التى امضوها العبريون على تخوم مصر ، وانقاذهم على يد موسى (عليه السلام) فى الأسرة التاسعة عشرة ، تجولوا فى صحراء سيناء الى أن نجدهم يستقرون فى قادش فى جنوبى كنعان • رسنرى فيما بعد كيف أن موسى كان قد أوجد أمة عبرية بأقراره عبادة يهوه كدين قاصر على الأسباط العبرية • وبعد ذلك ببضعة أجيال ، عندما دخل العبريون كنعان ، تشبعوا بثقافة السكان الأولين وتحت التأثير الكنعانى ، أبدلوا عادات البداوة بحياة زراعية مستقرة ، وفى ختام الألف سنة الثانية نجم عن الكفاح مع الفلسطينيين وهم شعب غير سامى وربما كانوا مهاجرين من كريت ، قيام النظام الملكى فى عهد شاول البنيامينى واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الدنيوى • واحصم داود الشعوب التى تربطها وشائج القرابة ، مواب ، وادوم ، وعمون ، والممالك السورية الى الشمال ، وفى عهد خلفه سليمان ، نمت التجارة وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية ، واصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت ، ببساطة ، العادات القديمة بمدينة البلاط الحضرية • وبموت سليمان (حوالى ٩٣٣) أعلن الاسرائيليون

الشماليون يقودهم سبط افرايم استقلالهم عن الجنوب (يهوذا) . ودامت الملكية المنقسمة فى أقدار متقلبة ، مدة تزيد على مائتى عام ، وقامت المملكة الشمالية ، وكانت أقوى المملكتين ، بدور عظيم فى السياسة الدولية فى عهد بيت عمرى الذى سجلته ألواح آشور ، ولكن كان من الواضح أن الموضوع موضوع زمن ليس غير اذ أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق . وفى سنة ٧٢١ سقطت السامرة ، أمام سرجون الآشورى وتوارت عن انوجود المملكة الافرايمية . وأنقذ يهوذا ، فترة من الزمان ، اعتراف ملوكها بولائهم فى الوقت المناسب ، وفشل سنخارب فى مصر (٧٠١) الى أن حلت بابل محل آشور كدولة دانت لها السيادة فى الشرق . ثم على يد نبوخذ نصر حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦) واستطال زمن الشعب العبرى فى الأسر عند انهار بابل الى أن حملهم قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية على العودة الى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨) وكان فى هذا العهد أن العبريين - وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشرعية تجددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون الى النبوة ، ولو أنه كان لهم شأن يسير فى المجاملات الدولية الدنيوية - استهلوا رسالتهم الروحية للبشرية .

وسنتحدث فى الفصل القادم عن عبقرية العبريين فى الذين وعن أثرهم فى مدنية العالم .

٥ - كريت

١٥ - ألقينا نظرة شاملة على مصر وبابل وأشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق . م . عندما طوتها امبراطورية فارس القوية بين حناياها . ولكن لايزال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من مدنيات قامت فى كريت وجزائر بحر ايجا وشواطئه ، لقد سبق أن ألمعنا الى الغارات التى كان يشنها جوابو البحار على مصر فى زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . ترى من كان شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (داردنوين و اقيوشسين) وهما اسمان يقاربان اسمى دردانيين (= الطرواديين) واخائيين ، اللذين جاءا فى هومر ، وثمة طرافة خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الايجية الاولى علاوة على طرافة الكشف العجيبة التى رفع النقاب عنها علماء الآثار فى السنوات القريبة ، فى أنهم كانوا السابقين الاولين للاغريق . فحنذ سبعين سنة خلت ، لم يكن يعرف الا النذر اليسير أو لا يعرف شئ ما على التحقيق ، عن حياتهم وتاريخهم . وكان الرائد لعلم آثار ايجا هو هينريش شليمان (Heinrich Schieman) لقد أثارت خياله وهو صبي فى حاثوت تاجر فى المانيا ، القصص التى جاءت فى أشعار هومر ، فعلم نفسه الاغريقية وأصاب نجاحا فى العمل واكتنز مالا وفيرا وكان هدفه الاوحد هو أن يحقق بالبحوث فى موقع طرواده تراث العالم القديم

الهومري صدق قصص الألياذة وفي حصار لك في الطرواد (شمال غرب آسيا الصغرى) ، موقع طرواده كما ذهبت اليه الشائعات . وفي ميسينيا (Mycenae) وفي طرونس (Tiryns) ، في بلوبونيسس ، أزاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها الى الألف سنة الثانية قبل الميلاد ^(١) واقتفى العلماء من جميع الأمم خطواته ويأتى كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التى كشف عنها على هذا المنوال ، عن حياة منطقة ايجيا الأولى وثقافتها ، ويمكننا هنا فقط أن نرسم الخطوط المجملية لبعض النتائج الرئيسية التى كشف القناع عنها .

١٦ - فى غضون السنوات الألف الثالثة قامت فى جزيرة كريت مدنية باهرة متباينة الأشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجيا ورودس وقبرص وشبه جزيرة اليونان والجزائر الايونية وتشعبت أفرع لها بعد ذلك فى سوريا الشمالية وصقلية وفى غربى البحر المتوسط وأدت الى التواصل مع فلسطين ومصر . واطلق عليها اسم منوية (Minoan) باسم منوس (Minos) واضع القوانين وصديق زيوس (Zeus) الذى جاء فى الأساطير الاغريقية وتوجد ذكرى سيادته على البحار محفوظة فى صفحات ثقوديدس (Thucydidos) ^(٢)

والسلالة التى قطنت بكريت فى زمن ما قبل الهلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمى على ما يرجح كثيرا الى الأرومة غامقة اللون طويلة الرأس ، قصيرة القامة الناحلة الجسم التى كان موطنها الأصيل فى شمال أفريقيا . ان كريت حلقة اتصال طبيعية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وأصبحت على الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية . وكانت مدنيتهما لها لون يتميز عن مدنيتى مصر وبابل وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية) عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم فى مصر ومرة أخرى ، بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة) ، فى وقت معاصر للأسرة الثامنة عشرة المصرية . وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠ عاما .

(١) تعرف شليمان (Schliemann) طرواده الهومرية على أنها الثانية (من أسفل) من سلسلة المدن التى كشف عنها فى حصار لك . وفى الواقع ، اتضح أن هذه المدينة ترجع الى تاريخ سابق كثيرا (حوالى ٢٠٠٠) وأن المدنية الهومرية كانت المدنية السادسة أو ربما أوائل السابعة فى السلسلة (حوالى ١٤٥٠ - ١٢٠٠) .

(٢) ثقوديدس (Thuc) - ١ ، ٤ - قابل هيرودوت ١٧١-١٧٣ . ينسب قدماء الاغريق الكثير من قانونهم ، (مثلا تشريع لكورجس (Lycurgus) فى اسبارطه) وفنهم (أسطورة الصنم ديدالوس (Daedalus) أول طيار ، الذى أقام اللبورنت لمنوس ، والتماثيل التى تتحرك من تلقاء نفسها) والدين (ولدزوس فى مغارة دكتى (Dicte) الى أصل كريتي .

ولقد كشفت الحفائر الحديثة في كنوسوس (Cnossus) وفايسطس (Phaestus) وغيرهما من الأماكن عن قصور ملكية رائعة تزخر بها النقوش البارزة المنحوتة والصور وتحوى كنوزا من صناعة المعادن، من الذهب والبرنز والنحاس ودمى من العاج والصينى وجواهر محفورة وخزفا فى بدع نادر ، وكلها تقدم الأدلة الكافية على المستوى العالى الذى وصلت اليه الثقافة والتهذيب . وقصر كنوسوس بما فيه من تيه الغرف ، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات ، هو فى ذاته مدينة وهو قصر التيه (اللبورنت) الحق ، الذى كان فيه الأسرى ، كما جاء فى الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخي ، يقادون فى ميدان مصارعة الثيران كقرايين للوحش المقدس الذى كان معبود كريت . وكان نظام المصارف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد . وعندما استعرضت أمام عالم فرنسى أردية النساء فى صور المحيطان هتف : « ولكن انهن لباريسييات » *mais ce sont des Parisiennes !* ولقد صورن فى لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعة وقمص طرال الشق من الأمام ونطق صغار الصدر خيطة عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس ، وبنىقات عالية كتلك التى كان يتخذنهن سيدات الحاشية فى إنجلترا على عهد اليصابات، وكانت شعورهن مزرفنة (مجدونة كالزرفين وهو الحلقة) ومجعدة ولها أربطة من الدانتلا . وكن يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود . وكان الرجال يحلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مصفور فى حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سراويل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدمالج .

وكان مهندسو كريت المعماريون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا فى ممفيس وفى طيبة . وكان الكريتون أول شعب معروف فى أوربا استخدم الكتابة ، وقد وجدت نقوش فى حروف تشبه الهيروغليفية وحروف خطية على السواء ، بوفرة . . . وعندما يثبت أن الجهود التى بذلت لتفسيرها حققت نجاحا فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر . ومع هذا فإن ما نعلمه علم اليقين، هو أنه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت رواقها الى حد بعيد فيما يلى تخوم المنطقة الايجية ، وإلى مراحلها المتأخرة ينتمى كشوف شليمان فى طرونس (Tiryns) وميسينيا (Mycenae) ومن المحتمل أنه عندما هوت كريت من عليائها ورثت ميسينيا موطن أجاممنون الهومرى نصيبا من قوتها البحرية . ومهما يكن من أمر هذا ، فإنه توجد أدلة واضحة على أنه فى تاريخ يقرب من سنة ١٤٠٠ حلت بالمدينة المنوية فى كريت جائحة اطاحت بها . وتقص أطلال قصر كنوسوس المتفحمة قصتها . ويرجع الكثير الى فعل الزلازل ، ولكن الغزاة الهمج من الشمال كانوا يتداعون فى جماعات ، متواليات على العالم الايجي -

وكانوا محاربين أجلافا يتفوقون بالعدة والسلاح ، وأخيرا ، بمعرفة الحديد ، ولم يعنوا كثيرا بالثقافة الرائعة التي اطاخوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم ، الذين يتحدثون لغة هندية - أوروبية كانوا سلفا للاغريق الذين يعرفهم التاريخ . وجاء فى أعقاب هذا عصر ظلام استطال زمنه الى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنية القديمة بطبع وعبقورية الأسىاد الجدد مولد ثقافة اليونان التاريخية (١) .

١٧ - كانت شواطئ آسيا الصغرى الايجية كما سنرى وشيكا ، اغريقية من أبعد الأزمنة . وعندما قامت المدن التجارية الغنية فى القرنين الثامن والسابع ق.م كانت هدفا طبيعيا لحسد أمراء الاضطباع الداخلية . ان آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان الى الساحل الغربى تعزلها سفوح الجبال وقد حددت طبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخها . ان المدن البحرية ، وقد عزلت الجبال الواحدة عن الأخرى ، كانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية . وفى السنوات الألف الثانية كان الحيشيون ومن يتبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية . وفى القرن الثامن اجتاح القمرىون (٢) الرحل الهابطون من سهول السهوب (Steppes) فى شمال البحر الأسود ، آسيا الصغرى وعملوا فى المدن الاغريقية المكثبة من البحر تخريبا ونهبا . وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة وضربوا دولة ليديا الفتية ضربة قوية . وكانت ليديا فى ذلك الوقت (من القرن الثامن الى السادس ق.م) الدولة الحاجزة بين العالم الاغريقى وامبراطوريات الشرق العظيمة . وفامت أسرة ليديية جديدة تنقف أمراؤها بالثقافة الاغريقية وأعطوا الاغريق مقابل ذلك ما يميز فى المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد ، العملة ذات الطابع التى حلت محل المعدن ذى الوزن الذى لا يحمل طابعا والذى

(١) انظر ما يلى فصل ٤ : يذهب بعض الثقافة الى أن اليونانيين ورثوا ثقافتهم وحتى لغتهم من المينويين (Minoans) (أنظر برنت (Burnet) Early Greek Philosophy) الصفحة ٢ وما يلىها) واحياء الدين الشعبى (وهو يتميز عن فرائض العبادات الأولمبية) فى القرنين السابع والسادس يشير الى احياء التقاليد الدينية المنوية التى كانت تتركز فى عبادة الهة فى العالم السفلى . وكشف كريت فى القرن الحالى سترتبط أبدا باسم سير ارثر ايفانس (Sir Arthur Evans) .

(٢) ربما كان هؤلاء القمرىون بدوا من شمال البحر الأسود . كان العهد عهد غزوات من الشمال . وفى القرن السابع اجتاح السيثيون (Scythians) الذين طردوا القمرىين (Cimmerians) سوريا وكنعان (راجع هيرودوت ١ : ١٠٣ وما يلىها وتنبوءات ارميا وصفنيا التى أشير اليها فى الفصل التالى ٩) .

كانت تتداوله الثقافة البابلية وغيرها من الثقافات الأولى^(١) ، وحوالى عام ٥٦٠ ق.م أصبح كروسس ملكا على ليديا . وطالما كان يخضع الاغريق على سواحل ايجا فى آسيا ، فانه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الاغريقين . وعندما قهر قورش الفارسى ميديا (عام ٥٤٩) شن كروسس دونه أن ينظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين ، الهجوم على قورش وأغرمته الهزيمة مملكته (٥٤٦) . وصحب سقوط ليديا خضوع الاغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهندوكوش الى بحر ايجا .

٦ - امبراطورية فارس

١٨ - فى أزمن ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية - الأوربية موطنهم الاصل فى اراضى السهوب شمال قزوين وهاجر فى اتجاه جنوبى شرقى . ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الايرانية العظيمة . وفى بواكير السنوات الالف الثانية، يمت هذه القبائل الايرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلدنيا . وبعد ذلك بألف سنة ، نجد الميديين الى الجنوب من بحر قزوين والبرتين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى . وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهند . ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الآشوريون كعدة حرب^(٢) . ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تنافضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل وكان يختلف أيضا - على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى يومنا - عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند^(٣) . وبينما أخضعت العقيدة الهندية

(١) من المحتمل أن العملة المطبوعة قد ترجع الى تاريخ أسبق وربما كان منشؤها فروجيا (Phrygia) وعلى أية حال فإن أصلها يتصل بطريق القوافل العظيم الذى كان ينحدر من هضبة آسيا الصغرى الداخلية الى ساحل ايجا وكما جاء فى الأساطير بحقل الذهب فى سردس Sardis .

(٢) كما يدل على هذا الاسم البابلى للحصان « جحش الشرق » .

(٣) بين العناصر المشتركة عبادة ميترا وهو اله الشمس وذابح المسارد (اندرا الهندى) وعبادة النار والاعتقاد بشرة قدر يتفوق على الالهة والانسان . أنظر ف. كيمون (F. Cumont) - ص ١-٣ (Les mystères de mithra) وكان وارونا أعظم اله خلقى فى مجمع الالهة الفيديّة تطورا موازيا لاهور مزدا ومن أصل آرى مشترك .

كل الآلهة الأخرى إلى اله أعظم أوجد فان الدين الإيراني كان له مظاهر ثنائية ^(١) وكان مجمع آلهتهم يألف حول قوتين لهما السيادة ، الواحدة قوة الخير وهي ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت، وهي سالبة ، وكانت القوتان تسميان على الولاء، أهورا مزدا (أورمزدا) وأهريمن . والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الإلهيتين غدا يتعكس في مجرى تاريخ البشر . وبين الاثنين ، يقف الإنسان وقد وهب الحرية الخلقية التي يتوقف على استخدامها مصيره في العالم الذي يقع فيما يلي للحد . وكان الدين الإيراني ينزع إلى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود . معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شغوصا خلقين ولم يكن هدف الجهد الإنساني الاندماج التآلهي في مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الإنسانية وما يلزمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل في همة والقيام بالواجب الخلقى . وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي ، فان دين إيران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابهه معه في تعليمه الخلقى الرفيع . وكان الفرس يتساحون مع الديانات المحلية عندما لا تناسب دينها العداء ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم . وفي نقاوته كما نهض به النبي زرداشت ، كان دون ريب ، عقيدة الفلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة ، وكان من شأنه ، بين أيدي المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور إلى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه في صيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة ^(٢) . وكان مرجع قوته الحقيقية إلى اصراره على المسئولية الخلقية . ويستعرض فرس التاريخ نوعا نبيلًا من الخليفة ، لقد

(١) ولكن براهما الأعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيل للوصول إليه وكان الناس مساقين إلى استرضاء الهين أقل شأنًا هما سيوا ووشنو .
 (٢) عاش زرداشت على الأرجح حوالي عام ٦٥٠ ق.م وتحوى الأسفار الفارسية المقدسة التي يطلق على مجموعها لفظ أوبتا ، الجاتات وهي ترانيم ربما كتبها النبي نفسه . ويقرب المذهب الزرداشتي أن يكون توحيدًا . وكانت عبادة النار لها شأن عظيم إذ كانت النار أنقى مظهر لأهورا مزدا ، ويظهر أن المجوس الأوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل مخبر هيرودوت بهم كثيرًا . ولقد أثرت عبادات فارس ، كعبادات مصر وبابل ، في الدين الغربي أول ما أثرت في العهد الذي أعقب غزوات الاسكندر . وفي العهد الروماني ، كما سنرى فيما بعد ، كانت عبادة ميترا جد شائعة في عالم البحر المتوسط وأثرت الثنائية الفارسية على المسيحية في الشرق . انها أصل الاعتقاد في شيطان شخصي . أنظر كيمون Cumont في الكتاب السابق الإشارة إليه ، المقدمة ص ٦ - ٨ ، وفصل الله (عند الإيرانيين) ، في قاموس التوراة لهيستنج (Hastings' Dictionary of the Bible)

ولدوا حكاما للناس وكانوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأنهية والفخامة محبين للولائم والصيد وذوى انسانية فى الحرب ولهم أفضال على الشعوب التى عنت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح أو قد يستحوذون عليها . ولما غزا مقدونو الاسكندر فى القرن الرابع امبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا فى أشرف الفرس ، وهو فى الواقع ما كان حقها ، أنسبائهم القدامى . ولقد أظهر الفرس فى الفن وفى العمارة ، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج البابلية . أما التجارة فقد حقروها لأنها كانت غير خليقة بالرجل الحر . وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية . وكان الكذب أعظم الجرائم شناعة . ولقد لحص هيرودوت تدريب شبابهم فى الركوب والرمى بالقوس والصدق فى القول (١) .

١٩ - ولقد اتخذت فاجعة الامبراطورية الفارسية السميت الذى أصبح مألوفاً فى تاريخ الشرق ، الغزو والتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظاً لا يريم فالتدهور والسقوط ، تتابع كلها فى سلسلة منطقية . ويمثل قورش المؤسس وأحد بناء الامبراطوريات العظام ، فى التاريخ ، فترة الغزو . وعند موته عام ٥٢٨ ، كانت ممتلكاته تمتد من ايجا فى الغرب الى هندوكوش فى الشرق ومن قزوين فى الشمال الى صحراء العرب فى الجنوب . ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) . ولم يكن توكيده هذا لدعواه فى امبراطورية عالمية ، دون أساس : لقد كان قمبيز بن قورش هو الذى غزا مصر (عام ٥٢٥) والمستعمرة الاغريقية فى قورينا . ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن مدنية النيل تألفت بمدنية الفرات فى دولة واحدة . وتتركز الحقبة الثانية ، حقبة التنظيم فى شخص دارا بن كشتاسب (٥٢١ - ٤٨٦) . ان دارا هو طراز الادارى الشرقى على مدى الزمان . وكانت امبراطوريته شاسعة الأرجاء وهى مزيج من جميع الشعوب والأُمم واللغات ولا تنظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك ، وكانت تنقسم الى عشرين ولاية أو اقليم يحكمه نائب ملك . ولكى تكون البلاد بمأمن من خطر نشوب ثورة ، وضع دارا زمام السلطتين المدنية والعسكرية فى كل ولاية فى اياد مختلفات ، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن فى سوس مقر الحكم الرسمى ، يحمل لقب « عين الملك » ، هى الاشراف على الولايات .

(١) هيرودوت ١ - ١٣٦ وازن الصلاة فى ١ ، ١٣٢ . كان الفارسى يصلى من أجل الملك وجميع الفرس ولم يكن يصلى ، على الاطلاق ، لنفسه وحدها .

وساعد على تركيز التحكم ^(١) ، نهج رائع للطرق والمراكز . وكما كانت تجرى عليه الأمور في الإمبراطوريات الشرقية ، فإن الشعوب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها ، بعيدة بعدا تاما عن تدخل الحكومة المركزية . وكانت علامتا الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان . وكان أشرف الفرس يعيشون تربطهم أواصر شخصية وثيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون في الأقاليم فكانوا يكونون مع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالى . وعلى هذا ، كان يقوم بالرقابة على الوالى مجلسه وقائد الجيش والحكومة المركزية فى آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذى وضعه دارا النموذج الذى تحتذى الملكيات الشرقية التى جاءت فيما بعد ^(٢) .

وضم دارا أيضا البنجاب وبلاد العرب الى الامبراطورية وعبر السبسطس الى اوربا وتقبل ولاء تراقيا ومقدونيا . وفى ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشا لجبا لينهض باخضاع اليونان الحرة . وعلى مثال غيرها من دول الشرق ، جهدت فارس فى التوسع صوب الغرب الذى لاقت منه مصيرها المحتوم . ولكن قصة الصراع الاغريقى مع فارس تتصل بفصل آخر سيعرض له هذا الكتاب .

٢٠ - كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرن بعد ذلك (٤٨٦ - ٣٣٨) معنيين على الأخص بالمحافظة على الامبراطورية التى عمل دارا على لم شملها وقد أدى الوهن الذى حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة فى الأقاليم المتطرفة ، وخاصة فى مصر ، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها على التدرج ، وانتقل مركز النقل فى السياسة العالمية الى شواطئ بحر ايجاء . وقبل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقة الاغريق وقادتهم . وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو أردشير الثالث (أخوس)

(١) أمن الطريق الملكى من سوس الى سردس (فى ليديا) لأول مرة فى التاريخ السيطرة على آسيا الصغرى بقوة من بلاد ما بين النهرين . وكان يستطيع جيش أن يقطع عليها مسيرة عشرين ميلا كل يوم فى المتوسط ، وهذه حقيقة تفسر الى حد بعيد انتصارات الاسكندر . وكانت توجد أيضا طرق فارسية عبر آسيا الصغرى ، من الشمال الى الجنوب ومن بابل بالقرب من همذان الى بلخ ومن بلاد ما بين النهرين ، عبر فينيقية الى مصر ، ومع هذا فان مرتفعات شبه الجزيرة لم تكن عليها حراسة فى الواقع الى أن ظهرت روما على المسرح .

(٢) كان دارا بناء عظيما وسعى الى استرضاء رعاياه بالاسراف فى تقديم صنوف التكريم لدياناتهم ولقد استخدم نفس السياسة فيما يلى تخوم الامبراطورية بالهدايا تقدم الى مهبط الوحى فى دلفى الذى حبه بادية الأمر هجوم الفرس على الاغريق .

فى سنة ٣٣٨ فترة فوضى أتاحى للعدو فرصة فريدة اذ كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسى لليونان ، فى القرن السابق . وفى عام ٣٣٤ عبر ابنه الاسكندر السبىطس وأقام نفسه سيدا على آسيا الصغرى . وفى عام ٣٣١ حقق أعظم انتصار له فى جوجمىلا ، وبعد ذلك بعام ، بموت آخر خلف لدارا ، انتقل اللقب والامبراطورية جميعا الى الغازى المقدونى . ومن ذلك الوقت ، أصبح تاريخ الشرق الأوسط جزءا من تاريخ المدينة الهلينية .

٧ - الخاتمة

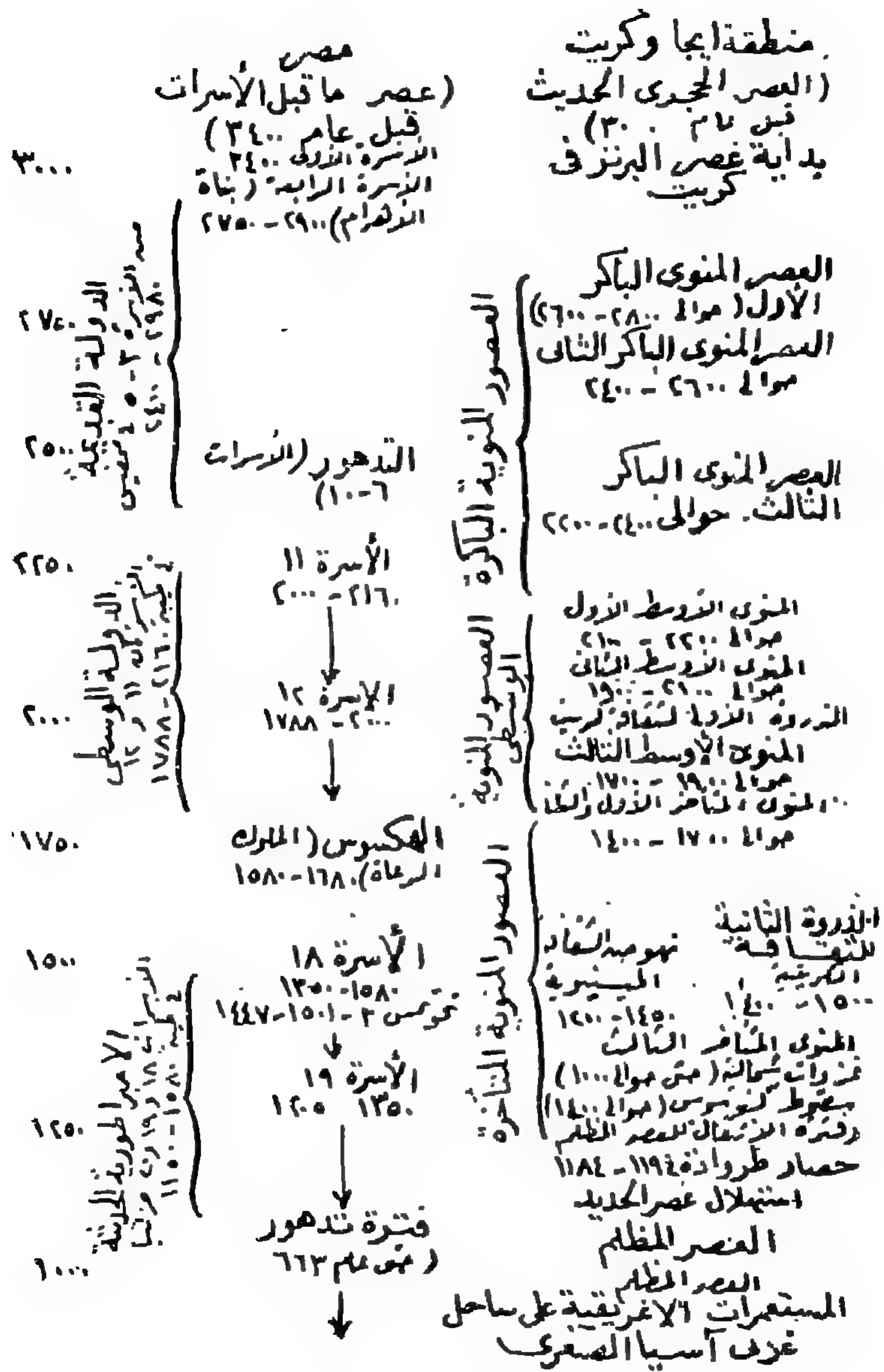
٢١ - ولو أن مختلف المذنبات التى مرت أمامنا فى هذا الفصل كانت لها أهمية جوهريّة بالغة ، فانها ، مع استثناء واحد ذات أهمية ثانوية بالنسبة لمستقبل العالم الغربى . واذا نظر اليها من هذه الناحية فيمكننا القول ألا شىء كان يلائمها أفضل من اندماجها ، آخر الأمر ، فى الهلينية . وسنرى قريبا كيف أنه عندما أصبح امتزاج الشرق والغرب حقيقة واقعة ، وفى عهد خلفاء الاسكندر أثارت أفكار مصر وبابل وفارس الدينية استجابة من داخل نطاق الثقافة الاغريقية - الرومانية . ولكن تلك الثقافة نشأت ونمت فى أوضاعها الخاصة على النقيض من فكر الشرق وعاداته ، أكثر من أن تكون بمعاونتهما . والاستثناء الوحيد الذى ألمعنا اليه آنفا هو ، دون مرأى ، دين العبريين ، ان دين المصور اللاحقة ، فى هذا المجال وكذلك فى مجال الاخلاق ، للسلالة السامية ، لا يحصى . ان عبريا من طرسوس كانت تنشئته فى أشد مدارس المذهب الفريسي الحق صرامة أصبح رسولا للوثنيين . وعلى هذا فان الفصل التالى سيخصص لدراسة الحقبة الانشائية الرئيسية فى التاريخ العبرى الدينى وعند ذلك سنتحول صوب الغرب ، الى اليونان وروما . وحتى دين العبريين ، لم يؤثر تأثيرا خطيرا فى الغرب الا بعد أن كانت اليونان وروما قد أقامت دعائم مدنيتهما . وكانت الهلينية قد وصلت الى ذراها قبل أن يشرع رسل الانجيل ، بزمن مديد ، فى العمل على جعل التقاليد العبرية ملائمة لمزاج وعادات العالم الاغريقى - الرومانى . لقد كانت الهلينية فى أرفع تعبيراتها ، كلها ، فى الفن والفلسفة والحياة المدنية ، الخلق المبتكر العبرية الاغريق . ولقد أضافت السلالات الاخرى ، مواد الى دعائم بنائها الاقتصادى وحافزا أمام حب استطلاعها العقلى وتركت هنا وهناك كما فى فن العمارة ، آثارها فى بعض تفصيلات جلائل أعمال الاغريق ، ولكن الاغريق كانوا يعرفون ما كانوا يرمون اليه عندما قابلوا بين ثقافتهم الخاصة وحياة الهمجية التى كانت تطفئ أمواجها حول جماعاتهم

الصغيرة من كل جانب ^(١) . ولقد قامت الثقافة ، كالسحر ، وسط عالم غريب كما نهضت الالهة أثينا في الاسطورة من رأس زيوس ويظهر تاريخ الشعوب المجاورة النقيض ويقدم الاطار للتعبير عنه ^(٢) .

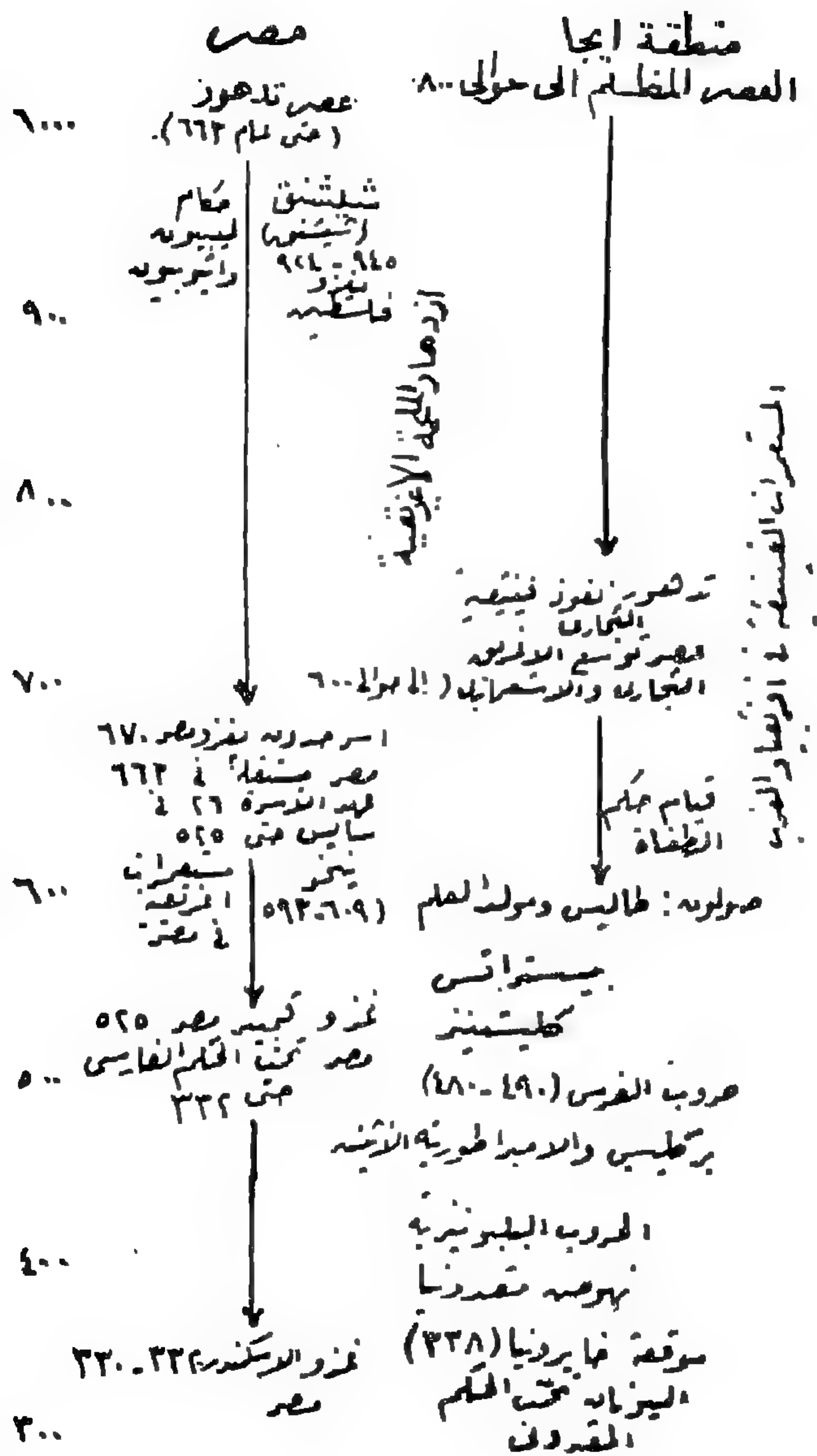
(١) يعرض برى (Bury) (العصر الهليني) الصفحات ٢٤ وما بعدها (Hellenistic Age PP. 24 ff.) الرأي بأن نظرية مرتبة الهمج الوضيعة هي من نتائج الحروب الفارسية وبعد ذلك ارتاب فيها الفلاسفة ، ولقد ارتأى افلاطون أن ملكا فيلسوفا قد يوجد بين الهمج ، وذهب الرواقيون شأوا أبعد حتى تصوروا أخوة تشتمل البشر أجمعين . انظر الفصل السادس القسم الرابع .

(٢) تحدث جروت (Grote) في مقدمة تاريخ اليونان (History of Greece) (١٨٤٦) عن حركة العقل الاغريقي التلقائية فقد كان يجد معاونة من الخارج ولكن لم يلجأ أبدا الى الاستعارة وبعث الضوء في شطر من العالم صغير كان بغير هذا غائما وراكدا ، ولقد كشف عن الشيء الكثير منذ زمن جروت ولكن تؤكد أن العلم الاغريقي كان مبتكرا ، يظل ثابتا لا يتزعزع .

جداول تاريخية



[illegible]



[illegible]

الفصل الثالث

دين العبريين (١)

١ - تقديم

١ - ان ديانات عالم البحر المتوسط العظيمة الثلاث، العبرية والاسلامية والمسيحية كلها من أصل سامي . ولائها لاتزال قوة حية بين الناس. فان هذا يقيم الدليل الذي يبقى على الزمن ، على قدر العبقرية الدينية التي كانت لدى الساميين . ولقد كان قبول الدينين الاولين مقصورا ، على وجه الاجمال تقريبا على الفرع السامي أما الثالث وهو الدين المسيحي فقد حطم منذ زمن بعيد حواجز السلالات وأقام دعواه ، كدين عالمي ، في ولاء الوثنيين والعبريين ولكن انجيله بشر به للعبريين في البداية وقام بينهم كتكملة تاريخية لناموس العبريين ونبوءة العبريين . ويواجهنا السؤال كيف تأتي لعقيدة قبلية لشعب سامي لا خطر له أن تقدم في غضون نمو التاريخي أساسا لرسالة روحية للبشرية ؟ أين كانت ، بين الحصال التي لازمت عقيدة العبريين القديمة وعبادتهم ، تكمن البذور لتكونا عامتين ؟ لم يكن لدين العبريين في مراحلها الأولى ما يتميز به كثيرا عن دين شعوب كنعان التي تحيط به . كيف حدث أنه بينما توارت آلهتهم بانهيار الدول التي كانت تعبدتها ، سياسيا ظل اله العبريين باقيا بعد السبى وتفرق شعبه ولا يزال موضع اجلال الملايين من جميع السلالات في زمننا الحاضر ؟ ان الجواب على هذا السؤال يتكشف في دراسة أنبياء العبريين . وكما أن عبقرية الاغريق العقلية وهي تعمل في مناهج لها نفع عام للفكر الانساني ، حولت معطيات التجارب التي لم تتناولها يد التهذيب ، الى بنيان من المعرفة التي يدعمها العقل ، وكما أن عبقرية روما السياسية صاغت قوانين مدينة ايطالية في مبادئ قضائية ، لدولة

(١) أطلق عبريو أزمنة العهد القديم على أنفسهم « أبناء اسرائيل » (بني اسرائيل) وأصل اسم اسرائيل غاهض وقد فسر : (الله) (ال) يجاهد ، أو يبقى) ، أما لفظ عبري فقد أطلق فيما بعد ومعناه ، طبقا للرأى التقليدي ، الشعب من الجانب الآخر من (اللفظ العبري . عبهريم) نهر الفرات (أو الاردن ؟) . واسم يهودي معناه (رجل يهوده) ويطلق على التحقيق على القاطن بفلسطين الجنوبية ، ومن الراجح أن اسرائيل وعبريين كانا في الأصل اسمين لعشائر .

عالمية ، كذلك محضت عبقرية العبريين الدينية التي تجلت عن طريق بصيرة أنبيائها ، عبادة اله قبل كانت وظيفته أن يخوض غمار معارك شعبه ضده منافسيه من الهة البلاد الأخرى ، الى عبادة اله واحد خالق الكون الذى يظهر أبوته الروحية فى حكومة بارّة تسود أمم الأرض جمعاء .

٢ - عندما لم موسى ، فى النصف الأخير من الألف سنة الثانية ، قبل الميلاد ، شمل فريق من العشائر السياسية فى مجتمع واحد ، فانه لم يؤسس أمة وحسب ولكنه أرسى قواعد دين^(١) وكان كحامل لوحى دينى ، على مثال محمد (صلعم) بعد ذلك بألفى سنة، انه استطاع أن ينهض بتحول بعيد الأمد فى عادات البدو الساميين القبلية التى لولا ذلك لظلت باقية على ما هى عليه . وقد ثبت عبادة يهوه لتكون عبادة شعب وبهذا أتى بأمة الى حيز الوجود^(٢) ومنذ ذلك الحين صار يهوه اله العبريين الذى أطلق سراح آبائهم من العبودية وقادهم خلال أخطار البرية الى أرض الموعد . وكذلك يمكن أن ينسب الى موسى وضع شعائر عبادة ونظام كهنى . ولقد كونت أحكامه الشعبية النواة لقيام شريعة (التوراة)^(٣) ودين يهوه هذا ، كما حملته

(١) ان تاريخ الخروج غير معروف على التحقيق . ويعتبر بعض الثقة أنه يتفق مع طرد الهكسوس أو الملوك الرعاة الساميين (فى أوائل القرن السادس عشر) ويذهب غيرهم الى أنه حدث فى الأسرة الثامنة عشرة (امنحوتب الثانى حوالى ١٤٤٥) وتذهب طائفة أخرى أن ذلك وقع فى عهد مرنפתاح (الأسرة التاسعة عشرة) حوالى عام ١٢٢٠ أو بعد ذلك بجيل .

(٢) كان اليهود ، خشية اساءة استخدام اسم يهوه المقدس يكتبونه بالحروف المتحركة لكلمة ادوناي (= ربى) أو الوهيم (= الهى) على أن يقرأ هذان اللفظان بصوت مرتفع بدلا عنه . ويرجع تاريخ هذه العادة الى ادخال علامات الحركة الذى حدث بعد قيام العهد المسيحى ببضعة قرون . وكانت الكتابة العبرية تتكون أصلا من السواكن . ومن هذا حدثت الصيغة المضللة يهوه التى أشار اليها فى زمن مبكر فى القرن السادس عشر بعد الميلاد بطرس جلطينوس (Petrus Galatinus)

de arcanis Catholicae veritatis, 1518)

ومعنى اسم يهوه غير مؤكد . ويعتقد بعض العلماء أن يهوه كان يعبدته العبرانيون قبل زمن موسى . والعهد القديم ، غامض فى هذا الأمر إذ أن الكاتب اليهيوى (ى) ، انظر التذكرة التالية) يذكر أن عبادته ترجع الى ما قبل الزمن الموسوى (تك ٤ : ٢٦) والكاتبان الالهى (ا) والكهنى (ك) يذكران أن عبادته أدخلها موسى (خروج ٣ : ١١ - ١٤ و ٤ : ٢ - ٣) ربما من مديان . وتاريخ ما قبل موسى غير محقق ويحيطه الغموض .

(٣) الأسفار الخمسة (أى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ، ويشوع تمثل تصنيف التاريخ والشريعة القديمين - اللذين وصلا الى شكلهما الحاضر بعد السبى - معا ويمكن تقصى أثر الجمع فى ثلاثة مصادر أساسية أشير اليها على الولاء بالحروف : اى ، ت ، ك .

العبريون إلى كنعان كان على التحقيق بدائيا ويتخذ الهه هيئة انسان . وكانوا يتصورون أن ليهوه شكلا جسيما ومقرا للسكنى وتدفعه العواطف الانسانية، من غيرة وغضب . ولقد كان الها محاربا « رجل حرب » يقاتل دون هوادة لأجل شعبه الخاص. ضد أعدائهم وعلى غرار حاكم شرقي كان يطلب مقابل هذا ، الولاء والعطايا . ولم يكن همه يتعلق بالفرد ولكن بالامة وبالامة خاصة فى ازمئة الحرب . ولكن يمكن أن نتبين فى هذا الشكل البدائى للعقيدة القومية بدور دين خلقى وان لم يكن دين توحيد ، فانه كان صراحة عبادة إله واحد من بين الهة كثيرين . ولقد أنفذ الأمر إلى العبريين : « لاتعبد

== (١) فستان للتاريخ الباكر كتبنا واحدة فى المملكة الشمالية (افرام) والاخرى فى الجنوبية (يهوذا) ربما بين عامى ٨٥٠ ، ٧٥٠ ق.م وقد ضمتا فى مؤلف تاريخى واحد ، عام ٧٥٠ على التقريب . ويطلق على الأولى (١) من استخدام اسم الوهيم للدلالة على الله (عز وجل) والاخرى يطلق عليها (٢) من استخدام اسم يهوه . والمؤلف الذى يضمهما يرمز اليه بالحرفين ي ا . (ب) شريعة التثنية يطلق عليها ت ويرجع تاريخها إلى منتصف القرن السابع (انظر ٨ - فيما يلى) .

(ج) التاريخ ومدونة القانون الكهنين يطلق عليها (ك) وربما يرجع انشاؤها إلى زمن السبى (انظر ١٠ و ١١ فيما يلى) . وتمثل أسفار التكوين والخروج والعدد امتزاج ي ا ، ك ، وينتمى سفر اللاويين إلى ك ، والتثنية إلى ت ، ويشوع إلى ي ا ، وهو من محررى التثنية ، وإلى ك .

وعلى القارىء أن يدرك أن المحررين المتعاقبين كانوا جامعين لا مؤلفين أصلا ، وأدمجوا فى مؤلفهم ما كان يوجد من وثائق قبل ذلك وأضافوا فقط ما كان لازما لتوافق المقتبسات بعضها مع البعض الآخر . وعلى هذا فان الكثير من القوانين والقصاص فى هذه الأسفار كان أساسها عادات وتقاليد وأغانى تاريخ سابق لها كثيرا وكان مرجع بعضها إلى سجلات مسطورة (مثال سفر العدد : ٢١ ، ١٤ وما بعدها ويشوع : ١٠ ، ١٢ وما بعدها) ونواة الناموس القديمة التى يطلق عليها سفر العهد أو الميثاق (الخروج : ٢٠ ، ٢٣ - ٣٣) والوصايا العشر الاقدم منها (الخروج : ٣٤ ، ١٧ - ٢٦) كانت موجودة كتابة قبل أن يجمع ا . وكذلك أيضا آخر ما جمع (ك) يحوى ثم ناموس قديم جدا فى سفر القداسة (اللاويين : ١٧ - ٢٦) الذى رمز اليه بالحرف ق وربما يرجع إلى ما قبل السبى . وبينما الشريعة كما توجد بين ايدينا جاءت متأخرة عن النبوة الاقدم منها ، فان الكثير من محتوياتها يرجع إلى ما قبل النبوة .

وعن الموضوع كله ، انظر درايفر (Driver) (مقدمة لأدب العهد القديم ص ٨٢ وما بعدها و ١١٦ وما بعدها Introduction to the Literature of the O.T.)

آلهة أخرى غيرى « (١) • ولم يكن ليهوه أساطير خرافية أو مجمع الهة يشتركون معه أو زوجة. — الهة كما كان طابع العبادات الكنعانية (٢)

انه كان مصدر الحق والعدل وقُدس أقداسه مستودع القانون المعترف به • ويكتب عالم معاصر نابيه : « ان فضل موسى العظيم يرجع الى الحقيقة الواقعة وهى أنه ألف بين الفكرة الدينية والحياة الحلقية » (٣) وكانت تربط يهوه بشعبه الآصرة الشخصية التى تكون بين أب وبنيه ، آصرة لا تستند الى وشيجة طبيعية من قرابة الدم ولكن الى الاختيار والارادة • لقد اختار يهوه العبريين وتقبل العبريون يهوه ، ونجد هنا أصلاً مبدأ « العهد » الذى جاء فيما بعد • ولقد كانت هذه العقيدة الحلقية التى تمثلت لعبرائى ذلك العصر فى مناصرة يهوه للعبريين ضد أعدائهم هى التى حفظت الأئمة الناشئة من أن تطويهاا مدنية الكنعانيين السابقة لها • وكان الاستقرار فى كنعان عملية امتزاج بطيئة تركت ، عرضاً ، علامات فى دين العبريين • وكما عرف المهاجرون البدو من جيرانهم عادات حياة الزراعة فانهم استحوذوا معها على عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم = أسياد البلاد) • ولم يكن هؤلاء البعلليم • على غرار يهوه ، آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمة تمثل فى شخصيتهم قوى الحصب والحياة المنتجة ويتألفون أزواجاً ، ذكراً (بعل) وأنثى (عشتاروت) ، ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية (٤) ولو كانت عملية الامتزاج سلمية بجملتها ، فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر الى مستوى الدين الكنعانى وكان يهوه قد اندمج فى البعلليم ولما ترك العبريون طابعاً على تاريخ البشر الروحي • ولكن كان على الغزاة أن يحاربوا لأجل ميراثهم ولقد حفظ شخصيتهم الدينية والقومية ، ما وقع من حرب متواصلة • وظل يهوه بين كل ما تملوه من العبادات الكنعانية كالمرفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمد المقدسة، اله شعبه المختار •

(١) عبادة اله من بين الهة كثيرين (Monolatry) معناها أنه ولو أنه توجد آلهة كثيرة فإن واحداً فقط هو الذى يجب أن يعبد ، اما التوحيد فمعناه أنه لا يوجد الا اله واحد •

(٢) تشير برديات الفنتين الى زوجة — الهة ولكنها تستعرض دين العبريين فى شكل حط من قدره • انظر كاوى (Cowley) (Aramaic Papyri) أدراج البردى الأرامية (المقدمة) •

(٣) كوينن ، دين اسرائيل (Kuenen, Religion of Israel)

(٤) كون الشهوة المشار اليها كانت نتاجاً لما تتطلبه العبادة يجعل الفارق أكثر ظهوراً • وتوضح ألواح راس شمرة (القرن الخامس عشر الى القرن الثالث عشر ق م) التى كشف عنها فى سنة ١٩٢٩ ، الاساطير الكنعانية على أتمها (انظر جاك (Jack) ألواح راس شمرة (The Ras Shamra Tablets) وتقدم الدليل على نشاط أدبي فى فلسطين ، قبل قيام الملكية الصيرية ببضعة قرون

وأغنية دبورة وهي واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبرى ، لا تزال باقية لتبين كيف أن عقيدة يهوه ألهمت عشائر العبريين في تلك المراكز القديمة مع الشعوب المحيطة بها ^(١) . وقد عملت على تقوية الشعور بقومية متميزة . الحروب مع الفلسطينيين في القرنين الحادى عشر والعاشر التى نجم عنها قيام النظام الملكى فى شخص شاول البنيامينى وغدا يتجسم فى الملك الاستقلال الدينى والقومى فى نفس الوقت . ومن ذلك الوقت فصاعدا ، أصبحت عبادة يهوه ، على الرغم من طائفة عظيمة من اضافات كنعانية ، الرمز المعترف به لمصير العبريين الذى تميزوا به .

٣ - واذا نحينا الى جانب المشاكل الغامضة عن أصل عبادة يهوه ، والى الجانب الآخر ، أرجأنا النظر فى تطور دين العبريين تحت تأثير النبيين الى دين توحيد خلقى خالص النقاوة ، فاننا نلاحظ الحصال التالية اللازمة لذلك الدين من عهود استهلاله على يد موسى الى أن وصلت اليهودية الى صوغها النهائى كدين عالمى فى القرنين الاولين من العهد المسيحى . وستفصح للقارىء عن الهوة الواسعة التى تفصل التقاليد الدينية العبرية ، قبل وبعد ان تستحوذ عليها المسيحية ، عن تلك التى يرجع مصدرها الى التفكير الهلينى سواء أكانت عن مسائل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) أو علم اللاهوت . وفى المكان الاول (١) كانت تقوم على الاعتقاد الذى لا يمارى ، بوجود الله (عز وجل) لا استنادا الى أية فروض استنتاجية عن وجوده أو طبيعته وجوهره . والجواب الوحيد الذى صرح به ، ردا على موسى وهو يستعلم اسمه كان تأكيد كينونته الذاتية : « أهيه الذى أهيه » ^(٢) وفى كينونته الذاتية ، فانه العلة ، كخالق لوجود كل ما هو كائن « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ^(٣) وهذه الكلمات ، فاتحة الأسفار الخمسة لا تعبر عن نظرية فلسفية ولكنها بيان أولى للوعى الدينى العبرى . ومن البداية أعلن يهوه نفسه الاله الحى ، ويكون قبوله بالايمان ويسمو على أقصى ما يصل اليه الاستقصاء الفكرى ^(٤) . وعلى غير شاكلة اله افلاطون . وأرسطو فان اله ابراهيم واسحق ويعقوب هو ، بالنسبة للعقل الانسانى ، اله مستخف (Deus abscontitus) . ثانيا (ب) دين العبريين موحى به . ويستمد سلطانه ودعواه فى طاعة الانسان ، ليس عن طريق العقل ولكن عن

(١) القضاة ٥ قابل الطلبة القديمة فى سفر العدد ١٠ ، ٣٥ ، ٣٦ :
« قم يا رب فلتتبدد أعداؤك » الخ .
(٢) الخروج ٣ ، ١٤ .
(٣) التكوين ١ ، ١ .

(٤) كما جاء فى تعبير دكتور هوايتهد (Dr. Whitehead) فى (Adventures of Ideas) : مغامرات الأفكار فان السؤال : « أتقدر بالبحث أن تجد الله ؟ » ، يصلح للفكر العبرى ولكن لا يستقيم مع التفكير الاغريقى .

طريق مصدره الالهى لا غير . والوحى واحد كما أن الله واحد . وكان تصور فقيض الله الذي تعاشى الدين الفارسى به ، مشكل مصدر الشر ، غريباً عن العقل العبرى ، تماماً . وعلاوة على هذا فقد كان الوحى نهائياً وكاملاً كما أن الله نفسه كامل ولا يتغير . « كل الدين أوحى به وكل فحوى الوحى كان الدين » (١) . وكان يتألف منه التوراة أو شريعة الله، ويشمل القانون المسطور (الأسفار الخمسة) وعلى سير الزمان ، تفسيره الشفوى أيضاً كما صيغ ووضعت له مذاهب ، فى النهاية ، فى المدارس اليهودية . وكانت الحال كذلك مع الأنبياء الذين لا ينطقون بأقوال من عندهم يدلون فيها بما لديهم من ثقة ولكن بكلمات أوحى بها اليهم يهوه . ثالثاً (ج) دين العبريين تنظيماً ، بما أنه التعبير عن الارادة الالهية بلغ بها الانسان ككائن ذى نشاط وله حق الاختيار . انه مجموعة من الأوامر تنظم سلوك الانسان وتفرض عن طرق جزاء فيها الخير أو الويل نتيجة لقبول الانسان أو رفضه «خافة الرب هى الحكمة» (٢) والى الحد الذى يجعل فيه الله طبيعته معلومة للعبريين ، فى الكشف عن ذاته ، تكون طبيعته كطاقة عملية فان الكون يصير الى وجود بفعل قوته الحرة . ويتجسم فى سجل تعامله كله مع العبريين غرضه الأساسى . ولو أنه يسمو سمو لا يمكن أن يلم به وصف ، على أساليب الزمن أو التغير ، فان وجوده باطن (٣) وتستبين ارادته فى كل جزئ فى الطبيعة وتاريخ البشر . ويكون مشهد نشاطه ، ليس الشعب المختار فقط ولكن الكون بأجمعه وجميع الأمم التى تسكنه : « ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير ؟ » (٤) . وهنا كمال غرض الله ولو أنه، على غرار فاتحته، عمل من التدخل خارق العادة ، فى مجرى التاريخ ، فانه يتصور ككارثة فى المستقبل التاريخى . وفكرة الحياة الأبدية التى يرتاح لها الفلاسفة الاغريق كانت غريبة عن نظرة العبرانيين الدينية . ان يهوه كان يسمو على الزمان ، ليس لأن لا زمن له ولكن لبقائه الذى لا يعرف نهاية : كان « منذ الأزل الى الأبد » (٥) وأخيراً ، انه من الجلى (١) أن ديناً توحى به هذه العقائد كانت تفعمه قدرة فياضة على التطور الخلقى . كان يهوه اله بر ورحمة أوصى بأعمال الصلاح والرحمة عبيده . وأولى هاتين الحصلتين كان يتمثل فى أنه فرض فى صرامة القصاص عن الخطيئة أى فى عبارة يوحنا «التعدي على الناموس» (٦)

(١) ج . ف . مور (G.F. Moore) اليهودية ١ : ١١٢ (Judaism)

(٢) عاموس ٩ ، ٧

(٣) فى مذهب وحدة الوجود ، ماهية الله باطنة فى العالم أى أن الله والعالم واحد (المترجم)

(٤) أيوب ٢٨ ، ٢٨

(٥) مزامير ٩٠ ، ٢

(٦) يوحنا الأول ٣ ، ٤ وازن يونس فى رومية الاصحاح الرابع .

والثانية فى استعدادة الذى لا يعتريه وهن للصفح عن الخطيئة بشرط اوحده هو توبة الخاطيء . وهنا لا يوجد وعى بالفرقة بين الواجب الدينى والواجب الخلقى . وكل يعمل سواء اكان صادرا عن الفرد او المجتمع يقع فى مجال المسئولية الخلقية وكذلك ينطوى على طاعة او عصيان الامر الالهى ، لان المجتمع (بيت اسرائيل) ايضا كان يتألف برابطة شخصية يهوه « كشخص ذى جسد » ، واقعى ، يتميز بأنه ينزع الى آداب السلوك ، عن وعى الجماعة الغريزية السابق للأخلاق وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذى هو نتاج تعاقد من جانب الافراد الذين ينتظمون أعضاء فيه .

٢ - نبوءة ما قبل النبى

٤ - فى هذه اللحظة نسمع أول ما نسمع ، عن النبيين عند العبريين . وكان الملك شاءول نفسه ، فى احدى الفرص ، من عدادهم ^(١) ولكن هؤلاء الانبياء لم يكونوا يتميزون الا قليلا ، عن انبياء البعل الذين كانوا بين ظهرائى الشعوب الكنعانية الاخرى وهم فرق من الدراويش الذين يستولى عليهم الجذب ^(٢) وكانوا تحت تأثير الموسيقى والرقص يتوهمون استحواذ الههم عليهم . ولقد كانوا رجالا من طراز حد مختلف عن عظماء المعلمين الذين تقدموا الصفوف بعد ذلك بقرون قليلة كنصرأ لعقيدة محضة . وكان بداية ظهور هؤلاء فى وقت تقسيم ملك سليمان فى المملكة الشمالية او الافرامية معارضين انتشار العبادات الدينية الغريبة والمدنية الدنيوية ^(٣) . وكان سليمان قد فتح الباب للتجارة الخارجية وانشأ أسباب التحالف الاسرى مع الملوك الاجانب ، وهى سياسة أدت الى تجديدات فى العادات الاجتماعية التى كرمها الزمن والى ادخال العبادات الاجنبية . ولقد جلب الثراء والترف فى أعقابهما فوارق الطبقات وانفصاما يتزايد بين الغنى والفقر وكانت السخرة ، على النموذج المصرى ، تمس الحاجة اليها لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهيكل الدينية واصبح جزءا من نظام الحياة الحديد وحوادث حاشية وحريم وحشد من الموظفين العسكريين والكهنة ، وهذه المظاهر وامثالها لملك سليمان حوكت فى المملكة الشمالية تحت أسرة عمرى (من حوالى ٨٨٧) . وعندما أقر أخاب بن عمرى شرعا عبادة بعل صيدا ووسع الحقوق الملكية

(١) صموئيل الاول ١٩ ، ٢٠ - ٢٤

(٢) الجذب - عند الصوفية حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق وتغشاه غبطة شاملة وهو قمة التفلسف الافلوطينى - مصطلحات مجمع اللغة العربية . (المترجم)

(٣) ان ثورة يربعام الاول واقامة مملكة افرامية منفصلة (٩٣٣) ربما كان مرجعها كراهية السخرة وقد أيدها أخيا النبى . انظر ملوك الاول ١١ ، ٢٨ وما بعدها .

فوق ما جرت عليه العادة التقليدية فان ايليا استنكر وهو مشتمل برداء بدوى مرددا روح البساطة البدوية البدائية، سياسة البلاط الدينية والديوية جميعا ^(١) . وقد عمل خلفه اليسع ، فى تألف وثيق ، بنقابات النبوة ، على اسقاط الأسرة ووجه ، كناصر معترف به ، تعاليم يوشع وابنه ^(٢) . وكان الظفر حليف النبوة فى المملكة الشمالية ، ولقد توطدت دعائمها كقوة خلقية فى المجتمع ، ولم تكن مجرد انتصار سياسى . وظهر ايليا واليسع دعوى يهوه ، القاصرة عليه ، فى ولائ اسرائيل وأن شريعته شريعة بر مطالبها بالخدمة الخلقية ، أبناء المختارين . وكانت عبادة اى اله آخر خطيئة وكان معنى عبادة يهوه ، تحقيق ارشاداته الخلقية فى حياة المجتمع . وهذا الاعتراف بشخصية يهوه التى تتصل بالسلوك القويم ، ذلك الذى مهد الطريق لصوت النبوة المكتوبة ، لا تشهد به فقط القصص المدونة، ولكن أقدم أجزاء الأسفار الخمسة أيضا ، التى ربما كان وضعها ، تحت تأثير رسالة النبوة التى أتت بها ايليا .

٥ - ان أقدم نبوة مكتوبة وهى نبوة عاموس ، يرجع تاريخها الى حكم يربعام الثانى فى مملكة العبرانيين الشمالية (٧٨٣ - ٧٤٥) ^(٣) . وتجلت مملكة افرايم فى مشهد من الرخاء الظاهرى . ولكن فيما وراء المظاهر ، كانت الأمة مريضة حتى الموت . وكان الأشراف والحاشية والكهنة ، كلهم سواسية فى الفساد . واستشرى الترف والشهوة والجور وظلم الفقير . واتاحت العبادة فى الهياكل العظيمة مثل بيت ايل فرصة سانحة ليس فقط للحفلات الصاخبة كثيرة التكاليف ، والمراسم الرائعة ولكن لأعمال العنف والظلم أيضا ^(٤) . وأصبحت تتوارى الشفقة الأخوية القديمة بانتشار الثروة والانغماس فى الشهوات الذاتية . وكانت طبقة الزراع الأحرار التى ظلت حتى الآن دعامة الأمة فى السلم والحرب ، تسير الى دمار . وفيما يلى التخم،

(١) كان فى انتهاك آخاب للعادة الاجتماعية فى موضوع كرم نابوت اشارة للشعور العام أكثر من أية ظاهرة أخرى فى سياسته . ويمكن وضع تاريخ حكم آخاب بعد عام ٨٥٣ .

(٢) « مركبة اسرائيل وفرسانها » كما نعتة الملك (الملوك الثانى ١٣: ١٤) (٣) تقع نبوة عاموس بين عامى ٧٦٥ و ٧٥٠ ونبوة هوشع ، فى مملكة العبريين الشمالية أيضا ، بين عامى ٧٥٠ و ٧٣٤ . ويلى هذين النبيين فى الترتيب ، ميخا واشعيا وكلاهما فى يهوذا ، خلال الشطر الثالث الأخير من القرن .

(٤) أنظر عاموس وهوشع على وجه عام ، أما عن الجور وانحلال الروابط الاجتماعية فيمكن الرجوع الى عاموس ٢ ، ٦-٨ ، ٣ ، ١٠ و ٥ ، ١١ و ٨ ، ٤-٦ وهوشع ٤ ، ١ ، ٢ وعن العبادة الاباحية وعبادة الأصنام عاموس ٢ ، ٧ ، ٨ وهوشع ٤ ، ١٣ ، ١٤ وعن فساد الأنبياء والكهنة هوشع ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ٦ .

جلب تدهور دولة دمشق الحاجزة ، تهديد آشور المروع الى أبواب العبريين عيناها ^(١) وقد عميت أبصار الملك والشعب على السواء ، عن المصير المحتوم ولكن أمام بصيرة صافية ، كان الدمار قريبا ومحققا ، كما كان يمكن أن تصير اليه حال بلجيكا سنة ١٩١٤ لو أنها واجهت ، دون حليف ، هجوم جحافل الألمان . وكان فى مثل هذه الضائقة أن عاموس ، راعى القطعان وجانى الجميز من تقوع الواقعة فى المرتفعات الجنوبية التى تحف بالبحر الميت ، ظهر بين الصاخبين المتهللين الذين لا يعاون بشئ ، فى بيت ايل ، لينطق بكلمة القضاء التى أوحى بها يهوه الى خادمه . وكانت رسالة عاموس ، كرسالة كل من سبقوه من الأنبياء ، كثيبة كاتبة لا تتحول . لقد عمل العبرانيون الشر وسيجتلى قضاء يهوه الحق فى تدمير الأمة تدميرا لا يبقى ولا يذر . وكان الناس يتطلعون الى « يوم يهوه » الذى كانوا يعنون به اليوم الذى فيه ينتصر العبريون ، فى القتال ، على أعدائهم . وقد أودع عاموس ، وهو يعلن عن المغير الأشورى كأداة ليهوه ، فى الكلمة الماثورة القديمة ، مغزى جديدا مروعا : « ويل للذين يشتهون يوم الرب ! لماذا لكم يوم الرب ؟ هو ظلام لا نور » ^(٢) .

وعند عاموس ، لم يكن يهوه أبدا « اله العبريين » ، انه يهوه اله الجنود ، ليس رب الجيوش القومية ، ولكن رب جنود السماء والأرض . وكان الدين الشعبى يرى فى الهزيمة آية بأن يهوه تخلى عن شعبه ، وعند عاموس كان الانهيار المتوقع أوضح انتقام لعدالة يهوه من الشعب الذى تركه ، ولسبب انه اختارهم ليكونوا مستودع معرفته ، فان عدم طاعتهم الخلقية أثارت عقابه البار : « اياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم عن جميع ذنوبكم » ، « من أجل ذنوب اسرايل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعليه » ، « سقطت عذراء اسرايل لا تعود تقوم انطرحت على أرضها ليس من يقيمها » ^(٣) .

٦ - ان نبوءات عاموس وهوشع تسترعى الانتباه ليس لأنها تشمل فجر عهد جديد فى تاريخ العبريين الروحي وحسب ، ولكن لأنها تشمل الحصال الجوهرية كيفا وجوهرا للتعليم التنبؤى السابق للسبى . وكانت رسالة النبي اعلان « كلمة » يهوه لشعبه وكانت النبوة توصيل وحى شخصى ، وليس جوهرها فى التنبؤ عن حادثات تقع فى المستقبل . والنبي

(١) استرد يربعام الثانى كل فلسطين الشرقية حتى شمال لبنان ، الملوك الثانى : ١٤ ، ٢٥ ، وقد غزا الأشوريون دمشق عام ٨٠٣ وربما كان يربعام يدين لآشور بالولاء .

(٢) عاموس ٥ ، ١٨ .

(٣) عاموس : ٣ ، ٢ و ٦ ، ٥ ، ٢ .

شخص يتحدث بالنيابة عن يهوه في اعتراض مدرك ، لعالم الحكام الديويين .
والكهنة الرسميين والرأى الشعبى وجتى نقابات التنبوء . ويقول عاموس .
« لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبي » ^(١) ، وصوته صوت من يصيح في البرية
في استنكار يتفجر عن عاطفة عنيفة ، للمخازى العلنية وجور النظام
الاجتماعى . والقول الذى يعلنه ليس قوله وانما قوله يهوه ووظيفة التنبوء .
ليست من اختياره . لقد أحس بسلطة يد يهوه القاسرة وينطق فقط بما
وضعه يهوه في فيه : « الاسد قد زمجر فمن لا يخاف ؟ السيد الرب قد
تكلم فمن لا يتنبأ ؟ » ^(٢) ومن هنا كان رسوخ اعتقاده الشخصى وتيقنه المطلق
من صدق رسالته . ولكن بيانه لم يكن مجرد أقوال تضطرم حماسا ، ناجمة
عن الجذب وكذلك لم تكن تعتمد على اثارة مصطنعة . ولا يمكن تعرف الا
القليل من الانحراف البدنى أو العقلى في كتابات التنبوء . والاحوال والرؤيا
خارقتا العادة ، اللتان تصحبان تجاريب النبوة (وأكثر ماتجيثان في حزقيال ،
وأقل في أرميا) تقبلان على أنهما موضوعيتان وترجعان الى وحي مباشر من يهوه ^(٣)
ويأتى قول يهوه مصداقا لعقله وضميره . وقد يكون الوحي عن طريق الرؤيا
أو أعم من ذلك بالكلمة ، ينطق بها ، وقد يؤيد بالآية ويعززه المثال والرمز
ولكنه في جميع الحالات جلى وحاسم ^(٤) . وعلاوة على هذا فان الرسالة توجه
الى الأمة ويندر أن يخاطب بها الفرد . ولم يكن للفرد الى الآن الا شأن
يسير في دين العبريين وكان الجزاء ، للخير أو للضر ، يوقع على المجتمع في
مدرجة تاريخه الديوى . وسنرى في التعقيب كيف أنه في زمن لاحق ،
ظفرت دعوى الفرد من العبريين ، بالعدالة الالهية والامل في نعيم بعد الموت ،
بالذكر في الدين العبرى . ولكن موضوع الانبياء الاوائل هو التزام
الاستقامة القومية واحكام يهوه على الخطيئة القومية . ومرة أخرى ، تكون
الرسالة ، كوحى بغرض يهوه هي في ذاتها الضمان وليست في حاجة الى
دعم بالدليل . واذا مست الحاجة الى برهان ، فانه يقدم ، لا بالاستنتاج
العقلى المجرد ولكن بآية أى بدلالة محسوسة مادية عن مصدرها الالهى .

(١) عاموس : ٧ ، ١٤ وازن هوشع ٩ ، ٧ والفقرة القصصية عاموس
٧ ، ١٠ - ١٧ تفصح في جلاء عن هذه المعارضة لسياسة الحكام وطوائف
الكهنة .

(٢) عاموس ٣ ، ٨ قابل عاموس ٧ ، ١٤ وما بعدها واشعيا ٦ وارميا
١ و٢٣ ، ٩ وحزقيال ١ ، ٣

(٣) أنظر هويلر روبنسن « الشعب والكتاب » الصفحات ٣٧١ وما بعدها .

(Wheeler Robinson «The People and the Book»)

ان النبى يعنى معنى الالهام وعلى شاكلة الشاعر فان شطره خلق وشطره تصور
(٤) دون أشعيا رؤيا واحدة في غضون أربعين عاما من رسالة النبوة .
وتخلو نبوءاته كلها من أية عاطفة يستعر فيها الحماس .

وانا لا نجد أى أثر للاستدلال الفكرى فى النبوة العبرية . لقد كان تعليم النبى يعنى بالمراس ، لا النظرية ، ورجوعه لا يكون للعقل ولكن للارادة ^(١) وكان الباعث له ، فى كل مرحلة ، تأزم واقعى فى مصائر الامة . وقد أثار التهديد الأشورى رسائل عاموس وهوشع واشعيا ، أما البابلى فرسالة ارميا . وهنا تقدم النبوة العبرية نقيضا للفلسفة الاغريقية ، يسترعى البال . اذ بينما كان الفكر الاغريقى يتلتمس تفسيراً عقلياً لكل واقعة وأسباباً عقلية لكل حكم فان النبى العبرى كان يجد التوكيد الكامل فى الحدس ^(٢) المباشر بارادة يهوه وكان يقدم لقوله بالتصريح البسيط « هكذا قال يهوه » والواحد كان زهرة الثقافة الدنيوية والاخر خصمها الذى لا ينزل عن شئ من حقه فى سبيل صلح . وادعى كل منهما أنه يعرف الحق ، الأول بمعرفة العلم الذى يقوم على العقل ، والاخر بمعرفة الايمان الخلقى .

٧ - ولم يكن ضمان الصدق موجوداً فقط فى وسيلة الوحي التنبؤى ولكن فى جوهره . كان طبع انبياء ما قبل السبى ، طبع توبيخ صارم لخطيئة العبريين وفيه قنوط أسى من توبة العبريين . وطريق الخلاص مفتوح « اطلبوا الخير لا الشر لكى تحيوا » ^(٣) . ولكن ليس للنبى الا أمل ضئيل فى أن ينتهج . انه النبى الكاذب ذاك الذى يهتف بالسلام حيث لا يوجد سلام ولا رضاء الناس يعلن عن أمن وهمى ^(٤) . وعندما هوت الضربة وحمل العبريون الى السبى ، تتغير النعمة وتكون رسالة يهوه وعدا بالبركة وبالعودة ^(٥) ونقرأ فى اشعيا عن بقية عادلة من الشعب ينقذون فى ساعة اليأس ليكونوا نواة

(١) ان ما ينطوى عليه لفظ « لب » ويترجم عادة « قلب » هو معنى الارادة لا العاطفة . انظر فيما يلى فقرة ١٦ .
(٢) الحدس - ادراك الذهن لموضوع الفكر ادراكا مباشرا ويقابل الاستدلال .
(المترجم)

(٣) عاموس ٥ ، ١٤
(٤) ملوك الاول : ٢٢ واشعيا ٣٠ ، ٩ - ١١ وأرميا : ٢٨ و (خاصة) حزقيال : ١٣ والثنية : ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ تضع معيار الصدق فى انجازه ولكن قابل الثنية : ١٣ ، ١ - ٤ . قد تتم النبوة الكاذبة وقد لا تتم النبوة الصادقة . انظر شارلس (الاخرويات Eschatology) Charles صفحة ١٨٥ ، تذكرة .

(٥) من الراجح أن مثل تلك الفقرات التى جاءت فى عاموس ٩ ، ٨ - ١٥ وهوشع ١٤ التى تنبأ عن اعادة فى المستقبل - ترجع الى تاريخ لاحق وربما قد تكون الاخيرة صادقة . وهى تجد القبول لدى روبرتسون سميث (Robertson Smith) ودرايفر (Driver) (المقدمة - الصفحات ٣٠٦ و ٣٠٧) الذى يدل على أن الانبياء الذين يسرون على هدى الوجدان وليس المنطق ، ربما كانوا قد عبروا عن الرجاء فى اعادة مثالية ، فى خاتمة تحذيراتهم الاستنكارية .

لا إلهة عبرية متجددة • ولكن اليأس من توبة العبريين لا يلقي أبداً ، للحظة ، ظلاً من الريبة على إيمان النبي بحكومة يهوه البارة ، ليهلك العبريون إذا كان في هلاكهم ، تتجلى عدالة يهوه • ولم يكن المغير الاثوري إلا أداة ارادته المقدسة القديرة على كل شيء • وعند عاموس وهوشع ، كان يهوه إله جميع الأمم وإله الأرض كلها • وقوته تبسط رواقها على الطبيعة وعلى جنود السماء وحتى على مستقر الراحلين (شيلول = جهنم) ^(١) ، إنه كان شخصاً خلقياً ، لم تترك سيادته العامة الفريدة مجالاً لأي قوة إلهية أخرى سواء • لقد كان حضوره الحي وهو يدأب على العمل الناشط ، وليس جوهره ، هو الذي تمتلئ به عقول الأنبياء ، ولقد فسروا نشاط ارادته في حدود أقصت الاعتراف بأي إله آخر غيره • وكانت حكومته الخلقية تتجلى في معاملاته مع جميع الشعوب وفي المكان الأول ، مع شعبه المختار • وعلى مثال العبريين ، كان مفروضاً أن يوقع على الشعوب الوثنية القصص من أجل خطاياها ^(٢) وفي تعبير عالم معاصر عظيم ، يتصور الأنبياء فاجعة إلهية مسرحها الأرض ، والأشخاص القائمون بالأدوار فيها ، الشعوب ، والبطل مدار الرواية ، الشعب العبري ومؤلف الفاجعة ، يهوه ^(٣).

ولقد فتح قيام الاثوريين عيونهم إلى عالم أوسع ونجم عن هذا التوسع في أفق خيالهم ، تقدم البصر الروحي وكان في الإيمان بحكم يهوه الخلق ، ما يكفي العالم الأكبر كما يكفي العالم الأصغر • ومرة أخرى ، حمل تصور شخصية يهوه الخلقية هذا ، معه ، مطلب الخدمة الخلقية من عابديه • وكانت السنن الرسمية والمراسم الحاوية لا شيء ، في نظره • « انى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » • « بغضت كرهت أعيادكم ولست التذ (لا اشم - النسخة المنقحة) باعتكفاتكم : انى اذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى • • • وليجبر الحق كالمياه والبر كنهر دائم » ^(٤) • إنه في

(١) عاموس ٩ ، ٢ اشعيا ٧ ، ١١ ومع هذا فان التصور البدائي عن أن شيلول (جهنم) خارجة عن نطاق حكم يهوه ظل قروناً بجانب مذهب التوحيد وعدم الترابط التفكيرى هذا لم يكن يحس به (أنظر اشعيا ٣٨ ، ١٨ ومزامير ٨٨ ، ٥) •

(٢) عاموس : ١ و ٢ و ٩ ، ٧ • إنه لأجل مظالم ارتكبت ضد العبريين ، أن خمسة من الستة شعوب التي أثير إليها في الأصحاحين الأول والثاني سيوقع عليها القصص • ولا يزال التعميم الذي جاء بعد ذلك ، بعيداً ، وفي اشعيا : ١٠ ، ٥ - ١٥ نجد أشور داخل نطاق سيادة يهوه •

(٣) ولهوزن (Wellhausen) الذي يوضح زيادة على ذلك ، كيف أن الأنبياء أدمجوا في دينهم التصور الحديث لدولة - عالم (أى أشور) التي كانت تحطم الأمم الأخرى ودياناتها •

(٤) هوشع : ٦ ، ٦ وعاموس : ٥ ، ٢١ - ٤ قابل اشعيا : ١ ، ١١-١٧ و ٢٢ ، ١٢ - ١٣

صورة المعرفة ، أن الأنبياء يعبرون عن العلاقة الخلقية بين يهوه وشعبه .
ان يهوه كان يعرف اسرائيل وأبني اسرائيل أن يعرف يهوه . « لا أمانة
ولا احسان (محبة) ولا معرفة الله في الأرض ... لقد هلك شعبي من عدم
المعرفة لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا » (١) . وعند عاموس ، تكون
هذه المعرفة بالاعتراف العملي بالعدالة الاجتماعية وفي مراعاة الانسانية
والتعامل العادل بين الانسان والانسان . وعند هوشع ، تكون نعمتها
الجوهرية المحبة ، محبة الطفل لأبيه والعروس لزوجها . ان ما تمرس به
شخصيا من تجربة مريرة في عدم أمانة الزوجة التي كان يحبها يضيف
شعورا فريدا بالاشفاق على الصورة التي وضعها هوشع لرفق يهوه الذي
لا يعتريه وهن ، وهجران العبرين ليهوه لاشباع شهوة جسمية للتعليم
الكنعاني . لقد فصمت الامة وثاق زواجها ، وفي قلب « وجمع » يساق يهوه
الى النطق بالحكم على مصيرها : « والآن اكشف عورتها أمام عيون محبيها
ولا ينقذها أحد من يدي » (٢)

٨ - لقد عاجلنا في شيء من الاستفاضة رسالة عاموس وهوشع التنبؤية
لأنها استهلكت عهدا جديدا له مغزى يفوق الحصر في تطور دين العبريين .
ولقد أزاح أنبياء العهد اللاحق الغطاء عن مظاهر تعليمهما الجوهرية بتطبيقها
بوسائل متباينة على مجرى التاريخ العبري المتغير . وبسقوط المملكة الشمالية
(٧٢١) ينتقل مركز الاهتمام صوب الجنوب الى يهوذا وهنا ، تحت امرة
ملوك من سلالة داود ، أصبحت الحكومة مركزة ومستقرة وغدت الحياة
الاجتماعية ، ما عدا بلاط بيت المقدس ، أكثر بساطة وأقل ترفا وحتى ذلك
الحين كان التهديد الاشوري نائيا . ولكن الآن ، جلب غزو السامرة العدو
حتى الابواب عينها . ولقد أتاح الأزمات القومية ، كشأنها دائما ، الفرصة
للوحي التنبؤي في شخص ميخا ، وهو زارع من تخم فلسطين واشعياء من
بيت المقدس وهو أكبر شخصية في النبوة العبرية . واستغرق عمل اشعياء
الأربعين سنة الأخيرة من القرن الثامن وكان منتهاه في عهد الملك حزقيال
عام ٧٠١ ، عندما غزا الاشوريون في عهد سنخريب يهوذا وظهروا أمام
أسوار الحاضرة ، وتتضمن الفصول التسعة والثلاثون الأولى من السفر الذي

(١) هوشع : ٤ ، ١ ، ٦ قابل عاموس : ٣ ، ٢ ، ١٠ وهوشع : ٢ ،
على قصور اسرائيل عن معرفة يهوه .

(٢) هوشع : ٢ ، ١٠ قابل ١ و ٣ و ١١ ، ١ - ٨ والاستنكار النهائي ١٣

يحمل اسمه ^(١) ، تنبؤاته وهي في مادتها ، تضرب على النغمة التي صدح بها عاموس وهوشع نغمة الاستنكار العنيف للخطيئة القومية وقصاص يهوه المحيق ، على يد أشور . والتصور الذي يتملك اشعيا هو القداسة ، التعبير الشائع في الدين السعبي ، الذي يضيف عليه معنى روحيا جديدا . ان يهوه ليس فقط « رب الجنود » ولكن « قدوس اسرائيل » . والعبريون شعب مقدس تخصص لخدمته . ولقد كانت قداسة يهوه على النقيض من نجاسته هو ونجاسة اسرائيل التي أوقعت على النبي الحزى والفرع في الرؤيا الرائعة التي دعت الى خدمة النبوة ^(٢) وتمثل شريعة القداسة ، كما في عاموس في مطلب العدالة الاجتماعية وكما في هوشع في مطلب الاخلاص الشخصي . وخطيئة الشعب هي أنهم « ردلوا شريعة رب الجنود واستهانوا بكلام قدوس اسرائيل » ^(٣) . ويتميز اشعيا عن تقدموه ، بالزمن المديد الذي استمر فيه نشاطه التنبؤي وبمكانته كناسح سياسي للملك ، معترف به ^(٤) وفي داخل الدولة ، كان يبشر بالعدالة نحو الزراع الذين كان يتكون منهم ، كما في

(١) وخاصة في الاصحاحات ١ - ١٢ و ١٤ ، ٢٤ و ٢٣ و ٢٨ - ٣٢ . ويرجع « مفر اشعيا » في صيغته الحالية الى ما بعد السبي . وأية مناقشة للمسائل التي يثيرها النقد الحديث ، تقع خارج نطاقنا . ويجب على القارئ الرجوع الى روبرتسون سميث (Robertson Smith) أنبياء اسرائيل (Prophets of Israel) المحاضرة الخامسة (وخاصة التذكرة ٧ صفحة ٤٢٢) ومقدمة أدب العهد القديم لدرافير

(Driver's Introduction to the Literature of the O.T.)

أما عن آراء أكثر جزما فانظر شين (Cheyne) التعريف باشعيا ، ومقالته « اشعيا في موسوعة التوراة (Encyclopaedia Biblica) » ، أما عن اشعيا الثاني فانظر ١٥ فيما يلي .

(٢) اشعيا : ٦ يجب دراسة الرؤيا في عناية . في الدين التقليدي كان الشيء المقدس محرما أي محظورا على البشر استخدامه لأنه (مشحون) بخواص من خوارق الطبيعة . أنظر روبرتسون سميث (دين الساميين) المحاضرة الرابعة (التذكرة ب) ويشوع : ٧ (قصة عخان) وصموئيل الأول : ١٥ (شاول وأجاج) وصموئيل الثاني : ٦ (عزه والتابوت) ولللفظ في اشعيا دلالة داخلية وروحية خالصة ، عن تقديس وتطهير القلب ولكون الكلمة عينها تستعمل كقلب لعاهرات المعبد اللواتي يحتجن لفرائض المقدس الشهوانية التي لم تلغ الا عند اصلاح التثنية فان هذا يمكن أن يعد مقياسا للهوة الواقعة بين النبوة العليا والدين السعبي ، في ذلك الزمن .

(٣) اشعيا : ٥ ، ٢٤

(٤) وازن علاقاته مع احاز زمن الغزو السوري - الافريمي (٧٣٥ - ٤) اشعيا : ١٧ ، ١ - ١٦ ومع حزقيا زمن غزو سنخريب (١ ، ٧) ملوك الثاني : ١٨ ، ١٣ و ٢٠ (وهو المصدر الذي أخذ عنه اشعيا ٣٦ - ٣٩ في معظمه) .

اسرائيل الشمالية العمود الفقارى للأمة وبالحاجة الى تحقيق الفروض الدينية كجزء لا يتجزأ من الحياة العادية ^(١) وفى السياسة الخارجية كان يحض على أن تطلع يهوذا عن الاشتباكات الدولية وخاصة التحالف مع مصر وغيرها من الدول ، ضد آشور ^(٢) وكانت مشورته الباكورة لآحاز التى أعيدت بعد ذلك بأعوام على حزقيال فى مواجهة هجوم سنخريب : « احترز واحداً • بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم » ^(٣) ولقد وطد انهيار الجيش الاشورى سلطة اشعيا أمام عينى الملك والشعب • ونجم عنه أكثر من هذا لأنه هيا ليهوذا مجال تنفس لاستيعاب درس التعليم التنبؤى • وفى المملكة الشمالية كانت الطامة قد حلت سراعا عقب تحذيرات عاموس وهوشع • ولم يعد بعد لدين يهوذا أثر بين الأسرى فى آشور أو بين الفلول التى بقيت فى فلسطين ولو كانت يهوذا لاقت مصيراً مماثلاً على يد سنخريب قبل أن تظفر حياة شعبها الدينية بقوة جديدة من رسالة اشعيا ، لكان الإيمان باله قوماً خالص قد اندثر بسقوط الأمة • ولكن يقين اشعيا كان يبرره الحادث وزال الخطر ومنع التدهور السريع الذى حل بدولة آشور بسقوط يهوذا طوال قرن من الزمان • وعندما حل ذلك السقوط على يدي بابل ، كانت رسالة اشعيا قد تأصلت جذورها • وكانت قد تجمعت حوله ، فى حياته ، شذمة أمينة وكونت النواة لمجتمع دبنى فى داخل الأمة ويتميز عنها وفى هذه العصبية من تلاميذه ^(٤) كان يرى النبى الأمل فى عودة ، فى النهاية - بعد أن أوقع يهوذا قصاصه على الدولة الحالية - لصهيون ممحضة تحت ولاية أمير من سلالة داود القديمة ولها السيادة على الشعوب المجاورة ، لأمة عبرية قدسها الألم وتعيش عيشها القومى فى توافق تام مع شريعة يهوذا : « لذلك يقول السيد رب الجنود عزيز اسرائيل آه انى استريح من خصمائى وانتقم من أعدائى • وأرد يدي عليك وأنقى زغلك كانه بالبورق وانزع كل قصديرك • وأعيد قضائك كما فى الأول ومسيرك كما فى البداية بعد ذلك ندعين مدينة

(١) لعن الجور والشرف - اشعيا : ١ ، ٢١ - ٣ ، ٣ ، ١٦ - ٢٣
وه ٨ ، ٢٣ - ١٠ ، ١ - ٣ و ٢ ، ٣ ، ٢ - ٣ ، ١١
' لعن السحر والعرافة اشعيا : ٢ ، ٦ و ٨ ، ١٩
لعن عبادة الأوثان اشعيا : ١ ، ٢٩ - ٣٠ و ٢ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ و ٢٣
ميخا : ١ ، ٧
لعن الكهنة والأنبياء اشعيا : ٢٨ ، ٧ وما بعدها و ٣٠ ، ٨ وما بعدها
وميخا : ٢ ، ١١ و ٣ ، ٥ - ٧ ، ١١

(٢) استنكر التحالف مع مصر فى اشعيا : ٣٠ - ٣١

(٣) اشعيا : ٧ ، ٤ و ٣٠ ، ١٥

(٤) اشعيا : ٨ ، ١٦ التى ربما تعنى « ساصر الشهادة واختم الشريعة فى قلب تلاميذى » وازن ارميا : ٣١ ، ٣٣ وقد وجدت أدراج البردى اليهودية فى أسوان (ترجع الى القرن الخامس ق.م) مربوطة ومختومة • •

العدل القرية الأمانة ^(١) لقد ضرب على نعمة الرجاء ومنذ ذلك الحين ، يظل الايمان بعودة العبريين قائما ، فى شدة تطرد ازديادا كمظهر جوهرى للنبوّة العبرية .

٩ - وأتى نفوذ اشعيا ثمرته على الراجح فى غضون حياته ، وبقينا بعد فترة من رد الفعل فى زمن منسى فى الاصلاح الدينى الذى وقع فى عهد الملك يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٨) . ولقد كانت مدونة القوانين التى جاءت فى سفر التثنية والتى نفذت رسميا عام ٦٢١ من عمل مدرسته وتشيع فيها برمتها روح تعليمه ^(٢) . وكان هدفها عمليا الى أبعد حد وهو جعل حياة العبريين اليومية الواقعية تتوافق مع مثل النبوّة الأعلى . لقد حظرت كل عبادة الأصنام والتماثيل وكذلك ما تبقى من عبادات كنعانية ولقد نظمت الاواصر الاجتماعية والفرائض الدينية كذلك وفقا لروح الانبياء ^(٣) . وفوق هذا كله ، ألغيت الهياكل المحلية دون هوادة وتركزت العبادة الدينية المحضة فى معبد بيت المقدس ولو كانت جمهرة الأئمة برهنت على أنها خليفة بأن تسلك الطريق الذى رسم لها فان تشريع التثنية ربما كان قد هيا الوثيقة الكفيلة بالاصلاح . ولكن لم يكن هذا ليحدث وظل المثل الأعلى التنبؤى مثلا أعلى وحسب ، لا قدرة له على تغيير القلوب الا قلوب أقلية ضئيلة ويتجلى التناقض

(١) اشعيا : ١ ، ٢٤ - ٢٦ وازن ٧ ، ٣ ، ٢٨ ، ١٦ وما بعدها . ان اشعيا مواطن بيت المقدس والمشير الملكى ، لم يكن لديه شئ من التحيز ضد المدينة ولديه ايتار للعودة الى حياة البداوة تلك النزعة التى كانت لسلفه من النبيين . واذا كان أصحاح ٩ ، ١ - ٧ وأصحاح ١١ هما لاشعيا كما يعتقد معظم الثقة فانهما يمدان أروع تعبيرات عن الأمل فى العودة . ولقد كان للعبارة التى جاءت فى اصحاح ١١ تاريخ لا يغيب عن البال . ان ارجوزة الرعاة الرابعة للشاعر الرومانى فيرجيل تحوى سطورا تماثلها تماثلا وثيقا وازن الجامعة : ٤ ، ٢١ وما بعدها و ٥ ، ٦٠ واشعيا : ١١ ، ٦ - ٨ . وهذا التشابه بين ما جاء فى فيرجيل ونبوّة فسرت على أنها تشير الى المسيح ، هو السبب الى حد بعيد للتبجيل الخاص الذى كان يضمّر لفيرجيل فى العصور المسيحية الأولى وفى القرون الوسطى . ويلحظ شين (Cheyne) (الحياة الدينية) صفحة ١٠٣ - تذكّرة . أن فى كاتدرائية زامورا فى اسبانيا يمثل فيرجيل بين الانبياء العبريين . ومن الجائز أن فيرجيل والنبي العبرى عبرا تعبيرا مستقلا عن فكرة شرقية عامة .

(٢) توجد فى التثنية : ٥ - ٢٦ وهى منسوخة عن شريعة أقدم أتى عليها بالتحوير التعليم التنبؤى . وعن قصة الاصلاح ، أنظر ملوك الثانى : ٢٢-٢٣ (٣) لعن اشعيا عبادة التماثيل والارواح فى الاشجار (١ ، ٢٩ وما بعدها و ١٧ ، ١٠) وكانت عبادة التماثيل قد لعنها هوشع (٨ ، ٤ - ٦ و ١٠ ، ٥ و ١٣ ، ٢) الذى كان تأثيره على التثنية أعظم من تأثير أى نبي آخر من انبياء القرن الثامن . وتحض التثنية على الشعور الانسانى والعدل نحو الاثملة واليتيم والعبد والمستوطن الغريب وحتى العجم من الحيوان .

بين النصيح والعمل ، في وضوح عشية خراب اورشليم كما كان عشية خراب السامرة .

١٠ - ولقد كان هذا الرفض العصي لارادة يهوه المعلنه هيو الذي ختم طابعه على روح ارميا (١) . ومرة أخرى كان العدو على الابواب ، ليس الاشوريون الذين كان عصر امبراطوريتهم قد ولى ولكن نبوخذ نصر من بابل . ودنت ساعة الأسر ووجدت حشرجة موت يهوذا تعبيرا لها في صرخة النبي ، من التوجع اليائس . وكان ارميا الكاهن الهابط من عناثوث ، في صدر شبابه يناصر اصلاح التثنية ولكن الآن ظهر كأنه سخرية خاوية وكان شعاره هيكل يهوه (٢) . شبولت من الانبياء والكهنة الكذبة . ان هيكل صهيون ، مقدس العبادة التي جدت سيلاقى المصير الذي لاقاه مقدس شيلوه : « كيف تقولون نحن حكماء وشرعية الرب معنا . حقا انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب » . « صار في الأرض دهش وقشعريرة . الانبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبى هكذا أحب . وماذا تعملون في آخرتها » (٣) . وارميا كانت دعواه الى عبادة ، لا تقوم على رسميات الهيكل

(١) كانت بداية تقدم ارميا كنبى عام ٦٢٦ وقت غزو السيثيين الذي جاء وصفه في هيرودوت (١ ، ١٠٣ وما بعدها) والذي استدعى التنبؤات التي وردت في ارميا : ٤ - ٦ . ولقد تنبأ صفنيا ومن الراجح أنه كان أميرا من الدم الملكى في ابان الازمة نفسها (أنظر صفنيا : ٢ ، ٣ وما بعدها) . وقد عاون السيثيون على اضعاف دولة آشور التي كانت تسير الى تدهور . وقد شتتوا شمل الفلسطينيين ووصلوا الى تخوم مصر ولكن يظهر أنهم أعفوا عن يهوذا . ورأى صفنيا في مجيئهم « يوم يهوه » أنظر صفنيا : ١ ، ١٤ وما بعدها وهي العبارة التي أوحى بالترنيمة المسيحية (Dies irea, dies illa) وقد عاش ارميا بعد سقوط اورشليم نهائيا على يد نبوخذنصر عام ٥٨٦ . وتوجد أهم تنبوءاته في الفصول ١ - ٢٤ وتنبوءات العودة في الفصول ٣٠-٣٣ ، يشك فيها بعض النقاد الحديثين ولكن يقبلها ولهاوزن (Wellhausen) ودرايفر (Driver) وكورنل (Cornill) على أنها ، أساسيا ، من عمل ارميا (فيما عدا ٣٣ ، ١٤-١٦) . جاء (في الفصل ٣٦) أن التنبوءات السابقة أعيدت كتابتها باضافات باروخ بأمر من ارميا بعد أن أقيمت بأعوام كثيرة . وترجم الى نفس الحقبة تنبوءات ناحوم (حوالى عام ٦١٢ ، تاريخ سقوط نينوى) وحبقوق (قبل عام ٦٠٠ بزمى وجيز) . ويجبى حبقوق بتحول جديد في تصور « اليوم » . انه في نظر الشعب ، يوم انتصار العبرانيين على آشور ولكن اذا فسر خلقيا فانه انتصار الامة الصالحة على الامة الطالحة .

(٢) القضاة : ١٢ ، ٦ « كانوا يقولون له قل اذا شبولت فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق . . . » .

(٣) ارميا : ٨ ، ٨ و ٥ ، ٣٠ ، ٣١ وعن تبشير ارميا الباكر ، بشريعة التثنية أنظر الفصل ١١ ، ١ - ٨ وعن عبادة الهبكل أنظر فصل ٧ وعن الانبياء الكذبة فصل ١٤ ، ١٣ - ١٦ و ٢٣ ، ٩ وما بعدها وفصل ٢٨ حيث يناصر حنانيا ارميا ، العقيدة السياسية التي الهمت اصلاح يوشيا .

وقد دعا الى العدول عن القوانين السطحية وعن الديانة تؤخذ من الكتب واللياذ الى هيكل روحى وأضحيات روحية ونى نغمات أكثر وضوحا مما جاء بها أى نبي سابق ، نادى بمطالب دين شخصى • وأولئك الذين أتوا فى عصر لاحق ، الذين أقاموا الدعوى ضد التشريع باسم القداسة الداخلية ، رجعوا بنظرة الى الخلف ولسبب صالح ، الى ارميا ، كمصدر للإلهام ^(١) وهذه المأساة لطبع منطوق على نفسه ، حساس ، تجبره دعوة ميعالية لتثديد النكير على عصيان الحكام والشعب وأن يتنبأ بهلاكهم القريب ، استهوت فى قوة قاسرة ، خيال العصر التالية • ولما كان لاسبيل للخوف اليه وفى غمرة مجازفة بالحياة دائمة ، وهو يقوم بوظيفته « كجمل أو ثور يقاد للذبح » وكان بطلا ، كما قال كاتب عاطف ، ليس بطبعة ولكن بالنعمة ، فان ارميا كان يحس بانعزاله احساسا شديدا • ولم يكن يوجد انسان عامل بالعدل طالب الحق فى كل اورشليم ^(٢) وكان يتشوق عبثا الى التحرر من عناء رسالته المبرح : « يا ليت لى فى البرية بيت مسافرين فأترك شعبى وانطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة جماعة خائنين » ^(٣) • وارميا هو الرائد للشعر الغنائى الدينى والملمهم بالكثير من المزامير حتى لقد رأى فيه البعض نموذج ما جاء فى اشعيا : ٥٣ • ولما قنط من التوبة القومية « هل بغير الكوشى جلده أو النمر رقطه ؟ فأنتم أيضا تقدررون أن تصنعوا خيرا أيها المتعلمون الشر » ^(٤) فانه وجد لياذا فى فكرة عهد جديد ، ليس كما كان قدما بين يهوه والامة ولكن بين يهوه والعبرى الفرد • « فى تلك الايام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرا وأسنان الأبناء ضرست • بل كل واحد يموت بذنبه ، كل انسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه • • هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الايام يقول الرب اجعل شريعتى فى داخلهم واكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها وهم يكونون لى شعبا • ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين أعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب • لأننى أصفح عن اثمهم ولا أذكر خطيئتهم بعد » ^(٥)

-
- (١) وازن تهمور ارميا الروحى للعهد الجديد ٣١ ، ٣١ - ٤ : الذى اقتبس فيما يلى فى النص ، بمزمور ١١ ، ٨-٦ مثلا من الأمور الجديدة بالملاحظة •
أن ارميا هو رائد دين هو على السواء اتصال الفرد الشخصى اتصالا داخليا مع الله ، وعام فى دعواه ليس فقط للعبرى ولكن للبشرية جمعاء • ومن الوجهين فانه أعلن روح المسيحية كما أعلن حزقيال روح اليهودية المتأخرة •
(٢) ارميا : ١١ ، ١٩ الكاتب الذى ذكر هو شين (Cheyne) ارميا ٥ ، ١ وعن محاولة قتله انظر ١١ ، ١٨ وما بعدها • (كانوا رجالا من عناثوث)
١٨ ، ٨ ، ٢٦ ، ٨ وما بعدها ، ٣٨ ، ٤
(٣) ارميا : ٩ ، ٢ وازن المزامير ٥٥ ، ٥٠ - ٨
(٤) ارميا : ١٣ ، ٢٣
(٥) ارميا : ٣١ ، ٢٩ - ٣٤

ان هذا القول يضرب على وتيرة جديدة فى تعليم العبريين الروحي .
ولقد خبا ضوء رؤيا الانبياء الاوائل بادماج الفرد فى حياة ومصير الامة
ولم يكن الا بعد أن أدرك أرميا أن العبرى الحقيقى انكمش فى ذاته ، وان هذا
التحيز أمكن التغلب عليه . ومن الآن كان الوعى بقيمة الدين الشخصى فى
نظر يهوه ملكا مقيما للنبوّة العبرية . وفى الحق سار يهوذا الى السبى امام
عينى ارميا وأصبحت الهوة التى تفصل المنزل الأعلى عن الواقع أكثر عسرا
فى امكان اجتيازها ، مما كانت عليه الحال فى أية لحظة فى التاريخ . وقد
نفى رؤساء الشعب الى بابل عام ٥٩٧ وبعد ذلك باحدى عشرة سنة دمرت
أورشليم وأصبحت دولة العبريين لا وجود لها (٥٨٦) ولكن ايمان ارميا
بيهوه كاله العبريين الحى ظل ثابتا لا يتزعزع بانحلال الامة السياسى .
كان نبوخذ نصر خادم يهوه ، ويهوه سلم العبريين الى يده (١) وقد قدر
لرسالة النبى تحقيق أزخر مما كان يحلم به . واذا كانت كلماته ، كما تدل
جميع الظواهر قد عجزت عن انقاذ روح الامة فان عكس ذلك كان ، حرفيا ،
الحق . ولما كان قد حملها الأسرى معهم الى السبى فانها كانت مفعة
بالنشاط الذى يبعث بالحياة فى الزمن اللاحق . وقد اتاحت ساعة الانهيار
الديوى الفرصة للامة العبرية للولوج فى رسالتها الروحية للبشرية .

٣ - السبى وما بعده

١١ - لقد دمغ الأسرى فى بابل ، بطابع عميق ، تاريخ المنفيين الاصلى .
لقد أصبح هيكل أورشليم حيث كانت تتركز العبادة الدينية وفق اصلاح
التثنية ، خرابا (٢) وكان الشعب المختار فى الواقع ، تحت حظر . ولقد
حطم فى عنف الامل الذى كان يشيع فى الدين الشعبى القديم بأن يهوه
سينقذ العبريين من أعدائهم وقام الدليل على أن « اليوم » ، كما تنبأ عاموس
واشعيا يوم ظلام وليس يوم نور . ولولا وجود بذور عقيدة أرفع ، غرسها
تعليم الانبياء ، فربما كان المنفيون قد اندمجوا وفقا لنية هازمهم فى حياة
بابل الدينية والقومية . ولكن الأمر كان فى الواقع خلاف ذلك . لقد
أوجدت حالة انعزالهم عينها ، حيوية متجددة فيما كان يبلغ أسس ذروة
وأعظم مكانة ممتازة ، فى عقيدتهم . ودلت أولا على أنها كانت دافعا قويا
لدين القداسة الشخصية الذى وجد تعبيرا له فى نبوءات ارميا . لقد التمس
الروح الفردية التغزية والملاذ فى الاتصال الروحى الشخصى بيهوه .

(١) ارميا : ٢٧

(٢) ومع هذا ، فان الموقع لم يكن مما لا يمكن الوصول اليه (انظر
ارميا : ٤١ ، ٥) ويظهر أن حياة متواصلة دأبت على السير بين أولئك الذين
تركوا فى اقليم يهوذا ولو أنه كان ينقصهم النشاط للقيام بأية اعادة .

وثانيا ، على النقيض التام من اخلاص القلب هذا ، استعاد المنفيون في أصرة ولاء ، تقاليد عبادة الهيكل القديمة وجمعوا في دراسة وثيقة تراث التعاليم الشعبية التي تتصل بالفرائض . وعكف الكتبة الكهنة على تفسير الشريعة وتطويرها وعقدت اجتماعات ، يوم السبت ، للصلاة وقراءة الانبياء وعكفوا على الصوم وتذليل الجسد وبدأت المجامع تحل محل الأمة التي توارت . وكان عهد النفي ، عهد تأسيس الكنيسة اليهودية واكتسبت السلطة الكهنوتية والمنظمات الكنسية قدرا جديدا . وازداد الاعتقاد بأن دين يهوه يمكن المحافظة عليه فقط بالقيام الدقيق بنصائح الناموس . ولقد تكررت نفس العوارض في الأزمن التالية بعد العودة من الأسر ، في القرن الخامس ، ومرة أخرى في صبح تعليم الربانيين بالصيغة الشرعية بعد أن دمر الرومان الهيكل الثاني وتششت الشعب العبري نهائيا . والأمر الثالث هو أن المنفيين التمسوا التعزية والرجاء في رؤية صهيون وقد عادت الى سيرتها الأولى ، عندما يسكن العبريون ، مرة أخرى الأرض التي يملكونها ويحكم أمراء من نسل داود بالصلاح كخدام لارادة يهوه . هذه هي النعمة السائدة في نبوءة السبي وما بعد السبي ولم تعد كلمة يهوه بعد كلمة غضب ومصير وشيك الوقوع ، والآن وقد وقع القصاص على خطيئة العبريين فان يهوه كشف عن نفسه في اشفاق محبة كمنقذ ومخلص شعبه ، ذي الفضل . وتظهر هذه الخصائص الثلاث لعصر النفي ، في نبوءة حزقيال وهو كاهن عبري ، نفي الى بابل عام ٥٩٧ ويرجع عمله في التنبؤ الى الأعوام التي تستهل الأسر (٥٩٢ - ٥٧٠) . ويترك سفره في نفس القارىء أثرا قويا عن وحدة تكوينه وقد يكون ، كما هو اليوم قريبا جدا من حالته عندما كتبه حزقيال على ضفاف خابور منذ خمسة وعشرين قرنا خلت . ولكن من المحتمل أن جزءا من السفر ، كما يعتقد بعض النقاد ، كتب في اورشليم وأن أجزاء أخرى (كالفصول الختامية) أضافتها يد أخرى بعد ذلك . وعلى غير شاكلة النبوءات السابقة فانه في معظمه انشاء أدبي ، لا مجموعة من أقوال نطق بها ، ولو أنه يحوى بعض النبوءات الشفوية ^(١) ويشمل سردا متتابعا من الأحداث رتبها في منهج منظم ، بيده . وهو يزخر بالرؤى والرمزية وينعكس من خلاله ، مزاج اللاهوتى الكاهن ^(٢) . وكان حزقيال (١) صلبا في توكيده المسئولية الفردية والقصاص . وقد ألق مرة واحدة ودون رجعة

(١) حزقيال : ٣٣ ، ٣٠ ، ٣١ عن هذه المسائل المتنازع فيها ، انظر مقدمة كوك (Cooke) في « حزقيال » في (التعليقات النقدية الدولية) (International Critical Commentary)

(٢) في حزقيال ، يمكننا أن نتبع أصل أدب الرؤيا ، الذى حل فيما بعد محل النبوءة . انظر ١٥ فيما يلى وعلى غير شاكلة نبوءة ما قبل السبي فان نبوءة الأسر وما بعدها تتخذ صيغة أدبية . لقد كتبها النبي نفسه ولم يكن بالضرورة ، أن نطق بها على الاطلاق .

عن تصور يهوه التقليدى كاله غيور ينتقم لذنوب الآباء فى الابناء ، ان كل انسان ينهض أو يهوى ، فى نظر يهوه ، بأفعاله الخاصة : « الابن لا يحمل من اثم الأب والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » ^(١) والى الآن لا يوجد تفكير فى قصاص فى الحياة الأخرى ويأخذ الانسان نصيبه من رغد العيش فى الحياة الدنيا أو يلاقى المحنة وفق استحقاقه الخلقى . وسنرى فى قسم آت ، كيف عجزت هذه الفردية المغالى فيها ، فى ارضاء وعى الشعب العبرى الخلقى المتطور . ولكن بالنظر الى الاستمساك الساهل الذى كان يحرص عليه التعليم الدينى الباكر ، بمطالب المجتمع ، كان من اللازم ومن الطبيعى أن يصر حزقيال ، فى توكيد ينحاز كذلك الى جانب واحد ، على مطلب الفرد التكميل وهو وجوب أن يكون المقرر لحكم يهوه ، الرجوع الى أفعاله والى أفعاله دون سواها . وقد واجه النبى تدمير المنفيين من أن طرق الله لم تكن متعادلة وكان الجواب وقد اعترف فيه بالشخصية الفردية ، يدل على تقدم خلقى . ما كان بالمستطاع تحقيق أى تقدم صادق فى الساهل الخلقى الا بعد أن يكون مبدأ الجزاء الشخصى قد تأيد ووجد ناقصا .

ثانيا (ب) نحوى الفصول الختامية من سفر حزقيال الوعد بعودة اسرائيل . سيجمع يهوه من جميع البلدان غنمه المشتته : « وأصيرهم أمة واحدة فى الأرض على جبال اسرائيل . . . وداود عبيدى يكون ملكا عليهم . . . وأجعل مقدسى فى وسطهم الى الأبد . . . وأكون لهم الها ويكونون لى شعبا . فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس اسرائيل اذ يكون مقدسى فى وسطهم الى الأبد » ^(٢) . وينحصر أئق حزقيال فى مستقبل الشعب المختار ^(٣) ، اذ لا مكان للأمم فى ملكوت مسيا ولكنبقى بعد انتصار العبريين لمجرد أن نغنى لحظة اعترافها بقوة يهوه القاهرة ^(٤) . وتسيطر الغيرة على كرامة يهوه على كل سلسلة تنبؤات حزقيال ومجرى تفكيره أنه يتحتم على يهوه ان يعيد اسرائيل وبهذا فقط . تحفظ كرامته وتتجلى قوته أمام أبصار الأرض كلها . ولهذا استفاض فى شرح الهوة التى لا يمكن أن تقاس ، تلك التى تفصل نجاسة الانسان عن قداسة يهوه ستجعل أمة العبريين المعادة فى حالة من

(١) حزقيال : ١٨ ، ٢٠ أنظر الفصل كله و ١٤ ، ١٢ - ٣٠ و ٣٣ ، ١ - ٢٠

(٢) حزقيال : ٣٣ - ٤٨ وخاصة ٣٦ والاقتباس من ٣٧ ، ٢١ - ٨

(٣) هذا ما يورده المؤلف عن العقيدة العبرية . ولا يمكن أن تقبل عقول الأحرار فى زمننا هذه النعرة العنصرية ولا يمكن أن يسمح دين سماوى بإبادة شعب وادع مسالم لصالح طائفة من جواب الاتفاق .

(المترجم)

(٤) حزقيال : ٣٨ و ٣٩ . ولكن هذت الفصول عن الأمور الأخرى ، وأجزاء عظيمة من الفصول ٤٠ - ٤٨ ، من المحتمل أنها أضيفت بعد ذلك .

الوضاءة • ويظهر الكاهن في حزقيال في جلاء في (ح) هذا المثل الأعلى من الطهارة الفرضية • وهو يضع رسماً مجللاً في الفصول التسعة الحثامية للدستور المثالي للمجتمع المعاد • وتستبين في كل صفحة الصبغة الرسمية التي تتخذها نظراته وتصوره للقداسة التي توجبها الفروض • والفكرة التي تسيطر عليه كانت فكرة حكومة مقدسة من الكهنة يظاهرها أمراء ينتمون إلى سسما من بيت داود وتنظم حينئذ العبريين الدينية من هيكل أعيد تجديده • ولقد وضعت أبغاد المقدس الجديد في تفصيل دقيق • وقد أمر بالحثان ، ليس كعادة قومية ولكن كرسوم الهى • وكان حزقيال الرائد الأول لحكومة الهية مثلى ، اشتملت عليها فعلاً منظمات عهد العودة وكان الأب الحقيقى لمدونة الشريعة الكهنوتية • وقد قام نظام قانونى وتصور أمة -- كنيسة ، ليقيا • ان عهد الأنبياء كان على وشك أن يفسح المجال لعهد الشريعة •

١٢ - وبما أن هدفنا هو ألا نستعرض تاريخ حياة العبريين الدينية فى متنوع مظاهرها ولكن بالحرى أن نوضح ما خلفته للمدنية الحديثة فأننا لن نترسم نمو النظم القانونية فى حقبتى السبى وما بعد السبى أو نطيل النظر فى قشرة التفقه والرسميات التى كانت تحجب فى بعض الأوقات تعليم الأنبياء النظام الأكبر ^(١) • ومع هذا فإن تأثير الأنبياء على ديانة العبريين لم يبلغ أعظم مداه قط إلا فى القرون التى أعقبت العودة • « ان رأى القائل ان سفر الشريعة لعزرا حول الدين العبرى الى فرائض ونظم قانونية جذباوين ، ينقضه كل أدب الزمن التالى » هكذا يكتب دكتور مور (Dr. Moore) ^(٢) وقد استحضر فى خاطره الكثير من أحسن ما جاءت به

(١) بعد أن وطدت الشريعة حكمها المطلق كمذهب كامل للأوامر الالهية فى المجتمع المعاد لم يعد بعد مجال للإلهام الذاتى • وعلى هذا ، ما كان لكاتب جديد أن يتقدم دون أن تأذن له الشريعة • وقد نسبت إضافات الى كتابات تنبؤية الى أنبياء (مثل دانيال) ، سابقة للشريعة • والتفاخر بالتأليف كان غريباً على الطبع السامى وروح النبوة العبرية • وكانت العناوين التى تنسب النبوءات الى واضعيها إضافات جاءت فى زمن لاحق • وقد نسبت الى أسماء وهمية أسفار الرؤيا التى تكشف عن المستقبل والتى حلت محل النبوة (انظر ما يلى ١٦) • ولقد أدار الدين العبرى على مذهب الربانيين الذى كان ذا صبغة قانونية ، ظهره الى أسفار الرؤيا فى القرن الأول بعد الميلاد وترك المجال الى الكتاب المسيحيين وواضعى تلك الأسفار ، ولقد نبذت أسفار الرؤيا المسيحية ، وقد تخلصت من ربة الشريعة ، الأسماء الوهمية ولكن احتفظت بها أسفار الرؤيا العبرية خلال القرون الأولى من عهدنا وخلال العصور الوسطى - انظر شارلس (Charles) الامور الأخروية (Eschatology) الصفحات ١٩٦ وما بعدها و٤٠٣ وما بعدها •

(٢) الدين العبرى (Judaism) - ١ ، ١٦

المزامير والامثال وأيوب والاضافات الى الكتابات التنبؤية التي يرجع تاريخها الى العصرين الفارسي والاغريقي . ولم يكن الا في تدرج شديد ، ان الالهام التنبؤي كتبت أنفاسه . ولقد ظل قوة حية حتى ارتفاع نجم المذهب الفريسي .

كان للقرون التي أعقبت العودة مغزى خطير في تاريخ الدين العبري اللاحق . وفيها أقرت الخطوط الجوهرية في المراسم الدينية والخلقى للأزمنة المقبلة . وعندما غزا قورش بابل أذن للمنفقين بالعودة الى أوطانهم (٥٣٨ - ٧) وبعد ذلك بقرن (٤٥٨) لحق بالمجتمع العائد طائفة من الكهنة بزعامه عزرا ، الذي حمل معه شريعة من عمل يهود بابل ، تناولتها يد التجديد . وهذه الشريعة التي أنفذها عزرا عام ٣٩٧ ، أصبحت منذ ذلك الحين شرعة المجتمع الهادية . ولقد تحولت شريعة التثنية الى مدونة قوانين كهنوتية وأعيد تدوين تقاليد الماضي لتصبح تاريخا كهنوتيا . واتخذت الأسفار الخمسة شكلا يطابق في الواقع الشكل الذي نقرأها فيه ، في كتابنا المقدس اليوم . ونغمتها في وضعها المعاد الذي قام به عزرا كانت تلك التي جرى عليها حزقيال ، النعمة الكهنوتية . ولقد تجمعت أمة عبرية مصطنعة ، مجمع وليس دولة ، كان الوازع لها مثل أعلى للقداسة اللاوية حول عبادة تؤدي في الهيكل في اورشليم ^(١) . وقد عقدت الرياسة للكاهن الأعظم . وكان تعليم ما بعد السبي هو أن كل شيء في الأمة العبرية هو من حق يهوه ، واذا دفعت الضريبة المقررة فانه سيرسل بركته على ما تبقى . كان المبدأ نبيلاً ولكن تطبيقه من جانب أصحاب الفتاوى ، أصبح وقد قارب أن يكون غير محتمل ^(٢) ان مخالفة فرائض العبادة دون أن يكون لها ، في الغالب ، مغزى يتصل بأداب السلوك أصبحت تعد خطيئة لها نفس الخطورة التي تكون لانتهاك القانون الخلقى لأن كليهما ، بوصفهما أوامر يهوه ، كانا فرضاً لا يحده شرط ^(٣) . وعلى مر الزمان ، أصبحت سلطة الكتاب الذين

(١) بنى الهيكل الثاني عام ٥١٦ ونعمة هذا العصر نجد رجوع صداها في حجي وزكريا : ١ - ٨ وعن الطهارة الخارجية أنظر اللاويين : ١٢ و ١٤ ، ١٨ - ١ ، ٣٣ - ٥٣ ، ١٥ ، ١٦ - ٣٠ ومع هذا ، فمن الجدير أن نتذكر ملاحظة كوينن (Kuenen) (دين اسرائيل : ٢ ، ٢٨٥) : « لا يسعنا الا أن نعترف بأن تلك التخطيطات التي كان يرثيها الشارع (لمدونة القوانين الكهنوتية) كانت جليلة وجميلة . ولقد وضع بطريقة عامة فكرة شعب مقدس يخصص نفسه ليهوه ، وحاول أن يحققها في مجال واسع » .

(٢) انظر انج (Inge) : مقالات صريحة (Outspoken Essays) ، القديس بولس ص ٢١١ و ٢١٥ - ٢١٦ عن : التعليم المدرسي ، في عهد الربانيين في أزمنة الرسل .

(٣) انظر ، على سبيل المثال ، الخروج : ٣٠ ، ٣٣ واللاويين : ١٠ ، ١٦ - ١٤ ، ٣٣ - ٥٣ واللاويين على وجه عام .

كانت مهمتهم تدوين وتفسير القانون تنزع الى الحلول محل سلطة طائفة الكهنة^(١) وأصبح الدين العبرى ، فى اطراد يتزايد ، دين كتاب مقدس^(٢) ومن هذا الينبوع ، انبثق القانون الشفوى بأثقاله التى تطرد ازديادا . وفوق ذلك كله ، فان الحاجز الفاصل بين العبريين الذين كانوا يراعون الشريعة التى أعيد وضعها ، من جهة ، والسامريين الملحدين والأُمم الوثنية من الجهة الأخرى جعل بحيث يكون مانعا على الاطلاق . وفريضة الختان وهى الطابع المميز للصفة القومية استعرضت فى التاريخ الكهنوتى كجزء لا يتجزأ من دين يهوه ، وآية ميثاقه الأبدى مع ابراهيم . ونستطيع أن نرى السبب الذى دفع العبريين العائدين لوضع هذا القصر الصارم . ولقد غدا الاتصال بين الشرق والغرب ، فى ظل الامبراطورية الفارسية وخاصة فى ظل امبراطورية مقدونيا ، أكثر توثقا وتحطمت على التدرج حواجز السلالات وكان يمكن أن يفقد عابدو يهوه الاتقياء فى يسر ، ذاتيتهم ويندرجوا فى العالم الوثنى الذى يقوم حوالىهم لولا أنهم اعتصموا بعقيدتهم المتميزة ومعها قوميتهم المتميزة . بسور من الشريعة الرسمية يحيط بهما . انهم كانوا مقدسين أمام يهوه ، أما من عداهم من الخلق فلم يكونوا مختننين وكانوا أنجاسا . وهذا الوعى بدعوة خاصة والعزيمة التى لا تتزعزع بأن يكونوا موالين لالتزاماتها زادتتهما شدة ، فى القرن الثانى ، اضطهاد انطيوخس ايففانس Antiochus Epiphanes (١٧٥-١٦٤) وبعد ذلك غزو روما . ويمكننا أن نرجع الى ذلك العهد مصدر الثبات الذى يبعث على الدهش الذى يتسم به الدين العبرى وطبيعة السلالة العبرية خلافاً للتالى كله . وتوجد ، دون ريب عظمة فى مشهد شعب صغير . سفر ، صفر اليبدين من دعائم الوحدة الطبيعية والسياسية ، وهو يوجد روافد صناعية تأتى عليه بالنفع فى الحفاظ بقوميته كصخرة بين عواصف تتناوح من كل جانب . وكان الثمن الذى دفع باهظا وهو فرض عبء فادح أوصد الباب أخيرا وصدا نهائيا أمام الأخوة الروحية مع عالم الأُمم الوثنية . ومن ذلك الحين ، كان فقط بالانفصال الثورى عن العقيدة العبرية الصحيحة ، أن روح دين الأنبياء أتيح لها أن تشيع فى المدنية الغربية . ويجب أن نبحث فى مظنة أخرى .

(١) بعد ختام العهد الفارسى عام ٣٣٢ ، يظهر الكتبة كطبقة تمتاز عن طبقة الكهنة .

(٢) ولم تكن قد تحددت بعد حتى فى القرن الأول الميلادى أسفار التوراة المقبولة لدى الكنيسة المسيحية كقانون للايمان . لقد تسلمت المسيحية الأسفار اليهودية ومعها مبدأ الإلهام الحرفى وأضائت (العهد الجديد) الذى كان أكثر تجانسا فى محتوياته وفى مستوى تعليمه الروحى من (العهد القديم) ، ويمكننا أن نوازن تأثيرات (دين كتاب) على الدين العبرى قبل قيام المسيحية ، وتأثيرات أحيائه بعد حركة الإصلاح التى لا يزال يمكن تبينها الى اليوم .

غير الشريعة عن التراث الاصيلي الذي تركه العبريون للبشرية (١) فالشريعة كانت الصدفة وليست نواة الحياة الدينية فيما بعد السببي . ولقد نهض جنبا الى جنب مع الصيغ الرسمية الفرضية دين من التقى الداخلي والرعة ، وجنبا الى جنب مع خواص المجتمع الصحيح خلجت رؤية مملكة

(١) يجب ألا تؤخذ هذه العبارة كإنكار للتأثير الواضح الذي كان للشريعة الموسوية على تاريخ المسيحية . فعلى سبيل المثال ، تركت النصائح الخلقية التي جاءت في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، أثرا عميقا على آداب السلوك المسيحية . لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلينية ، بمدونة القوانين الخلقية العالية التي ورثتها عن الدين العبري ، وتدعو الحال فقط الى ذكر الوصايا العشر . ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام القساوسة المسيحيين أثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية وتصور العبريين لوظيفة الكاهن . والرسالة الى العبرانيين هي مثال باكر لهذا التأثير ، وهي التي تركت أيضا طابعها على مبدأ التكفير المسيحي ، ومع هذا فإن النظام الكهنوتي المسيحي ، على غير شاكلة النظام العبري ، لم يكن قط وراثيا ويغلب عليه العزوبة ، وكذلك تثر الفكر القضائي المسيحي بالشريعة الموسوية كما يتجلى ذلك في (Aquinas' tractate de legibus (S. Th. II. 199 90-108) . لقد كانت الشريعة الموسوية النموذج للتعديلات التي أدخلها قسطنطين وخلفاؤه المسيحيون في الامبراطورية ، على قانون روما الجنائي . ولقد كتب جبون (Gibbon) (فصل ٤٤) : « لقد استقبلت شرائع موسى كمصدر ألهي للعدالة وكيف الأمراء المسيحيون قوانين عقوباتهم على درجات التسفل الخلقى والدينى » ، فعلى سبيل المثال ، أصبح الزنا جريمة عقابها الموت . وقد لقي هذا التأثير القضائي للشريعة العبرية واعزا قويا في زعم الاصلاحي . وقبل ذلك الوقت ، لم تؤثر الى درجة خطيرة على القوانين الفعلية لدى الشعوب الغربية . ان الفرد (Alfred) يشير الى موسى في مقدمة مدونة القوانين الانجلوسكسونية ولكن القوانين التي تجيء بعدها لا تستبين فيها أية علامة للتأثير ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما أدمجت الجماعات البروتستانتية نصائح موسى في تشريعاتها ، وفي اعلان أصدره الزراع الألمان في عام ١٥٢٥ نجدهم يطالبون بأنه « يجب إلغاء صفة علماء القانون وأن تجري العدالة طبقا لشريعة موسى لأنه لايجمل بالانسان أن يحصل على قانون أفضل من ذلك الذي أعلنه الله » (فنوغرادوف Vinogradoff) . القانون الروماني في أوروبا العصور الوسطى (صفحة ١٢٩) ولقد رفض المستعمرون في ماساشوستس (Massachusetts) أن ينتهجوا مذهب المحاكمة بوساطة الحكمن لسبب أن موسى في شرائعه لم يصرح بها ، وكانت عقوبة الموت للسحر ولانتهاك يوم السبت ، هناك وفي أماكن أخرى بين جماعات المحضين ، لها ما يبررها استنادا على ما جاء في شريعة موسى . ويكتب ي. ن. فيجس (J.N. Figgis) من جرسن (Gerson) الى غروتم (Grotius) (صفحة ٢٠٩) : « ان القانون لدى لوثر (Luther) سواء أكان طبيعيا أو خلقيا أو مدنيا ، كله يندمج في الوصايا العشر وأي شيء غيرها هو مجرد قوانين إدارية سواء في الدولة أو الكنيسة » .

مثالية في صهيون يكون من أمرها أن تضم جميع الشعوب وتحمل الخلاص ليس فقط للعبريين ولكن للأمم^(١).

١٣ - وكان من الطبيعي تماما أن هذا التعبير المزدوج عن العقيدة الدينية ، الذي يضم المثليين الأعلى ، الاتصال الروحي الشخصي بالله وملكوته العام ، ينهض في آن واحد مع خاصية الشريعة . ومثال توضيحي لنزوع الحد الأقصى للفردية والتعميم ، هذا ، إلى التقابل في تلاحم وثيق تقدمه الهلينية المعاصرة حيث أصر الفلاسفة الرواقيون عند انحلال دولة - المدينة الحرة ، بعد الغزو المقدوني ، على مطالب الفضيلة الفردية وكذلك على عضوية مجتمع عالمي . ويبرز هذان المثلان الأعلى في الأدب الديني العبري في عصرى السبى وما بعد السبى . ومن الضروري جدا فيما يتعلق بالأول أن نلاحظ ، وخاصة بعد ما قيل عن الصفة الرسمية التي ميرت وضع مدونة القانون الكهنى ، كيف بعث حكم الشريعة في المجتمع العبري مستوى خلقيا رفيعا وعنصرا من التقى زاخرا . ان قوة دين العبريين كانت ، إلى حد ما ، تتأصل في ضعفه بالذات^(٢) ولقد دل المجمع المحلي ، باجتماعاته للصلاة العلنية وقراءة وتفسير الكتاب على أنه واعز قوى للدين في الفرد . ومما هو أجدر بالملاحظة ، ان عبادة الهيكل نفسها ولدت روحا من التقى المستعر ظفرت بتعبير دائم في المزامير . ولما كانت نتاج مؤلفات متعاقبة يتراوح تاريخها بين عهد السبى إلى القرن الثاني ، فان هذه التراجم التي لا يعرف لها مؤلف والتي تشتمل على المزامير ، سميت ، لسبب صالح ، « كتاب ترانيم

(١) انظر التذكرة الإضافية في خاتمة هذا الفصل عن تاريخ العبريين فيما بعد السبى .

(٢) لقد بين مستر كلود مونتفيور (Mr. Claude Montefiore) في محاضرات هبرت (Hibbert) لعام ١٨٩٢ ، في جلاء كيف أن الشريعة نمت الحياة العليا الخلقية والروحية في مجتمع ما بعد السبى . ولم تكن نتائج النظم الشرعية فيما يتعلق بالسلوك ما يتوقع مبدئيا منها . وهو يقول : « ان المرء في حاجة إلى أن يأخذ حذره عند الكتابة عن الشريعة » (صفحة ١٧٨ تذكرة ١) ، ان ما كانت تتميز به حياة أتباع الشريعة الصادقين هي الطهارة وحسن الصنيع ، وفوق كل شيء البهجة في الخدمة المحبة . ولم يكن العبري يشعر أنها حمل ولو أنها من جهة نظر التعميم كانت حملا . وفي هذا الفصل يعالج دين العبريين بصفة شاملة من وجهة النظر هذه وتقع قيمتها داخل نطاق الدين العبري ، خارج اختصاصنا . وعن الدين العبري في القرن الأول بعد الميلاد ، انظر فصل مستر مونتفيور بعنوان « روح الدين العبري في بواكير المسيحية » لجاكسون (Jackson) وليك (Lake) المجلد الأول .

الهيكل الثانى ، ^(١) وهى تشهد فى كل صفحة كيف كان قلب الفرد من العبريين يدق فى توافق مع قلب مجتمعه الدينى . انه كان يعيش ويتحرك وله كيانه ، فى حياة العبريين الروحية .

واذا لم يكن يهوه الها قصيا ولكنه « عون حاضر فى الضيق » ، فلانه كان « يرعى العبريين » ، واذا كانت روحه تشتهى الى يهوه « كما يشتهى الابل الى جداول المياه » ، فمرجع ذلك الى انه انفصل عن مقدس الهيكل الذى اتخذه اله السماء والارض مسكنه الخاص ، وسط شعبه المختار ^(٢) ، وعندما يتحدث صاحب المزامير فى صيغة المتكلم ، فليس ذلك باسمه هو. ولكن باسم الطائفة الروحية التى تندمج فيها شخصيته الخاصة . ولقد ألهم بعض المزامير ، مباشرة ، الاخلاص للشريعة اما البعض الآخر ، فى نهج أكثر حصرا ، يعبر عن مطامح وآلام انصار المذهب الصحيح الصارم ، الحاسدين (الاسدانيون أو الاتقياء - السابقون الاولون للفريسيين) الذين بذلوا حياتهم فى مقاومة الهلينية فى أيام انطيوخس ايفانيس ^(٣) Antiochus Epiphanes . وانا لنسمع ، جنبا الى جنب مع الافصح عن الايمان بيهوه وبالفرح فى حضرته ، صدى الذكريات القومية القديمة والآمال فى خلاص قومي والبهجة فى عبادة المعبد ، ولكن اهمية المزامير بالنسبة لنا ترجع بالحرى ، الى انه تشيع فيها روح من الاخلاص الدينى تسمو على حدود العبادة الكهنوتية وحدود الشريعة ، الضيقتين . والتأثير الذى بسطته هذه القصائد فى القلب البشرى خلال الفى سنة ونيف ينهض دليلا على شدة وعظم الشعور الذى ألهم أولئك المؤلفين بجانب أمواه بابل - الذين نجهل أسماءهم - بها ، وكذلك الى الذين قاموا فى المجتمع الذى التم شمله فى فلسطين . وفى بعض المزامير ينفذ التقى الشخصى ، عن وعى ، من خلال الحواجز التى أقامتها الستن الخارجية ويعرض عن الشريعة المكتوبة الى تلك التى رقت على صفحات القلب ^(٤) انه هذا التنوع وهذا الفيض من العاطفة الدينية الذى يلم بكل الحالات

(١) ولو أنها ، على غير شاكلة كتب الترانيم التى لدينا ، لم تكن قط بين أيدي المجمع . ومن المحتمل أن بعض الترانيم ترجع الى ما قبل السبى ولكن من غير المرجح أن أيا منها من تأليف داود . أنظر درايفر (Driver) «المقدمة» وشين (Cheine) «أصل المزامير» .

(٢) مزمو ٤٢

(٣) الاخلاص للشريعة وخاصة المزمور : ١١٩ ومزمور : ١ يعبر عن مشاعر (الاتقياء) أو (الأبرار) على النقيض من (الأشرار) و (الخطاة) و (المحتقرين) وازن ١٢ ، ١ - والاشارة الى الهيكل واضحة فى المزامير ٢٤ و ٢٧ و ٦٥ و ١٣٨ وعن تفصيل مجمل لموضوعات المزامير أنظر درايفر (Driver) «مقدمة» الصفحات ٣٦٨ - ٩

(٤) مثلا المزامير : ٤٠ و ٥٠ و ٥١

النفسية التى فيها تتجه روح الانسان نحو الله ، فى أيام الخير كما فى أيام السوء ، هما اللذان جعلنا من المزامير كتاب ترانيم ، ليس فقط للهيكل الثانى ولكن للدين العبرى فى جميع العصور وللكنيسة المسيحية أيضا .

١٤ - وإذا كان العبرى الصالح قد وجد رضى لمطامحه ، فى دين خدمة - المعبد ، العمل وفى مراعاة القانون فقد واجهته فى نفس الوقت مسألة تتصل بعلم اللاهوت وآداب السلوك ، كانت تسبب الكثير من فحص القلب فحوصا خطيرا . ومبدأ حزقيال الذى تردد صداه بعض المزامير ^(١) وهو أن كل رجل يلقي الجزء الوفاق فيكافا أو يعاقب بمقتضى ما هو حقيق به فى مدرجة حياته الدنيا ، لم يستطع أن يصمد فى مواجهة الوقائع . أن أقدار الفرد كانت تعتمد كما هو جلى على أقدار رفاقه وما كانت حاجة السعادة الخارجية لتتناسب مع ما له من فضل . وكان هذا التناقض العمل ، وليس أى تعارض فكرى ، هو الذى دفع الناس الى التشكك فى العدالة الإلهية ^(٢) . وقد لاذت بعض العقول الى التفريق بين الرخاء الظاهرى والرضى الداخلى وغيرها الى الفكرة بأن آلام الصالح ، لم تكن تأديبا وإنما كانت تقويما بينما سعود جده الشرير كان من شأنه فقط أن يزيد وقع الكارثة التى تجتاحه آخر الأمر ^(٣) . ولكن تصور الألم على أنه قصاص عن الخطيئة كان متأسلا تأصلا عميقا فى العقل العبرى ، لتكون أمثال هذه الحلول مقبولة . وعلى هذا فإن المسألة التى قامت ، تكون موضوع شعر أيوب الفاجعى . لماذا ينعم الأشرار ويلقى الأبرار تعاسة لا يستحقونها ؟ إن الكاتب يحس أن هذا لا يمكن الإجابة عليه فى حدود صيغ الخطيئة الشخصية ، ولكن بينما يصيغ وضع الصعوبة فإنه لا يقدم حلا فيه الكفاية . ويظهر أن الافتتاحية تدل بأسباب الرأى الذى يقول أن أيوبا تالم كشهيد يعلن عن عدالة الله بينما يظل هو غير واع بالهدف من آلامه أى جزاء الورع الذى لا برمى الى نفع . وليأذه الأخير هو الى ما تمليه العقيدة الخلقية معرضا عن وقائع الظروف الخارجية ويظل تيقنه العمل من بر يهوه بحيث لا يتزعزع ، الى النهاية ^(٤) وفى نص واحد يجرى برأى عابر عن الأمل ، الذى قدر له منذ القرن الثانى وما بعده أن يتأصل

(١) على سبيل المثال المزمور : ١ ، ٣ ، ٣٤ ، ١٩ - ٢١ والامثال : ٣١ ، ١١

(٢) أيوب : ٢١ ، ١ - ١٥

(٣) مزامير : ٣٤ ، ١٩ و ٣٧ على الشخص ٣٥ ، ٣٦

(٤) انظر كتيب دكتور روبنسون بعنوان « صليب أيوب » (كتب الدين والحياة) الصفحات ٦٤ - ٦٩ وتشارلس (Charles) : الأمور الأخروية (Eschatology) الصفحات ٦٩ - ٧٣ . وفى السفر الخاص بأيوب فى التعليقات النقدية الدولية ، (درايفر وجرى (Driver and Gray) يذهب القول الى أن القرن الخامس هو تاريخ القصيدة المحتمل .

بين العبريين ، في بحث البار ليستمتع برؤية يهوه شخصيا (١) وسنعود وشيكاً الى هذه العقيدة ونقتصر هنا على التنويه الى أنها لا ترجع الى استدلال من مقدمات قياس نظرية ولكن كنتيجة فرضتها على العقل صعب الحياة العملية . وهذه الحقيقة تكفى بذاتها الى استبعاد الرأي الذى يقول ان ظهور العقيدة الجديدة كان مرجعه الى التأثير الهليني . وعلى الرغم من خضوع العبريين للحكم المقدوني من عام ٣٣٢ وما بعده ، فإن سياسة الامتزاج بين الغرب والشرق التى نامها خلفاء الاسكندر تركت أثراً ضئيلاً فى الفكر العبرى الا فى الاسكندرية حيث كانت الطائفة العبرية تستمتع بمكانة لها ميزة خاصة . وأعظم استثناء يلفت النظر فى العهد القديم هو الذى يورده سفر الجامعة الذى ربما يكون قد كتب قرب نهاية القرن الثالث حيث تتخذ الفردية الدينية ، تحت وازع الهلينية ، صورة البحث المتشكك . ان طبع هيرودوت (٢) لينعكس فى هذه الألفاظ : « ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات » ويستبين المذهب الكلبى فى الكاتب فى يسر فى عبارة : « رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح » .

(١) أيوب : ١٩ ، ٢٥ - ٧ ، انظر شارلس (Charles) صفحة ٧١ ودرايفر (Driver) المقدمة صفحة ٤١٨ : « ان فكرة حياة فى المستقبل ، مباركة ... فكرة ناشئة فى سفر أيوب » فى مجلد (التعليقات النقدية الدولية) عن أيوب يقدم جراى (Gray) العبارة :

الآية ٢٥ : أما أنا فقد علمت أن المنتقم لى حى وأنه بعد هذا سيقف فوق
التراب .

الآية ٢٦ : و... ..

وبدون جسدى أرى الله .

الآية ٢٧ : الذى أراه أنا لنفسى وعيناي تنظران وليس آخر .
فى الشطر الأول من الآية ٢٦ توجد صعوبة تكاد تكون مستحسنة .
والكلمة التى ترجمت (منقذ) فى النسخة القديمة معناها منتقم لظلم لا يستحق (انظر هامش النسخة المعدلة) . و (أنا) فى الآية ٢٧ للتوكيد . ويفسر جراى فى ملاحظاته العبارة بأنها تعبر عن اعتقاد أيوب ليس فى حياة بركة دائمة بعد الموت ولكن فى رؤية الله بعد الموت رؤية عابرة تبين أن الله معه . وعن الايمان بالبعث أنظر ما يلى ١٥ .

(٢) الجامعة : ١ ، ١٣ ، ١٤ وازن الأمثال : ٣٠ ، ٢ - ٤ لتشكك مشابه . ويمكن تقصى التأثير الاغريقى أيضاً (فيما يحتمل) فى الأمثال : ١ - ٨ وفى سفر (Ecclesiasticus) من الأسفار شبه المقدسة حيث يوجد بيان مجمل عن المثل الأعلى للرجل العاقل ومبدأ الوضيع وينوه عن قيمة وقت الفراغ لحياة الحكمة (مثلاً (Ecclus) ٣٨ ، ٢٤) واسم (Ecclesiastes) هو الترجمة الاغريقية للفظ العبرى (Qobéleth) ومعناه معلم الحكمة . وعن أدب (الحكمة) الذى ينتمى اليه سفر الأمثال أنظر درايفر (المقدمة) الصفحات ٣٩٢ وما بعدها .

ويبين انعدام الجد التفكيرى فقط كيف كان العقل العبرى وسيطا غير ملائم لتقبل الفلسفة الاغريقية . والآراء التى كان يؤثرها هي قواعد السلوك الحكيمة ، عند الابيقوريين وهم من بين جميع المدارس الهلينية المتأخرة ، المدرسة التى لم تقم أقل وزن للبحوث الميتافيزيقية ، ومسألة أيوب يمكن اهمالها على التو بانكار الجزء الخلقى^(١) و « الجامعة » مثال منعزل فى أدب « الحكمة » العبرى . ان آلام الشهداء ، الحاسديم ، فى عهد انطيوخس افيفانس Antiochus Epiphanes والعاطفة الوطنية العنيفة التى اتسمت بها ثورة المكابيين التى أثارتها جهوده فى فرض الهلينية قسرا ، أخذتا روح الحرية العقلية فى فلسطين وضمنتا انتصار الخاصية التى تفرد بها العبريون .

١٥ - وفى غضون السبى ، أصبح الأمل فى الملكوت قوة مسيطرة فى حياة العبريين الدينية وكان نموه تدرجا واتخذ ضروبا من الصور المعينة . فحينما كان يضيق بحيث يتوافق مع أشد مذهب قومى صرامة وحينما آخر يوسع حتى يحطم كل حاجز كان يفصل العبريين عن العالم الوثنى . وهو يرتبط فى الغالب ، وخاصة فى السنوات التى سبقت ميلاد المسيح مباشرة بالاعتقاد فى مجيء مسيا ، الملك من نسل داود الذى يجب أن ينقذ العبريين ويستهل مملكة يهوه^(٢) . ولكن هذه الظاهرة ، ليست جوهرية ولب التصور هو انشاء « مجتمع أعيد إحياءه » يجب أن تتحقق فيه الارادة الالهية^(٣) .

ولقد أدمج الترقيب القديم « ليوم يهوه » - ولم يعد بعد ذلك يفسر كمحنة غضب على العبريين ولكن كوعد بالفداء - فى رجاء الملكوت التى أعلن

(١) الجامعة : ٨ ، ١٤ و ٩ ، ٢ الصدفة تحكم العالم (٩ ، ١١) قواعد السلوك الابيقورية من طراز أقل رفعة ، القريضة من المذهب القوريني (Cyrenaicism) (٣ ، ١٢ وما بعدها و ٥ ، ١٨ وما بعدها و ٩ ، ٧ - ١٠) . هذه ونصوص أخرى كثيرة تورد للذاكرة نغمة رباعيات عمر الخيام .
(٢) مسيا معناه (المسحوق بالطيب) ويعادله فى الاغريقية Christos (Christ) (الذى مسحه يهوه بالطيب) كان تعبير يطلق كثيرا على ملوك ما قبل السبى .

(٣) شارلس (Eschatology) الامور الأخروية ، صفحة ٨٤ - يتصور المذهب العبرى السابق للمسيحية ، المملكة المثالية أحيانا على أنها حكم أمير دنيوى من نسل داود وأحيانا على أنها حكم الهى بحكومة من الكهنة . ولا يوجد ذكر لمسيا فى عاموس أو صنفيا أو ناحوم أو حبقوق أو يوشيا ولا فى دانيال أو فى النصوص الأخيرة ، اشعيا : ٢٤ - ٢٧ ، ٦٥ - ٦٦ وكثيرا ما يذهب التصور الى أن الملكوت تكون تحت حكم يهوه مباشرة .

عنها اشعيا و ارميا وبينها حزقيال فى وضوح (١) . وفى نبوءة حزقيال يستعرض التصور فى أعظم صورة شاملة له ، كتأسيس كنيسة من الكهنة تسبقها دينونة لا رحمة فيها للأمم والعبريين غير المؤمنين ، أما بركات الملكوت فيختص بها الأبرار من العبريين وتكون لهم وحدهم (٢) . ويرجع بعض انتصار هذا التفسير الضيق ، فى النهاية ، بين يهود العودة ، الى الاضطهاد الملاحق فى عهد انطيوخس وبعضه الى عدم قدرتهم على ادراك كل اتجاهات عقيدتهم فى التوحيد . والا ، ما كانوا ليعجزوا عن الوصول الى الاستنتاج بأن اله الأرض كلها لم يحصر عنايته الرحيمة فى شعب واحد له امتياز ولكن بشاء ارادته بأن معرفته يجب أن تكون ، عن طريق العبريين ، نورا لجميع الأمم على الأرض . ولقد عبرت ، فى الواقع عن هذا التصور الأكثر اتساعا للملكوت ، نبوءة السبى وما بعد السبى . كان يوجد فى حياة العبريين الروحية ذلك الشيء الذى لا قبل له على أن يحتبس داخل الحدود التى رسمها حزقيال . هكذا كانت رؤيا الملكوت التى ألهمت رسالة اشعيا الثانية (٣) . وهو يستهل بصوت التعزية : « تعزوا ، تعزوا ، يا شعبى ، وطمأنينة بافتداء قادم عندما يكشف عن مجد يهوه وكل الأجساد تراه معا » . ولو أن الرجاء فى نجاة عاجلة على يد قورش الفارسى يزدوج بذكرى عدم اخلاص العبريين السابق والتأنيب على عدم ايمانهم الحالى ، (٤) فان النعمة السائدة هى نعمة الوثوق من رحمة يهوه . انه المخلص المنعم الذى « سيطعم قطيعه كراع » وانه غفر فى سماح ، ذنوب شعبه : « بفيضان

(١) عن (اليوم) انظر عاليه ٤ - عن اشعيا انظر عاليه ٧ - و ارميا : ٢٣ ، ٥ ، ٦ - حزقيال : ٣٤ ، ٢٣ وما بعدها و ٣٧ ، ٢٤ وما بعدها . ولكن لا يوجد رجاء فى مسيا ، فى حزقيال (انظر كوك المرجع المذكور آنفا « المقدمة » ، صفحة ٣٠) .

(٢) وازن أر : ٤ ، ٢ و ١٢ ، ١٤-١٧ و ١٦ ، ١٩ حيث شملت الملكوت الشعوب . وقد ورد الرأى الاضيق ، على سبيل المثال فى اشعيا : ٦٦ وفى نبوءة يوثيل (حوالى ٤٠٠ ق م) .

(٣) تجىء تنبوءات اشعيا الثانى فى الاصحاحات ٤٠ - ٥٥ . ويرجع تاريخها الى زمن غزو قورش لبابل (٥٣٨) . وتضم هذه الاصحاحات (أغاني خادم يهوه) الأربع ومن المرجح أنها لكاتب آخر - الاصحاحات : ٤٢ ، ٤١-٤٩ ، ١-٦ و ٥٠ ، ٤-٩ و ٥٢ ، ١٣ و ٥٣ ، ١٢ والاخذ عشر اصحاحا الاخيرة من سفر اشعيا (٥٦ - ٦٦) ربما وضعها مؤلفون مختلفون وترجع الى تاريخ لاحق . وعلى أية حال فيمكن أن يعد من الأمور المقررة أن الاصحاحات ٤٠ - ٦٦ لا تحوى أية تنبوءات من اشعيا نفسه .

(٤) اشعيا : ٤٠ ، ٢٧ وما بعدها و ٤٢ ، ١٨-٢٥ ، ٤٩ ، ١٤-٢١

الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك قال وليك الرب» (١)
وكانت دعوة اشعيا الشانى للايمان أكثر من أن تكون للتوبة . ان علمه
باللاهوت أكثر وعيا وأكثر جنوحا الى التأمل بالقياس الى ذلك الذى كان لدى
الأنبياء السابقين انه يفرض معتقداته فى التوحيد كحقائق نظرية ، ليس
بتوكيد العقيدة ولكن بالدليل المقنع . ان يهوه هو الخالق المعترف به ، الحافظ
للكون ، الاله الواحد الأبدى الذى لا نهاية له والذى تظهر يده القادرة خلال
الطبيعة كلها والتاريخ كله : « من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء ، أنا
الرب الأول ومع الآخرين أنا هو » (٢) . ولقد توارت آخر آثار للشرك ،
كما يتميز عن التوحيد . ان آلهة الوثنيين أصنام ، أشياء لا وزن لها وباطلة .
« لا اله غيرى » (٣) . وعلى توافق تام مع هذا الادراك الجلى للوحدة الالهية ،
فان الرؤية تنفذ الى ما وراء حدود القومية ، الضيقة ، وتطالع خلاص جميع
الشعوب داخل الملكوت المعاد (٤) . ويذهب التصور الى أن اورشليم هى
الحاضرة المنتظرة لكنيسة عامة : « فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء
اشراقك » (٥) . ان فى «أغاني خادم يهوه» الأربع ، تجد رسالة العبريين العامة
أنبل توكيد لها . ولا توجد هنا أية فكرة عن السيطرة السياسية أو السيادة
الانسانية . ولقد صورت أمة العبريين البارة كخادم ، لا يتألم من أجل
خطيئته الخاصة ولكن من أجل خطيئة شعبه « محتقر ومرفوض من الناس
رجل أحزان ومختبر البلية » ، وأرسل الى أراض غريبة ليخلص أولئك
الذين فى العبودية ويعلن عن مجيء الملكوت .

(١) اش : ٤٠ ، ١١ و ٤٣ ، ٢٥ و ٥٤ ، ٨

(٢) اشع : ٤١ ، ٤ و وزن ٤٠ ، ١٢ - الآخر ٤٥ ، ٨-٥ و ٤٤ ، ٢٤
و ٥١ ، ١٣

(٣) اشع : ٤٤ ، ٦ و وزن ٤٤ ، ٩-٢٠ و ٤٦ ، ٧-١

(٤) تستعرض علاقة الأمم بالملكوت فى صور شتى فى الستة وعشرين
أصحاحا الأخيرة من اشعيا . فى وقت ، تظهر أمة العبريين كدولة امبراطورية
تدين لها جميع الشعوب بالولاء . اش : ٤٥ ، ١٤-١٧ (القصص يقع على
الشعوب) ٤٩ ، ٧ و ٢٢ ، ٣ و ٥٤ ، ٣ وفى غيره ، تقبل الشعوب ملكوت يهوه
عن ارادتهم الخالصة اشع : ٢ ، ٤-٢ (= ميخا ٤ ، ١-٣) ، نص يرجع
الى ما بعد السبى : ٢٥ ، ٦ ، ٧ (ربما حوالى ٣٠٠ ق م) .

(٥) اشع : ٦٠ ، ٣ و وزن مز : ٢٢ ، ٢٧-٣١ و ٤٥ و ٨٦ و ٨٧ و اشع :
١٩ ، ١٨ - ٢٥ نص متأخر يسترعى البال جدا فيه تندمج أشور ومصر فى
الملكوت على قدم المساواة التامة مع العبريين . راجع أيضا ما يقصه يونان
تمثيلا .

وليس من المغالاة فى القول ان هذه الفقرات وأمثالها من فصول اشعياء الأخيرة تركت على أبصار الناس طابع نظام مجتمع مثالى . ظل باقيا طوال الأزمنة اللاحقة . ولقد رأى المسيحيون فيها منذ البداية أقرب توقع للملكوت الانجيل . لقد كان الحصى الاثيوبى يجيل التفكير فى « أغنيات الخادم » فى مركبته عندما قابله فيلبس ، الشماس ، فى الطريق من اورشليم الى غزة . ان أغنية سيمون التى سجلها القديس لوقا ، تنهض دليلا على أنه كان يوجد فى زمن مجىء المسيح ، على الرغم من انتصار التخصيص فى المذهب اليهودى الصادق ، أولئك الذين كان يراودهم الأمل الأعظم فى الملكوت وتكون « نور اعلان للأمم ومجدا لشعبك اسرائيل »^(١) . وعلاوة على هذا ، فمن المرجح حقا ان المسيح الذى أخذ فقرة قريبة من « أغنيات الخادم » موضوعا له عندما كان يبشر فى المجمع ، تأثر بها ، عن وعى ، فى رسالة الخلاص التى حملها .

١٦ - ولقد تحول مبدأ الملكوت ، بطريقة تلغت النظر ، فى القرنين السابقين لميلاد المسيح ، عن طريق الامتزاج بالاعتقاد ، الغريب عن الفكر اليهودى فى زمن أكثر بكورا ، فى بعث بعد الموت^(٢) . وكانوا يتصورون ملكوت يهوه ، فى التقاليد الشعبية وفى تعاليم الانبياء على أنها خلاص العبريين ، يحقق فى تاريخ الأمة القادم على الأرض ، وكان بعد زمن متأخر ، وتحت دافع الأمل الشخصى القاهر ، أن اليهود دفعوا الى ربط الرجاء فى

(١) الأعمال : ٨ ، ٢٦ وما بعدها ولوقا ٢ ، ٣٢

(٢) راجع (الأخرىات) لتشارلس الفصلين الخامس والسادس . ان الاعتقاد اليهودى فى بعث بعد الموت ، عندما ظهر هكذا فى زمن متأخر ، لم يكن بأية حال ، عودة جديدة لآراء بدائية . لقد كان نتاج مسائل خلقية ودينية تنتمى لنضوج المدنية العبرية . لقد أودى دين يهوه ، على التدرج ، بعبادة السلف مع ما كان يلزمها من اعتقاد باستمرار حياة الروح فى شيول . ولقد مضت قرون قبل أن ينجم هذا الايمان الخلقى الجديد فى البعث ، عن دين يهوه المتطور . وكان تصور حياة مستقبلية يرتبط ارتباطا وثيقا فى الدين اليهودى بتصور بعث من الموت . وبين الاغريق ، من الجهة الأخرى ، اتخذ شكل الاعتقاد فى عدم موت الروح ، التى كان خلودها صفة جوهرية ولم يكن هناك موضوع عن بعث . ولكن مبدأ خلود الروح الافلاطونى كان يشترك مع مبدأ البعث اليهودى ، فى أنه كان مستقلا عن الاعتقادات البدائية فى البقاء (ولو أنه استخدم مواد استمدت من الاعتقادات الدينية الشعبية) . وكانت عقيدة افلاطون ترجع الى أسباب علمية (وفى هذا ، فإنها على نقيض تام مع عقيدة اليهود) . انظر ما يلى فصل ٤ ، ١٧ وفصل ٥ ، ٢٠ و ٢١ . ويقوم الاعتقاد المسيحى بالخلود وهو يتألف بالاعتقاد ببعث الموتى حياة أبدية على أساس مزدوج (١) على المذهب اليهودى فيما بعد السبى (البعث) ، وعلى الفلسفة الافلاطونية (الخلود) . راجع كوك . ج . وب (C.C.J. Webb) محاضرات جفورد (القسم الثانى) عن الشخصية الالهية والحياة البشرية الصفحات ٢٥٧-٦٤ . وعن الفلسفة الافلاطونية (الخلود) ، راجع كوك . ج . وب (C.C.C. Webb)

تراث العالم القديم

الملكوت بالرجاء فى بعث الأبرار حتى يسهموا فى نعيمها وتبعاً لهذا ، الى الاعتقاد فى خلود الروح . ولقد كان رأى التقليدى عن الروح لدى العبريين وكذلك لدى السلالات الأخرى جافياً ومادياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعبادة السلف ويتجرد عن أى مغزى خلقى . عند الموت ، كان الطيف يسير الى شيول حيث يقيم فى صورة شبه جسمية بينما الروح أو نسمة الحياة التى ميزوها بعد ذلك على أنها مصدر المواهب النفسية العليا ، ترجع الى الله الذى أعطاها . ولا يوجد هنا أى موضوع عن الخلود الشخصى أو الجزاء الأدبى بعد الموت (١) . وكما رأينا ، مر زمن طويل ليدرك العقل العبرى فكرة

(١) عن موضوع علم النفس العبرى ، الشيق ، الذى أهمل أهملًا بالغاً ، راجع المقالة (١١) بذلك العنوان ، التى وضعها العميد هويلر روبنسن فى (الشعب والكتاب The People and the Book) طبعة بيك الصفحات ٣٥٣ ٣٨٢ . وعند العبريين يكون الكائن البشرى الفرد (الذات) هو «الجسم كمركب يشتمل على أجزاء تستمد حياتها ونشاطها من روح - نفس ، ليس لها وجود منعزل عن الجسم » (صفحة ٣٦٦) . وينسب أصل - الحياة ، ويشمل القوى الواعية ، الى المادة الجسمية ككل وإلى أعضائها العديدة (القلب والكلى واللحم والعظام والعين واليد الخ .) . ولا يعرف علم النفس العبرى تقسيماً ثنائياً للروح والجسم ، ولسبب أقوى لا يعرف تثليث الجسد والروح والنفس . والجسد هو الانسان والشخصية هى الجسد الذى استودعت فيه الحياة ، وليست الروح المتجسد . ان الكلمة العبرية التى تدل على أصل الحياة هى نفس وتجيء فى المعتاد مترجمة خطأ بلفظ (Soul) فى النسختين القديمة والمعدلة (A.V. and R.V.) . وتعبير آخر ، روح (ويترجم فى المعتاد Spirit) ومعناه فى الأصل (ريح) باعتبار أنها نفس الله) يستعمل مراراً للدلالة على الإلهام ، إشارة الى أصل - الحياة كشهقة النشاط الإلهى يعمل فى الانسان . من الخارج وخاصة فى الإلهام التنبؤى وغيره من ظواهر قوة - الحياة . ومن أوجه نشاط الانسان ، يشار فى المعتاد الى الوجدان والعواطف بلفظ (نفس) والعقل و (خاصة) الإرادة (الضمير) بلفظ (لب) - حرفياً قلب - وتكون الإرادة أصلاً ، فى علم الأخلاق العبرى ، فى الله والانسان معاً (راجع ماتقدم صفحة ٦٩ تذكراً ٢) . وكان الخيال أو الشبح يذهب الى شيول كنسخة من الانسان كله ويبقى موجوداً فى حالة شبح وعلى ذلك فمن الخطأ الجسم اعتبار شيول موطن الأرواح الراحلة . وكان يستوطن شيول هذه الأطياف (نغائم) دون سواها وعندما يظن بصفة استثنائية أن الموتى ، كما فى حالة صموئيل ، عند اندور ، يرجعون فان القناع الجسمى الذى يحمل فى الحياة ، يظل باقياً . وكذلك الحال فى هومر (ادو ، ١١) ، يجب على الأشباح فى الجحيم أن يشربوا الدم حتى يستردوا الوعي ويتحدثوا مع أدوسيسوس . وعلى هذا ، فعندما حان للعبريين أن يتصوروا حياة مستقبلية فإنها كانت بعثاً حقيقياً للجسد لايجاد تجديد للحياة الجسمية على الأرض . ويوافق مبدأ الايمان المسيحى عن بعث الجسم ، التقاليد العبرية تماماً ولو أنه قوى بمعارضة للثنائية المانوية (الرأى أن المادة وخاصة جسم الانسان شريرة شراً ملازماً وترجع الى خالق شرير ، فوق مستوى البشر) .

المسئولية الشخصية . وحتى عشية النفي ، كانت الأئمة مسئولة عن خطايا أعضائها وكان البريء والمذنب ، على السواء ، ينالهما الجزاء الذي يقع على المجتمع . ثم حدث مع النفي ، تغير وأصبحت مطالب الفرد في عدالة يهزم تلح الحاحا يطرد ازديادا ، لارضائها . وقد رأينا كيف أن مفكرين كمؤلف سفر أيوب جاهدوا ، على غير طائل ، للوصول الى جواب عن المسألة . لقد كانت وطأة الاضطهاد في عهد انطيوخس هي التي فرضت الاعتقاد في البعث على عقل الشعب اليهودي . ولقد كان قاصرا ، قبل ذلك الوقت ، على أقلية صغيرة تأثرت فيما يرجح بالاتصال بالأفكار الزرداشتية في عهد الحكم الفارسي . ان النصوص الواردة في العهد القديم التي تشير اليه قليلة ومتأخرة (١) . وعندما تأصل الاعتقاد بين اليهود ، كان في صورة تتميز بأنها يهودية ، وفي اتحاد وثيق مع الانتظار القومي للملكوت . ولقد ذهبوا الى أن العبريين الأبرار ينهضون من شيول ليسهموا في تحقيق الملكوت على الأرض . وبهذا وصلوا الى حل يسد مطلب عدالة يهوه نحو الفرد المصاب ويرضى الطموح ، الحبيب الى القلب ، الى خلاص العبريين في النهاية . وتبين كتابات الرؤيا التي ترجع الى القرنين الثاني والأول بأن هذا الايمان لم يكن عقيدة ثابتة ثباتا دائما ، ولكنه يظهر في صور متباينة وفقا لمجرى التاريخ العبري المتغير (٢) . وكانت تقوم أسئلة عديدة تسمح باجابات مختلفة . هل كان

(١) ان النصين الواردين في العهد القديم اللذين يظهر فيهما الاعتقاد هما في نبوءة اشعيا الهامة (متأخرة) : ٢٤ - ٢٧ (وخاصة ٢٦ ، ١ - ١٩ بعث العبريين الأبرار حوالي ٣٠٠ ق م) وسفر الرؤيا لدانيال (حوالي ١٦٥ ق م) وفي دانيال : ١٢ ، ٢ نجد بعث (١) الأبرار حقا (ب) الأشرار حقا (أي المرتدين عن اليهودية) . ولا يوجد في أحد النصين ذكر لبعث عام . والنظرة الى البعث هي أنه عودة الشبيح الى حياة جسمية على الأرض ، جددت ، وهو نوع الحياة الوحيد الذي كان يمكن للعقل العبري أن يتصوره . ولم يخطر لهم على بال قط فكرة روح ، افترق عنها الجسد .

(٢) عن طبيعة الرؤيا واختلافها عن النبوءة ، راجع شارلس (الأخرويات) الصفحات ١٧٣ وما بعدها و٣٨٧ - ٨ والاختلافات الأساسية هي أن الرؤيا ترجع الى تاريخ متأخر وتسمية خاطئة وأكثر شمولاً في مداها . وقد شرعت في وضع فلسفة دين وتاريخ تسعى الى التغلغل الى ما وراء الحوادث لتصل الى غرضها الالهي وتضم الماضي والحاضر والمستقبل في رسم مجمل واحد ، خارق العادة ، ينتهي بمجيء الملكوت الالهي والدينونة الأخيرة وبعث الأبرار الى حياة مستقبلية مباركة . وقد حداها ميل لتحديد تواريخ الحوادث القادمة في احكام زمني . ان مذهب (الألف سنة) هو نتاج الرؤيا اليهودية . لقد هيأت مخلصا خياليا لروح حب الوطن بين اليهود ، الذين كانوا أضعف من أن يدركوا مطامعهم القومية تسير الى تحقيق . ولقد ترجم تشارلس كتابات الرؤيا اليهودية ، العديدة ، في مصنفه العظيم The Apocrypha and Pseud epigrapha of the O.T. وعن الرؤيا المسيحية ، راجع كتاب هذا المؤلف =

العبريون الأبرار فقط ، هم الذين يقومون أو أن الأشرار والوثنيين يسهمون في البعث ؟ وفي الحالة الأخيرة ماذا كان مصير اليهودي ، غير المؤمن ، والوثني في الدينونة التي تسبق إقامة الملكوت ؟ هل كان يسمح للأهم بامتيازاتها أو تفرض عليهم العبودية للعبريين ؟ وكان في المعتاد ، أن تقابل هذه المسائل بروح التخصيص الصارمة . ومرة أخرى ، ماذا كانت طبيعة الحالة الوسيطة ، بين الموت وقيام الملكوت ؟ هل كان البعث قاصرا على النفس فقط أو الروح المتجسدة وماذا كان شكل جسد البعث ؟ هل كانت الملكوت أبدية على الأرض أو محدودة الأجل ؟ ماذا كانت وظيفة مسيا فيما يتعلق بقيامها وبالدينونة ؟ وبعد أن قطع القرن الأول شوطا ، ظهر تطور آخر بعيد المدى . لقد قام الاعتقاد بأن هذه الأرض لم تكن خليفة لأن تكون مسرحا للملكوت في كمالها ، وأنه عند مجيء مسيا أو عند ختام حكمه الدنيوي ، سيخلق يهوه سماء جديدة وأرضا جديدة وأنه بعد دينونة أخيرة ، تعبر نفس العبري البار الى حياة أبدية في الملكوت السماوي . وعلاوة على هذا ، فإن مسيا يشخص أحيانا كابن انسان ، وأحيانا كأمر خارج من نسل داود ، عليه أن يخلص الشعب اليهودي من نير الرومان ويستفتح الملكوت الأرضي كمقدمة للملكوت السماوي الأبدى ^(١) . ومن الشيق تتبع هذه التصورات في أدب الرؤيا اليهودي ، بعد مجيء المسيح . ولكن قيل ما فيه الكفاية ليتضح كيف كان حاسما انتصار روح الانعزال القومي قبيل ذلك التاريخ ، على نظرة النبوة الأولى ، الأكثر اتساعا . ومن النادر الكشف عن أي أثر في الكتابات اليهودية في القرن الأول ق . م . أو القرن الأول

== (سفر الرؤيا) في (Inter national Critical Commentary) وعن موجز مختصر للموضوع كله ، راجع كتابه (Between the Old and the New Testament بين العهدين القديم والجديد) في (Home University Library)

ان أهمية الرؤيا اليهودية لفهم البيئة الدينية التي ظهرت فيها المسيحية ، عظيمة جدا وقد قام الدليل على أن تأثيرها على (الأخريات المسيحية) عميق ودائم فمثلا : تصورات الدينونة الأخيرة والسماء والقصاص الأبدى ترجع أصولها الى أدب الرؤيا .

(١) يجب التمييز في وضوح بين مسيا ، فوق مستوى البشر ، ومسيا اللقب ، لا توجد دلالة ، خارقة الطبيعة في استخدام حزقيال الكثير له (وازن داود . ان اتخاذ المسيح لقب (ابن الانسان) يضيف أهمية خاصة على تاريخ المزمير : ٨ حيث يعبر عن الانسانية ، على وجه عام ، وفي دانيال : ٧ ، ١٣ يدل على أمة العبريين كطراز مثالي للانسانية بالمقابلة بالحيوان = الممالك الوثنية ، وفي انوخ الأول ، وهو سفر رؤيا (القرن الثاني ق . م) يطلق على مسيا ، فوق مستوى البشر .

الميلادى للسماح للأُمم بدخول الملكوت (١) . ومنذ ذلك الحين يبقى التوحيد ويبقى التخصيص - على الرغم من عدم توافقهما الذاتى - فى عقيدة المجتمع اليهودى .

٤ - الخاتمة

١٧ - لقد تقصينا منهاج تعليم النبوة ونتائج حتى عشية تأسيس المسيحية . ويمكن أن نستخلص نتيجتين من فحصنا . ففى المكان الأول تمتزج حياة العبريين الدينية ، حتى فى أعلى تطور لها ، امتزاجا لا ينفصل بقيود تختص بها . وترجع قوة الدين العبرى الى الاعتقاد بآله أوجد وحكمه العالم حكما خلقيا . أما ضعفه ، المقيم فكان الافتراض الذى لا يمكن محوه بأن الغرض الالهى يتركز فى شعب واحد ، اختير من بين جميع الشعوب ليكون مستودع عطف يهوه الخاص وأن كل مجرى الطبيعة وتاريخ البشر ، يدور بارادة يهوه حول حياة ومصير العبريين . وهما لا يمكن انكاره أن سياسة العزلة المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال السائد فى العادات الاغريقية الرومانية والاغريقية الشرقية ولكنها أبعدت الأُمم عن أى نصيب فى الميراث الروحى . ان التاريخ الدينى العبرى ممتلئ بهذه الشواذ الغريبة والاضداد المتناقضة وقد ازدوجت الذلة التى تصدر عن الشعور بالخطيئة الشخصية بكبرياء العضوية فى مجتمع بار ، العنيفة ، غير المعتدلة ، وروح التقوى الداخلية بحرص دقيق فيما يتعلق بالفرائض الخارجية . ولقد نجم عن الايمان بوجود الله وجودا مستمرا وبتنظيمه الرحيم لكل حادثة فى الحياة العامة احترام متعادل لخصائص الواجب الحلقى الجوهرية ولقواعد صبيانية لمدونة مراسم (٢)

وعلى هذا فان الشعب العبرى عجز عن أن يدرك بصفة فعالة رجاء الانبياء الأعظم أو يكمل رسالتهم الخاصة فى القيام على تعليم البشرية تعليما روحيا . واذا بحثنا عن السبب الذى يرجع اليه هذا الفشل ، واذا سألنا لماذا لم يتنج لهم أبدا أن يدركوا عدم التلاؤم بين التخصيص والايمان بحاكم خلقى أوجد للكون ، فيجب أن نشير فى الاجابة على هذا الى ما كان يلزمهم من قيود عقلية ، فعلى غير شاكلة الاغريق ، لم يكن العبرى يفكر فى الأمور تفكيرا يتسم بالعمق . ولم يصل أبدا الى مستوى التقدم العقلى الذى تقوم فيه

(١) ولكن ٤ اسدرس استثناء (IV Esdras)

(٢) وهكذا تعالى الله وباطنيته كمستوطن فى قلب البار ، وعدالته ورحمته ، ومبدأ الجزاء الوفاق ومبدأ الغفران الطليق ، والرجاء فى ماثوبة مستقبلية عن الأفعال القيمة والسعى فى الخير من أجل الخير ، والحنمية والحرية ، وغضبت ومحبة الله - نجى متلازمة فى الفكر الدينى اليهودى ولو أن مصعب تمحيصها لا تدرك أبدا ادراكا تاما .

دعوى العقل بأن يكون له صوت فى تقرير المعتقدات الدينية والخلقية (١) وهذا هو السبب فى أن أنبل أقوال التقوى العبرية لا تنتظمها مجموعة متجانسة من الحقائق اللاهوتية ، وتعميها الاختلافات والمتناقضات التى غفل عنها واضعوها . وهكذا ، مرة أخرى ، يمكننا أن نشرح ما يمكن أن نطلق عليه عرض الفكر الدينى العبرى ، الحقيقة التى سبق أن لوحظت مرارا وهى أن أقواله يحددها تتابع الحوادث التاريخية التى حدث أن كان لها تأثير على الأمة العبرية . وكانت هذه الحوادث توحى ليس فقط بوقت النبوة العبرية ولكن إلى حد بعيد بفحواها . وكلما كانت ذلة الشعب المختار مريرة ، وكلما كانت آلامه عظيمة الشدة ، قوى تيقنهم من الافتداء فى النهاية .

وكانت رؤية العبريين الروحية تتسع بنسبة عكسية لما كانوا ينجزونه من أعمال جليلة دنيوية ، وكان المنطق ، لأنه لا بد من وجود منطق ، يرجع بعضه لمنطق الظرف التاريخي وبعضه الآخر لمنطق الضمير ، الداخلى . ولم يكن قط من البداية إلى النهاية منطق العقل . وعلى هذا فقد أتيح للأنبياء أخيرا بأن يروا حقائق ، أحداها فى وقت وغيرها فى وقت آخر ، فى عزلتهم واستقلالهم . وما أتيح لهم أن يعرفوا الحقيقة . وهذا هو السبب فى أن العبريين ، حتى بمعزل من قيود القانون ، لم تكن لهم قدرة على توصيل مغزى رؤيتهم الروحية إلى شعوب الغرب . وحتى يكون هذا بالأمر المستطاع ، كان يتحتم صوغ الحقائق العديدة فى كل متجانس وتفريق الجوهرى عن العرضي والكشف عما يكون هناك من دلالات وتجديد الصحة النسبية لكل حقيقة بعملية تنسيقية يتوافر فيها التوضيح والافاضة . وبهذا وحده كان

(١) وعندما جاء دور العقل ، أصبح ينزع إلى السفسطة والرسميات ومنطق المدارس الجذب . وفى الوقت نفسه ظل التواصل قائما بين التعليم الروحى الأعلى ودين الشعب . وقد نجح الأنبياء اليهود هنا ، حيث فشل فلاسفة الاغريق . (راجع وب (Webb) - محاضرات جفورد ، السلسلة الأولى عن « الله والشخصية » الصفحات ٨٥ ، ٨٦) . ان العلاقة الشخصية بين يهوه وعابده اليهودى لم يأت عليها وهن فى جميع مستويات الإدراك الدينى . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أنه بينما الرابطة الوثيقة بين النبوة العبرية والازمات التاريخية التى انتابت الأمة كانت تقيد أغراض يهوه وإرادته بالحوادث الزمنية فإنها أضفت على اليهود احساسا قويا بمغزى التاريخ ، الخلقى ، ولم يساورهم جنوح قط . كما كان يساور الفلاسفة الاغريق فى الغالب ، بأن يفرقوا بين القيم المثالية وسير الوقائع . « ان التاريخ بأجمعه هو كشف الغطاء عن الغرض الالهى وعلى هذا فان التاريخ ككل ، له أهمية عند اليهودى ، لم تكن مطلقا عند المفكر الاغريقى أو اليهودى الذى اصطبغ بالهلينية . ان الفكرة العبرية عن الله دينامية وخلقية وعلى هذا فإنها تتأصل فى فكرة الزمن » (انج (Inge) - مقالات صريحة - القديس بولس صفحة ٢١٥) . ان هذا الاحساس بقيمة الواقعة التاريخية كان له تأثير قوى على الفكر المسيحى - راجع السفر الثانى الفصل التاسع .

يمكن لتعليم النبوءة أن يصل الى عقيدة دينية يكون لها وقع ليس فى القلب وحسب ولكن فى العقل . هل كان يصدق أن يحدث مثل هذا التحول الاساسى الا بالانفصال عن اليهودية .

١٨ - والأمر الثانى هو أن حياة العبريين الدينية هيأت السوابق التاريخية للمسيحية . ولقد اعترف المسيح نفسه بهذه القرابة عندما أعلن أنه جاء لا ليهدم الناموس ولكن ليكمل . وعند القديس بولس ، رسول الأمم ، كان الناموس معلما يهدى الناس للمسيح . وقد كان عن طريق وساطة المسيحية ، أن ميراث اسرايل الروحى نقل الى العالم الغربى . وفى عملية النقل النسقية ، أعيد صياغته وحول . وقد أهمل الكثير مما كان يتميز به الدين اليهودى وأصبح ما مثل أساس بناء جديد ومنذ ذلك الحين، سارت الديانتان فى طرقهما الخاصة المتعددة . وما كان الوعى بالعلاقات التاريخية الا ليوسع الهوة التى تفصل بينهما . ويكون التواصل ظاهرا أعظم ظهور ، فى تصور الملكوت الالهى . وكان من الطبيعى أن تلاميذ العقيدة الجديدة يرجعون الى الأنبياء عن سوابق الانجيل ، وليس الى الشريعة لأنه كشف للأنبياء عن رؤية « يوم يهوه » ، عندما تسود العدالة ويتوارى الاضطهاد والظلم ، عندما الناس « يطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ؟ » . وعندما « لا يسوؤون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر » (١) .

ولقد عاق تقبلهم هذه الحقائق قيود : تحيزهم لما كان لشعبهم الخاص من حقوق ، وفشلهم فى التوفيق بين مطلب الفرد الروحى ومطلب المجتمع وادراكهم الناقص للباطنية الالهية وارجاؤهم المجتمع المثالى لزمان يجرى فى المستقبل . وفى تعليم الانجيل ، تحررت فكرة الملكوت تحرراً نهائياً من هذه القيود . أصبح الفرد يستطيع أن يجد الخلاص ويظفر بالحياة الابدية فقط عن طريق الاندماج فى المجتمع الالهى الذى كان يرتبط أعضاؤه ، الواحد مع الآخر ، باتصرتهم الشخصية مع رئيس ذلك المجتمع . وفى النهاية حطمت حواجز القومية الى الأبد وفتحت أبواب الملكوت لليهودى والأممى ، والاغريقى والهمجى ، والاسير والحر . . . ووجد ايمان - أزال الهوة التى كانت تفصل ما هو الهى عما هو انسانى - كل البشرية بروابط أخوة عامة . ومرة أخرى ، أصبحوا يتصورون إقامة الملكوت على أنها ليست حادثة بعيدة ولكن واقعة حاضرة ، حقيقة حية لها وجود فعلى فى قلوب الناس « على الأرض كما فى السماء » (٢) . ولكن بذور مبدأ الايمان ، هذه التى

(١) اشع : ٢ ، ٤ = ميخا ٤ ، ٣ واشع : ١١ ، ٩ = حب : ٢ ، ١٤

(٢) عن الملكوت كواقعة قائمة : مرقس ٤ ، ١١ ، ٣٠ وما بعدها (حبة

الجدل) ١٠ ، ١٤ و ٣٤ ، ١٢ وكذلك متى : ٥ ، ٣ = لوقا : ٦ ، ٣٠

ومتى ٦ ، ٣٣ = لوقا ١٢ ، ٣١ .

أتت بمثل هذه الثمار فى تجديد البشرية تجديدا روحيا كانت مغروسة فى تربة النبوة العبرية . ولهذا السبب كان يستطيع اليهودى ، بل والمسيحى أيضا أن يعترف بدعوى العبريين فى أن يلقبوا بالشعب المختار : « أنتم فقط الذين عرفتهم من بين جميع عشائر الأرض » . ومن بين شعوب عالم ما قبل المسيحية ، سمح للعبريين دون سواهم برؤية ملكوت الله وما دونوه عن هذه الرؤية ، هو تراثهم لبنى الانسان ^(١) .

= عن عدم مجيء الملكوت بعد : مرقس ١ ، ١٥ (اقترب) وكذلك متى ٨ ، ١١ و ٢٢ ، ٢ وما بعدها وأمثال الكنز المخبأ فى حقل والدرّة ذات الثمن العظيم . عن الملكوت كحياة أبدية فى العصر القادم : مرقس ٩ ، ٤٣ وما بعدها و ١٠ ، ١٧ وما بعدها وكذلك متى ٧ ، ٢١ وما بعدها .

راجع جاكسون وليك ، التمهيد الجزء الأول ، لأعمال الرسل الصفحة ١٧٨ وما بعدها الذى أخذ منه المراجع آنفة الذكر . ان كلها تجيء اما فى مرفس أو فى تلك الأجزاء من متى ولوقا التى يمكن ارجاعها الى مصدر مشترك ويرمز اليها بالحرف (١) الذى يعبر عن مرقس . ويذكر كتاب نسايرلس (الأخرى الصفحات ٣٦٤ وما بعدها) متى ١٢ ، ٢٨ ولوقا : ٤ : ١٨-٢١ (الملكوت حاضرة) مرقس : ٩ ، ١ (مستقبله ، فى السماء) ، متى : ١٨ ، ٣ ، ٤ ولوقا ١٨ ، ١٧ (حاضرة ومستقبله على السواء) .

(١) يجب التنويه عن فروق آخر بين المسيحية واليهودية المعاصرة . جاء المسيح ليبشر « بأخبار طيبة تجلب فرحا عظيما » . وكان على هذه الحال أن رسالته استهوت شعوب عالم البحر المتوسط . ولكن الفكرة السائدة فى كتابات الرؤيا اليهودية فى الفترة الواقعة بين ٢٠٠ ق م - ١٠٠ م هى فكرة الانتقام الالهى . وكانت الرسالة للعالم بأسره ، حتى لغير الصالحين بين اليهود رسالة فزع وليس رسالة رجاء . لقد كان اليهود يعتقدون فى مفعول الخوف والعقاب وانصب تعليمهم على عداوة الله عداوة لا هودة فيها للإشراق غير التائبين . وحتى «عهد البطارقة الانسى عشر» (القرن الثانى ق م) الذى يدعو ما يقرب من مبادئ الايمان المسيحى فى الغفران ، يقصر دون الوصول الى المثل الأعلى المسيحى فى محبة الأعداء . ويذكر مونتيفيور (Montefiore) (فى الأعمال ، ١ : ٧٩ لجاكسون وليك) أنه لا توجد فى اليهودية المعاصرة النصيحة التى تتميز بها المسيحية لمحبة تسمى الى الخاطئ ومن سقط . واذا كان هذا واجب الانسان ، فيجب أن يكون كتمبير عن المحبة الالهية التى تنسحب حتى على غير الشكور والشرير . لقد كان كتاب الرؤيا يعجبون لماذا خلق الله جماهير الناس ليلا فوا العقاب الأبدى ولكن لم يناقشوا الواقعة قط . ومما لا ريب فيه أن علم اللاهوت المسيحى استوعب الكثير من هذا التقليد اليهودى ، وفى قصيدة دانتي نفرا أن جماعات من الأرواح تساق الى الجحيم أمام بصر الشاعر بينما يمر شاعر ملحمة (Statius) فقط ، أثناء رحلته من المطهر الى الفردوس . ولكن هذا التراث المهالك لم يمح اطلاقا تعليم المسيح الجوهري ، الجديد عن محبة الله التى تشمل الكون ، ذاك الذى تضمنه ، على سبيل المثال ، مثالا الحروف المفقود والابن الضال .

تذكرة إضافية

عن تاريخ العبريين بعد النفي

قد يكون من المفيد أن نلخص في ايجاز الوقائع البارزة لتاريخ ما بعد النفي ، وهي تقع في ثلاث حقب :

(١) كان المنفيون المعادون خاضعين لسيادة فارس الوداعة من منتصف القرن الخامس حتى غزو الاسكندر الأكبر المقدوني ، (٣٣٢) .

(٢) وكان يحكمهم ، قرابة قرنين ، أسيا د مقدونيون . وكانت فلسطين مرة أخرى ، الغنيمة التي يتصارع للفوز بها البطالمة في مصر . وملوك آسيا السلوقيون . وقد فتحت الأبواب على مصاريحها للهليينية . وقام اضطراب مدني في عهد سليوقد أنطيوخس أفيفانس (١٦٨) بين اليهود الذين يسرون على الهليينية يعاونهم الملك الاغريقي وحزب المبادئ القويمة مما أدى الى تدخل أنطيوخس بالقوة والى انتهاك المعبد واستشهاد الكثيرين . وقد وجد «الأخيار» نصيرا في يهوذا المكابي من عشيرة الكهنة الهسمونية (هشموناي) الذين حققوا الاستقلال القومي وأسسوا حكومة دينية ظلت باقية الى أن ظهر الرومان على المسرح .

(٣) وفي الأعوام ٦٣ - ٦١ أعاد بومباي ، بعد أن تم له قهر مثرادطس ملك بنطس ، عدو روما العظيم في الشرق ، تنظيم ذلك الجزء من اقليم البحر المتوسط . وقد وضع اليهود تحت السيادة الرومانية واحتفظوا بقسط عظيم من الحكم الذاتي يباشره كبار الكهنة . وفي عام ٤٠ آلت الحكومة الى هيرود العظيم الحاكم الادومي ذي القدرة الاستثنائية الذي عاون باستمرار روما وعاونته روما .

ولقد أعاد اقامة المعبد في روعة عظيمة وأسس قيصرية . وكان كنجيني ، غير محبوب بين جمهرة اليهود . وعند موته (٤ ق م) انقسمت المملكة وهي أبدا تحت السيادة الرومانية . وفي عام ٦ م ، أصبحت اليهودية اقليما من المرتبة الثانية ، يدير شئونها وال مسئول أمام مبعوث legatus سوريا ودام هذا النوع من الحكومة (فيما عدا فترة الثلاث سنوات ٤١-٤٤ م عندما حكم هيرود أغريبا Herod Agrippa الأول اليهودية كملك) حتى الثورة العظيمة التي حدثت عام ٦٦ وتدمير طيطس اورشليم في عام ٧٠ .

وكان بنطيس بلطس Pontius Pilate أحد سلسلة من الولاة في عهد طبريوس . وأخيرا بعد ثورة اليهود الثانية ضد روما في عهد هدریان (١٣٢ - ٥) أصاب الجماعة الضربة القاضية ، فقد الغى اسم اليهودية ، وتاريخ اليهود اللاحق هو تاريخ التشتت .

ويجب أن يلاحظ بعد هذا :

(أ) ان الوطنية القومية اليهودية ازدادت شدة وانعزالا بازدياد صرامة الحكم الأجنبي ، الفارسي والاغريقي والروماني . وكانت كل محاولة لفرض الآراء الغربية تثير اندلاع مقاومة عنيفة . وقد كسب الحزب القومي قوة في عهد الحكم الروماني على الرغم من الاحترام المدروس الذي كانت الحكومة الامبراطورية تسايح به الشهور الديني اليهودي ، والسلطات الواسعة القضائية والادارية التي منحت الى السنهدريم (سيندريون Synedrion الاغريقية = مجلس) وكان الشعب اليهودي على الدوام ، على وشك الثورة خلال هذه الحقبة ، وكانت الجليل مركز العاصفة الرئيسي .

(ب) ان جماعات التشتت اليهودية (Diaspora=Dispersion) تزايد عددها وأهميتها في اطراد في خلال الحقتين المقدونية والرومانية . وكان يوجد على الدوام مستعمرة يهودية في بابل ، عظيمة وهامة جدا . واستقر اليهود في مدن آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وخاصة في الاسكندرية حيث احتلوا اثنين من أحياء المدينة الخمسة وكانوا يستمتعون بمزايا عظيمة .

وهناك وضعت الترجمة الاغريقية « للعهد القديم » ، المعروفة بالترجمة السبعينية (Septuagint) في القرن الثاني ق.م . وكانت الاسكندرية مكان اجتماع الفكر اليهودي والهيني ، الرئيسي ، ونرى اليهودية تنحني للنفوذ الغربي ولكن لا تتكسر تحت وطأة الضغط (أنظر ما سيجيء بعد ، فصل ٦ ، ٨ وفصل ٩ ، ٢) . وقد وجد بين اليهود كثير من المرتدين (وكذلك شبه مرتدين كانوا يقبلون العقيدة اليهودية دون ختان ودون غيره من الفروض الموسوية) في الأقاليم التي اصطبغت بالهينية . ويعطى سفر أعمال الرسل : ٢ ، ٩ - ١١ فكرة عن مدى التشتت ووجود اليهود ، الذي ألح اليه ، في فارثيا وغيرها من البلاد الشرقية ، خارج الامبراطورية الرومانية ، يقيم الدليل على التبشير بالمسيحية في تلك الجهات في الأزمنة القديمة (ولو أنه لا يعلم الا النذر اليسير جدا عن هذه البعثات) . وتوحى الرغبة التي عبر عنها القديس بولس في التبشير في اسبانيا (سفر رومية ١٥ ، ٢٨) ، بأن اليهود تغلغلوا الى أقصى الغرب في العالم الروماني .

(ج) انه كان في العهود الاغريقية والفارسية والرومانية أن اليهودية ، وهي تتميز عن دين العبرانيين في فترة ما قبل السبي ، تطورت كدين حتى

بلغت الصورة الكاملة النهائية التي ظلت عليها منذ النصف الأخير من القرن الثاني وبداية القرن الثالث • وهذه العملية النسقية التي بدأت كما رأينا بتنفيذ قانون عزرا والتي حافظت بتأثير النبوة في المراحل الأولى على استمرار لا ينقطع ، مع دين ما قبل اليهودية - كانت تتميز بسيادة تضطرد ازديادا للتوراة التقليدي ، كما يفسره في المدارس والمجامع ، الكتبة ومن جاء بعدهم من المفسرين الماهنين الذين أدمج عملهم في النهاية في « المشناه » وهي مجموعة القوانين التقليدية كما انفذت في ختام القرن الثاني ، وبعد ذلك في التلمود (التعليم) الذي وضع في الجليل في أواخر القرن الرابع ، وبابل (في أواخر القرن الخامس) • وأصبح التوراة ، وقد وضع هكذا في مدونة قوانين ، عفيدة يهودية عامة أساسها الاشتراك في القروض والتغلغل في كل تفاصيل حياة المجتمع اليهودي ، الدنيوية وكذلك الدينية والشخصية والمنزلية والقومية • وقد حل منهج التخصص محل منهج التعليم وانتصر مذهب الشريعة وبطلت النبوة ينطق بها أنبياء أحياء ، ولكن يظل خلق المذهب اليهودي في شكله النهائي الدائم عملا جليلا حقا قامت به عبقرية الشعب المختار ، الدينية (١) •

(١) راجع مور Moore "Judaism" السفر الأول - مقدمة ، وفصل

الفصل الرابع

قيام الهلينية

١ - مقدمة

١ - ان أصول الشعب الاغريقى يعسر اقتفاء اثرها . ولقد راينا كيف انه منذ عهد بعيد ، فى الألف سنة الثالثة ، كانت كريت موطن مدنية زاخرة وصلت الى اليونان فى القارة وجزر ايجة والبحر المتوسط . والرأى السائد هو أن صانعى هذه المدنية كانوا يختلفون عن يونانى التاريخ اللاحق ، فى السلالة والخليقة واللغة . وعلاوة على هذا فان شهادة التقاليد القديمة وعلم الآثار الحديث تشير كلاهما الى كارثة أطاحت بدولة كريت ، فى وقت ما ، يقرب من ختام الألف سنة الثانية ، الى فترة لاحقة من الفوضى والاضطراب ، مماثلة لتلك التى وقعت بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب وظهور نظام مجتمع جديد فى العصور الوسطى . والأزمة القديمة أيضا كان لها عصور مظلمة ، ومنها أنبعثت يونان التاريخ . وفى كريت ، على سبيل المثال ، دمر حريق أبنية منويا العظيمة ثم بعد قرون لم يصل منها الا اليسير من الوثائق نجد الاغريق الدوريين يحتلون الجزيرة . ولقد أنبأت قصة الديانة الاغريقية عن صراع بين آلهة عجائز وآلهة أصغر منهم سنا وعن انتصار هؤلاء . وقد حفظ الشعراء والمؤرخون الاغريق ذكريات عن هجرات بالبر والبحر وعن صراع وامتزاج بين الغزاة الأخائيين والدوريين من جهة والبلاسجيين السابقين للأخائيين من جهة أخرى . والفيل الذى نعلمه عن عصر الانتقال هذا يوحى بمشكلات لا بنتائج . ولكن هذا القدر على الأقل نُعلمه علم اليقين ، وهو أنه ثى زمن متأخر فى الألف سنة الثانية ، هبط محاربون طوال ، صفر الشعر فاتحو اللون ، من الجذع الهندى الأوروبى فى موجات متتابعات الى العالم الايجى من أصقاع الشمال الداخلية . وبعضهم وقد جلبوا معهم أسراتهم وما لديهم من متاع كالغوط والفرنجة فى زمن متأخر عن هذا ، شقوا طريقهم قسرا صوب الجنوب بالبر الى طراقية ومقدونيا وتساليا وأفيروس وواصلوا السير الى اليونان الوسطى وبلوبونسس . وآخرون غيرهم ، ربما فى تاريخ أسبق ، عبروا السبنتس الى آسيا الصغرى وكذلك آخرون كرجال الشمال ، فى القرن التاسع أغاروا بالبحر على سواحل وجزر ايجا . ويمكننا أن نتصور هؤلاء الشماليين الأجلاف وهم لا يختلفون فى عاداتهم وثقافتهم عن المقدونيين فى عصر فيليب والاسكندر أو عن الألبانيين فى زمننا . ولم يكونوا حين سادوا فى خلال القرون مدنية كريت القديمة هدامين بكل ما تحمل الكلمة من معنى . ولقد تركت هذه المدنية آثارها على تدرجهم فى الرقى ، ومن المحتمل

أن تفوق الثقافة الاغريقية بموازنتها بثقافة الرومان كان مرجعه الى حد ما ، الى هذه الواقعة وهى الاتصال المبكر بالمدينة المنوية . وعلى أية حال كان اغريق التاريخ نجاج الامتزاج التدرجى بين الأخائيين وغيرهم من دخلاء الشمال والقاطنين القدامى بالعالم الايجى . ومن الطبيعى أن هؤلاء الأخيرين وقد كانوا أكثر عدا أن يطبعوا الغزاة بطابع ثقافتهم . واستقرار الغزاة على اليونان الأوروبية كان يصحبه أو يعقبه هجرات المستعمرين الاغريق الى جزر بحر ايجا وشواطئه الآسيوية والتقاتل مع ذوى قرابتهم الذين عبروا الى هناك بطريق آخر فى زمن أسبق . ومن المحتمل جدا أن ذكرى مثل تلك المعارك هى التى حفظتها قصة حرب طروادة (١) . ولقد أبجرت احدى تلك الجماعات من المستعمرين ، وهم الأيوليون ، من تساليا الى شمال غربى آسيا الصغرى والجزر التى تقع فيما يلى الساحل . وغيرهم من المستوطنين ، بعيدا الى الجنوب ، اتحدوا فى تحالف قدرالى ، يطلق عليه اسم الجمعية الأيونية حول مقدس بولو فى ديلوس . وكان باسم الأيونيين (بوفان فى العهد القديم) أن قدماء الاغريق عرفوا لدى شعوب الشرق . ويمكن أن نضع تاريخ هذه الهجرات البحرية عبر ايجا بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق.م. ومن المحتمل كثيرا أن هذه الهجرات ترتبط بالشدائد التى عانتها مصر من جوابى البحر فى عهد الأسرة العشرين (٢) .

وأخيرا فى ختام الألف سنة الثانية تماما وصلت آخر موجة من الغزو الشمالى الى اليونان الأوروبية عندما احتل الدوريون وهم جيل من أصلاب المحاربين ، أسلاف الأسبارطيين الذين جاءوا فى تاريخ لاحق ، أجزاء من اليونان الوسطى والغربية ، وعندما بلغوا فى سيرهم مناطق الجنوب دانت لهم السيادة على التدرج ، على الجزء الأعظم من بلوبونسس . وعبر المهاجرون الدوريون أيضا بحر ايجيه واستعمروا كريت ورودى وشواطئ آسيا الصغرى الجنوبية الغربية . وكان من أثر هذه الهجرات التى استغرقت عدة قرون وانتهت حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. استقرار السلالة الاغريقية واللغة الاغريقية على جانبى بحر ايجة .

-
- (١) ان التاريخ التقليدى لحرب طروادة هو ١١٨٤ ق.م. ورأى العلماء فى زمننا الحاضر أكثر تحفظا عما كان عليه منذ قرن . وهذه القلائل فى بحر ايجا وعالم شرق البحر المتوسط قد تكون السبب فى فقدان الحيشيين لنفوذهم فى غربى آسيا الصغرى . انظر ما سبق قوله فى الفصل الثانى فقرة ١٢ ومحاضرات اشفايش Schweich Lectures لكاولى Cowley عن الحيشيين .
- (٢) انظر ما جاء فى الفصل ٢ فقرة ٤ وقد كان بعض الغزاة المتأخرين يمتشقون سيوفا من الحديد من صنع أدخل التحسين عليه وأمامها كانت المدى من البرنز التى يحملها خصومهم الكريتيون قليلة النفع .

٢ - دولة المدن الهلينية

٢ : ان حياة الشعب اليونانى خلال القرون البواكر من الألف سنة الأولى ، كما فى حقبة الهجرات السابقة ، يكتنفها الغموض ، وعلمنا بطبيعتها يتألف على الأكثر من نتائج عامة تستند الى استدلالات ترجع الى العصر التالى . وهذا جلى فى جميع الأحوال ، فلقد امتدت المدنية الهلينية منذ فجر تاريخها ، الى ما يلى يونان القارة . وسنرى فى الحال كيف أنه فى القرنين الثامن والسابع ، بسطت هذه المدنية رواقها فيما يوالى منطقة ايجا حول أكسين (البحر الأسود) وفوق أراضى الساحل فى أفريقيا الشمالية وجنوبى ايطاليا وصقلية . وقد أصبحت ايطاليا الجنوبية تعرف لدى الاغريق باسم « هلاس العظمى » ، وأينما نجد فى عالم البحر المتوسط مدنا اغريقية والتحدث بالاغريقية فهناك ، فيما له شأن بالتاريخ ، نجد اليونان . ولكن الحقيقة التى لها الأهمية الأساسية للمدنية الهلينية هى أنه عندما يرفع الحجاب جزئيا فى القرن الثامن ، نرى الاغريق ، فيما عدا الجماعات المتخلفة التى تقطن بالجزر ، قد تجمعوا على دول مدينة ، ونرى ممالك الملوك الآباء التى نقرأ عنها فى الأشعار الهومرية قد أخلت فى الغالب أمكنتها للأرستقراطيات الوراثة ، وفى الجماعات المدنية الأكثر تقدما نجد القوانين والنظم الدستورية قد بدأت فى الظهور . وكانت كل من هذه المدن الصغيرة تستمتع بالاستقلال السياسى التام وترقى بمنظوماتها التى تتميز بها وبسند الحياة ، فى سبيل التقدم . ومن الجوهري أن ندرك أن اليونان الحرة لم تتوحد اطلاقا فى دولة واحدة . والوثاق القومى كان وثاق السلالة واللغة المشتركين وليس ذلك الذى يكون بالاتحاد السياسى . ويجب أن يكون مدار تفكيرنا فى التاريخ الاغريقى على أنه سجل لمئات المدن المستقلة التى تناثرت فى أرجاء جزر وشواطئ البحر المتوسط وكل منها يملك رقعة صغيرة من الأرض المدنية . ورقعة أثينا على سبيل المثال ، التى كانت على اتساع منقطع النظير ، كانت تشمل شبه جزيرة أتيكا ومساحتها تعدل مساحة مقاطعة انجليزية متوسطة . وفى عصر بركليس ، كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠.٠٠٠ يمثلون سكانا أحرارا تعدادهم زهاء ٢٥٠.٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال يضاف اليهم الكثير من العبيد والغرباء المستوطنين (١) .

(١) انظر تذكرة الفصل الخامس فقرة ٥

كان لدى اسبارطة وهى دولة - غزو محدودة جدا نحو ٨٠٠٠ مواطن فى قدرتهم حمل السلاح ، فى زمن حرب الفرس - وقد هبط هذا العدد الى ما يقرب من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ قبيل عام ٣٧١ وفى زمن أرستقطاليس الى أقل من ١٠٠٠ وكان لدى أرجوس وطيبة قرابة ٢٠.٠٠٠ من المواطنين - الجنود ، فى آخر القرن الخامس .

وعلى غرار الجمهوريات الإيطالية فى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه المدن الاغريقية تحرض حرصا شديدا على استقلالها . وكلما ظفرت واحدة منها مثل أثينا أو سيراكوز الصقلية بالسيادة على الأخريات فإن الامبراطورية كانت فى جميع الأحوال ذات أجل عابر وطالما بقيت ، كانت تثير الجفاء العميق بين رعاياها . وكانت الوطنية الاغريقية مدنية وليست قومية . وليس معنى هذا أنهم كانوا مجردين عن الاحساس بأصرة القرابة الهلينية المشتركة ، ولكن على النقيض كانوا يدركون فى جلاء ، الهوة التى كانت تفصل موازينهم فى الاخلاق والمدنية عما كان لدى « الهمج » الذين كانوا يحيطون بهم ولكن الرابطة كانت رابطة شعور ولغة وثقافة (١) . ولقد وجدت تعبيرا خاصا بها فى الحفلات الرياضية العظيمة التى كانت تعقد تحت الرعاية الدينية ومجالها مفتوح لكل الهلنيين وقاصر عليهم ومن بينها كان أقدمها وأبعدها صيتا ، ذلك الاحتفال الذى كان يعقد كل أربع سنوات فى ألومبيا على تخوم الس تكريما لزيوس ، وقد نظمت من بواكير القرن السادس حفلات أخرى فى نميا بالقرب من أرخس على برزخ كورنت - والفوئى - على سهل كريسا عن قرب من هيكل أبولو فى دلفى . ودين الاغريق ، على الرغم من طائفة جمة من الضروب المتباينة المحلية ، كان يكون ارثا مشتركا . وكانت تحاط الآلهة الأولمبية الرئيسية مثل زيوس وبسيدون (Poseidon) وأثينا Athene وأبولو Apollo بالتبجيل فى جميع أرجاء المنطقة الهلينية . وفى عهد التوسع التجارى تطور مهبط الوحي فى دلفى الى منظمة جامعة هلينية دينية . وبفضل سهولة المواصلات بالبحر بين جميع أجزاء العالم الهليني ، سرعان ما أصبحت ضروب الفن والشعر والعلم التى قامت فى متنوع مراكز الثقافة ملكا مشتركا لها جميعا . وعلى هذا فإن الحاجة الى اتحاد سياسى كأداة للمدنية لم يشعر بها الاغريق طوال حقبة الخلق العظيمة ، فى تاريخهم ، وحتى عندما كانت تسيطر على مدائن اليونان الوسطى والشرقية المملكة المقدونية فى القرن الرابع ، احتفظت مدن ايطاليا وصقلية باستقلالها وظفرت مقدونيا بسيادتها وحافظت عليها عنوة .

٣ - والبولس Polis دولة - المدينة كانت من خلق الشعب الهليني

(١) يذكر الأستاذ جلبرت مري (Five Stages of Greek Religion) خمس مراحل للدين الاغريقى (صفحة ٨١) أن الوعي بالهلينية كانت نشأته بين الأغريق الأيونيين فى آسيا الصغرى حيث كان التناقض مع الهمج المحيطين بهم أشد ظهورا ، ولفظ هلينى ، معناه « مثل الهلنيين » وليس « نسل الهلنيين » نفس المرجع صفحة ٥٨ وما بعدها .

الخاص (١) . ان أثرها في مستقبل المدنية لا يحده حصر ، ففي المكان الأول ، في حياتها وبنيتها تستعرض ، في شكل أبسط مما هو عليه في الدول الكبيرة في الأزمنة الحديثة ، المعطيات والمشكلات الخلقية والاقتصادية جميعا ، اللواتي يجابهن الانسان في كل العصور كعضو في مجتمع اشتراكي . وكما صاغ الاغريق في فلسفتهم ، في تعابير بسيطة نسبيا ، النتائج الجوهرية للفكر الانساني تلك التي توارثت عن نظرنا الذي جاء فيما بعد ، تحت كتلة مركبة من المواد فهكذا في نطاق العمل العام في دولة - المدينة ، وطنوا أنفسهم على ادراك الشرائط الجوهرية لحياة المواطن الحق . ومرة أخرى فان مشكلات المجتمع المتمدين كان يعالجها الاغريق الى أن تصل الى الحل التام الممكن في ظل ذلك الشكل من التنظيم . ويمكن تتبع تاريخ دولة - المدينة الهلينية من بواكيره حتى تدهورها وسقوطها ، ثلثا قدم الاغريق نظريتهم الخاصة في السياسة فانهم لم يخلقوا فقط دولة - المدينة ، ولكنهم كانوا يمعنون الفكر فيها . وانا لنجد في فلسفتهم كلا من التحليل المثالي والتفكير ، لعملهم العام . وتقوم دولة - المدينة الهلينية على النقيض من امبراطوريات الشرق الأوليات من جهة ، ومن دول الأزمنة الحديثة ، من جهة أخرى . والدولة الحديثة ، لا حاضرتها ، هي الوطن ، وقد تتغير الحاضرة كما في روسيا من موسكو الى سان بطرسبرج وبعد ذلك من لينينجراد الى موسكو بينما الدولة باقية كما هي . وقد يقوم للدولة كيان كرابطة المصالح المشتركة (الكومنولث) الأسترالية حتى قبل أن يتحدد موقع حاضرتها المستقبلية . ولكن في اليونان وفي روما في عهد الجمهورية كانت الحاضرة هي الدولة بعينها ، وعلى خلاف الممالك الشرقية ، حققت دولة - المدينة في اليونان توحيد الحياة المتمدينة والحرية السياسية . وفي الشرق يكون لحرية الحكومة وجود ولكن فقط بين القبائل غليظة الطباع التي تعيش في جماعات صغيرة ، ويكون تقدم الثقافة ممكنا فقط عن طريق تكوين مجموعات عظيمة من مثل هذه الجماعات تحت

(١) أسس الفينيقيون ، في موطنهم وفي المستعمرات ، وخاصة قرطاجنة دولات - مدينة ولكننا لا نجد في أي مكان الحياة العامة الحرة التي ترتبط بهذا النظام كما في حالة المدن الاغريقية أو في روما . ويرى فولر Fowler (دولة - المدينة صفحة ٥) في دولة المدينة - أساس الاحساس بميراث المدنية المشترك الذي خلفه الاغريق والرومان (على سبيل المثال ، المؤرخ الاغريقي بلوبيوس Polybius في القرن الثاني ق.م) وقد يوجد شك فيما اذا كانت الجماعات الايطالية الحضرية دولات مدينة كاملة التكوين . ان مدينتا لاتيم Latium وقمبانيا Campania كانتا بالحري مراكز حضرية بين جماعة قبلية وعن روما التي وصفها بلوبيوس « دولة أعظم شبيها بدولة هليينية » ، انظر ما يلي فصل ٧ .

تراث العالم القديم

حكم استبدادى وعلى ذلك تكون الحرية الثمن الذى يبذل للحصول عليه .
وهكذا كانت حال الاسرائيليين فى كفاحهم ضد جيرانهم فانهم وضعوا أنفسهم
طوعا تحت امرة ملك كمناط رجائهم الأوحى فى الخلاص القومى . وقالوا لا بل
يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا
ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١) .

وطوال العصور القديمة ، كان معنى الدولة العظيمة هو الحكم الاستبدادى
والى أن ظهر الاغريق كان معنى التقدم فى المدنية خلق دولة عظيمة . لقد
كانوا أول من حل مسألة الجمع بين الثقافة والحرية فى مجتمع صغير وحلوها
عن طريق دولة - المدينة . وقد اجتمعت ارادتهم على أن يشابه الواحد منهم
الآخر ووصلوا إلى نتيجة فريدة وحققوا فى حياة دولة - المدينة ، العامة الحرة
تاريخا يتناقض تناقضا فاجعيا مع قصة الاستبداد الرتيبة ومزايا الطبقات
الاجتماعية والاستعباد ، التى يجىء سردها فى سجلات الشرق .

٤ - لقد أوجدت « دولة - المدينة » قاعدة المدنية الهلينية والمثل الأعلى لها
فى نفس الوقت . ولم يأتنا الا اليسير من العلم عن النسق الذى درجت فيه
المستعمرات البدائية الى دول - مدينة ، وفى مكنتنا أن نتصور المغيرين
الشماليين يسكنون كغزاة بين أهلىن معادين فى أزمنة كان البحر يكتظ فيها ،
بالجوابين من طلاب الغنيمة وقيمون حصونا بدائية فى مواقع ضاحية على
التلال على مسافة قريبة من الشاطئ ، يمكن أن يأووا اليها بقطعانهم فى
أوقات الخطر . وفى أثينا فى العصور التاريخية ، كانت قلعة الأكروبول
لا تزال « المدينة » ، ومن الجائز أن الجماعات القروية تجمعت هناك للدفاع عن
النفوس أو تألفت حول مقدس مشترك للعبادة الدينية . وفى هومر كانت
المدينة ، أولا وفوق كل شىء حصنا يمكن الدفاع عنه (٢) .

يجب أن نرجع بتفكيرنا الى الماضى ، الى زمن كان يذهب الاغريق كغيرهم من
السلالات الباكورة ، الى أن ثمة قرابة كانت تربط الآلهة والناس وحتى حيوانهم .
وبقيام الهجرات وهن الوثاق وبدأت أواصر الأسرة تخلق مكانها للاخلاص للجماعة .

(١) انظر بيفان Bevan (بيت سليوكس House of Seleucus)
سفر ١ فصل ١ وفيه المثال المقتبس من صموئيل الأول ٨١ . ولقد كان
الكتاب السياسيون فى العصور الوسطى ، يرجعون الى الفقرة كثيرا ، لدعم
مبادئ الأساس الشعبى للملكية والعقد الاجتماعى .
(٢) انها مقدسة (hieros) فى هومر ، مثلا ، الايلاذة : ١ ، ٣٦٦ .
وقد كانت أقدم المعابد تقام ، بطبيعة الحال ، على القلعة الصخرية على كتب
من مقر الزعيم ، وبعد ذلك ، بتقدم أوجه النشاط التجارى ، أصبحت المعابد
تقوم حول ساحة السوق (agora) .

وأصبحت دولة - المدينة الرمز المادى لهذا الولا . وكان كل رجل فى العشيرة يراها بعينه المجردة تستوى أمامه وهو يفلح رقعته من الأرض فى الأرباض أو يجتمع مع رفاقه للمقايسة أو للعبادة داخل أسوارها . وفى ساحات المدينة ، كان كل شىء يقع تحت نظره ، ذا قرابة وثيقة ومألوف . وهناك فى المجتمع الصغير ، الذى يضم مئات قليلة من المواطنين ، يتجمعون فى أسرات وعشائر ولا يزال الاحساس بالقرابة يدب بين حناياهم ، وهناك كانت تسود مساواة فى الزمالة ، حقة (١) . وكان كل شخصي يعرف الآخر بالنظر وبين الواحد والآخر من الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين كانت توجد أواصر شخصية مباشرة . ولم تكن تعوق الملوك والنبل ، كما فى الحاشيات الشرفية ، قواعد آداب السلوك ورسميات الدولة ولم تقف القواعد الشكلية للتعريف حائلا أمام التواصل الانساني . ولقد عاش الاغريقى عيشه فى الحلاء ، معرضا للشمس ، يجوس خلال ساحة السوق (agora) أو حلبة المصارعة (pa'aestra) متلكننا - كما يطيب للفرد من أهل الجنوب أن يتلكننا - وهو يتجاذب الحديث مع جيرانه ، دون أن يعبا بزمن (٢) ، وكان الاغريق شعب زراع ، يزرعون الحنطة ويغرسون الكرم والزيتون وأتاح لهم عملهم ومناخهم أن ينفقوا معظم حياتهم فى الهواء الطلق ولديهم أوقات فراغ للتواصل الاجتماعى (٣) ولا يمكن تصور نقيضا لحياة مدينة صناعية حديثة حيث يتزاحم الكل لأعمالهم

(١) هكذا كما جاء فى الأدوسا (الكتاب السادس : ١ - ١٠٩) فان نوسيكنا Nausicaa ، وهى ابنة ملك كانت تغسل الملابس مع خدمها . ويصف هيرودوت (٣ ، ٤٢) طاغية القرصان بوليكراتس Polycrates وهو يطلب الى صائد سمك أن يشاركه الغذاء .

(٢) انظر زميرن Zimmern ، (الكومنولث الاغريقى Greek Commonwealth) الفصل الأول ، من ديدن اليونانى فى زمننا أن يفرق الغريب بأسئلة فيها تشويق ، وكان اليونانى القديم يزهو بجسارته فى الحديث (parrhêsia) وكان متحررا من كل خجل أو تحفظ . وتوضح (الجمهورية ٨ ، ٥٥٧) لأفلاطون أن (الجسارة فى الحديث) دليل على الديموقراطية فى أقصى معانيها ويرى زميرن أن السؤال القصير والجواب الذى يلزم دخول شخصية جديدة فى الفاجعة (دراما) الأتيكية تنعكس فيها هذه الحصلة القومية .

(٣) اللفظ الاغريقى لوقت الفراغ كان Scholé ومنه جاء لفظ School الذى نستخدمه . لأن وقت الفراغ كان معناه ، بالنسبة لهم ، الفرصة للقيام بأعمال لها قيمة جوهرية كتلك التى يختارها الانسان لذاتها (مثلا ، السعى وراء العلم) وهذه الفكرة هى أساس تفرقتهم بين الأعمال (الحرة) والأعمال (الضرورية) ولهذه التفرقة أهمية أساسية فى (السياسة) ، لأرستطاليس . انظر فيما يلى فصل ١٢ - ٩ .

بالمناكب ، وحيث لحظات الاستجمام قليلة ومنتظمة ، أعظم من الحياة غير الرسمية الطليقة التي كانت تحياها دولة - المدينة الاغريقية . ولكن وقت الفراغ كان يعنى للاغريق أى شىء الا الكسل . انه كان يهين مخلصا من ضغط المطالب المادية وفرصة لاستعراض العقل والموهبة . ويجب أن يدور تفكيرنا حول الاغريق كرجال عمل أكثر منهم فنانيين أو مفكرين . ان فنههم وعلمهم كانا يتألفان تألفا محكما بمصالح الحياة العملية . ولقد قام النحت وفن العمارة بطبيعة الحال ، بينهم لأن الحاجة كانت تمس اليهما لاقامة بيوت الآلهة والناس وقامت فلسفتهم لأن الحاجة كانت تدعو اليها للتحكم البصير فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه . وكان الاغريق يعجب بالكفاءة أكثر من كل الأشياء ، واللفظ الذى كان يطلقه على الفضيلة (arete) لا ينسحب على السمو الخلقى وحسب ، ولكن على الموهبة العقلية والقدرة على الظفر بالنجاح فى كل ميدان فى الحياة العامة (١) . والمثل الأعلى لرجل قوى ، يعرف ما يحتاج اليه من العالم وله القدرة على الحصول عليه ، كان دائما يستهويه ويقصيه عن نهج الاعتدال . ولقد أوجدت دولة - المدينة لهذا النشاط العقلى والبدنى القلق ، مجالا طبيعيا . والحياة الوحيدة التى تستحق العيش ، فى نظر الاغريق كانت حياة الخدمة كمواطن . وكانت الأسرة تسترعى اهتماما يسيرا وقيمة خلقية ليست بذات خطر . وكان الابن عندما يصل الى سن الرشيد يترك أباه وأمه ، وفى بيته كانت الزوجة لا نفس لها ، ولا وزن لها . ومن هنا ، كان المركز الوضع للنساء والأطفال وفشل التعليم الاغريقى . ودولة - المدينة ، وفى دولة - المدينة ، كانت السوق بما يحيط بها من أروقة ذات عمد وأبنية عامة وطنه وعالمه . وعلى هذا فكلما أخذ أفق الاغريق العقلى والخلقى فى الاتساع فان الثقافة التى كانت تجد التعبير عنها فيه كانت فى كل مرحلة ترتبط بالمدينة . ونغمة الراى العام التى تحدد خلائق الرجال وعاداتهم ، بطريقة غير محسوسة ومع ذلك فى قوة عظيمة ، كانت نغمة دولة - المدينة المميزة أو ethos (٢) وفى القيام بدور ذى قيمة فى حياة دولة المدينة ، كان أعلى مطمح للمواطن والمعيشار الذى يقيس به نجاحه وسعادته Spartani nactus es, hanc exorna . والمولد فى دولة - مدينة وضبعة كان يعد عثور جد خطير . وعلاوة على هذا ، كانت دولة - المدينة

(١) كان الاغريق يرون فى رجل مثل نابوليون رجلا بلغ من الفضيلة أقصى ذراها وكان ثمسطوقلس Themistocles يتجمل بالفضيلة الى درجة عظيمة .

(٢) لا يغيب عن البال ، الجو الخلقى للمدرسة أو الكلية أو النادى أو الكتبة . ولقد أكد افلاطون : (الجمهورية ٦ ، ٤٩٢) أنه لا يمكن لأى فرد ، مهما كان موهوبا ، أن يقاوم قوة نغمة دولة - المدينة ، العامة .

تحدد فحوى واجباته ، لا الخلقية وحسب ولكن الدينية ايضا . ولم يعرف الاغريق التمييز بين الكنيسة والدولة ومن الازمنة الهومرية وما بعدها كان الحاكم يرأس دين المجتمع بينما كانت تنحصر أعمال الكهنة فى تصريف واجبات الفرائض (١) . وهيات المدينة ايضا الواعز للتقدم العقلى . وفى مجالس الشعب الرسمية ، كما فى التواصل اليومى فى ساحة السوق او مائدة الطعام أتاحت الفرصة لحرية الفكر والتخاطب . ان مثل هذه الحرية فى النقد ، شئ مستقل تماما عن الأنظمة الديموقراطية وأداة الحكم الذاتى السياسى . وكان الجند يخوضون فى مناقشة أعمال وخلائق ضباطهم من وراء الستار والصغار فى أولئك التى تكون لكبارهم ، فى المدرسة أو الكلية دون أن يكون لهم أى حق فى التصويت لانتخابهم . وكانت الديموقراطية فى اليونان النتيجة وليست السبب ، للنقاش الحر . كان اليونانيون أمة متحدتين وكان حديثهم فى الغالب صبيانيا ويجانب الاخلاص ومن شأنه أن يثير الاحتقار فى صدر الرومانى الذى كان ديدنه أن يعمل فى صمت . وما كان يميز الاغريق عن الشعوب الأخرى التى تشغف بالكلام هو أنهم كانوا يتحدثون أيضا فيما كان جديرا حقا بالمناقشة : القانون والحرية والواجب الخلقى وغاية الحكومة وطبيعة وأسباب الأشياء والفن والشعر والفضيلة وصالح الانسان ، وفوق هذا كله ، كان حديثهم يلائم العقل والمنطق ، والافصحاح عن التفكير الخالص وتفهم الواقع . ولم يفكر أى شعب اطلاقا بمثل هذا التعمق أو تحدث بمثل هذه الاجادة عن هذه الموضوعات السامية ، كما فعل الاغريق . ولم يرسم أى شعب قط ، بمثل هذه اليد الثابتة الخط الفاصل بين الخدعة والحقيقة أو وطنوا أنفسهم بمثل هذه العزيمة على فهم واستيعاب عالم الطبيعة . وكل هذا كان نتاج المطارحة الطليقة بين العقل والعقل التى أوجدها التواصل المشترك ، كمواطنين فى دولة - مدينة .

هـ - والمثل الأعلى الاغريقى للحياة ، كان يتصور فى حدود دولة - المدينة ، وكانت السعادة (eudaimonia) عند رجال السياسة والفلاسفة على السواء ،

(١) ولما لم يكن فى وسع الآلهة أن يجبروا ولكن يحذرون ويعاقبون فهكذا الكاهن كان فى وسعه فقط أن يحذر ويعترض . لقد كان المنوط بشئون المنزل والحراسة ὑπηρέτης=minister, servant لالهه وبين الفينة والفينة فقط يكون المتحدث عنه . وعندما يعطى وحى χρησμός يكون ذلك لأن الرجل قبل عون الاله ἐκρίτο .

هى النهوض بشرف ، بالواجب المدنى (١) ويعبر واضعو الفاجعة والمؤرخون فى القرن الخامس ، على التقريب ، فى كل صحيفة من كتاباتهم عن احساسهم بقيمة دولة - المدينة وهى تهىء المجال لتحقيق الحياة الصالحة (٢) والفلاسفة الذين كانوا يسعون الى أن يحددوا بالاستدلال العلمى طبيعة ومعيار الصلاح الانسانى ، لم يتزعزعوا فى اعتقادهم بأن الحياة الوحيدة التى تستحق العيش ، كانت حياة المواطن فى دولة - المدينة الهلينية . عندما عرض على سقراط ، بعد أن حكم الأثينيون عليه بالموت ، الهرب من السجن ، أجاب بأن التملص من قانون دولة - المدينة حتى عندما يكون قد طبق بالجور كان من الوجهة الخلقية خطأ أشبه بعمل من أعمال العنف يوقعه ابن على أبيه الهرم . وقد حكم أفلاطون بأن كل الدول الاغريقية القائمة فاسدة فسادا لا رجاء فى تقويمه . ومع هذا فقد وضع تخطيطا مكملا فى جمهوريته ، للمجتمع المثالى على أنه دولة - مدينة هلينية أجرى عليها الاصلاح (٣) . وعنده ، كما كان عند أرسططاليس فى الجيل التالى ، كانت المدينة الصالحة توجد حالة الحياة الصالحة لأعضائها وكذلك ما يلزمها . وقد عرف أرسطو دولة - المدينة بأنها جماعة تكونت لحفاظ حياة مكتملة وفيها اكتفاء ذاتى ، وأشكال أخرى من الجماعات يسرت للانسان العيش ولكن دولة - المدينة وحدها ، يسرت له العيش الطيب (٤) ولقد عرف الانسان بأنه (حيوان سياسى) ، مخلوق حى

(١) Eudaimonia (ومعناه أن يكون للمرء روح حارس طيب) كان التعبير الاغريقى عن « السعادة » أو « المراح » أى Summum bonum أو المثل الأعلى للحياة البشرية . وعن تفسير هذا المثل الأعلى ، يورده اغريقى مثقف من القرن الخامس ، راجع قصة هيرودوت عن الحديث الذى دار بين صولون وكرويسس (١ : ٣٠ وما بعدها) . ولدى العقل الشعبى كانت السعادة فى سعود الجسد (eutychia) وقد رفض الفلاسفة عن وعى الرأى القائل ان الخير الأعظم كان يعتمد على ظروف خارجة أو نزعات الآلهة التعسفية أو الحظ .

(٢) وازن على الأخص هيرودوت الكتاب السابق ذكره وكذلك الجزء الثالث صفحة ٨٠ وما بعدها وفى العبارة الأخيرة يذكر أن عظماء الفرس كانوا يتحاورون عن مزايا الديموقراطية والارستقراطية والملكية على الولاء . وبطبيعة الحال ، كانت الأحاديث تعبر عن عواطف الاغريق كما كان رومانىو شكسبير فى الواقع انجليز عهد أليصابات . راجع أيضا معادنة خشيارشاي مع ديمرطوس Demaratus ٧ : ١٠ وما بعدها .

(٣) أفلاطون ، الجمهورية ٥ : ٤٧٠ وعن رفض سقراط راجع crito لأفلاطون .

(٤) أرسططاليس (السياسة) : ٣ ، ٩ ، ١٢٨٠ ب ، ١ ، ٢ ، ١٢٥٢ ب

نزعت به طبيعته نزوع حياة النشاط المدني (١) . ووظيفة المشرع والسياسى الأصلية ، هى ايجاد الصلاح الخلقى فى المواطن وتعليمه حتى يمكنه النهوض الكامل بمواهب طبيعته فى دولة - المدينة . وحتى الرواقيون وهم يكتبون بين أشتات الاستقلال السياسى الاغريقى المتناثرة ، جهدوا فى أن يعيدوا تركيب نسج الواجب الخلقى بتعليم الناس أن يعيشوا كمواطنين فى الجمهورية العالمية، دولة - مدينة أساسها العقل الخالص ، مدينة الله (٢) .

٦ : وبهذا تأصلت أرومة مدينة الشعب الاغريقى ، تأصلا عميقا فى تربة دولة - المدينة . لقد كانت (الصخرة التى نحتوا منها) و (نقرة الحفرة التى استخرجوا منها) . ان فن العمارة والنحت ، والحفلات الفاجعية والانشودة العاطفية ، والعلم والفلسفة ، والدين والأخلاق ، والطوائف الحرفية وفنون الحرب والسلام ، وتكوين الدستور ومبادئ السياسة العامة ، وأشكال التواصل الاجتماعى ، والحديث ، والأخلاق ، كانت كلها فروعاً لتكوين عضوى أوجد دولة - المدينة . ولكن للصورة جانب آخر . ان للحرية سيفاً ذا حدين . وقد أفسحت حياة دولة - المدينة المجال لمزاج الوطنية المدنية وكذلك مجال الطموح الشخصى . وفى اليونان القديمة ، كما بعد ذلك بألفى سنة فى فلورنسا فى عهد دانتي . كانت عوامل التفكك فى التشيع الحزبى والأغراض الذاتية فى الأفراد تغلب مراجعها عن قرب تحت السطح . ان التوقف Stasis ، وانفصام العرى المدنية ، كان المرض المزمن فى دولة - المدينة الهلينية . وكلا الشكلىين اللذين اتخذهما وهما عدم قدرة المدن على التضام فى اتحاد سياسى ، حتى فى مواجهة عدو مشترك ، والنضال الداخلى الذى يقوم بين الرجال والأسرات والأحزاب داخل أسوار مدينة واحدة ، عملاً على انحلال الاستقلال اليونانى فى نهاية الأمر . وفى الحق ، انا لنقرأ باستمرار عن تحالف المدن لأغراض ترجع الى الدين أو الدفاع . ان تاريخ الاغريق هو فى معظمه تاريخ أحلاف، من حلف الجماعات التى يربطها الجوار الى المعبد amphictyonic فى القرن السابع الى الأحلاف الأخائية والايطولية فى القرنين الرابع والثالث . ولكن هذه الضروب من التضام كان ينقصها الدوام والتلاحم اذ كان لها أثر فعال فقط ، فى أغراض عابرة وداخل حدود الهلينية الضيقة، وقد دلت على أنها

(١) أرسنتاليس ، السياسة : ١ ، ٢ و ١٢٥٣ أ . ويصر مؤرخ روما الاغريقى بلوبيوس Polybius الذى ترجع كتابته الى عهد متأخر ، منتصف القرن الثانى ، على أن الدستور يكون صالحاً أو رديئاً وفقاً لما ينتجته من مواطنين صالحين أو طالحين من حيث طباعهم الخلقية (بلوبيوس ٦ ، ٤٧) .
(٢) معنى Cosmopolis مدينة (polis) الكون (cosmos)

عديمة الجدوى تماما بالموازنة بقوات مقدونيا وروما (١) . وفى النهاية ، كانت نتيجة المغالاة فى الحرية الوقوع فى العبودية لدولة أجنبية . والاغريق ولهم ذلك الاحساس المرهف بحقائق الحياة ، لم يكونوا متباطئين فى تعرف عوارض فوضائهم الخاصة ولكن كان لا حول لهم فى علاجها ، ولقد أرجع أفلاطون : ببصره الذى لا يخطئ بالطبيعة البشرية ، أصل الطغيان العام فى الدولة الى طغيان العاطفة التى لا ضابط لها فى الفرد . ولقد رأى أن أعظم أولى المواهب من المواطنين ، من أمثال ثميستوقلس أو السبيادس Alcibiades بالنسبة الى أعظم ما يستحوذون عليه ، كانوا أكثر عرضة لأن يقعوا فرائس لشهوة السلطان وأن يحطموا أولا اقتصاد أرواحهم هم ، ثم بعد ذلك اقتصاد المجتمع (٢) . ومع كل ما فيه من روعة جلائل الأعمال ، يزخر التاريخ الاغريقى بالمأساة . ان حطام النفوس التى أتى عليها الدمار يتناثر فى مطوى صفحاته . وهذه الصفحات تعرض التضحية التى اشترى بها عقل الانسان حريته فى أن يفكر وأن يعمل . ولكن يجب ألا نخدعنا حتى نزعم لحظة أن النصر لم يكن يستحق التضحية .

٣ - توسع اليونان

٧ - ان تأثير دولة - المدينة للخير أو للضرر يتجلى فى بيان أكبر وضوحا كلما درسنا تطورها فى التاريخ الاغريقى . وقد شاهد القرنان الثامن والسابع انتشارها السريع فى جزر البحر المتوسط وارضيه الساحلية . وقد كانت الأحوال المناخية والجغرافية تلائم توسع السلالة الاغريقية هذا . وكانت مدن منطقة ايجا نفع اما على الجزر واما على الوديان التى تفصلها سفوح الجبال العالية وأصبحت بذلك فى حماية من العدوان بالبر . ولكنها لم تكن منعزلة عن التواصل المتبادل والا كانت كالمدن السويسرية فى التاريخ الحديث ، لتحتفظ باستقلالها بأى ثمن . وكان البحر وفاق الاتحاد . وقد ضمن خليج كورنث والتعاريج الساحلية التى لا عد لها ، والمداخل ، للاغريق الاوربيين خطا ساحليا بالغ الاستطالة ولا نكاد توجد أية ولاية اغريقية ليس لها مخلص سهل الى البحر . وكان الاغريق سلالة بحرية منذ الأزمنة الأولى . وقد عمل التواصل فى التجارة بينهم وكذلك وبين الشعوب الأخرى ، وهو يتألف

(١) كان يظهر للاغريق أن التحالف والامبراطوريات على السواء ، خطوة تتخلف عن دولة المدينة المستقلة .

(٢) راجع الجمهورية : ٦ ، ٤٩٠ وما بعدها (حيث ترجع الإشارة دون شك الى السبيادس) و ٨ ، ٥٦٢ وما بعدها (حيث يبين أن الطغيان ترجع نشأته الى المغالاة فى الحرية الديموقراطية) .

بحرية مدنها وكيانها الفردى ، على تنمية ثقافة متنوعة زاخرة ، وندر أن وجدت سلالة ، كائنة ما كانت ، أضفت عليها الطبيعة فى مثل هذا الاغداق عوامل مدنية ، وطبيعية (١) . ان الجبال والبحر والمناخ المعتدل الذى يبعث على النشاط وتربة كانت تتطلب الهمة والمهارة وتجزل لهما العطاء ، ان هذا كله عمل على بعث صفات حب المغامرة والعمل المتحرر اللذين حملهما الغزاة الشماليون معهم عندما هبطوا الى العالم الايجى (٢) .

٨ - ولقد تميز القرنان الثامن والسابع بالمغامرات التجارية والنشاط الجهم فى الاستعمار ، ونمو الثروة والتهذيب الاجتماعى والقلق السياسى الذى اتسع نطاقه . وقبل سنة ٦٠٠ ق.م . كان الاغريق قد انشأوا مستعمرات تجارية على شواطئ بروپونتس Propontis (بحر مرمره) والاكسين (البحر الأسود) وعلى ساحل افريقيا الشمالى وحول جنوب ايطاليا وعلى الخط الساحلى فى صقلية ، بطوله الا حيث كانت حصون قرطاجنة تتحكم فى غرب الجزيرة الأقصى . ولقد رأينا كيف أنه فى بواكير القرن السادس استحوذ التجار الاغريق من أمراء موالين فى الأسرة السادسة والعشرين على مقر دائم فى نوكراتيس Naucratis فى دلتا مصر . وكانت تجارة البحر المتوسط من صقلية الى الشرق قد أفلتت من يد الفنيقيين الى الاغريق . وفى أقصى الغرب استتمعت قرطاجنة باحتكار لا ينازع . ولكن فى غيره من الأصقاع تمكن اليونانى التاجر والمستعمر بما له من عبقرية طبيعية يكون فيها مطمئن البال فى أحوال جدد وبين ناس غرباء ، من طرد السلالات السابقة من أسواق البحر المتوسط . وقد لازم هذا التوسع التجارى نتائج بعيدة الأثر فى الحياة الاجتماعية والسياسية . وقامت المدائن الرائعة مثل مليتوس Miletus فى ايونيا وسيراكوز فى صقلية وسوبارس Sybaris فى جنوبى ايطاليا ويدل لفظ Sybarite الى يومنا على شخص يتعشق الدعة المترفة . ولقد نهضت الى حيز الوجود طبقة من الأمراء التجار قامت برعاية الفن والشعر فى سخاء ونبل .

وفى مجال السياسة كان يفور على الدوام شغب دائم وثورة . فقد أصبح أولو اليسار الجدد يكافحون من أجل السلطان والامتيازات ضد احتكار النبلاء القدامى . وقد نجم عن الكفاح الحزبى العنيف دافع لجديد من الاستعمار . ولم يكن من غير المعتاد أن يرسل غير الراضين وكثيرا ما يكون

(١) ولكن لم تكن لديهم موارد قوى طبيعية (ومن هنا كانت الحاجة لخدمة العبيد على نطاق واسع) أو زجاج (وعلى هذا فلا كيمياء أو أدوات بصرية) أو فحم (وعلى هذا فلا ألواح مراحل أو بخار) .

(٢) ولكن المتويين وكذلك الشماليين قاموا بمغامرات بحرية .

ذلك بارشاد مهبط الوحي في دلفي الذي علت أهميته في هذه الحقبة ، كمستعمرين الى أية منطقة غير مأهولة تصلح للتجارة ، حيث كانوا يؤسسون دولة - مدينة تتمتع بالحكم الذاتي . وكانت المستعمرة الاغريقية مستقلة سياسيا عن المدينة ، الموطن الأصلي . والأسباب التي تربطهما كانت تلك التي تتصل بالدين أو العاطفة أو التحالف التجاري (١) . وعلى هذا كان العصر ، عصر انتقال سياسى سريع . وقد مهد تنافس النشأة والشراء ، والأرض والتجارة ، الطريق حيناً للديموقراطية وحيناً آخر للطغيان . وأعظم ظاهرة تسترعى النظر فى تلك الأزمنة ، كانت قيام شكل الحكومة المعروف للاغريق باسم حكم الطغاة . ولو أنها كانت قصيرة الأجل فى أية مدينة بعينها فإنها غدت منذ ذلك الزمن ظاهرة مستديمة فى مراكز اليونان التجارية . ويغلب كثيرا ، كما حدث فى أيام النهضة الايطالية أن تاجرا غنيا يطيح بالنبلأ الظالمين بمعونة الشعب ويقيم نفسه حاكما مستبدا . وكان « الطغاة » فى الكثير الغالب حكاما متنورين ذوى شمائل انسانية مثل بسسراطس Pisistratus فى أثينا فى القرن السادس ولكنهم كانوا يسيئون اساءة بالغة الى تعشق الاغريق للحرية ولقد أثار حكمهم المقت المرير . لقد وضعوا أنفسهم فوق القانون وبذلك ، نيدوا كل دعوى فى حمايته . وكانت سلطتهم انتهاك لطبيعة ethos دولة - المدينة الهلينية . يضاف الى هذا ، أن الاغريق كانوا يسهمون الى أقصى حد فى المقت الذى يحس به أحرار الناس فى جميع العصور نحو السلطة التى يكون أساسها امتلاك الثروة . وقد كتب ثيوجنس مواطن مجارا : « ان الاطاحة بطاغية يبدد الناس ليس بخطيئة ولن تعاقب عليه الآلهة » . ويحتفل الشاعر سيمينيدس بحمد قاتلى ابن بسسراطس بهذه الكلمات : « ان ضوءا عظيما تفجر على الأثينيين عندما ذبح هرمديوس Harmodius وارسطغيطن Aristogiton ابرخس Hipparchus » . وتتجلى نتائج هذه الحقبة فى حياة اليونان العامة أيضا ، فى تقدم القانون والنظم السياسية والسير قدما صوب

(١) ومع هذا فإننا نقرأ عن مستعمرات كانت تنافس المدينة ، الموطن الأصلي ، منافسة تجارية مريرة مثل كورنث ومستعمرتها كركورا Corcyra انظر ثقوديدس Thucydides : ٣ ، ٨٢ وما بعدها ، حيث يجيء وصف الثورات فى كركورا كمثال لنتائج الكفاح ، الحزبى الخلقى والسياسى ، فى العالم الهليني فى أواخر القرن الخامس . وعن مهبط الوحي فى دلفي والاستعمار ، أنظر هيردوت ٤ ، ١٥٠ - ٨ (قورينا) .

الديموقراطية ، بهدم الحقوق المتوارثة (١) . ومما كان له شأن عظيم توسع الثقافة فى مجال الشعر والفن والعلم .

٤ - بواكير أدب الشعر

٩ - ان أدب اليونان ، كأدب الكثير من الأمم يستفتح بالأغنية وأقدم ما بين أيدينا من قصائد شعرية هما ملحمتان تنسبان الى هومر ، الإلياذة والأودسيا . وتسرد الإلياذة قصة معارك حربية على « السهول الداوية فى طروادة التى تعصف فيها الرياح » وغضبة وجسارة أخلوس Achilles وذبحه هكتور Hector رجل طرواده - وتقص الأودسيا تجوال أدوسيس Odysseus الذى استغرق عشرة أعوام فى البحر والبر بعد أن سقطت طروادة ورجوعه الى اتيكا وذبحه الخطاب الذين أفسدوا بيته (٢) . إنهما الملحمتان الباقيتان من ملاحم كثيرة سابقة وتمثلان الثمرة الناضجة لفترة مستطيلة من الخلق الشعرى . ولقد أحضر أول المستعمرين الاغريق فى آسيا الصغرى ، الذين ينتمون الى الأصل الايولى ، معهم من تساليا الجنوبية ، الأغاني الشعبية الراقصة والأغاني القصصية القصيرة التى تسبح بحمد

(١) ان تدخل فارس التى كانت تستطيع التعاون دائما مع حكم القلة oligarchy أصاب تقدم الديموقراطية العادى اصابة بالغة . وهذا هو سبب بقاء حكم القلة الى القرن الرابع .

(٢) لا يعرض تتابع الجوادث فى أية واحدة من الملحمتين نتيجة لتخطيط واسع ، وكما أشار منذ عهد قريب السيد ث.س. لويس Mr. C. S. Lewis فى مقدمة الفردوس المفقود ، فى افصاح وتنوير ، أنه من خصال بواكير ملاحم البطولة فى اليونان كالحال بين شعوب أوربا الشمالية ، وعلى غير شاكلة ما جاء من ملاحم « ثانوية » ، أنها لا تعالج موضوعا عظيما مثل تأسيس روما (فرجيل) أو سقوط الانسان (ملتون) ويكتب فى الصفحات (٢٨ - ٢٩) « ذلك النوع من العظمة ينهض فقط عندما يقوم ثم حدث يمكن أن يبرز على أنه أتى بتغير عميق فى تاريخ العالم ، فى دوام قليل أو كثير . . . ومجرد الصعود والهبوط الذى لا نهاية له والتبديلات المستمرة التى لا هدف لها ، من مجد وبؤس التى تتكون منها الظاهرة المروعة لما يسمى عصر البطولة لا تسمح بمثل هذا التخطيط . ولا يكون حدث بذاته فى الواقع أكثر أهمية الى حد جد بعيد ، من حدث آخر . . . لا شيء له بقاء ، ولا شيء يتعدى مغزاه اللحظة ويوجد من البطولة أو المأساة الشيء الكثير وعلى ذلك يوجد الشيء الكثير من القصص الطيبة ولكن لا يوجد « تخطيط عام . . . » وخالف النتيجة ليس شكلا انموذجيا وانما ضروب من الأشكال والألوان الجميلة . »

الآلهة والسلف القبلى والتى تتكون من أبيات يكون فيها البيت من ستة مقاطع «انه أفخم وزن صاغته شفاء البشر» (١) . وقد حيكت هذه الأغاني فى ملحمتين عظيمتين فى جزيرة لسبس أو على شواطىء شمال غربى آسيا فى المدة التى تقع بين عامى ١٢٠٠ و ٨٠٠ واتخذت الملحمتان شكلهما الحاضر بعد أن أتى عليهما فيما بعد ، تعديلات واضافات وتطهير من الشوائب بين المستوطنين الايونيين على مسافة أبعد الى الجنوب (٢) . ويمكننا أن نتقصى فى الملحمتين تغيرات فى اللغة والفكر والعادات ونمو الأفكار الخلقية . والأوديسيا وهى على وجه عام أحدث الاثنتين ربما تعبر عن المزاج الابداعى (الرومانسى) فى عصر المغامرات البحرية ، ولا يمكننا أن ندخل هنا فى مشاكل يدور حولها الجدل والى أى مدى كانت الملحمتان أو احدهما من عمل شاعر واحد ولكن نشير فقط الى أن العلماء فى زمننا يميلون الى أن تكون لهم نظرة محافظة فى هذه المسائل أكثر مما كان لهم منذ نصف قرن . والقول ان هومر كان شخصية واقعية وان الليادة والأوديسيا يجب أن تنسب الى تأليفه لم يعد بعد مما يمكن دحضه ، فى استعلاء كنافلة . وعندنا كما كان عند الاغريق ، يمثل هومر كل الأسطورة الملحمية بأجمعها ، والأعجوبة هى أن تلك السلالة أمكنها فى ذلك العهد الباكر أن تنجب مدرسة من شعراء بلغوا أرفع شأوا . ولا يوجد أدب باق بين ظهرانينا استهل بمثل

(١) «الى فرجيل» لتينيسون Tennyson . لم يكن قصيد أدب الشعر القديم يقفى . وكان دانتي أول شاعر عالمى عظيم يستخدم القوافى . وتعتمد الأوزان الاغريقية واللاتينية على عدد المقاطع وليس على النبر . ومن هنا كانت صنوف المحاكاة الحديثة فمثلا الأبيات التى يكون فيها البيت من ستة تقطيعات لا تقدم الا تأثيرا ضئيلا جدا عن الوزن كما استعمله الأقدمون . وقد يكون البيتان الاتيان Bothie of Tober-na-vuolich لكلوغ Clough مثالا لا يصل الى الكمال :

So in the	golden	morning they	parted and	went to the	westward
There hath he	farmstead and	land, and	fields of	corn and	flax fields.

والوضع العادى للسطر ذى الستة أقدام هو

— U U		— U U		— U U		— U U		— U U		— U
— —		— —		— —		— —		— —		— —

بحساب ان المقطع الطويل ، له ضعف قيمة القصير

(٢) انها باللهجة الايونية ولكن كان تأليفها فى الأصل بالايولية . وعن علم اللاهوت عند هومر ، ارجع الى تاريخ دين الاغريق ، لنلسون Nilsson .

هذا المجد كأدب اليونان واستهلاله بهاتين القصيدتين • وفي فحواهما
وصوغهما ، على السواء تعنو لهما السيادة التي لا تقارع على الشعر الملحمي
فى كل سلاله وزمن ، ان ما تنطويا عليه من مغزى لما أعقبهما من مدنية
اليونان والعالم مثلوث العرى فقد كان جمالهما وروعتهما معينا دائما للالهام
الشعرى ، وفي مكنتنا أن نقتفى نأثيرهما خلال مدرجة الأدب والفن الاغريقين
بأكملهما • ان الشعر الرومانى وخاصة الانبياء لفرجل صيغ الى حد كبير ،
على أنموذج الالياذة والأوديسيا ، ولا تزال روح هومر تصعد الأنفاس فى
شعر العالم الحديث ولقد قيل ان اسخولس Aeschylus أطلق على رواياته
من نوع المأساة « فضلات من وليمة هومر العظيمة » ويمكن لشعراء جميع
العصور أن يرددوا صدى أقواله • ان وداع هكتور لاندروماك Andromache
والذكرى التى تجيش فى هيلن عن أخوتها الذين قضوا نحبهم وهى ترقب
جيش الأخائيين من أسوار طروادة واستعطاف بريام Priam لأخولس من
أجل جسمان هكتور عندما عن الملك الهرم « أن أجسر على ما لم يجسر عليه
أى رجل على الأرض قبلى ، أن أبسط يدي أمام وجه ذابح ابنائى » - تشير
نفس المشاعر فى القارئ فى أية أمة ولغة وفى الزارع الذى لم يؤت من العلم
شيئا كما فى العالم أو الشاعر (١) • ومنذ فجر الشعر الاغريقى كان
موضوعه كل ما هو أعظم شيوعا فى الحياة والمشاعر الانسانية • نائيبا -
على مضى الزمن أصبحت القصائد الهومرية تقرأ وتدرس كمستودع للحقائق
الخلقية والدينية • ان سبطورا كعبارة أخولس الى المبعوثين « بغيض لى
كأبواب الجحيم ، ذاك الذى يقول شيئا بشفتيه ولكن يخفى شيئا آخر فى
قلبه » أو عبارة أدوسيس « تحمل يا قلبى : لقد تحملت ما هو أسوأ كثيرا
من هذا » - كانت نصوصها يحفظها أطفال الاغريق ، يشبهون فى ذلك أطفال
انجلترا الحديثة وهم يحفظون آيات من الكتب المقدسة (٢) • ان القصائد

(١) الالياذة : ٦ ، ٣٩٠ وما يليها و ٣ ، ٢٣٤ وما يليها و ٢٤ ، ٥٠٥ - ٦
(ترجمة لنج وليف وميرز Lang, Leaf and Myers)

(٢) الالياذة : ٩ ، ٣١٢ - ١٣ أوديسيا ٢٠ ، ١٨ • ومن الجهة الأخرى ،
كانت توجد فقرات عديدة يراها شعور الاغريق الخالقين ، الذى ارتقى ،
لا تليق بتعليم الصغار كالحوادث التى وردت فى « قصص الآلهة ، الفاضحة »
التي ربما كانت اضافات متأخرة تعبر عن المجانة والشك الدينى عند
الايونيين فى القرن السابع مثل مكر هيرا بزيوس (الياذة : ١٤ ، ١٥٣ وما
بعدها) ومباغثة ما وقع من حب بين هفيسستوس Hephaestus وافروديت
(أوديسيا : ٨ ، ٢٦٦ وما بعدها) الذى نعاه أفلاطون (الجمهورية : ٣ ، ٣٩٠)
وعراك أثينا Athena مع آرس - Ares وافروديت (الياذة : ٢١ ، ٣٩١ وما
بعدها) ، التى يمكن موازنتها بالتقليد الهزلى فى توم جونس Tom Jones =

الهومرية كان لها نصيب عظيم في تكييف وتوطيد دعائم الأفكار الخلقية والدينية في الأجيال اللاحقة (١) . ثالثا - ان لهذه القصائد قيمة من حيث التاريخ . انها تصور في خلاص مكين حياة رؤساء ومحاربى العالم الايجى في أواخر قرون الألف سنة الثانية . ويعسر علينا في الحق أن نقول في تركيد عما اذا كان الأشخاص عاشوا فعلا أو ان الحوادث وقعت فعلا ولو أن حصار طروادة ليس من غير المحتمل أنه واقعة تاريخية . انه صدق أن الشعراء يتغنون بعصر تولى ودخلت في الصورة ألوان عادات جاءت فيما بعد . ومع هذا فاننا نعلم الكثير عن العادات القديمة ، عن الزواج والعبادة الدينية وعن طرق اقامة المنازل وأحوال الحياة المنزلية وأساليب القتال ، والزراعة وجوب البحار . وعندما نقرأ وصف أنظمة الملك ومجلس الشورى ومجمع الشعب (كما في الكتاب الثانى من الياذة) وعن ترس أخلوس (فى الكتاب الثانى عشر) وعن القصود والسلاح والملابس فاننا نجد تأييدا جليا لدقة وصفها فى كشوف شليمان Schliemann وخلفائه . كان عالم هومر عالما حقيقيا . ومظهران من بين المظاهر الأخرى ، يبرزان فى أنم جلاء . ان الحياة التى صورت هى حياة ارسنقراطية اقطاعية . ولا نسمع الا اليسير عن عامة الشعب اذ ليس لهم دور يؤدونه وحتى العبيد هم أسرى يرجعون الى الامارة بالمولد . والشعر الذى بين أيدينا لم يكن شعرا شعبيا ، كما ان دينه لم يكن ديننا شعبيا ، لقد وضعه للنبلاء من الرؤساء مسدون كانوا يتغنون بشرف أسرهم وعشائهم . ومع هذا فانه بالرغم عن هذه الصفة غير الديموقراطية فاننا نتنسم عبق الحرية فى العالم الهومرى حيث لا يوجد استبداد سياسى أو كهانة ، والدسياسة والسحر على السواء نادران والنساء يعشن فى مساواة

= (الكتاب الرابع فصل ٨) - مقابلة مولى سجرم Molly Segrim (نساء القرية) . وينبئنا فيلدنج Fielding « أنها معركة غنتها ربة الفن على الاسلوب الهومرى » . وعن هذه الاضافات المتأخرة أنظر مرى Murray (نهوض الملحمة الاغريقية ، المحاضرة العاشرة) . ان لها قيمة من وجهة التاريخ مثل زينة هيرا (الياذة : ١٤ ، ١٧٠ وما بعدها) فانها تعلمنا بأمور كثيرة . وما ساقه افلاطون من نقد لهومر والشعراء عامة فى جمهوريته (٢ ، ٣٧٧ - ٣ ، ٣٩٢) موحه ليس الى قيمتها كشعر ، (الذى اعترف به تماما ، الجمهورية ١٠ ، ٦٠٧) ولكن الى دعواها فى أنها هادية الى التعليم الدينى والخلقى . وهو يعرض بصفة خاصة للاطراء (الجمهورية ٣ ، ٣٩٠) ، كلمات أدوسيس التى اقتبسناها فى النص .

(١) ان هيرودوت (٢ : ٥٣) يعترف بهذا والعبارة اقتبست فى ١١ التى تلى . ويرجع انتصار الدين الالومبى ، (متميزا عن العبادات الشعبية الأعراف فى بدائيتها) ، انتصارا باقيا على الزمن يرجع الفضل فيه ، لحد عظيم ، الى هومر .

مع الرجال الى حد لم يعرف في اليونان التي جاءت بعد ذلك ويستمتعن
بمكانة جليلة الشأن في الأسرة ، والعبيد يتحدثون الى أربابهم ويتحدث
اليهم كما يكون الحديث بين الرجال والرجال (١) * ويصل الشعور الانساني
المشترك قريبا من الذروة في المجتمع الهومري أكثر مما يصل اليه في عالمنا
الحديث الأكثر تعقيدا *

١٠ - والملاحم الأوليات كن قصصا عن أفعال البطولة وأعمال مشاهير
الرجال * وبعد ذلك ضرب الشعراء على نغمة ذاتية جديدة وفي روح أكثر
أن تكون ابداعية (رومانسية) عبروا عن مشاعرهم بالقصيدة الغنائية *
وكان يتركز اهتمامهم ، ليس في الماضي ولكن في الحاضر ، فيما تدرس به
الشاعر شخصا من الحياة * وقد شاهد عصر التوسع التجاري مولد الشعر
الغنائي وشعر المراثي وفيه تنوع زاخر في صيغة الموضوع والوزن ويحوى
قصائد حب وحرب وحزن وضجر وأنشودة الجنائز وأغنية الزواج والقصائد
الغنائية المذهبية والتهكم الشخصى والسياسى * ان الزمن لا يمكن أن يذوى
جمال هذه القصائد الذى لا يفنى * انهن يتحددين الترجمة ولكن صدى من
روعتهن يمكن أن يحس وقعه فيما نقل روسيتى Rossetti عن سافو
Sappho

١

كالتفاحة الحلوة التى يعلوها الاحمرار فى أعلى فرع
فوق أعلى غصن - التى نسيها القاطفون لثم داع
لم ينسوها ، كلا ، ولكن لم يظفروا بها لأن أحدا لا يستطيع الظفر بها الى الآن

٢

كزهرة عنصل ، برية يعثر عليها فوق الربى
تمزقها وتدميها أقدام الرعاة المارة
الى أن تداس النورة الأرجوانية فى الأرض

ويمكن توضيح عنصر الملحمة بالبيتين اللذين كتبهما سيمثيدس فى
بواكير القرن الخامس على قبر الموتى الاسبرطيين فى ثرموبولاي Thermopylae
« اذهب ، أيها الغريب وخبر رجال لأكديمونيا Lacedaemon اننا نرقد

(١) عن النساء ارجع الى الادوسيا * ان العلاقات بين الجنسين تعالج فى
رفق وتحفظ * وعن العبيد انظر يومايوس Eumaeus فى الادوسيا انه
نبيل بمولده وقد أسر فى الحرب ويعامل كتابع للأسرة ، مكرم ، راجع
التذكرة الاضافية فصل ٥ ، فيما يلى *

هنا اطاعة لأمرهم . • وقد كتب الشعر الغنائي ، كما يدل اسمه ، ليغنى بمصاحبة الموسيقى وكان يصحب القصيدة الغنائية المذهبية التي تقدمت الى أن أوفت على كمال عظيم فى نفس هذا العصر ، الموسيقى والرقص ، وكان الجوق يحتفل بمديح الآلهة أو الأبطال أو المظفرين فى الألعاب ، ان قصائد بندار Pindar الغنائية الباقية الى الآن (وهى ترجع الى القرن الخامس) ، وتعد احدى مفاخر الشعر الاغريقى ، وضعت أصلا لتكريم الانتصارات فى الألعاب الرياضية . وسنرى فى الفصل القادم كيف حيكت عبقرية الاغريق فى الشعر الغنائي ، مع الملحمة فى الفاجعة الاثينية .

١١ - وجنبا الى جنب مع أشكال الشعر الغنائي هذه ، أدى الاهتمام المتزايد بالتفكير الخلقى الى قيام شعر الحكم والأمثال (١) . الذى يعبر عن نقد للحياة ، ساذج ، ونصائح عن السياسة أو التعقل ووصايا عن العمل الخاص والعام . ولقد قام الشعر التعليمى فى أزمنة أسبق بين زراع اليونان الوسطى كشطر مقابل للملاحم الهومرية ، بين الارستقراطية الأيولية والايونية . وهو لا يزال موجودا فى القصائد التى تنسب الى هزيود البيوطى (٢) . ويمكن موازنة شعر الأمثال فى آخر القرن السابع وفى القرن السادس بمصنفات بيرز بلاومان Piers Plowman أو جور Gower « الخلقى » ، فى الأدب الانجليزى . ولقد عبر ثيوجنس مواطن مجارا فى أوزان المراثية عن احتقار الشريف الدورى للعامة من الشعب الذين استلبوا من طبقته النروة والسلطان وتغنى رجل السياسة الأثينى ، صولون بخدمة الولاء للمدينة وواجب الكبح فى استخدام السلطة ، لشعب كان ينزع دائما الى تخطى جادة الاعتدال . وهذا اللون الجديد من الشعر له اعتبار خاص عندما نذكر كيف كان الشعراء لا الكهنة ، فى نظر الاغريق ، المعلمين المعترف بهم للحقائق الخلقية والدينية . وليس معنى هذا أن الاغريق كانت تعوزهم التقوى فلقد تجاوز الأثينيون فى عهد صولون ، كأعقابهم ابان زيارة القديس بولس الحد فى خشية الله (٣) . وفى بعض الأحيان كانت رابطتهم بعبادات دولة - المدينة

(١) (gnome = a maxim) — gnomonic poetry

(٢) « الأعمال والأيام » لهزيود يقدم صورة شقيقة للحياة فى الجزء الأخير من العصر المظلم الذى أعقب الهجرات الشمالية الى ايجا ، طالع يور Ure « النهضة الاغريقية » - الفصل الثانى «The Greek Renaissance»

(٣) الأعمال: ١٧ ، ٢٢ . ان التعبير الاغريقى الذى ترجم «superstitious» فى النسخة القديمة والمعدلة (من الانجيل باللغة الانجليزية) معناه الحرفى « يخاف الأرواح (الوسيطة بين الآلهة والناس) » . وكانت هذه الأرواح كائنات الهية مثل هرقل وغيره من أبناء الآلهة فى قصة الاغريق الدينية .

تتصاعد في غلو جنونى (١) . وكان جزءا من وظيفة الشاعر ان يقص ويفسر حكايات الالهة والابطال وسمح لهم بمجال عظيم في اختيارها واعادة تكوينها . ولقد قال هيرودوت ان شاعرى الملحمة الاولين هومر وهزiod : أعطيا الالهة القابهم وقسما بينهم صنوف التكريم والفنون ووضعوا أشكالهم . وكان يرمى الى أنهما رسما ثم مذهب وتناسق للعدد الجم من العبادات المحلية وعلى هذا ساعدا على تبلور الخطوط الرئيسية للتقاليد الدينية فى الأزمنة اللاحقة . ولا يستطيع أى فرد أن يدرك الدور الذى قام به الشعر فى حياة الاغريق وتعليمهم الا اذا وضع نصب عينيه رابطته الوثيقة بدينهم (٢) .

١٢ - ولقد كان شعراء الأمثال الرواد الأوائل لما صنّفه بندار وكتاب الفاجعة فى القرن الخامس وذلك بأنهم حاولوا جعل التعليم الشعرى يتلاءم مع الوعى الخلقى الذى كان يطرّد نموا فى ذلك الزمن . ولقد ادى القلق السائد بما لا معدى عنه ، بين ناس أوتوا قدرات عقلية نادرة ، الى تغيرات فى نظرات الناس للحياة والى استبدال القيم الخلقية القديمة بقم جدد ومن عوارض هذا المزاج المتأمل ذبوع الاقوال الماثورة التى جرت مجرى الأمثال نحو « اعرف نفسك » و « لا شىء تجاوز الحد » و « القاعدة تكشف عن الانسان » وهى تمثل استقرءات شعبية من التجارب الخلفية . ولقد اتخذ تصور معيار خلفى ، شكّله فى المثل الأعلى للسفسرونيّة Sôphrosyné وهو تعبير يتحدى الترجمة بلفظ انجليزى واحد ومعناه الحرفى « حفظ العقل سليما » أو كما يجوز أن نقول « الرأس صافيا » (٣) . ونوانه البدائية هى لفظ aidés الهومرى أو الاحترام وهو الشعور الداخلى الذى كان فى

(١) مثلا عن حادث تشويه تماثيل هرمس عشية ابحار الارمادا الى صقلية عام ٤١٥ ، انظر نفوديدس : ٦٠ ٢٧ وما يتلوها وتأثيره على الجماهير يمكن أن يوازن بما كان يمكن أن يكون لتدريس صور العذراء من أثر على مدينة اسبانية فى زمن الارمادا عام ١٥٨٨ . وعن علم اللاهوت الهومرى انظر نلسون (تاريخ الدين الاغريقى) . كان مجتمع الالهة الاولبية انطاعيا فى صفته على سائلة المجتمعات البشرية فى عصر البطولة . وكانوا يتصورون الالهة وقد اتخذوا شكل الانسان ويختلفون عن الناس فى درجة المعرنة والقوة فقط ولكنهم كانوا خالدين . ولم يكن لهم علم غير محدود أو قدرة غير محدودة ، ومع هذا فان كل شىء فى حياة البشر كان يعتبر خاضعا لنفوذهم .

(٢) انظر افلاطون الجمهورية ٢ و ٣ عن مكانة القصص الشعرى عن الالهة والأرواح والناس ، فى التسليم الخلقى للشباب من حكام المدينة المالية .

(٣) يفسر ارستطاليس (قواعد السلوك ٦ فصل ٥) التعبير بان معناه الحرفى الفضيلة (التى تحفظ الحكمة العملية "phronésis" سليمة) . ويعنى لفظ Phronésis القدرة على الحكم الصائب فى مسائل سلوك الانسان .

أزمة الحروب الهمجية يغفل يد الرجل عن إيقاع الأذى البالغ باليتيم والهرم والمستعطف أو العدو المغلوب على أمره ويكبح النزعة الى الجبن أو عدم الولاء ويحفظه مطيعا للوالدين والحكام والآلهة (١) . والمعنى الجوهرى للفظ سفسرونيه Sôphrosyné ، كما نشأ فى العقل الاغريقى هو كبح جماح النفس وطاعة القانون سواء أكان قانون الدولة أو المبدأ الداخلى أمام الغواية التى تستبد به لاساءة استخدام الثراء والسلطان واخضاع الولاء المدنى لمطالب الطموح الشخصى . وبالإضافة الى هذا الواجب السلبي ، فقد كان يدل على الخصلة الايجابية ، فى النظر الصافى وليد المعرفة بالذات ذاك الذى يساعد الفرد أو المجتمع على أن ينهض بأمرهما فى ائزان حكم خلال اللحظات العصيبة من تاريخهما . والعبارة المعروفة « الحكم الصائب فى جميع الأمور » ربما تقدم أقرب تعبير عن المعنى (٢) . ونقيض هذه الحكمة المنقذة كان هبرس Hubris وقد جاء التعبير فى الملحمة الأولى . ومعنى أصله ، تجاوز الحد فى عنف ، ولؤم النصر وكبرياء الحياة التى تطأ بالقدم شريعة الآلهة والناس ، غير المكتوبة . وهبرس Hubris هو أقرب ما يعادل فى الاغريقية لفظ خطيئة ، وأعظم اطلاق تميز به كان على التعطش الذى لا تطفأ سورتة ، التعطش للسلطان ذاك الذى يدفع انسانا أو أمة دفعا الى الأمام كأن شيطانا ركبهما فى مسلك التوكيد الذاتى الذى لا يكبح جماحه . وهذه العاطفة التى تعمى والتى تنتهك الحرية الشخصية كما تنتهك القانون العام ، على السواء ، تستغوى الضحية فى جنون من الثقة بالذات الى موارد الهلاك . وهى تثير فى الآلهة وفى رفاقه القصاص nemesis الشعور الحق بالاستنكار . ان خطيئة nemesis قديمة تولد على الدوام خطيئة جديدة حية لتزيد من ويلات

(١) انظر Murray نهوض الملحمة الاغريقية ، الصفحات ٧٨ وما يليها . وفى الإلياذة : ٤ ، ٤٠٢ وما بعدها ، عندما يوبخ اجا ممنون Agamemnon ديومادس Diomedes لتباطئه فى جمع رجاله للمعركة فانه لا يحير جوابا ، « احتراماً aidôs لصوت الملك المبجل aidôios » . وعندما يجيب اسثنالس Sthenelus غاضبا بدلا عنه يؤنبه ديومادس . لأنى لا أحس شعور القصاص nemesis نجو اجا ممنون ، راعى الشعب عندما يحض الأخائيين المدججين على القتال .

(٢) ارجع على الأخص الى تحليل السفسرونيه فى افلاطون ، الجمهورية : ٤ ، ٤٣٠ وما يليها وارستطاليس « قواعد السلوك » الكتاب الثالث ، ويمثل التعبير لدى هذين الفيلسوفين نتاج الاحترام aidôs المفكر ، ذلك الشعور البدائى الذى وصل الى شكل واضح التحديد ، من النمو الخلقى والعبارة التى جاءت فى النص ، مقتبسة من الدعاء فى عيد الفصح فى كتاب الصلاة العامة الانجليزى .

البشر (١) . هكذا صور الشاعر الاغريقى وهو يجهد فى اعطاء الجبرية المتوارثة والاستحقاق الفردى حقهما ، السحابة التى تتجمع للمقدر الذى يتفقد ذنوب الآباء فى الأبناء لأجيال متعاقبة من سلالة تقارف الخطايا . وعندما ظهر الطغيان فانه اعتبر ختام مظهر الخطيئة فى الحياة العامة لدولة المدينة (٢) . وبعد ذلك أطلق التصور على مجموع عمل أمة رفعتها كبرياء الامبراطورية لتهدد الاستقلال الهلينى كما كانت حال الغزو الفارسى وسيادة أثينا البحرية (٣) . ولقد كان اليونانى يعرف تمام المعرفة موطن ضعفه والعواطف الأثيمة التى كانت أبدا فى ترقب لتستغويه على توكيد فرديته فيما يتعدى الحدود التى رسمها العقل والقانون . ولقد كان من العسير عليه ، بما كان له من ملكيات عظيمة ، أن يلج ملكوت روحه ذاتها . أما المشاعر الغاوية فان أهمها كان الحى Peitho والرجاء Elpis والعاطفة Eros . وكان يذهب التصور الى أنها عوامل شخصية لا دوافع مجردة . « ان الحى التعس يبرز قوته . انه وليد القدر المنذر Ate الذى لا يمكن تحمله وكل دواء لا نفع فيه » (٤) . وكتب هزيود « ان الرجاء هو رائد سىء لرجل معوز » وسفوقلس « الرجاء

(١) اسخ . أغام . صفحة ٧٦٠ وما بعدها . عندما تأمر كلثمنسترا Clytemnestra سيدها اجا ممنون بأن يطا الأرجوان وهو يدخل منزله ، عند عودته من طروادة استعدادا للمصير الذى أعدته له فانه يفعل ذلك فى وجل : (وأنا أطأ مواد البحر هذه ، أرجو ألا تصيبنى عينى اله ، بعيدتين بغيرة phthonos) . لأن لدى احترام aidôs عظيم لتبديد مادة ، ان اتلف بخطاي ثروات وأنسجة اشتريت بفضة) (أغا ، ٩٤٦ - ٩) .

(٢) سفو . و . ت ٨٧٣ (الخطيئة Hubris تنجب طاغية) .

(٣) عن خطيئة hubris فارس وما نتج عنها من قصاص nemesis انظر اسخولس Aeschylus (الفرس) وتاريخ هيرودوت وخاصة هير : ٧ ، ١٨ - ٧ (محادثة خشيارشاي وأرتابانس Artabanus) . وعن خطيئة الاثينيين فى الشطر الأخير من القرن الخامس ، نحو رعاياها راجع ثقوديدس : ١ ، ٧٥ ، ٧٦ و ٣ ، ٣٧ وما بعدها وخاصة الديالوج الميلى Melian ٥ ، ٨٩ وما بعدها ، وقد أعقبتها مباشرة الغزوة الصقلية (القصاص) ، وكان الاغريقى ليفسر فى يسر نمو القومية الألمانية السريع على أنها سياسة لصبغ العالم بالقوة ، بالصبغة الألمانية كمثال للخطيئة القومية . وعن القصاص nemesis راجع مرى فى المؤلف المشار إليه انفا . والفكرة تتصل بصفة قاطعة بقواعد السلوك . وبينما يعبر الاحترام aidôs عن شعورى بعدم امكان تصور مسلك كهذا فان القصاص Nemesis يعبر عن اعتقادى بأنى (أو شخص غيرى) يجب ألا يفعل هكذا .

(٤) اسخ . أغام : ٣٨٥ .

الذى يشطح بعيدا ولو أن الكثيرين يجدون فيه عزاء فانه لكثيرين خدعة يعطى أجنحة لحلم الحب والشخص الذى يراوده لا يدري شيئا الى أن يحرق قدميه بالضرام الملتهب ، (١) . ويرى الشعراء والفلاسفة على السواء ، أن الحب طاغية يستعبد ضحاياها الذين أعموا ، للعاطفة الجاسحة . ويهتف دينرا (Deianira) عاثر الجدد ان الحب يحكم حتى الآلهة بارادته وكذلك أبنا أيضا، كيف اذن ، لا يحكم آخريين مثلى ؟ ، .

لأن قلب الحب به جنه
وذهب هو التماع جناحه
والكل ، تحت تأثيره السحري
ينحنون ، عندما ينب وثبته . (٢)

وقد عن لعصر لاحق أن يرى فى هذه القوى الثلاثة ، الايمان والرجاء والمحبة ثالوثا من الفضائل هو منتهى مجد حج الانسان الروحي . ولكن عند الاغريق فى هاتيك الأزمنة العظام كانت أرواحا شريرة تستغوى المقامر فى لعبة الحياة لأن يجازف بكل ما لديه ، دون بصر ، فى رمية واحدة ، قانلة وبذلك يثير قصاص السماء . لأن الآلهة الألومبيين كانوا غيورين وكانوا

(١) هزيود (الأعمال والأيام) ٤٩٤ ، سفو . انتخ ٦١٦ وازن عن الرجاء اسنخ . أغام ٩٩٠ وما بعدها وسفو . طراخ ٦٦٦ وثقوديدس ٣ ، ٤٥ و ١٠٣ ، وكورنفورد Thucydides Mythistoricus
(٢) سفو . Trach. : ٤٤٣ - ٤ اير Hipp. : ١٢٦٨ وما بعدها (ترجمة مري) وراجع أيضا صورة افلاطون للروح يسيطر عليها . ارس Eros طاغية فى الجمهورية : ٩ ، ٥٧٢ - ٣ وانتتاحية الأغنية المذهبية فى سفو . انتخ : ٧٨ وما بعدها ترجمها سونبرن Swinburne (أغنية لأثينا) هكذا :

« الحب فى صراع لا يغلب ، الحب يتأتب أسلاب عظام الناس
لم يغن أبدا فى مثل هذه الحلاوة من حنجرة سيدة أو حمامة
الحب الذى مهاده بالليل حدود فتاة ، ملس
وسيره يكون على بحار ، وسطوح وطيفة لا تعدم الحب
وليس واحد من كل من يعيش ، وشيك الزوال أو أبديا
بمستطيع الفرار أو الاستخفاء من الحب ولكن من يعانقه بشدة يعجن جنونا » .

يسعون بطيفهم لايقاع الأذى بالانسان لثيم الطبع الذي يجسر على انتهاك ما لهم من حقوق (١) .

ويزخر الأدب الشعري الاغريقى بالتأملات التى تتركز حول فكرتى السفسوسونيه والهبرس وهما الشطر الهلينى المقابل لتعليم قواعد السلوك عند أنبياء العبريين ويثلان الاعتراف الواعى من جانب الشعراء بوظيفتهم كمهذبين للاخلاق ، للشعب الاغريقى . ولكن فى القرن السادس ، كان صوت آخر قد أصبح مسموعا ، ان الفلسفة كانت تقيم دعوى منافسه ، تعارض الشعر ، لتعليم الحقيقة عن العالم والحياة الانسانية .

٥ - مولد الفلسفة

كتب ارستطاليس « ان الرغبة فى المعرفة طبيعية فى كل الناس » ومرة أخرى وهو يعبر عن رأى افلاطون « ان التعجب كان أول ما هدى الناس الى الفلسفة » (٢) . والرغبة التى تدور فى مخيلته هى حب الحقيقة المجرد عن النفع ، الحافز على التفكير لمجرد التفكير وليس كوسيلة لأغراض عملية وحسب . « ان الرجل الذى تأخذ به الحيرة والعجب مدرك لجهله » وعلى هذا فيما أنهم جنحوا الى الفلسفة حتى يتخلصوا من الجهل ، فمن الواضح أنهم درسوا العلم ابتغاء المعرفة وليس من أجل أى غرض نفعى » . وعند الاغريق كان حب الاستطلاع لمعرفة أسباب الأشياء وفحص طبيعتها الداخلية يجرى طبيعيا . وثى فجر تاريخهم كانت تجتاحهم كل رغبة الطفل لمعرفة الكيف والسبب . « ولقد كانوا فى مبدأ الامر ، يتعجبون من الأشياء المحيرة الواضحة وبالتدرج شيئا فشيئا تقدموا الى البحث فى المشاكل الأكثر جسامة كظواهر القمر والشمس والنجوم وأصل الكون » (٣) . وفى هذا الميل الى الاستطلاع ، الذى يتجرد عن النفع كما كان يعلم ارستطاليس ، كان مولد العلم والفلسفة . ولم يفرق الاغريق بين الاثنين لأن المعرفة لم تكن قد وضعت لها بعد

(١) عن غيرة (phthonos) الآلهة ، انظر هيردوتس ٣ ، ٤٠ - ٤٣ (قصة فلوقراتس) و ٧ ، ١٠ (خطاب ارطبانس) وانكار افلاطون انكارا عنيفا بأن الله غيور الذى ردد صداه ارستطاليس وكل الفلاسفة الذين أعقبوه يدل على احدى خطوات التقدم العظيمة التى جاء بها التفكير العلمى على الدين الشعبى (افلاطون Phaedr : ٢٤٧ وارستطاليس Met. : ١ ، ٢) .

(٢) ارستطاليس - متا : ١ ، ١ و ٩٨٠ أ ٢١ و ١ ، ٢ ، ٩٨٢ ب و ١١ وما يليها ترجمة روس Ross (بتعديل طفيف جدا) ، وازن افلاطون Theaet. ١٥٥ د . ويوضح افلاطون بالقصة التى جاء فيها أن اريس Iris ، رسول الآلهة كان ابنا لثاومس Thaumast (التعجب)

(٣) ارستطاليس Met. : ١ ، ٢

مصورة تقسمها الى أقاليم • ان عالم التجارب الانسانية فى كليته وتفصيله ، كان موضوع بحثهم العام • وكان عصر التوسع هو الذى أنعش نزعة التفكير المتأصلة على هذا النحو فى العبقريّة الاغريقية ليكون لها نشاطها الفعال • وكانت مليتوس وهى مركز عظيم للتجارة الايونية والمغامرات الاستعمارية ، مسقط رأس الفلسفة الاغريقية (١) • والقلق الذى لحظناه فى ميدان السياسة كان يثور أيضا فى عقول الرجال المفكرين وكان عالما أوسع قد تكشف أمام أنظارهم فراوا العادات التقليدية تتباين بتباين الأحوال المحلية والوقتيّة والقصص القديمة تدحضها التجارب الأوسع نطاقا • ووجد أن سقولا Scylla وخروبدس Charybdis اللذين جاءا فى الأدوسيا كانتا مجرد ظاهرتين طبيعيتين ، صخرة ودوامة • ولقد فصمت هجرات ذلك العهد ، المتعددة ، عرى الحلقات التى كانت تربط المعتقدات الأولى بمواضع خاصة • ولأول مرة فى تاريخ المدنية البشرية ، سارت الروح العلمية وقد تخلصت من الاشتباك بالمعتقدات الدينية الشعبية •

١٤ - وقد تميزت محاولات أول الفلاسفة المليزيين فى تفسير الكون ، عن أية محاولات سبقتها بمظاهر ثلاثة ، فى المكان الأول ، كانت تحمل ، كغيرها مما خلقتة العبقريّة الهلينية ، طابع الفردية • والعلم الشرقى ، اذا جاز لنا تكريمه بهذه التسمية (٢) ، كان فى معظمه لا ينتمى الى أحد ، اذ كان العمل التحليل الذى تتوارثه وتستحوذ عليه طبقة أو طائفة (٣) • ولكن ثاليس وأنا كسيماندر Anaximander وأناكسيمانس Anaximenes أول فلاسفة ملىطوس فى القرن السادس يبرزون كشخصيات ولكل منهم ما أضافه

(١) كانت مليتوس على اتصال بمدينة بلاد ما بين النهرين بالطريق العظيم الذى يسير من ساحل ايجيا شرقا عبر آسيا الصغرى ومصر بالمستعمرة الملزية التى أنشئت حديثا فى نوكراتيس •

(٢) ان العلم الشرقى جدير بكل تكريم • لقد أخذ فلاسفة اليونان معظم أصول علومهم عن مصر القديمة • ويمكن الرجوع الى ما جاء فى هامش صفحتى ٣٦ ، ٣٧ عن الطب فى مصر القديمة ، على سبيل المثال • (المترجم)

(٣) راجع بورنت Burnet « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ١٨ وما بعدها • وكما أوضحنا فى الفصل السابق ، لم يكن الأنبياء العبريون بأية حال مفكرين علميين • وتنسحب الملاحظة التى جاءت فى النص على الرجال الحكماء فى مصر وبابل وكذلك على مؤرخى الحوليات وواضعى مدونة القانون بين العبريين • حتى النبوة أصبحت لا تنسب الى أحد عندما أصبحت تأملية مثلما جاء فى اشعيا ٤٠ - ٦٦ بينما صارت أسفار الرؤيا ، التى جاءت بعد ذلك اما غير منسوبة الى أحد أو مرتبطة بمعلمين سابقين (مثل نوح) انظر ما سلف ذكره فى الفصل ٣ فقرة ١١ ، التذكرة • والفقرة ١٥ ، التذكرة •

اضافة متميزة الى تقدم الفكر (١) . وعلى شاكلة افلاطون وارسططاليس في زمن لاحق ، أسسوا مدارس ولكن التقليد في مجموعته كان مؤسسا على العمل الخلاق للأفراد المفكرين ، أولئك الذين بقيت أسماؤهم والذين كانت شخصيتهم تسيطر في تزايد تدرجى ، على منهاج التقدم العقلى . وفى الموضع الثانى ، كان أسلوبهم علميا على أتم وجه وكانت الملاحظة يتسع نطاقها بالتجربة (٢) . وينيرها الفرض . ولو أن مدى الوقائع التى يمكن الوصول اليها كان محدودا وكذلك وسائل البحث فان هدفهم كان الكشف عن مبادئ لها ارتباط بالضرورة ، بين مختلف المظاهر المتغيرة . « لا شئ يمكن أن ينبعث من لاشئ » - « لا شئ يحدث لغير شئ » ولكن كل شئ يحدث عن سبب وضرورة » (٣) . وعلى غير شبهه بالفلكيين الكلدانيين الذين اقتصرنا على استخدام وصيدهم من الوقائع التى حصلوا عليها بالملاحظة لتكون أساسا لتفسيرات خيالية فان المفكرين الاغريق وطنوا أنفسهم على فهم العالم كعالم له قانون عقلى ، بمذهب ووحدة تكوين . وقد تابعوا هذا المنهاج فى ثقة وشجاعة لا يحيدان وأظهروا عبقرية نادرة فى الفرض العلمى وفى النهج المنطقى على السواء . ويكتب الأستاذ بورنت « لا يكاد الفيلسوف الايونى يستوعب بضع نظريات هندسية ويسمع أن مظاهر السموات تعود للحدوث فى دورات ، حتى يتهيا للعمل فى البحث عن قانون فى كل مكان فى الطبيعة وفى جسارة تكاد تصل الى خطيئة hubris ليقوم مذهبها ينتظم الكون » . وعلى هذا ، تمكنوا من أن يكشفوا فى مدى قرنين أو ثلاثة قرنين النظرية الحقيقية للكسوف وكروية الأرض وحقيقة دورانها كغيرها من الكواكب السيارة ، حول مركز نظامها (٤) . هذه هى الثمرات الأولى التى جنتها روح اتخذت لنفسها كلمتى المرور « الاحتفاظ بالظواهر » و « اقامة الدليل » . وثالثا ، تتجلى عبقرية الفلاسفة الاغريق العلمية فى تصورهم الواضح للمشاكل التى عنوا بحلها وبعد أن رفضوا نهائيا السعى الذى لا ثمرة فيه ليروا بداية الكون الأولى فى فوضى أول عصر والذى كان قد أنهك فى اليونان كما فى غيرها مهارة الأجيال السابقة ، فانهم التمسوا الحقيقة التى تكمن وراء ما هو كائن . وكانوا

(١) عاش ثاليس حوالى عام ٥٨٥ و أناكسيماندر حوالى عام ٥٦٥ و أناكسيمانس حوالى ٥٥٠ - ٥٤٥ .

(٢) وازن ملاحظة أناكسيماندر على علم الأحياء البحرى وتجربة أنبادقليس Empedocles على الساعة المائية ليبرهن على أن الهواء جسم مادي : بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » صفحة ٧١ و ٢٢٩

(٣) فارمنيدس fr.-Parmenides ٨ وأنبادقليس ١٢ ولوسيبوس Leucippus (بورنت : الفلسفة الاغريقية الأولى صفحة ٣٤٠) . وقد أشير الى الأجزاء وفق الترقيم فى الترجمات التى وضعها بورنت .

(٤) الفلسفة الاغريقية الأولى ، صفحة ٢٣ و ٢٥

يتساءلون ما هي حقيقة العالم الأساسية كما نعرفه الآن ؟ والرغبة في إيجاد وحدة ومبدأ في متنوع اشكال الطبيعة التي لا تستقر على حال، اتخذت شكل بحث عن مادة أولية تبقى ثابتة وسط التغير ، عن مادة فعالة توجد الطاقة ، وتولد حركاتها التي تحددت وفق قانون ضروري ظواهر تجارب الحواس . ولقد كانت هذه المادة الأولية التي يطلقون عليها اسم فيسس *physis* (الطبيعة) موضوع بحثهم وعنوان عجالاتهم (١) . وقد اعتقد ثاليس أنها الماء ، ووجدوها غيره في البخار أو في النار أو في تآلف أو توافق أصول متضادة . واختلفوا أيضا في تفسيراتهم للنسق الذي ينهض به عالمنا من هذه الحقيقة القصوى . ولكنهم جميعا على السواء يبدأون من وقائع مشاهدة ويتقدمون بالاستدلال المنطقي صوب تصور كون منظم، فيه بفعل قانون الضرورة ، يولد «الواحد» «الكثير» وتنقسم تفصيلات «الكثير» في «الواحد» (٢) .

١٥ - وليس في وسعنا أن نفعل أكثر من تبيان منحى هذه الأفكار الأولى لنوضح كيف أنها تقدم تتابعا منظما للتفكير العلمي :

(أ) أدت أول جهود المفكرين الايونيين التي ألمعنا اليها في القسم السابق ، في بداية القرن الخامس ، الى فلسفة هيرقليطس *Heraclitus*

(١) ان ترجمة فيسس *physis* بلفظ (طبيعة) قد يكون مضللا اذ ينقل الانتباه من النهج النسقي الى الأصل . ان *physis* هو لفظ يدل دائما على (اسم فعل) معناه نهج نسقي كنمو نبات .

(٢) لقد استمدت المعرفة بهؤلاء المفكرين الأوائل من أجزاء متناثرة من كتاباتهم ومن اشارات جاءت في مصنفات المؤلفين الاغريق المتأخرين . وثاليس وحده هو الذي لم يترك كتابة بعده . وقد ذهب أناكسيماندر ، خالفه ، الى أن الفيسس *physis* هي جوهر مادي لا حد له تحوى وهي ممترجة كل الأصول المتعارضة (الرطب والجاف والحر والبارد) فصلت عن الجرم الذي لا حد له بنهج غريبة . نسقي وبذلك سبب قيام عوالم لا عد لها ، ومن بينها عالمنا . وكان أناكسيماندر أول من أدرك أن الأرض تسير طليقة في الفضاء وليست في حاجة الى سند مادي . وكان أساس الطب الاعريقي الأول (القمايون *Alcamaeon* انظر ما يلي صفحة ١٢٥ ، تذكرة ٢) يقوم على نقائض أناكسيماندر . وتصوروا الصحة على أنها *isonomy* أو متعادلة مع الحر والبارد والرطب والجاف - وكان المرض طغيان أحد الأضداد على الآخر . أما أناكسيمانس وهو ثالث الفلاسفة المليونيين من حيث الزمن فكان يذهب الى أن فيسس *physis* هي البخار الذي ينهض منه عالمنا بالتكثيف والتنقية . وعن معلومات مفصلة عن هؤلاء وغيرهم من المفكرين الأوائل ، انظر بورنت الفلسفة الاغريقية الأولى ، و « من ثاليس الى افلاطون » .

الافسوسى Ephesus (١) • الذى كان مبدؤه الرئيسى أن حياة الطبيعة كانت تتألف من تضال قوى متعارضة والواحدة فى توتر مع الأخرى ، وتكون فى عملها المتبادل وحدة العالم المنسجمة • النار وهى أعظم العناصر نشاطا تتحول الى هواء وتغذيها الرطوبة فى معايير متعادلة والصيف والشتاء واليقظة والنوم والنهار والليل والحياة والموت كلها تمثل الصراع العام الذى لا ينقطع بين « الطريق الصاعد » ، والطريق الهابط • « ان الحرب هو أب الكل ملك الكل » « ان الطريق الصاعد والطريق الهابط واحد ونفس الأمر » • ان الناس لا يعلمون كيف أن ما يختلف مع نفسه ، يتفق مع نفسه • انه توفيق لنغم توترات متضادة كالذى يكون لقوس وكنارة • وقد أدرك هيرقليطس أن قانون الطبيعة هو قانون تغير لا ينقطع وأن العالم كما يظهر للحواس هو أبدا فى حالة صيرورة وزوال ولا يكون فى أى مكان « موجودا » وليس شئ ، يمكن أن نقول عنه فى أى مكان « انه كائن » • وقد قال « انك لا نستطيع بأن نخطو فى نفس النهر مرتين » وأضاف واحد من أتباعه « لا ، ولا حتى مرة واحدة » • ونتائج هذا الفكر عن السيل الذى لا ينقطع فى عالم - الحس ظاهرة ، كما سنرى فيما بعد ، فى فلسفة أفلاطون •

«ب» وفى نفس الوقت الذى حدث فيه هذا التقدم بين الايونيين الاغريق ، كان الحافز للبحث العلمى بشور فى الغرب • (أ) فى القرن السادس كان فيثاغورس وأتباعه فى جنوب ايطاليا قد أسسوا دراسة الرياضيات فى ميدان الهندسة البحتة وكذلك فى تطبيق الرياضيات على فروع العلم الأخرى وخاصة على نظرية الأصوات الموسيقية وعلى الفلسفة على وجه عام (٢) •

(١) عاش هيرقليطس بين عامى ٥٠٠ و ٤٨٠ وقصد تأثر أيضا بالعلم الفيثاغورى الأول • والافتباسات التى تلى مأخوذة من الشذرات ٤٤ و ٦٩ و ٤٥ و ٤١ (وازن ٨١) •

(٢) عاش فيثاغورس حوالى سنة ٥٣٠ وكان موطنه ساموس الايونية واستقر فى ايطاليا • وقليل هو الذى يعرف عن حياته أو عن تعليمه الشخصى مستقلا عن تعليم مدرسته • وقد جمع الفيثاغوريون بين البحث العلمى ومبدأ للحياة دينى ، وقاموا بدور فعال فى سياسة جنوب ايطاليا • ومنذ هذا الحين لا تكون الفلسفة الاغريقية أبدا ذات نزعة عقلية وحسب • انها توجه التجربة praxis والنظرية theoria على السواء • واستمرت المدرسة فى عملها حتى رده عظيم من الزمن فى القرن الرابع • وعلى النقيض من الفلاسفة الاغريق الشرقيين كانت أبحاثهم يغلب أن تكون رياضية • راجع سر • ت • هيث Sir. T. Heath « تاريخ الرياضيات الاغريقية » خاصة الصفحات ٢٠٠ - ٢٠٢

ومبدؤهم « أن الأشياء هي أعداد » لم يكن تمثيلا خياليا ولكن النتيجة الاستدلالية التي وصل اليها مفكرون وجدوا أنفسهم في تحليلهم للتجارب يواجهون في كل منعطف قوانين تسمح بوضع صيغ رياضية . ولقد كانوا يتحسسون طريقهم نحو مذهب يشبه مذهب ديكارت Descartes الذي قرر حقيقة الكون المادى ، المستقلة في حدود خواصه الهندسية كامتداد له شكله الهندسى . وهذا ، على التحقيق كان الموقف الذى اتخذهُ أفلاطون في طيمايوس Timaeus تحت تأثير سلفه الفيثاغوريين (١) . (ب) ومدرسة فكر أخرى، الاليائية ، التى أسسها فارمنيدس Parmenides الاليائي كان موطنها أيضا جنوب ايطاليا (٢) . وقد كشف فارمنيدس فى منطق قوييم عن النتائج التى تستتبع الفروض التى كان المفكرون السابقون قد قبلوها دون نقاش . وقد كان الكل يسلمون فرضا ليس فقط أن الطبيعة physis أو الحقيقة كانت واحدة ولكنها كانت أيضا مادية . وعلاوة على هذا ، فإن الجميع كانوا يتصورون أن هذا الجسم الواحد مستحوذ على حركة ملازمة وبذلك استمد منها ظواهر التجربة وفيرة العدد . ولقد أوضح فارمنيدس أنه اذا كان الواقع واحدا وماديا فان الكثرة والحركة على السواء خدعة .

= و١٦٦ وما بعدها حيث جاء تلخيص لأعمال الفيثاغوريين الرياضية (وتشمل اقليد الكتب ١ و٢ و٤ و٦ وربما ٣) .

(١) كان الفيثاغوريون يفسرون الأعداد فى حدود الهندسة وكانت الوحدة نقطة لها موضع فى مجال فراغى ومن هنا وجد التعبير أشكال (رياضية) . راجع بورنت « الفلسفة الاغريقية الأولى » الصفحات ٩٩ وما بعدها و « ثاليس الى أفلاطون » الصفحات ٥١ وما بعدها . ويبين بورنت كيف أثر الكشف بأن أنغام الكنارة تعتمد على نسب رياضية ، على التفكير الرياضى . وقد حفز العلم الفيثاغورى أيضا على دراسة الطب والفصاحة فى جنوبى ايطاليا وصقلية . وعلى هذا فان أهميته كانت عظيمة جدا . والرأى أن العالم المادى يتكون من عناصر فراغية (أو فراغية زمنية) وأن طبيعته يمكن تفسيرها فى حدود معادلات رياضية ، له مكانته البارزة فى علم الطبيعة والفلسفة المعاصرين . ويفسر أحدث مذهب ميتافيزيقى (علم ما وراء الطبيعة) فى هذا القطر (انجلترا) مذهب الأستاذ س . الكسندر S. Alexander (الفراغ والزمن والاله - محاضرات جفورد Gifford فى جلاسجو ١٩١٦-١٩١٨) الكون بأنه تولد من عناصر زمنية - فراغية خالصة أى لحظات - نقطة . ان دراسات الفيثاغوريين العلمية أو صلتهم ، فى فجر التقدم العلمى ذاته ، الى تصورات أنتجت ثمارا خارقة العادة .

(٢) عاش فارمنيدس بين عامى ٤٨٠ - ٤٥٠ وحوالى التاريخ الأخير زار أثينا ، راجع أفلاطون Parm. ١٢٧ . وقد ورد فى النص ، رأى بورنت عن مكانته فى الفلسفة الاغريقية .

وقد قبل هذا الدحض لواقعية عالم الحواس المتغير ولكن منطقته أقام في الحقيقة البرهان على قياس الخلف *reductio ad absurdum* ^(١) على الفروض المقبولة . ومن الآن ضحى جميع المفكرين بوحدة الطبيعة واحتفظوا بإيمانهم بالعقيدة الفارمنيدية الأخرى ، بأن الواقع كان من طبيعة الجسم ^(٢)

(٣) ونتيجة لفلسفة فارمنيدس ، قام في منتصف القرن الخامس عدد من مذاهب الكثرة . ان انبادقليس Empedocles من أغريغنطوم Agrigentum في صقلية وأناكساغوراس Anaxagoras من اقلزومنا Clazomenae في آسيا (أول فيلسوف يتخذ أثينا موطنه) ، ولوسيبوس Leucippus من مليطوس (معلم دموقريطس ومؤسس مدرسة الذرة) ، كلهم يتفقون مع الفيشاغوريين في اتخاذ موقفين ، الرأي التقليدي بأن الواقع مادي ، والرأي الجديد الذي ساقهم اليه فارمنيدس بأنه ليس واحدا ولكن كثرة ^(٣) . ثم

(١) قياس الخلف *reductio ad absurdum* - قياس أساسه البرهنة على صحة المطلوب بإبطال نقيضه أو فساد المطلوب باثبات نقيضه .

(المترجم)

(٢) ان نقائض زينون Zeno ذائعة الصييت مثل نقيضة اخلوس والسلفاة ، قدمت دعما لانكار أستاذه فارمنيدس للحركة . وبالطبع كانت توجد طريقة أخرى لاجروج من المأزق بالتمسك بالقول ان الواقع واحد ولكن الوحدة كانت روحية وليست مادية . وقد ظهر هذا الرأي أول ما ظهر عند سقراط وأفلاطون راجع فصل ٥ - ١٧ و ٢٠ .

(٣) عاش أنبادقليس حوالي عام ٤٦٠ وعاش أناكساغوراس ولوسيبوس حوالي ٤٥٠ ، أما دموقريطس فانه ينتمى الى الجيل التالي وتأثر بالسفسطائيين ويمكن الرجوع الى الفصل ٥ ، ١٣-١٥ عنهم . لقد كان منتصف القرن الخامس زمن نشاط عظيم خالق في الفكر الاغريقي ويجب أن يلاحظ أيضا أنه أصبح للعلوم التي تتصل بعلم الحياة أهمية متزايدة في غضون القرن الخامس . ولقد أُنِعت أيضا مدارس الطب وهي ترتبط ، في البداية ، ارتباطا وثيقا بالفلسفة كمدرسة القمايون القروطوني Alcmaeon of Croton ، في جنوب إيطاليا ، الذي خصص عمله للجماعة الفيشاغورية . ولكن بعد ذلك استقلت عنها كما في حالة مدرسة أبقرات في القرن الخامس ، في جزيرة قوس . ولقد كان القمايون المؤسس الحقيقي لعلم النفس « راجع عن هذا وعلى وجه عام عن علم النفس الاغريقي الباكر ، والنظريات الاغريقية عن المعرفة الأولية (بير Beare) وتاريخ علم النفس (برت Brett) وعلى الأخص الصفحات ٢٤ ، ٢٥ وفصل ٥ » ويستبين من النحت الاغريقي اللاحق (مدرسة فرغامس Pergamos) شيء من المعرفة بعلم التشريح راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى ، الصفحات ٢٦ و ١٩٣ وما بعدها .

التمس أنبادقليس وأناكساغوراس بعد ذلك سبب الحركة ، ووجدها الأخير في النوس nous أو الذهن ^(١) . ولو أنه فسر فعله آليا ، كفعل عامل طبيعي خارجي ^(٢) . وقد لحص منهاج التقدم التفكيرى بأجمعه ، الذريون الذين كانوا أول من أكد واقعية الفضاء الفراغ وأرجعوا الكون الى مجموعات من الذرات التى لا عد لها ، متجانسة ولكن تختلف فقط فى الجرم والشكل والموضع . تسرع فى الفضاء اللانهائى فى حركة لا تنقطع ^(٣) . وبإذاعة هذا المذهب فان الجهد لتصوير العالم فى حدود عناصره المادية أنجز سبيله الى التمام .

١٦ - وكان من الطبيعى تماما أن المشكلات التى تتعلق بطبيعة الواقع عما اذا كان واحدا أو كثرة ، يجب أن يجيب عنها هؤلاء الفلاسفة الأوائل فى حدود الطبيعة . وكانوا يعنون بلفظ Physis اما جسما واحدا واما كثرة من الجسم ، وفى الحالة الأخيرة تكون الجسم اما محدودة واما غير محدودة العدد وتختلف فى نوعها أو تتجانس . وكان لابد أن يجيء وقت تنهض فيه فكرة واقع روحى ، فى عقل المفكرين الاغريق ، ولكن لم تكن الساعة قد حانت بعد لهذا وتظهر كل مرحلة للفلسفة الاغريقية متعاقبة فى نظام التقدم المنطقى اطاعة لقانون لم تفرضه ظروف خارجية ولكن طبيعة العقل الانسانى الملزمة . ويجب ألا نظن أن هؤلاء الباحثين الطبيعيين كانوا يتجاهلون وقائع حياة الانسان العقلية والخلقية . والتميز ، وهو جد مألوف ومع هذا فانه جد محير للفكر المعاصر ، بين المادى والروحى لم يكن حتى ذلك الحين قد تحددت معالنه . فعلى سبيل المثال ، ذهب أناكسيمانس المليطى الى أن الروح هو بخار ^(٤) . وتسمية هذا مادية بالمعنى الحديث يكون أقل صدقا من القول ان

(١) مذهب الكثرة - يقابل الواحدية ويعتمد فى تفسير الكون على مبادئ متعددة كعناصر (أنبادقليس) ومونادات (ليبنتز) .

(٢) عن عدم رضاء سقراط عن تصور الذهن كقوة آلية (ميكانيكية) واستبعاد العمل الذى توفر فيه الغرض ، راجع البيان الهام عن تاريخه العقلى الباكر فى أفلاطون فايدو Phaedo الصفحات ٩٦ وما بعدها .

(٣) كتب دموقريطس من أبدرا فى طراقية ، خليفة لوسيبوس والأبعد منه صيتا ، فى الثلث الأخير من القرن الخامس عندما كانت آراء السفسطائيين الجدد التى تثير مسائل عن نظرية المعرفة وقواعد السلوك قد ملأت الآفاق . ان مذهب الذرة لأبيقور (راجع فصل ٦ - ١٨) مؤسس على مذهب دموقريطس .

(٤) كان « هواء » أناكسيمانس يشتمل على « نسمة » الحياة والريح والبخار .

بخاره كان شيئاً ليس مجرد مادة . ومرة أخرى ، تحدث هيرقليطس عن نار توقع الجرم بكل شيء وعن الشمس تراعى حدود العدالة ^(١) . بينما الحب والكفاح وهما القوتان المحركتان عند أنبادقليس كانا يصوران كتلتين ماديتين ونوس nous «عقل» عند أناكساغوراس على أنه يملأ الفراغ، ولكن لم يكن إلا بعد انقضاء شطر عظيم من القرن الخامس أن تفكير الناس ومسلكهم استرعى نفس الانتباه الذي كان يوجه الى مشكلات الطبيعة المادية . ثم جاء في البسداية السؤال : بما أن الموازين الخلقية والمعتقدات الدينية وقوانين ومنظمات دولة - المدينة تقدم ، كالتبيعة المادية ، مشهداً من عدم الاستقرار والتغير ، فهل هي ، نتيجة لهذا ، ذات قيمة محلية وعابرة فقط و « أوضاع » أقامت بها بصفة مصطنعة ، قوانين وضعها الانسان ؟ أو هل يوجد ثم فيس فيس physis أو خلق أدبي طبيعي . ثم قانون لا يتغير ، من وضع الله أو الانسان تكون الأوضاع المتغيرة هي شكلها العابر . كان لا معدى عن مثل هذه الأسئلة في زمن سادة القلق السياسي عندما كان قد قوم أذهان الناس أكثر من قرن من البحث العقلي . ولقد سألهم اغريق الأعوام الوسطى من القرن الخامس وبمجرد أن تلقوا السؤال فانهم أنجبوا ، كما سنرى في فصل تال ، ليس فقط الفلسفة السياسية والخلقية ولكن تصورا فسيح المجال ، جديداً عن طبيعة الواقع ومكان الانسان ومصيره في الكون .

١٧ - ويبقى علينا أن نشير الى الرابطة المزدوجة للعداوة والامتزاج بين الفلسفة حديثة المولد والدين القديم ^(٢) . فمن جهة كان من شأن توسيع مجال

(١) شذرة ٢٧ وازن شذرة ٢٩ . « أن الشمس لا تتخطى حدودها ، فاذا فعلت فان الارينوس Erinyes ، خدمة العدالة سيكشفن أمرها . وعلى هذا ، فان الأشياء عند أناكسيماندر تقوم بالتعويض والترضية ، الواحد نحو الآخر ، لجورها في مرحلة من الزمن ، (بورنت - الفلسفة الاغريقية الباكورة ص ٥٢) .

(٢) وفقاً لغرضنا من تركيز الانتباه على تلك العوامل التي كان لها أعظم تأثير مباشر على الأزمنة اللاحقة ، فقد أهملنا موضوع الدين الاغريقي الشيق الا فيما كان له من أثر على تاريخ الفلسفة الاغريقية . ولقد ألفت البحوث الحديثة الكثير من الضوء على هذا الموضوع وهو ذو أهمية ليس فقط لفهم الشعر الاغريقي والقانون والحياة اليومية ولكن أيضاً بالطبع ، لدراسة الأديان الأولى ، دراسة موازنة . وثمة مسألة لها أهمية خاصة لقراء هذا الكتاب هي التفرقة بين الآلهة الألومبية الذين يمثلهم أبولو والآلهة الأسرار الذين يمثلهم ديونوسيوس ، وكان الأولون كائنات فوق مستوى البشر أضيفت عليهم الصفات المثالية ومتعالين تعالياً بعيداً وكان يعسر تصور أي شيء له خصيصة الاتصال الروحي الشخصي معهم . أما الآخرون فكان يمكن ، لمن تلقن أسرارهم ، الاتصال بهم اتصالاً مباشراً ، في حالة الجذب =

الاختبار بين الناس ونمو المزاج النقدي ويقظة المطامع الخلقية العليا. بحث مذهب التشكك (الارتياب) ولكن هذا التأثير كان ينحصر في الأقلية الذين كانوا يفكرون في جد في مثل هذه المسائل أو على الأغلب في الجمهور المثقف . وكان يمكن لاناكساغوراس أن يعلن أن الشمس ليست الها ولكنها حجر ببلغ حجمه حجم بلوبونيس ، وكان الاثنيني في القرن الخامس يحس بارتياح لاختلاصه وحكم على الفيلسوف بالزندقة (عدم التقى) وكان مرجع هذه العداوة ليس الى مج للتفكير ولكن لولاء متأصل لعبادات المدينة ، التقليدية .

وكان هذا ، السبب الأصلي لعدم الثقة في العلم والفلسفة التي عبر عنها تعبيرا رائعا في تهكم مسلاة (كوميديا) أتيكا القديمة . وكانت إحدى الاتهامات التي وجهها الى سقراط متهموه تهمة ادخال آلهة جدد وتعليم الناس أن يكفروا بالآلهة الذين كانت تعبدتهم المدينة . وكان أمرا ذا مغزى عظيم في الحياة الاغريقية أن المعارضة ضد الفلسفة ، كان لا يتزعمها الكهنة ، ولكن الشعراء والسياسيون . وكان الفلاسفة من جانبهم يشددون النكير دون هوادة ، على المعتقدات التقليدية . وخاصة في ايونيا موطن العلم والتاريخ حيث كون الأمراء التجار جمهورا مثقفا ، كان ذيوع روح التشكك سريعا وعمما . وكتب اكسنوفانس Xenophanes القلوفوني (Colophon) « لقد نسب هومر وهزيود الى الآلهة كل الأمور التي تكون عارا وخزيا بين الناس ، السرقات والفسق وخداع الواحد للآخر » ولقد قال هيرقليطس « يجب أن يطرد من القوائم ويجلد بالسسياط هومر وكذلك أرخيلوخس Archilochus . ولقد أسار أفلاطون في الجمهورية الى أن النزاع بين الشعر والفلسفة ظل دهرًا طويلا ، وكان لا يعنى نزاعا بين الفن والمعرفة ، لأن هذين ليس لهما مجال للصراع ولكن بين الدعاوى المتنافسة ، للتقليد الديني والعقل العلمي ، في تعليم الحق (١) .

١٨ - وفي موضوع علاقة العلم الجديد بعقائد دولة - المدينة المتأصلة كانت

= العاطفي وعن طريق طعام وشراب الفروض المقدسة . ولقد قدمت ديانات - الأسرار موادا للفلاسفة (راجع ما يلي § ١٧ وفصل § ٢١) . أما دين الألومبيين فقد أثار العداوة وحسب راجع محاضرات جفورد لوب (C.C.J. Webb) عن « الشخصية البشرية والالهية » ، ١ ، ٧٧ وما بعدها ويجب قراءة « مولد الأنساء » لنيتشه Nietzsche - راجع أيضا « خمس مراحل للدين الاغريقي » لجلبرت مري ومؤلفات أخرى ذكرت في قائمة الكتب الملحقه بالمجلد الثاني من هذا الكتاب .

(١) أفلاطون « الجمهورية » : ١٠ ، ٦٠٧ واكسنوفانس ، شذرة : ١١ وهيرق ، شذرة : ١١٩ وازن شذرة : ١٦ و ٣٥ و ٤٣ .

توجد من البداية نتيجة واضحة . وكانت الحال مختلفة وأقل بساطة فيما يتعلق بموجة احياء الدين الشعبي البدائي التي اجتاحت اليونان في القرن السادس . ووراء عبادة الآلهة الألومبية التي رعاها الشعراء الهومريون وأرستقراطية العصور المظلمة ، ربما كان ما يزال راسخا في أذهان جمهرة الشعب قدر من المعتقدات القديمة ، ربما تكون ما تبقى من الدين المينوى السابق لقيام الهلينية ^(١) . وهذه المعتقدات البدائية التي تظهر آثار منها في القصائد الهزiodية وحتى في القصائد الهومرية كانت ترتبط بعبادة الموتى وبآلهة العالم السفلي وخاصة بتجسد الاله غير الهومري ديونوسيوس . وديونوسيوس وأورفيوس كانا كلاهما يرتبطان ارتباطا وثيقا بطراقيا . ولقد لقيتا اعترافا رسميا في الفرائض التألهية لاليوسس Eleusis في أطيقا التي كانت تتكون من ضروب التمثيل الفاجعي للحوادث المقدسة والاحتفالات الأساسية لتطهير روح المعابد من الذنوب . والتطهير كان جوهر النهضة التي حدثت في القرن السادس . ويظهر الأنبياء ومطهرو المدن مثل افيمانيدس Epimenides الكريتي - الذي استدعى لتطهير أثينا - في العالم الهليني ، وكذلك تظهر جمعيات الاخوان المنظمة التي تماثل الكنائس ومنعزلة عن وشائج القرابة ودولة - المدينة ، وهي التي أقامت أساس العبادات المقررة . وكانت لديهم كتابات شعرية مقدسة منسوبة الى أورفيوس البطل الأسطوري وتحوى مبادئ معينة لعلم اللاهوت ، وخاصة فيما يتصل بمصير الروح في عالم ما بعد القبر ، وكانت جمعيات الاخوان الأرفية تذيب التعليم عن وجود للروح سابق وعن خلودها الملازم بسبب قرابتها للآلهة وتجسدها المتعاقب في أشكال الناس والحيوان البدنية وتطهيرها من الذنوب باتخاذ الجذب مع الاله ^(٢) ، وكانت تقدم

(١) ربما كان الغزاة الشماليون (الأخائيون) هم الذين أدخلوا عبادة أبولو والدين الألومبي ، على وجه عام ولو أن العبادة الجديدة قد تغير مظهرها بتمثيل معتقدات الشعوب الإيجية ، الأقدم منها . ويمكن تفسير الارتباط الوثيق بين طغاة القرن السادس والانتعاش الديني ونشأة الفاجعة (الدراما) الباكورة (التي اتصل قيامها بعبادة ديونوسيوس) ، إذا اعتبرنا أن سلطانهم كان سلطان الرأسماليين الأثرياء الذي يعتمد على التعاضد الشعبي ضد الأرستقراطية الاقطاعية وكان هؤلاء ، بطبيعة الحال ، يرتبطون بالعبادات الدينية الألومبية ، التقليدية .

(٢) يعتمد الاعتقاد في الخلود على الاعتقاد بقرابة الانسان بالله ، ولا يمكن الوصول الى الخلود الا بأن يصير المرء الها . وفي التعليم الأورفي تتصور الروح بأنها اله هوى ويمكن اطلاق سراحها من سجن الجسد بالتطهير والفرائض المقدسة (الجذب - ecstasy - وباليونانية ecstasis معناه «الخروج» عن الجسد) وتستعيد ألوهيتها (راجع بورنت ، الفلسفة الاغريقية الأولى =

للناشئين الرجاء فى نعيم أبدى وفى هذه الحياة تعاني الروح الحبس ، والجسم هو قبرها ، وعن طريق سلسلة من الحلول فى الأجساد تنجز دورة مصيرها . وعمليا ، كان يبشر بهذه المبادئ ، وتقبل فى شكل مادی غليظ ، فكان التطهير يعنى مراعاة محرمات غريبة واحتفالات سطحية ، والحياة الأخرى فردوس للاستمتاع الحسى - وفى عبارة التحقير لأفلاطون - «نشوة سكر أبدية» (١) . ومع هذا فقد كانت الآراء التى تتأصل فى التعليم الأورفى خليقة بتفسير أعلى . لقد استخدمها شعراء مثل فنندار وأسخولس فى الجهد الذى بذلوه للتوفيق بين السلطة الدينية ومطالب الوعى الخلقى فى زمنهم ، الأكثر سموا (٢) . و «فايدو» لأفلاطون هو أثر تذكارى لا يفنى للاستجابة التى كان يمكنهم إثارتها من الفلسفة . وفى هذا ، وفى غيره من كتاباته ، فإن نفس المفكر الذى صب جام غضبه على صانعى الغفران وأشعياع صنوف الأسرار الخرافية ، حول المبادئ الأورفية عن حبس الروح فى الجسد وعن سابق وجودها وعن خلودها وعن ديتونتها فى عالم آخر الى أداة لأسمى تعليم

= فصل ٢ الصفحات ٨٠ - ٤) . أما فى الدين الهومرى (الألومبى) ، فإن الآلهة والناس طبقتان من الكائنات مختلفتان ، ولا يمكن أن يصبح أى إنسان الها وعلى ذلك ، فلا يوجد خلود لبنى الإنسان . وفقط قلة من المحظوظين ، كان يحملهم الآلهة الى الومبس أثناء حياتهم ولم يكن يحمل أحد بعد الموت . ويعتقد هزيود أن الأبطال يمكنهم الذهاب عند الموت الى الومسيوم Elysium بدلا من الجحيم Hades . وكان الأمر جد مغاير فى الدين البدائى وفى نهضته فى القرن السادس . ويجب أن يلاحظ أن اعتقاد الاغريق فى الخلود استخدم موادا استمدت من الدين البدائى بينما نهض اعتقاد العبريين فيه فى استقلال تام عنه . راجع عاليه فصل ٣ § ١٥٩ صفحة ٩٧ تذكرا . وعلى هذا فإن تصور الاغريق ، على غير شاكلة تصور العبريين كان يدل على وجود سابق أى الخلود es parte ante كما es parte post راجع عن الموضوع كله « المذهب الأورفى Orphism » لجوثرى Guthrie

(١) راجع النص بأجمعه عن تدبير الأسرار والتعليم الأورفى (الجمهورية: ٢ ، ٣٦٣ وما بعدها) .

(٢) راجع فنندار « الومب » : ٢ ، ٦٢ وما بعدها و « شذرات » : ١٢٩ - ٣٣ وأسخولس ، أما : ٢٦٩ وما بعدها « الدينونة بعد الموت » وبقنخا Bacchac لأريفيديس - إحدى أخريات رواياته (شقيقة على الأخص لأجل المسائل التى تثيرها) .

دينى ومتافيزيقى (١) . وهنا كان أفلاطون يقتفى الخطوات الفيثاغورية (٢) . وكانت أبحاث هذه المدرسة العلمية ترتبط ارتباطا وثيقا بعقائدهم الدينية ومذهب الزهد الذى اتخذه قاعدة الحياة . وكان فيثاغورس نفسه قد وضع المثل لهذا الامتزاج وهو يعلم أن العلم كان التطهير الحق للروح وأن الخلاص يمكن ادراكه بالتنشئة فى خفاياه . ومنذ ذلك الوقت كانت الفلسفة تعنى للمفكر الاغريقى « مذهباً للحياة » (٣) . والفيلسوف فى نظر الفيثاغوريين وفى نظر أفلاطون ، كان قديس المذهب العقلى وفى اجتماع الحديث الفلسفى Symposium فان العقيدة الاورفية فى اتحاد المتعبد مع الهه عن طريق الجذب تصاغ فى حدس عقلى للجمال المطلق وهو منتهى الطواف الشاق تصعيدا فى سلسلة جبال الاستدلال العلمى (٤) . وسنرى ثمرات أخرى لهذا التصور عندما يحين الوقت للتحدث عن الأفلاطونية الحديثة فى القرون الأولى من العهد المسيحى . ومن نفس المصدر الفيثاغورى فاض التمييز ، الذى استمد عن طريق التشبيه من الألعاب الهلينية ، لثلاثة ضروب من الحياة الانسانية ، فالبعض كأولئك الذين يغشون تلك الاحتفالات لبيع سلعهم اختاروا سبيل الرضى المادى سبيل الكسب وأسباب المتعة وآخرون كاللاعبين المتنافسين يطمحون لنيل التكريم فى ميدان العمل ، فى السياسة أو الحرب بينما يوجد أولئك الذين يؤثرون ، على مثال المتفرجين فى الألعاب ، حياة المتفرج يتأملون بعقل لا تعيقه ميول بيت سجنه الجسدى ، مرأى الحق الكامل ، وتصور التأمل العقلى (thecrio) هذا ، كأرفع نشاط انسانى قريب لما هو الهى ، ذاك الذى أدركه أولا الفيثاغوريون ونماه أفلاطون وأرسطو يأتى بنا الى صميم العبقرية الهلينية عينه .

٦ - الخاتمة

١٩ - ان نسق التوسع الذى دون فى هذا الفصل يوضح صفة الهلينية العقلية . يوجد منطق ملازم فى كل ما خلقه الاغريق . ونظرة الى فنهم المعمارى والمامه التام بالصوغ والوظيفة والتوازن الرياضى تكفى لأن توضح

(١) وخاصة فى الأساطير التى تتصل بالأمور الاخرية فى Phaedrus, Republic, Phaedo, Gorgias راجع « أساطير أفلاطون » لاستوارت و « الفكر الدينى فى اليونان » لآدم .

(٢) أهديت Phaedo الى الرابطة الفيثاغورية فى اليونان الأوربية ، لقد عقد سقراط الصلات الوثيقة بعدد من الفيثاغوريين الذين التجأوا الى اليونان بعد نفيهم من ايطاليا فى غضون النصف الأخير من القرن الخامس .

(٣) وازن أفلاطون ، الجمهورية : ١٠ ، ٦٠٠ .

(٤) أفلاطون : ندوة الفلاسفة Sym. : ٢١٠ .

تراث العالم القديم

كيف بعثت الروح العلمية الحياة في الفن التخيلي . والاعتقاد أن « الله يهندس دائما » كان يتحكم في نظرتهم للطبيعة . وفي انتاجهم الجمالي . والفن لدى الاغريق يعتبر أبدا أحد أشكال الحكمة (Sophia) وليس فقط المفكر الاغريقى ، ولكن الفنان الاغريقى أيضا كانا يملكان الاحساس بالحق الذى أدى بهما الى أن يفرقا فى وضوح بين المثالى والواقعى وأن يعطيا كلا منهما حقه . وقد كانا يشعران أيضا بالهام تلك القوة التى خصص لها حياته شاعر من بين الشعراء المعاصرين ، ولج تماما روح اليونان القديمة ، - رؤيا الجمال العقلى ^(١) . ان الصرامة والصدق هما طابع الفن الاغريقى ، فمثلا عندما يقول هومر « هيلن » فانه يعنى « هيلن » وعندما يقول فرجل « ديدو » فانه يعنى « كليوباترة » أو « قرطاجنة » ويمكن تبين منطق مماثل فى منهاج تقدمهما . لقد رأينا أنفا كيف أن سجلات التاريخ السياسى وأدب الشعر والفكر العلمى تكشف عن تتابع أشكال منتظم ^(٢) . وما لحظه الفلاسفة الايونيون فى الطبيعة يصدق أيضا على عقل اليونان . ففى كل مكان يوجد تنوع وتغير ، ولا شىء فى استقرار . ولكن التغيرات ولو أنها لا تنقطع وتستغرق كل شىء ، فانه كانت تسير على هدى قانونى عقلى . وطراز يتبع طرازا ومدرسة تقتفى أثر مدرسة فى تعاقب منطقى الى أن ينتهى مدى كل الشكول الممكنة وتكمل دورة التقدم . وكانت خدمة اليونان الأساسية للمدينة أن تخلق فى العمل وتحدد فى الفكر الخصائص الجوهرية فى تجارب الانسان . ان الصيغ التى نستخدمها اليوم للتعبير عن الفروق والتجميعات التى تكون أساس فهمنا للعالم فى السياسة الملكية monarchy والأرستقراطية aristocracy والديموقراطية democracy وفى الأدب - الملحمة Epic والقصيدة الغنائية lyric والفاجعة drama والمأساة tragedy والمسلاة comedy وفى المعرفة - أسماء الفنون والعلوم الشعر poetry والطبيعة physics والفلك astronomy والرياضة mathematics والتاريخ history والفلسفة philosophy نفسها ، كلها صيغ اخترعها الاغريق . والشكول التى ميزوها وسموها هكذا هى التى أنشأوها فى سير تاريخ حياتهم . ولا توجد سلالة أدركت فى مثل هذه البصيرة الصافية

(١) راجع شلى Shelley « أنشودة للجمال العقلى » .

(٢) راجع على الأخص دراسة شكول الحكومة السياسية التى تحوى عيوبها ، فى جمهورية أفلاطون الكتابين الثامن والتاسع حيث يعرض النظام المنطقى الذى يعالجها فيه أفلاطون ، أشباهها كثيرة لمنهاج تطور التاريخ الاغريقى الواقعى .

وحددت فى مثل هذه الدقة ، حقائق الحياة والمعرفة (١) . وبسبب هذه
الموهبة العجيبة فى الحكم العقلى ، التى عاونتهم فى الفكر والعمل على ادراك
الموضوعات التى وضعت لها هذه الصيغ ، أن جميع الأجيال المتعاقبة رضيت
وفى الواقع أجبرت ، على أن تقيم البناء على الأسس التى أرسوها .

(١) ان سجلات العيادات الطبية للإيرانيين ، على سبيل المثال ، هى
بيانات دقيقة عن الوقائع لا تثقلها أية زيادة فى اللغة فوق ما تدعو اليه
الحاجة . وحتى الخطباء الاغريق كان ديدنهم الاقتصاد العجيب فى خطبهم .

الفصل الخامس

عظمة أثينا

١ - دولة أثينا

١ - كان فى أثينا فى القرن الخامس أن المدنية الاغريقية وصلت ذراها . وكانت أثينا فى ذلك الوقت أهم مدينة تجارية وسياسية فى العالم الهلنى الذى كان تفيض اليه كل تيارات الأدب والفن والمعرفة وفى عبارة بركليس رجل السياسة فيها ، الشهيرة ، أصبحت « مدرسة هلاس » . ولا يوجد فى التاريخ ما يعادل الثروة وتنوع العبقريّة الخالقة اللذين انتجتهم أثينا فى هذا القرن أو ضمتهم اليها من جميع أرجاء اليونان . وفى مدينة واحدة لم يكن تعداد سكانها الأحرار ، أكثر من تعداد سكان بلدة انجليزية متوسطة الحجم ، كان يقطن خلال ثلاثة أجيال من مدى الحياة الانسانية ، رجال سياسة مثل ثميستوقلس وبركليس والثلاثة من شعراء المأساة أسخولس وسفوكلس ويوريبيدس ، وشاعرا المسلاة (كوميديا) أرسطوفانس Aristophanes وفيدياس Phidias ومدرسة النحاتين الرائعة التى كانت له ، والمؤرخان هيرودوتس وثقوديدس والفيلسوف أناكساغوراس وسقراط أعظم معلمى البشر أجمعين ، وتلميذ سقراط الخالد ، أفلاطون . وكان يوجد غيرهم كثير ، لا عد لهم - رجال سياسة وشعراء ومفكرون ، من بينهم عدد وفير ليسوا أكثر من مجرد أسماء للآزمنة التى ترادفت وهم مع ذلك ، فى عهد أقل التماعا كان يمكن أن يكونوا من بين مشاهير رجال التاريخ . ويخال أن فردية المدنية الاغريقية بذلت الجهد فى فترة نضجها الوجيزة لتتجاوز حدود أجل عمل ممكن .

٢ - ولو أن أثينا تطورت الى مدينة تجارية عظيمة ، فان أساس حياتها المدنية كان زراعيا . ولقد انضم ، قبيل القرن السابع ، سكان أتيكا فى اتحاد (كومونولث) واحد ، وأخلت الملكية مكانها لحكم أرستقراطية من ملاك الأراضى وأصبحت فروع طبقات الأشراف والزراع وأصحاب الحرف ، وقد تحددت نهائيا وغدت مساوىء الدين والعبودية الشخصية واضحة وضوحا بينا . وصار الأصاغر من ملاك الأرض مدينين للكبار لدرجة ميثوس منها وسمح لهم بأن يرتهنوا حريتهم الشخصية لدائنيهم . ولقد رأى ختام ذلك

القرن نشر مدونة قوانين وهو حادث له أهمية فى تاريخ كل الجماعات الأولى وعلى الأخص فى حالة أثينا حيث كان « القانون المتماثل » *isonomia* فخر مواطنيها ووصل علم الاختصاص القضائى الى مستوى من الكمال لا يضارع فى العالم الهلينى ^(١) . وبفضل قربها من البحر وفرضتها فرايوس *Piraeus* تمكنت أثينا من الحصول على قسطها الكامل فى توسع التجارة . وهنا ، كما فى أماكن أخرى ، كان فيض الثروة وقيام حكم الأغنياء من التجار مما زاد القلق السائد شدة . وكان مصدر المتاعب يرجع الى أن الامتيازات السياسية أصبحت تنحصر فى ملاك الأرض . وسمح صولون بادیء ذى بدء ، للذين يملكون رأس مال تجارى بأن يشتروا الأرض من الملاك الذين يعوزهم المال ، وعلى ذلك يكونون أهلا بصفة فعالة لحقوق المواطنين وللوظائف العامة . وفى بواكير القرن السادس وقد استدعى صولون لتولى زمام الحكم حتى يحل الأزمة الاقتصادية واثاء النجاح - باصلاح القانون الجنائى وخاصة بانشاء المحاكم الشعبية التى كان المحكام مسئولين أمامها - فى وضع أسس الديمقراطية . وفى المجتمع القديم ، كانت محكمة القانون وليست الجمعية ، موطن الحرية السياسية حيث ظفر الشعب بالرقابة على السلطة التنفيذية . وأعقب هذا فى تتابع سريع تغييرات دستورية طوال القرن السادس . وكان حكم بيسطراطس الاستبدادى ، الذى ربما كان يستند الى تعضيد عماله فى مناجم أتيكا الجنوبية ، يتميز ، بصفة ملحوظة ، باحترامه للقانون واجراءاته الدستورية وتشجيعه للزراعة والتجارة وانهاش الفن والثقافة . وقد شجع أيضا صغار المستردين للأرض البور فى أتيكا . وقد مدت أثينا فى ذلك الحين علاقاتها التجارية والسياسية على كلى شاطئ بحر ايجا ^(٢) . وكان حكم

(١) عن *isonomia* راجع هيرد : ٣ ، ٨٠ وما بعدها وازن ٥ ، ٧٨ وفيه التعبير المستعمل *iségoriē* « المساواة فى الحديث » .

(٢) راجع الاستاذ ف. ن. يور *Prof. P.N. Ure* « النهضة الاغريقية » فصل ٧ - عن علاقة الطغيان على وجه عام وطغيان بيسطراطس على وجه خاص ، بالراسمالية واستخدام العمال .

وقد عالج البحث فى استيفاء أعظم فى مؤلفه الذى جاء بعد ذلك « أصل الطغيان » وقد كان حكم بيسطراطس من الأهمية بحيث يعتبر فاتحة عصر جديد لأثينا فى الفن والأدب والدين . ولقد أصبحت أثينا عندئذ مركز النفوذ الهومرى فى اليونان . وعن هذا ، راجع مرى *Murray* « خمس مراحل للدين الاغريقى » صفحة ٦١ . وبازدياد سكانها ، كانت أثينا تجلب ما يلزمها من المواد الغذائية من يوبيا *Euboea* والأكسين . ولهذا كان امتداد قوتها البحرية فى الشرق والشمال الشرقى أمرا جوهريا لبقائها . وكانت حالها كحال هولندا فى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . وهذا =

ببسطراطس الاستبدادى قصير الأمد ، لأن التعطش الى المساواة السياسية وقد أثير فى ليفف المواطنين الأثينيين ، أصبح من الشدة بحيث لا تشفى غلته ولا يقبل هواده . وقد نفيت أسرة ببسطراطس بثورة شعبية تظاهرها قوة اسبرطية ولكن أعداءهم الحقيقيين كانوا القمايوندا Alcmaeonidae وهم أسرة منافسة ، من النبلاء . وفى ختام القرن أوقع اقليستينس Clisthenes ضربة قاضية على نفوذ الأرستقراطية الاقليمية وأعاد تنظيم الحكومة على أساس ديموقراطى صريح . ولم يسمح فقط للمقيمين الأجانب بكسب حقوق المواطن الكاملة ولكنه حل التجمعات السياسية التى كان أساسها روابط الأرض المحلية ، واستبدلهم بقبائل جدد جلب أعضاءها من أنحاء متفرقة فى أتيكا . وكان من أثر هذا ، أنه عندما فاضت موجة الغزو على اليونان فى فجر القرن الخامس ، استطاعت أثينا أن تواجه الأزمة بمساعدة من المنظمات السياسية حقيقة بمزاج مواطنيها وبمكائنها الجديدة فى اتحاد (كومونولث) دول - المدن الهلينية . ثم فى قدرتها على التقدم السياسى وفى حرية التواصل بالمدن الأخرى ، قدمت أثينا فى هذا الوقت وما بعده تقيضا ظاهرا للدولة التى كانت لها السيادة على أرض اليونان الأصلية ، اسبارطة (١) . ومن موطنهم فى وادى يوروطاس Eurotas المنعزل ، أخضعت الأرستقراطية الاسبارطية بلوبونيسس الجنوبية اخضاعا تاما . وبفضل شجاعتهم التى لا تقارى ومهارتهم فى استخدام السلاح ، اعترف بهم دولة عسكرية دانت لها الزعامة فى اليونان . ولكن اسبارطة كانت ثكنة ، لا دولة ، وكان يتحكم فى تدريب وحياة مواطنيها ، الهدف الأوحد وهو حذق فن الحرب . وقد احتفظت بمنظوماتها البدائية قرونا ، دون أن يطرأ عليها تغيير ، فى الغالب . ولما كانت تحقر التجارة ، فقد قامت بحراسة تخومها من تدخل الأجانب ، فى بأس . ولم تضيف الا القليل أو أنها لم تضيف شيئا على الاطلاق مما له قيمة دائمة فى بناء المدنية الهلينية . وكانت قوتها ترجع الى شدها أزر العهد القديم Ancien Régime فى كل مكان فى اليونان ، فى سياستها الشعبية Herrenvolk ومبدأ العزلة الذى ضمن لها سيادتها . ولقد أنجبت جنودا شجعانا . ولكن لم تنجب الا القليل من رجال السياسة الممتازين . وكان المواطنون اولو المواهب العظيمة أهدافا للريبة فى موطنهم ، وعندما كانوا يتحررون من جو التقاليد الاسبرطية ، يصبحون فرائس للفساد ، سهلة .

= يفسر السبب فى أن الديموقراطية الاثينية كانت دائما تنادى بالتوسع الامبراطورى .

(١) يعبر ثقوديدس عن هذا التناقض فى خطبة المبعوثين الكورنثيين فى اسبارطة فى ٤٣٢ ، ١ ، ٧٠ وكذلك فى خطبة الجنازة لبركليس ٢ ، ٣٥-٤٦ التى جاءت مقتبسات منها فى § ٥ من هذا الفصل .

وأنا لنعجب للصيت الذى أحرزته اسبارطة فى عينى اليونان المعاصرة وللسلطة الخلقية التى بسطتها على الكثير من أحسن العقول الهلينية . ولما قنط أفلاطون من خلاص أثينا السياسى ، تطلع صوب اسبارطة بحثا عن العلاج ويرجع السبب الى هذا : أنه ولو أن الارستقراطية الاسبارطية كانت ضيقة وغير مثمرة وظالمة فقد ظهر أن ثباتها والتمسك بوحدة المبدأ والولاء للدولة يكمل النقص الذى كانت الحاجة تمس اليه لديموقراطية أثينا العاطفية التى لا استقرار لها (١) .

٣ - وأتاحت الحرب مع فارس الفرصة العظمى لأثينا . لقد سبق أن سردنا قصة نهوض الدولة الفارسية السريع واخضاعها الاغريق الاتسيويين تحت نيرها . وهدد أسطولها البحرى الذى جند رجاله من مدن فينيقية التجارية ، بتحويل ايجا الى بحر فارسى . ولقد اصطدم الحكم الذاتى فى دولة - المدينة الاغريقية بالقيصرية الفارسية بينما ألقت الحركات الديموقراطية وهى تهدد الحالة الراهنة ، الاقتصادية والسياسية ، بحمايتها المحافظين بين يدى فارس . وقد وصم القوميون الاغريق هذه الوسيلة للنجاة « بالميدية » لأن تاريخها يرجع الى ما قبل قيام فارس . وقد أوقعت القوة البحرية التى كانت لبوليكراتس الساموسى ، الخطر على تحكم فارس فى سواحل آسيا الصغرى . وفتحت غزوات دارا فى طراquia عينى مليطوس التى كانت فى البداية قد طغت عليها « الميدية » . وقد أكدت ثورة الاغريق الايونيين فى السنوات الأولى من القرن الخامس ، للحكومة فى سوس الحاجة الى تعزيز حدودها الغربية ، وفى عام ٤٩٠ ، أرسلت حملة تأديبية بحرا ضد الأثنيين الذين كانوا قد قدموا قوة عسكرية مسلحة كعون للثورة الفاشلة التى أشعلها ذوو قرابتهم الايونيون . وقد قوبل جيش فارس وأوقعت به الهزيمة ، على سهول مراثون Marathon على ساحل أتيكا الشمالى الشرقى . ومن العسير ، بالنظر الى

(١) ان صورة أفلاطون للحكومة التيموقراطية (شكل للحكومة يؤهل فيها الأفراد للوظائف بما يملكون) فى الجمهورية : ٨ ، ٥٤٧ - ٨ يماثل بصراحة شكل الحكومة الاسبرطية . ومبادئها الهاديان هما « الشرف » (timé) و « النصر » وهى أقل أنواع الحكومات « غير العادلة » فسادا ، وبعد ذلك ، فى « القوانين » نجد أفلاطون أقل تسامحا ، لحد عظيم ، نحو المنظمات الاسبرطية . ويوجه أرسططاليس النقد القاسى لاسبرطة فى « السياسة » ٢ - ٩ و ٧ - ١٤ ، ١٥ ويصرح بلوبيوس (٦ ، ٤٨ - ٥٠) فى فحصه للمنظمات الاسبرطية أنه لا يوجد مثيل لها للاحتفاظ بالاستقلال والاكتفاء الذاتى فى الداخل ولكنها غير كفيلة تماما بمباشرة العلاقات الخارجية والامبراطورية .

الحوادث التالية التي كان لها شأن أعظم ، أن ندرك ما كان يعنى هذا النصر لليونان . ولأول مرة قوبل التمثال الفارسي الهائل في الميدان المكشوف . وبالنسبة لأثينا ، قدمت مراثون ذكرى لا تقنى وبعد ذلك بزمان مديد عندما سرد أعظم خطبائها كيف جمع مواطنوه شملهم أمام كفاح الموت ضد مقدونيا ، فانه رجع بفكره الى أولئك الذين سقطوا ممجدين في مراثون (١) وأما بالنسبة للفرس فليس ثمة شك في أن الموقعة لم تكن تعنى أكثر من صد عنيف لسياستهم الأمامية على الحدود . وجعلت القيام بعمليات على نطاق واسع أمرا لا مناص منه ، ولكن جمع المجندين الامبراطوريين تطلب زمنا . وسببت ثورة في مصر وموت الملك دارا تأخيرا لسنتين عدة . ولم يكن الجيش حتى عام ٤٨١ قد تجمع تحت قيادة خشيارشاي في سردس ، بينما كان الأسطول في ايجنا مرابطا عن كيب ، لغزو اليونان غزوا نهائيا . ولقد وافقت اللحظة الحاسمة المدنية الهلينية آخر الأمر وأثناء تقدم الفرس ، قدم نصف المدن الاغريقية خضوعها وقام مهبط الوحى في دلفى بدور الحائن للدعوة الهلينية . كانت اسبارطة وهى العمود الفقارى للدفاع بالبر تفكر ، كما كان العهد بها دائما ، على الأخص في البلوبونيسس . وفى تلك الآونة ، تقدمت أثينا كنصير للحرية الهلينية . ولقد شاهد مواطنوها مرتين ، من ملجئهم الجزرى في سلاميس دون خوف نهب أراضيهم وتدمير مدينتهم . ولقد أحرز أسطولها النصر الحاسم في سلاميس (عام ٤٨٠) وفى السنة التالية ، حارب جنودها جنبا الى جنب مع المشاة الاسبرطيين في « الرحمة الحثامية » فى فلاتيا Plataea ووجدت أثينا فى شخص ثمستوقلس قائدا له قدرة غالبة فى الحرب وفى السياسة ، ونجت اليونان وكانت نجاتها ترجع على الأخص الى وطنية أثينا (٢) .

وكان هذا آخر تهديد يوجه للحرية الهلينية من الشرق . وكان الخطر مزدوجا ، ففي الغرب كانت قرطاجنة قد هاجمت اغريق صقلية فى سنة غزو خشيارشاي فلاحقت بها هزيمة قاصمة فى الهيرا على يدى جيلو Gelo طاغية سيراكوز . واستهل نصر جيلو حقبة باهرة فى سيادة سيراكوز . وفى

(١) ديمستينس Demosthenes دى كرونا de Corona § ٢٠٨ .

(٢) راجع هيرد ٨ و ١٤٣ وما بعدها عن وطنية الاثينيين فى هذه الضائقة . وقد أورد قصة حملة عام ٤٩٠ فى الكتاب السادس ، ٩٤ - ١٢٠ وحملة خشارشاي فى ٧ - ٩ . وقد وضع استرخولس هزيمة خشيارشاي فى فاجعة ، فى « الفرس » الكتاب الذى صنفه .

الحق تحتل سيراكوز من ذلك الحين المكانة الثانية بعد أثينا ، كمرکز للفن والثقافة الهلينيتين (١) .

٤ - وكان انتصار اليونان رائعا ، ولكنه على أية حال لم يكن أعجوبة . وهو يقدم أول مثال واضح ، في التاريخ عن انتصار دنيوى للنوع ضد الكم . ولقد صنع الاغريق في سلاميس وفلاطيا ما صنعه الاسكندر بعد ذلك في أسسوس Issus وجوجميسلا وكليف Clive في الأزمنة الحديثة في بلاسى Plassey (٢) . ان تاريخ الإنسان يكذب في كل مرحلة المثل الأحمق بأن « الله يكون الى جانب الكتائب العظيمة » ، وإذا كان نابوليون قال هذا على الإطلاق فلا بد ان قوله كان يحمل في مطواه تحفظا بأن « يكون النوع متعادلا » والأعجوبة الحقة هي في استخدام الأثينيين للنصر الذى حازوه . ولقد اظهروا في ساعة النصر ، نفس البصر بالحقائق واتساع النظر ، كما في ساعة الخطر الداهم . وعندما ارتضت اسبارطة والدول الاغريقية الأخرى بما نالوه من أكاليل الغار ، أجمعت أثينا الراى على أن تواصل الجهاد حتى تتحرر كل مدينة اغريقية في منطقة ايجا من النير الفارسى

وكانت السياسة وكذلك روح الوطنية دون ريب ، تشيران الى هذا الاتجاه ولكن مما فيه شرف أثينا الخالد ، أنه في هذه اللحظة لامت أثينا بين دعوة نفع المدينة ودعوة الاستقلال الهلينى . ولقد جنت الشمار ألف ضعف ، في العظمة السياسية كما في حياتها الداخلية التى تتصل بالمدينة وفى تجارتها وامبراطوريتها فى البحار ، وكذلك كما سنرى ، فى أنبل ثمرات الثقافة العقلية ، التى كانت أبدا من نصيب النوع الانسانى . وقد تركتها حرب التحرير (٤٧٨ - ٤٧٠) سيدة مياه ايجا دون منازع . وقد

(١) وجه بNDAR عددا من أحسن القصائد الغنائية الى الأمراء الصقليين بما فيهم هيرو Hiero خليفة جيلو . وقد زار اسخولس صقلية أكثر من مرة ومات فى جيلا Gela وكان جورجياس Gorgias الليونتينى Leontini من مشاهير السفسطائيين وأستاذ الفصاحة . وفى القرن الرابع زار افلاطون سيراكوز فى مناسبتين أو ثلاث . وكان جيسلو القائد العام لاولجارشية (حكومة الاقلية) من الرأسماليين ، قاصرة عليهم ، وقد دعت المدن الايونية فى غرب صقلية قرطاجنة وهى فى يأس . وتقدم سيراكوز نقيضا يسترعى البال ، لأثينا الديموقراطية .

(٢) رأى الاثينيون أنفسهم فى وضوح ، أن النصر يرجع الى قوة ومهارة أسطولهم البحرى والى ذكاء ثمسطوقلس ولروح حب الوطن التى لا تحيد ، التى تشيع فيهم (انظر نقد ١ ، ٧٣ و ٧٤ و ١٤٤) .

أمن تحصين المدينة ومرفئها ، فرايوس من منافسة اسبارطة لها في البر . وكانت أساطيلها تقوم بالحراسة على إيجا الذي أصبح من الآن موصدا ، كما كانت أراضي ساحل آسيا الغربية ، أمام الفرس . وكانت هذه الحقائق أساس التفاهم الذي أنهى في عام ٤٤٨ الصراع الذي استطال حتى بلغ أربعين سنة ونيفا . ولقد تركت أثينا وفي حيازتها احتكار التجارة الشرقية . وكانت المدن المحررة ما تزال منتظمة في جمعية تحت رياستها ولها خزانة مشتركة في جزيرة ديلوس المقدسة ، كانت تقدم اليها كل مدينة حصة معينة للاحتفاظ بالأسطول البحري الحامي . وفي روعة بالغة ، حققت أثينا ما انتوته وقطعت العهد به . ولكن والقرن يسير في مدهاء ، حدث تغير في هياستها . لقد تحولت الدولة التي عقدت لها الرياسة على الاتحاد الديلي الى مدينة ذات سيادة على امبراطورية خاضعة لها . ولقد غدا حلفاؤها القدامى تابعين يلتزمون بدفع الضريبة وكان مطلبهم في الانفصال عن الجمعية يداس تحت الأقدام في عنف ، ونقلت الخزانة الى أثينا وأعيد وضع منظماتها الداخلية لصالح سيادة أثينا . ولما كانت أثينا ديموقراطية فان المدن الخاضعة يجب أن تكون أيضا ديموقراطية . ومن خصائص التاريخ السياسي الاغريقي أن الصداقة والعداوة بين الدول كانا يعتمدان الى حد عظيم على اللون السياسي للحزب الحاكم . وقد تحالفت الحكومات الديموقراطية مع أثينا والحكومات الارستقراطية مع اسبارطة . وفي زمن بركليس (٤٦٠ - ٤٣٠) كانت الامبراطورية الاثينية تشمل جزر إيجا ومدن طراقيا وآسيا الصغرى الساحلية والسبتطس والمجاز البحري الى الأكسين . ولو أن نكسس Naxos ثارت عام ٤٦٥ وساموس عام ٤٤٠ . وأكثر من هذا ، فان أثينا أظهرت نشاطها في محاولات فاشلة لبسط سيادتها على اليونان الوسطى وفي حملة عسكرية أنفذتها الى مصر وانتهت بنكبة . ونمت المدينة في الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لتجاريتها الواسعة المتنوعة . ومع الكراهية المريرة التي كان يشعر بها رعايا امبراطوريتها ، لا يوجد أى دليل على أنها كانت تحكم حكما غير عادل . ويجب أن يكون الهادى في حكمنا اعتبارين . بتركيز القضايا التي تنسحب على مدن مختلفة وكذلك أعظم الدعاوى الجنائية خطورة ، فى المحاكم الاثينية ، فان أعلى مذهب فى الإدارة القضائية ، رقينا ، كان يوجد فى العالم فى ذلك الحين ، فتحت أبوابه لكل اليونان الشرقية ، وعلاوة على هذا ، كانت أثينا تدرك تماما الواجب الذى تفرضه عليها سيادتها . وكان لزاما على مواطنيها ، كما كان يشعر على الأقل ساستها الذين كانت لهم الصدارة ، أن يعيشوا عيشا خليقا بقدر امبراطوريتهم . ولقد حازت جهود بركليس لادراك هذا المثل الأعلى ثقة شعب ديموقراطى . ولم يصل حلم اتحاد جامعة هلينية تحت زعامة مدينة واحدة ، اطلاقا ، قريبا من تحقيقه كما فى عهد الامبراطورية الاثينية فى زمن بركليس .

٥ - وعندما نضع الى جانب قوة أثينا الخارجية لنمعن النظر فى حياتها العامة الداخلية ، نجد أنه منذ عهد اقلستينس كان يهيمن على الحكومة ارادة لفيف المواطنين الأحرار (١) . ولقد رأينا كيف أنه ، عند الاغريق كانت حياة المواطن الحققة هى خدمة الدولة فى السلم وفى الحرب وقد حقق هذه الفكرة فى اسبارطة ، الأرستقراطية الحاكمة . ولما كانوا قد وهبوا الضياع التى يقوم بالعمل فيها الرعية من السكان ، فقد تاح لهم وقت فراغ ليخصصوا كل حياتهم للخدمة العسكرية . وقد جهد بركليس وخلفاؤه فى القرن الخامس فى جعل مثل هذه الحياة ممكنة لديوقراطية أثينا . واستحدثت الأجرة لحضور المجلس ومحاكم القانون ، التى كان أعظم مشاغلها الدعاوى السياسية ، كان الوسيلة التى استخدمت للوصول الى هذا الهدف . وعلاوة على مهمة الحكومة المحلية ، كان مباحا لكل مواطن أن يحضر بشخصه وان يدلى بصوته وان يتحدث فى الاجتماعات الأسبوعية للمجلس ذى السيادة (Ecclesia) حيث كانت تبرم مواضيع السياسة الخارجية والامبراطورية والمواضيع المالية ويعين الحكام وتناقش تقاريرهم وتفحص . وكان مجلس الرأى Boule يعهد اليه بتحضير التشريع للجمعية وكان يجتمع عشر العدد (prytany) كمجلس تنفيذى دائم ، فى دار البلدية كل شهر فى السنة . وكانت لجان تتألف من بضع مئات من المحلفين يختارون بالقرعة من لفيف المواطنين ، تصدر أحكامها فى الاتهامات الدينية والسياسية . ولقد صب الشاعر المحافظ أرسطوفانس التحقير المرير على منالاة هؤلاء الدباير (٢) الأثينيين فى الدعاوى القضائية . ولقد تصاعدت روح التشيع وكان الحزب الأرستقراطى ينادى بالسلم والصدقة مع اسبارطه ، أما الحزب الديموقراطى بقوته بما يضم من السكان البحريين ، فكان يناصر توسيع الامبراطورية فى البحر والبر . ولكن عندما نتسامح فى المغالاة فى الروح الحزبية والمطامح الفردية فان الديموقراطية الاثينية لم تكن غير جديرة بالمثل العليا للسياسى العظيم الذى وطد سيادتها .

(١) يمكن أن يكون تعداد سكان أطيكا الأحرار فى عصر بركليس قد بلغ حوالى ٢٥٠.٠٠٠ نسمة ويؤكد ثقو ٢ ، ٣١ أنه حوالى عام ٤٣٠ كانت تبلغ قوة المواطنين الأثينيين ٣٠.٢٠٠ . ويجب أن يضاف اليهم نحو ٢٠.٠٠٠ من الطبقة التى لها أقل ملك فيكون المجموع ٥٠.٠٠٠ من المواطنين الذكور البالغين . وربما يبلغ تعداد النساء والأطفال والعجائز أكثر من ضعف هذا العدد ، وبذلك ربما كان يصل المجموع الكلى الى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة من الأحرار يضاف اليهم ٥٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين metics . ويظهر فى احصاء عام ٣٠٩ ق م نقص فى المواطنين الذكور البالغين ، يبلغ ٢١.٠٠٠ يضاف اليهم ١٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين .

(٢) أرسطوفانس « دباير » .

ولقد عبر بركليس عن هذا المثل الأعلى في خطبة له في الثناء على الجنود الذين سقطوا في معمة القتال في حملة عام ٤٣١ . وقد سجل الخطبة المؤرخ ثقوديدس ويمكن اقتباس النص الآتي لتوضيح تصور بركليس للديموقراطية الأثينية :

« ان شكل حكومتنا لا يدخل في مجال التنافس مع أنظمة غيرنا ، واننا لا نحتذى حذو جيراننا ولكننا نضع المثال لهم . وهو صدق أن الديموقراطية تطلق علينا لأن الادارة في أيدي الكثرة وليست القلة ولكن بينما القانون يضمن المساواة في العدالة للجميع على السواء في منازعاتهم الخاصة فان دعوى التفوق يعترف بها أيضا وعندما يمتاز مواطن في أية ناحية فانه يفضل للخدمة العامة ، ليس كامتياز ولكن جزاء للفضل . ولا يكون الاملاق مانعا ولكن يمكن للانسان أن يحقق نفعا لوطنه مهما كان شأنه مغمورا . ولا يوجد احتكار في حياتنا العامة وبينما لا نخضع لأي قسر في تواصلنا الخاص فان روحا من الاحترام تشيع في أعمالنا العامة ويجنبنا عن ارتكاب الخطأ ، الاحترام للسلطة وللقوانين اذ لنا اعتبار خاص لتلك التي وضعت لحماية الذين وقعت عليهم مساءة وكذلك لتلك القوانين غير المكتوبة التي تجلب على الخارجين عليها تنبيذ الرأي العام اننا عشاق للجمال ولكننا بسطاء في أذواقنا واننا نثقف العقل دون خسران للرجولة . والشراء نستخدمه ليس للحديث والزهو ، ولكن عندما يوجد نفع صادق في استخدامه . والجهز بالفاقة عندنا ليس مذلة ، والمذلة الحقيقية هي في القعود عن عمل شيء لتحاشيها . ان المواطن الأثيني لا يهمل الدولة لأنه يعنى ببيته . وفيما بيننا ، حتى أولئك الذين ينهمكون في الأعمال ، لديهم فكرة جد طيبة عن السياسة ونحن ، دون سوانا ، نعتبر الرجل الذي لا يهتم بالمسائل العامة ، ليس شخصا لا ضرر منه ، ولكنه شخص لا جدوى فيه . واذا كانت قلة منا مبتكرين ، فاننا جميعا حكام صادقون لشمة سياسة . والعائق العظيم أمام العمل ، في رأينا ، ليس النقاش ولكن الافتقار الى تلك المعرفة التي تكتسب بالنقاش ، ارهاصا للعمل . لأن لنا قدرة خاصة على التفكير قبل العمل وعلى العمل أيضا ، بينما ناس آخرون لهم شجاعة وليدة الجهل ولكن يترددون بعد امعان الفكر والخلاصة ، أقول ان أثينا هي مدرسة الاغريق وانه يبدو أن الفرد الأثيني في ذاته ، يستطيع أن يكتيف نفسه في أعظم شمول العمل تباينا ، بأجل ما يكون من قدرة ، متعددة النواحي ، وكياسة . وليست هذه كلمة لغو عابرة ولكنها الحق والواقع . والتوكيد تصدقه المكانة التي رفعت اليها هذه الحصال الدولة لأننا أجبرنا كل بر وكل بحر ليفسح طريقا أمام بسالتنا وغرسنا في كل أوب ، آثارا خالدة لصداقتنا وعداوتنا . هذه هي المدينة التي لأجلها حارب هؤلاء الرجال وماتوا في نيل . ولم يكن في وسعهم

احتمال الفكرة بأنه يمكن أن تستلب منهم ، وكل واحد منا على قيد الحياة يجب أن يكدح في اغتباط لأجلها ، (١) .

٦ - ان امبراطورية أثينا وحكم الديموقراطية الذي خلقها ورباها كان كلاهما قصير الأمد . ويقع التاريخ الأثيني في القرن الخامس في ثلاث حقب تتميز الأولى بنهوض قوتها في الحرب الفارسية والثانية ببلوغ ذراها في زمن بركليس والثالثة بدهورها وسقوطها . والحياة العامة الاغريقية هي في كل مكان سجل من التغيير متنوع المناظر . ولقد أظلت سحائب أيام قيادة بركليس السعيدة ، حتى قبل موت السياسي العظيم (٤٢٧) وكان منافسو أثينا يتحينون الفرصة لجمع الشمل ومهاجمة سيادتها . وأتى الوازع من دول البرزخ وخاصة من كورنث التي كانت مصالحها التجارية في اليونان الغربية يتهددها مطمح أثينا المتزايد . وبينما كان الكورنثيون يدفعون الى النشاط قوات اسبرطة القوية ، ولو أنها متكاسلة ، كانت المدن الخاضعة في الامبراطورية الأثينية ترقب في تلهف الفرصة المواتية للثورة . وفي عام ٤٣١ قام الصراع الذي يعرف في التاريخ باسم الحرب البلوبونيسية (٢) .

وفي الواقع تورطت كل اليونان في الصراع وقد ناهضت قوة أثينا البحرية من جانب ، تحالفا ينتظم أعداءها تحت القيادة الاسبرطية . واستمر مع فترات انقطاع حتى عام ٤٠٤ عندما أعقب تدمير الأسطول البحري الأثيني سقوط المدينة الامبراطورية . وقد سرد ثقوديدس قصة الحرب وقام بنفسه بدور في مشاهدتها الأولى في توليف سيبقي أبد الدهر خلقا رائعا للتاريخ الذي يتبع فيه التأمل . وعنده ، كان الصراع فاجعة تتركز حول خطيئة hubris الديموقراطية الأثينية التي كانت تأخذ في النمو ، وتنتهي بالقصاص nemesis الذي نجم عندما تخطوا ، في محاولة غزو صقلية ، المعلم . وكما فعل سالفه هيرودوتس في تقفى أثر يد عناية الهية غيورة ، في القصاص الذي لحق الامبراطورية الفارسية عندما ألفت بجحافلها في صلف القوة ، ضد اليونان ، رأى ثقوديدس في روح فلسفة أكثر نضجا في الجائحة التي أصابت المدينة وطنه في اللحظة التي ظهر فيها أن تعطشها لامبراطورية عالمية قد أدرك مرماه ، عملية لا ليان فيها للقوانين التي تقرر مصير الأمم . والديالوج الذي يقص فيه انذار أثينا النهائي الى سكان جزيرة ميلوس بتوكيده الذي لا هوادة فيه ، أن الضرورة لا تعرف أى قانون وأن حاجة السياسة الملحة لا تعبأ بكل مطالب الفروض الخلقية وأن طغيان القوى على الضعيف هو الحق الطبيعي للالهة والناس ، يجيء بعده دون فاصل ، قصة ابحار الأرمادا ضد سيراكوز وما أصابته من ضروب النجاح الأولية

(١) ثقو ، ٢ : ٣٧ - ٤١ (ترجمة جوت Jowett) .

(٢) كان يتوقع حدوثها من حرب سابقة (٤٦٠ - ٤٤٥) .

وما أعقب ذلك، من نكبات ثم ذهابها أبابيد (١) . ولم تقم لأثينا قط قائمة بعد هذه الضربة . ولما رأى السبيادس صديق مسقراط وأعظم شخصية سياسية التماعا وتعددا في نواحي قدرته ، أن النائية أوقعت عليه العار ، انضم الى أعدائها ونصح بالتحالف مع فارس التي أمدتهم بموارد غير محدودة لخلق قوة بحرية . وما كانت أثينا لتقهر الا بالبحر . وقد استمر شعبها في القتال في ثبات وشجاعة عجيبيين ضد كثرة هائلة ولكن دم حياتهم كان قد نضب معينه وكان لا مندوحة من الخراب في النهاية (٢) . وعندما وافت النهاية ، كانت حامية من الاسبرطيين المقوتين تعسكر في الأكروبول ، ووقعت المدن الخاضعة التي كانت قد ثارت ضد أثينا والأمل يحدوها في استعادة استقلالها في قبضة الظافر ، ولا حول لها . ولو أن أثينا استطاعت أن تزيع نير اسبارطة ، ولو أن الديموقراطية استعادت وفاضت التجارة مرة أخرى في فرايوس ، الا أن امبراطوريتها أصبحت في خبر كان . ووجدت عبقرية المدينة ، بعد فترة وجيزة من الروعة السياسية والعسكرية ، موطنها الحقيقي الدائم في ميادين الأدب والفكر .

٢ - الفن والأدب في أثينا في القرن الخامس

٧ - نوهنا فيما سبق بأن جميع ألوان النشاط الخالق التي عبرت عنها العبقرية الاغريقية تجمعت في أثينا في أزهى القرن الخامس العظيم . وصدق هذا ، في المكان الأول ، على فنون العمارة والتصوير والنحت التي تربطها قرابة . ولقد كان الوازع للثلاثة وازعا دينيا ، اقامة وزخرفة المعابد لعبادة الآلهة . وكان الطرازان ، الدوري والايوني في فن عمارة المعبد ، الواحد ضخيم وقاس والآخر أكثر أناقة وزخرفة ، قد تطورا في الحقبة السابقة ، من أشكال بدائية للبناء بالحشب (٣) . وكان النحت أيضا منشؤه حفر الحشب وقد حل محل دمي المعبد الخشبية في عصر التوسع التجاري وتحت

(١) راجع ثقو . ، ٥ ، ٨٩ وما بعدها عن الديالوج الميلي . وتورد هذه الآراء في الحاح للذاكرة دفاع الألمان عن انتهاكهم حياد بلجيكا في عام ١٩١٤ ، ان ثقوديدس يكتب كمتفرج في عيادة للمرض السياسي .

(٢) كان الحزب الأرستقراطي والمشايخ لاسبارطة يعمل داخل المدينة لصالح العدو . وكان يرجع نشاطهم الى عام ٤١٥ (ثورة الأربعمئة) وكانت صميحة - الحرب ، السياسية « العود الى عام ٤٦٠ » أي قبل بركليس .

(٣) من المعابد الأثينية في عصر بركليس كان ثسيوم Theseum وبارثنون Parthenon (راجع § ٨) أهم مثالين للطراز الدوري والارخشيوم Erechtheum ومعبد « النصر دون جناح » (Nike Apteros) للطراز الايوني .

رعاية الطفلة الانرياء التماثيل من الحجز . وفى القرن السادس ، تقدمت مدارس أرجوس وسسنيون Sicyon وأيجينا Aegina وأثينا تقدما سريعا فى مهارة الصنعة وفى معرفة التركيب التشريحي وحرية المعالجة وتحرر فن النحت من ارتباطه القاصر على الموضوعات الدينية . وتوضح تماثيل اللاعبين الرياضيين الاهتمام المتزايد بطرز جمال الرجولة . ولقد وصلت هذه التطورات الباكورة الى قمته فى المدرسة الأثينية فى عصر بركليس تحت زعامة فيدياس . وقد قدم الى أثينا أيضا بوليغنوتس Polygnotus مواطن ثاسوس Thasos ، أعظم مصور فى ذلك الزمن والذي اشتهر بإنشاءاته العظيمة الهائلة مثل نهب طروادة وأدوسيس فى الجحيم وقد امتدحه ارستطاليس لخدائنه فى تصوير خليقة الانسان ^(١) . ولقد دمر الغزاة الفرس أبنية أثينا وفى الجيلين التاليين وطن سياستها العزيمة على جعل المدينة الجديدة خليقة بمكانتها فى الامبراطورية . وجهد بركليس على الأخص ، فى تدريب المواطنين على حب ما هو جميل عن طريق أبنيته وما يزخرفها من أفانين النحت . وفى عصر كانت فيه الكتب نسييا ، لا سبيل الى الوصول اليها ، فمن المستحيل المغالاة فى تقدير قيمة الأبنية الرائعة ، فى التعليم . وكان الاكروبول فى أثينا ببوابة المدخل ومعابده وتماثله ، يؤدى للآثينيين فى ذلك الزمان ، نفس الخدمة التى كانت تؤديها الكاتدرائيات التى نزر بالنحت ، لمدن أوروبا فى العصور الوسطى . وفى عبارة جاءت فى «الجمهورية» بختم أفلاطون حجته بأن حكام المدينة المنالية ، من السباب ، يجب أن تحيط بهم بيئة من الرشاقة والجمال بهذه الكلمات :

هل يجب أن نفتصر على الاشراف على السعراء وقسرهم على أن يضيفوا على اناسهم طابع الحصال الخلقية الطيبة وجزاء مخالفة ذلك عدم قرض الشعر بيننا ، أو هل يجب أن نبسط اشرافنا على أساتذة كل حرفة أخرى على السواء ونمنعهم من أن يطبعوها بتلك العلامات سيئة النوع من الانحلال والحسة وعدم الأنافة سواء فى صور الكائنات الحية أو فى الأبنية أو أى عمل آخر من صنع أيديهم . ونمنع منعا كليا أولئك الذين لا يستطيعون القيام بغير هذا ، من العمل فى مدبنتنا حتى لا تكون تربية أوصيائنا بين صور الرذيلة كما فى مراعى غير صحية يقتطفون الكثير كل يوم ، قليلا قليلا ، من أمكنة عديدة وبطعمون منه حتى يجمعوا ، دون أن يشعروا ، كتلة عظيمة من السوء فى قرار أرواحهم ؟ ألا يجب علينا ، على النقيض ، أن نلتمس فتانينا من طابع آخر ، أولئك الذين بقوة العبقرية يمكنهم أن يقصوا طبيعة ما هو جميل ورشيق حتى ان شبابنا ، الذين يقطنون كما هى الحال بصقع صحى يتاح لهم أن ينهلوا الطيب من كل مكان وبقع أى فيض من الاعمال

(١) ارستطاليس ، الشعراء فصل ٢ وفصل ٦ والسياسة ٨ ، ٥

النبيلة على أعينهم أو آذانهم ، كعاصفة تجلب العافية من المراتع الصحية ودون أن يحسوا ، يظفر بهم منذ نعومة أظفارهم ليكونوا على تشابه وحب وانسجام مع جمال العقل ، الصادق ؟ (١) . ولا يستطيع أى فرد أمضى حياته تحت ظلال ثمة كتدراية رائعة أو داخل حيطان كلية من كلياتنا العتيقة أن ينزع هذا الحكم على ما للفنون من تأثير خفى غير مدرك على خليقة وعقل الانسان .

٨ - وأهم الأبنية التى أقامها بركليس على الاكروبول كان معبد أثينا العذراء ، البارثنون . ولم يعرف ضريب فى أى عصر لأعمال النحت التى كانت تزين المعبد ، من صنع فيدياس وزملائه من مهرة الصنائع . وفى بواكير القرن التاسع عشر جلب لورد الجن معظم ما تبقى منها الى انجلترا وهى الآن فى المتحف البريطانى . لقد صور على الطنف منلثة الشكل مولد الالهة أثينا من رأس زيوس والصراع بين أثينا واله البحر بسيدون على امتلاك تربة اتيكيا . وعلى ألواح الأفاريز التى كانت بزخرف الشريط الخارجى من الحجر المحيط بالمعبد فوق صف العمود الدورية ، نحتت مشاهد الكفاح فى أسطورة البطولة ، فى المباراة بين سنتورس Centaurs ولاپنس Lapiths . وعلى النقيض من المناظر المصورة على المعبد من الخارج ، كان الانريز الذى يربط الحائط الخارجى للناوس cella يحمل رسوما بالنفس البارز الوطنى عن الحياة التى تتصل بالمدينة ، لأثينا المعاصرة ، الركب الدينى فى عيد الجامعة الأثينية ورجالا فى المركبات وعلى متون الخيل والأغنام والماشية تقاد للتضحية وحكام المدينة والموسيقيين والفتيات اللواتى يحملن الرداء المنسوج المقدس ، قربانا لأثينا وهى تجلس بين الهة الاولمب . والشكل الأوسط فى المجموعة ، تمثال أثينا الهائل الذى صنعه فيدياس من الذهب والعاج ، أتى عليه البلى . ولكن الأشكال المصنوعة من المرمر فى متحفنا الوطنى ، تكشف للرجل الانجليزى المعاصر أكثر من أية آثار تذكارية أخرى من العصور القديمة عن صفات النشاط والاسترواح والمثل الأعلى الرقيق والجمال الرزين ، التى تميز بها الفن فى عصر بركليس (٢) .

٩ - وفى مجال الأدب ، فلاثينا القرن الخامس الذكر الباقي لخلق شكلين من التعبير ، جديدين ، الفاجعة (الدراما) فى الشعر والتاريخ فى النثر .

(١) أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٤٠١ (ترجمة ديفس Davies وفوغن Vaughan) لاحظ تعرف أفلاطون أهمية ما دون الشعور .

(٢) يجب ألا يغرب عن البال أن خارج المعبد وكذلك الأشكال المنحوتة كانا ملونين .

ان الحافز على تمثيل الشخصيات تمثيلا فاجعيا يشترك فيه كل بنى الانسان فى الواقع لانه كما المع أرسططاليس فى « نقد الشعر » تتأصل عادة المحاكاة والبهجة فى انتاجها فى طبيعة البشر ^(١) . ولكن توجد هوة واسعة بين ارتجالات الاغريق الاوائل والسلالات الاخرى ، التى تظهر فيها الغلطة وامثال تلك النماذج العليا التامة من الفن الدرامى كالمأساة والمسلاة فى اثينا فى عهد بركليس . واحصاء وتفسير هذا الكنز الزاخر من الادب الفاجعى يقعان خارج نطاق هذا السفر ويكفى أن نشير الى عدة خصائص مميزة تكون المعرفة بها مطلبا لدراسة الروايات عينها دراسة فطنة ^(٢) . والقارىء فى زمننا عندما يراوده التفكير فى الفاجعة ، فانه يفكر فى شكسبير ، بما لا معدى عنه ، ولكن الرواية الاغريقية كانت تختلف اختلافا بينا فى الجو وفي التركيب جميعا عن الطراز الشكسبيرى ويرجع بعض الاختلاف ، الى الاحوال التاريخية التى ظهرت فيها الفاجعة الانيكية الى حيز الوجود ^(٣) . فعلى سبيل المثال ، كان يؤلف المأساة والمسلاة شعراء مختلفون وكانتا تمثلان فى أعياد مختلفة ، الواحدة تعالج الموضوعات المنالية والاخرى تصور طبيعة الانسان فى مستوى اوطى من المستوى العادى وكانت تنير الضحك بالسخرية من نقائص

(١) أرسططاليس « نقد الشعر » ، فصل ٤ ، توضح هذه العجالة كيف أن الاغريق ، فى الشعر كما فى غيره من الميادين ، لم ينتجوا النواليف وحسب ولكنهم كانوا يصلون بالتفكير الى نظرية انتاجها والقسم الموجود بين أيدينا من « نقد الشعر » يعالج فى معظمه المأساة ، وقد فعد الكتاب الناسى الذى يعالج المسلاة . ويشير أرسنططاليس (١٤٤٩ ا ١٠) الى أن المأساة والمسلاة كليهما ، ترجعان الى الارتجال .

(٢) عن الآراء فى الترجمات الانجليزية ، راجع فهرس المراجع .

(٣) ان الفارق بين الفاجعة الشكسبيرية والهلمينية كان مرجعه أصلا الى الاحساس بالنظام والقاعدة وهو من خصائص العقل الاغريقى . وقد وضع الفرنسيون ، بعد ذلك ، التقليد فى صوغ قانونى فى مبدأ توحيدات الفاجعة (توحيد المكان والزمان والعمل ، الثلاثة فوائين للدراما الاتباعية) (الكلاسيكية) - المترجم) وهو ما لم يضعه الاغريق مطلقا ولم يكن له الا اليسير من الأثر فى هذه البلاد حيث قام شكسبير بعمله ، دونه . « وكان للتوحدات أثر فى فرنسا لأن الفاجعة الفرنسية كانت قد برهنت على أنها ليست حد فعالة دونها . ولقد وضع شكسبير ، دون أن يسير عليها ، نماذج مسرحية عجيبة من ابتكاره وبلغ بعضها الكمال فى الصوغ والتماثل » . (و . ب . ك . W. P. Ker عن « المنل الأعلى لعالم الآداب القديمة - مواضع ودراسات لأعضاء الجمعية الانجليزية » المجلد السادس) .

البشر^(١) . وكانا يختلفان فى ظروف أصلهما . فقد قامت المأساة (تراجيديا = tragos = عنزة) من الترانيم التى كان يغنيها جوق يرتدى جلود المعز ، بين الدوريين فى بلوبونيسيا الشمالية بينما درجت المسلاة فى صقلية وكانت نشأتها فى المجون الذى لا ضابط له ، لمقيمى الولائم الصاخبة (Komos = عصابة من الماجنين) الذين كانوا ينعمشون مواكبهم فى فصول الحصاد وجنى الكرم بقذف شخصيات من رفاقهم من أجلاف المهرجين بين الحسد الذى يحلق حولهم . ومما يسترعى الانتباه الخاص ثلاث خصائص أخرى تبرز من خلال تاريخ الفاجعة الاتيكية . (١) فى « الحوادث » الفاجعية أو الفصول وفى القصائد الغنائية المذهبية التى كانت تغنى فى الفترات التى تقع خلال التمثيل ، نجد الاتجاهين الأساسيين فى الشعر الهلينى الباكر ، وهما يتألفان فى وحدة أعظم ، الملحمة والقصيدة الغنائية . انه وجود هذا العنصر الأخير بما يصحبه من موسيقى ورفض حتى ان الفنون الثلاثة تكون


(١) انظر أرسنتطاليس « بعد الشعر » فصل ٢ ، ٢ ويصل ٥ ، ٥ ويجب أن يلاحظ أن أرسنتطاليس ينجأهل الفاجعة التى تكون واقعية تماما . وفى ختام « بدوه الفلاسفة » لافلاطون (٢٢٣) بـصور سقراط وهو يقيم الدليل على أن شاعر المأساة يجب أن يكون أيضا شاعر المسلاة . وفى مقدمة Samson Agonistes يتحدث ملون عن « خطأ الشاعر فى مزج مواد المسلاة بحزن واكتئاب المأساة » . ومن الجبهه الأخرى ، يقول شلى فى « الدفاع عن الشعر » الذى صنعه ، ان « ما جرت عليه العادة الحديثة من خلط المسلاة بالمأساه ولو أنه عرصة لأن يساء استخدامه اساءة عظيمة من حيث مراسته ، هو دون ريب بوسيع للمجال الفاجعى » واضرب مثلا بالملك لير King Lear وتعريف أرسنتطاليس ، النهير ، للمأساة ، فى « بعد الشعر » فصل ٦ - ١٤٤٩ ب ، ٢٤ وما يتلوها هو ما يأتى : « المأساة هى محاكاة عمل يتسم بالجد وكذلك بما له من عظم ، يكون كاملا فى ذاته : وفى لغة لها أدوات ميسورة التناول ، فان كل صنف بوضع على حدة فى أجزاء النوليف ، فى صيغة فاجعية وليست قصصية بوفائع نبر الاشفاق والرهبه وبذلك يحقق التطهير catharsis لأمال هذه العواطف » (ترجمة بابوتر Bywater) وتشير الشطرة النانية الى مزج الأغنية المذهبية بالموسيقى والرقص وكلمة « جد » والاشارة الى الاشفاق ، والرهبه ، هو ما يفرق بين المأساة والمسلاة ولفظ Catharsis ، تعبير طبي معناه « التطهير » . ويناقش بابوتر تفسيرات التعبير المختلفة فى تذكرات النص فى طبيعته « نقد الشعر » . ان العواطف تطرد كأنها بمطهر عن طريق نفس اثارها فى الفاجعة - وعلى حد قول ملتون فان المتفرج « يصرف ، يغمره السلام والعزاء وسكينة العقل وقد زال كل انفعال » (ختام سطور Samson Agonistes) .

انتاجا واحدا من الجمال الفني تكون فيه كلمات الأغنية العامل الحاسم ، هو الذى يظهر لنا عند أول تعرفه أنه غير مألوف ^(١) . وكانت الترنيمة المذهبية فى ذلك الحين أو dithyramb - النواة الأصلية للفاجعة . وقد فصل على التدرج عنصر القصص وتحول أولا ، الى شكل فواصل ينطق بها قائد الجوق بين أجزاء الترنيمة ثم الى اشراك مجيب hypocrites أو ممثل يتحدث من مسرح (وهنا نجد بداية الديالوج والتمثيل) ثم الى اضافة ممثل ثان وأخيرا ممثل ثالث . وبهذا تدرج العامل الفاجعى صعودا على حساب عامل الشعر الغنائى الى أن أصبح دور الجوق ، وهو الغالب فى الأصل ، يخضع خضوعا تاما للديالوج والتمثيل ^(٢) . وفى هذا ، وفى اختيار المدار بما يغلب أن يكون عاما ، من قصص البطولة ، نرى تأثير شعر الملحمة . لقد بين أرسططاليس الذى كان شغوفًا بتقصي أثر السوابق لما جاء بعد ذلك من أشكال أن « كل أجزاء الملحمة تضمها المأساة ولكن أجزاء المأساة لا توجد كلها فى الملحمة » ^(٣) . وبهذا نمازجت الطرز الأولى من شعر الملحمة والشعر الغنائى ، وكذلك الموسيقى والرقص وانضوت تحت شكل التمثيل الفاجعى فى هذا الخلق المتفوق ، للبيقرية الشعرية الاغريقية ^(٤) .

(١) راجع أفلاطون « الجمهورية » ٣ ، ٣٩٨ لقد سار من الموسيقى وفن الرقص فى تطورهما ، فى اليونان ، تربطهما آصرة وثيقة بالشعر الغنائى الذى كان الغرض منه دائما أن يغنى بمصاحبة الموسيقى والرقص .

(٢) تبين « الفتيات المتوسلات » لأسخولس وربما كانت أقدم فاجعة اغريقية باقية الى الآن ، أن « الجوق » ما يزال له السيادة ، والتجديد الحاسم كان اشراك الممثل الثانى ، وهو يرتبط باسخولس الذى استخدم تالنا بعد ذلك . ولم يكن يوجد اطلاقا أكثر من ثلاثة ممثلين لهم أدوار يدور فيها حديث ، يشركون خلال فاجعة اغريقية ولو أنه قد يظهر ممثل واحد فى أجزاء مختلفة من مشاهد مختلفة . وأقوال الرسل التى تجيء كثيرا فى روايات المأساة الاغريقية تعيد الى الذاكرة الفواصل القصصية ، التى كانت فى عهد أسبق .

(٣) « نقد الشعر » فصول ٥ و ٢٦ وازن الفصول ٤ و ٢٣ و ٢٤ .

(٤) ان التمثيلية كلها كانت شعرا واستخدمت أوزان الشعر الغنائى فى الأغانى المذهبية والوزن iambic القدم الذى يكون فيه النبر على المقطع الثانى ( هو القدم iambic) الذى لا تصحبه موسيقى ،

ويتكون من ستة أقدام («أعظم الأوزان قابلية للنطق» كما يقول أرسططاليس) فى الديالوج والأحاديث . ويوضح كولريدج Coleridge وزن iambic بالعبارة « الأوزان iambic تسير من القصير الى الطويل » ويقول السيد =

(٢) وكانت الأحوال الخارجية التي أنتجت فيها الروايات لها تأثير على خصائصها . لأنها ، لسبب ، كانت تمثل في الهواء الطلق في مسرح نحت في منحدر الأكروبول على مقربة من معبد ديونوسيوس وكان يشهدها حشد عظيم من المتفرجين ربما يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفا يجلسون في منحنيات متحدة المركز ، ترتفع فوق الفرقة الموسيقية والمسرح اللذين كان موضعهما في القاعدة^(١) . وقد جعل هذا من الضروري استخدام الوسائل الاصطناعية لمساعدة النظر والسمع ، والأحذية ذات النعال العالية لرفع قامة الممثل والتحشية والأقنعة التي ترمز للدور الذي يمثل ، وقد ركبت فيها أنابيب للتحدث ، لمعاونة الصوت حتى يصل إلى أقصى مداه . ولقد عظمت هذه الأدوات ، بالضرورة ، الصفة التقليدية للفاجعة الاغريقية التي كانت تمثل الأنواع في أشخاص الأفراد . ومع هذا فقد نجح واضعو الفاجعة والممثلون الاغريق باتقانهم الصنعة ، في التغلب إلى حد كبير ، على هذه الحوائل . ويمكننا أن نتتبع نمو وضع خصائص الفرد ونحن نسير من أسخولس إلى سفوكلس ومن سفوكلس إلى يوريبيدس . ولكن حتى في آخر تطور لها ، كانت الفاجعة الاغريقية أبسط ، إلى حد بعيد ، في مدارها وتكوينها ، من الفاجعة في أوروبا الحديثة^(٢) . (٣) وكان شعراء الفاجعة ، كالرياضيين في الألعاب ، يضاؤل الواحد الآخر ، للظفر بجائزة . وعندما نذكر أن كل متسابق كان يقدم أربع روايات تمثيلية في احتفال واحد وأن المباريات كانت كثيرة وتقع مرارا عديدة ، فيمكننا أن نقدر وفرة الخلق الفاجعي في أثنينا القرن الخامس . وليست الروايات التمثيلية الباقية لدينا وهي سبع فاجعات لأسخولس وسبع لسفوكلس وثمانى عشرة ليوريبيدس ، واحد عشر مسلاة لأرستوفانس ، إلا جزءا يسيرا من مجموع المؤلفات الدرامية التي أنتجها هؤلاء وشعراء غيرهم من ذلك العصر ، كثيرون . وكان لغشيان هذه الاحتفالات المسنمر والدربة التي اكتسبت فيها على الحكم بالجوائز ما أتى ، في زمن كانت فيه الكتب نادرة ، بتأثير تعليمي له قيمة خارقة العادة ، على الجمهور

= فرنون رندال Mr. Vernon Rendall « ان المقادير الانجليزية قلما تكون واضحة ، ولكن قد تكون أكثر وضوحا في الكلمات الأجنبية التي أدخلت إلى اللغة الانجليزية مثل a rose, acanthus, asphodel, Chrysanthemum (iambic - مكونة من I à m - النبر فيها على المقطع الثاني - المترجم)

(١) وعلى هذا كانت التمثيليات منظورة و (بفضل الوسائل التي أشير إليها في النص) كانت مسموعة لحشد عظيم كالذي يجتمع في زمننا لمشاهدة مناظرة تجريبية أو مباراة دولية في كرة القدم .

(٢) على سبيل المثال ، كان يوجد مجال أقل إلى مدى بعيد ، من الفاجعة

الحديثة ، للمدار القرعى .

الأتيني . ونعلم من توكيد أفلاطون لأهمية مقاييس الانشياء الفاجعى ،
الحقة ، من الوجهة الخلقية على تدريب الاحداث ماكان لتعليم الشعراء من أثر
عميق على عقول المستمعين ^(١) . وكما فى السياسة ، كذلك فى الأدب ،
لابد أن المواطن الأتيني كان فى جميع الأحوال ، حكما صادقا ، لما له قيمة
جمالية ، ان لم يكن المبتكر له .

١٠ - ويشير الشاعر شلى فى عجالة ، سبى لنا أن اقربسنا منها ،
الى الفاجعة الأتينية قائلا انه « مما لا نزاع فيه أن الفن نفسه لم يفهم قط
أو ينتهج وفق فلسفته الحقيقية ، كما فى أثينا » . وبعد أن وكد الحصلة
العقلية للفن الهليني ، كما سميناها آنفا ، يضيف : « لأن الأتنيين استخدموا
اللغة والتمثيل والموسيقى والتصوير والرقص والمنظمات الدينية لكى
يتنجوا تأثيرا عاما فى تمثيل المثل الأعلى فى ذروته ، للعاطفة والقوة ، وكل
قسم فى الفن وصل به فنانون وانتهم مهارة فى أبعد حدها ، الى مرتبة
الكمال فى نوعه وفوم فى تناسب جميل ووحدة ، الواحد تجاه الآخر .
وعلى المسرح الحديث ، لا يستخدم الا القليل فقط من العناصر القادرة على
التعبير عن شكل تصور الشاعر ، فى آن واحد . ان لدينا المأساة دون
موسيقى ورقص وموسيقى ورقص دون أعلى تمثيل للشخصيات وهو ما يليق
أن تصاحبها ، وكلاهما دون دين ووفار . لقد أصبح من المعتاد ابعاد التعليم
الدينى عن المسرح ، فى الواقع » ^(٢) . انه هذا الترابط الوثيق بالعرف
الدينى ، هو الذى تتألف منه أعظم خصائص الفاجعة الأتينية ظهورا . وكان
يحتفل بأعياد « الفاجعة » تكريما لاله الطبيعة ديونوسيوس وقد عقدت
رياستها لكاهن ديونوسيوس على مقربة من معبده بمصاحبة المراسم
الدينية ^(٣) . وفى وسط الأوركسترا orchestra أو حلبة الرقص ،
كان يقوم « حراب الاله » . ولقد كان شهودها واجبا من واجبات الفن مفروضا
على كل مواطن صالح . وكجزء لا يتجزأ من عبادة دولة - المدينة ، فان الأعياد
كان يعهد بها ، بصفة مباشرة ، الى الحكام المدنيين . وتقديم الروايات
التمثيلية نفسها الأمثلة العديدة عن الشعور بحب الوطن الذى يجيش فى

(١) أفلاطون ، الجمهورية : ٢ و ٣ .

(٢) شلى « دفاع عن الشعر » .

(٣) ليكن معلوما أن المأساة والمسلاة كليهما تنتميان فى الأصل الى
ديونوسيوس أى الى دين التأله المتميز عن الدين الأولمبى . وفى القرن الخامس ،
فان أبولو وهو الاله الأولمبى المثالى ، وليس فى خدمته تأله ولكن معرفة
بالذات خالصة - يأتى فى الفاجعة بما يليق له ويتركز دين سفيوكلس حول

أبولو . انظر ولاوتز - مولندورف Wilamowitz-Moellendorff

محاضرة عن أبولو (اكسفورد - مطبعة كلارندن ١٩٠٨) .

نفس الشاعر . وكان مدار الرواية - على الأقل في المأساة - يستمد في المعتاد ، من قصص الآلهة والبطال التقليدية ويمكن أن يستدل على مدى وتنوع هذه المادة من الحقيقة الواقعة وهي أن أكثر من مائتين من مختلف الموضوعات، على ما هو معروف ، عالجها واضعو الفاجعة في القرن الخامس . وعلى هذا ، كانت الفاجعة الاغريقية تدور حول مواقف متتالية وحوادث كانت - على الرغم من الحرية التي كان يسمح بها للشاعر في معالجة الشخصيات والوقائع المفصلة - مألوفة تماما للمستمعين الذين كانوا يعتقدون أنها وقعت فعلا في أزمنة البطولة ، المواضي . ومن هذا كله ، قام في عقل الجمهور الأثيني ترابط وثيق بين شعر الفاجعة وتعاليم الحقائق الخلقية والصلاح . ويقوم الدليل على أن الأمر كان كذلك حتى في المسألة من دعوى أرسطوفانس بأن شاعر الفاجعة كان المعلم الخلقى للمواطن البالغ ^(١) . ولكن كان الثلاثة العظام من واضعي المأساة ، أسخولس (٥٢٥ - ٤٥٦) وسفوكلس (٤٩٦ - ٤٠٦) ويوريبيدس (٤٨٠ - ٤٠٦) هم الذين أودعوا في تقاليد الاغريق الدينية معنى روحيا جديدا . وسعى أسخولس في لغة أوحى مرارا بأنها تتماثل مع نصوص جاءت في النبوة العبرية لكي « يبرر طرق الله للناس » وأن يفسر سيادة زيوس الفديرة حتى يمكن أن يجعل البر الإلهي على توافق مع حقائق الألم والخطيئة ، وأن يلائم بين قوانين الجبرية والفدرية التي لا لسان فيها وحرية الإرادة البشرية ^(٢) . وفي سفوكلس تمثل المراسيم الإلهية بأنها تعمل عن طريق خليفة الانسان ، الوسيط الخفي ، والحيد دون نعقل والعمل الأحق الذي يكون وليد العناية والجهل ، يستنزلان القضاء غير المتوقع على طبيعة هي ، دون هذا ، نبيلة ^(٣) . وكان الشاعر على دين أبولو ، اله

(١) أرسطوفانس « الضفادع » ٢ ، ١٠٠٩ و ١٠٥٥ وازن ٦٨٦ : « انه جد خليف بالجوق المقدس أن يقدم النصيح ويعلم المدينة ما هو صالح » وفي ١٥٠٠ وما بعدها ، حيث يدعو Plutus أسخولس بأن ينقذ دولة - المدينة الأثينية بالنصائح الحسنة . وفي الجوق السابق (١٤٨٢ وما بعدها) يبين في وضوح النقيض بين حكمته ومهاترة سقراط التي لا طائل تحتها ويدور كل المشهد الختامي (١٤١٨ وما بعدها) حول وظيفة شاعر المأساة في المحافظة على الدولة .

(٢) راجع على الأخص برومثيوس المقيّد Prometheus Bound وربما كان يظهر الملحق ، برومثيوس الطليق Prometheus Freed زيوس وقد روضه الألم على الشعور الانساني .

(٣) هكذا كان مصير أوديب Oedipus في « أوديب ملك » راجع أرسطط « نقد الشعر » فصل ١٣ ومأساتان (تراجيديتان) شبيهتان نجمتا عن الخطأ في الحكم والنوازع العمياء تكونان موضوع عطيل Othello والملك =

الظاهرة والنور ، بكلمة النداء التي تضمنها « اعرف نفسك » ومثله الأعلى لقواعد السلوك السفسرونية Sôphrosyné وهي تتعارض مع تأكيد الذات وكبرياء الحياة (هبرس Hubris) وفي جد خلقى معادل ، ولو أنه يعبر عن مذهب الشكاك الدينى الذى يتناقض مع التقى المحافظ فى سالفه ، مزق يوريبيدس ، قناع التبجيل الذى كان يخفى أفعال وخصال الآلهة عن التحليل النقدى ، وفى واقعية لا هوادة فيها ، أظهرها للعيان كما كانت فى الواقع . ويخال أنه يقول : انكم تطلبون الحقيقة وها أنا ذا أعطيها لكم ، إذا كانت هذه الأمور ، كما تعتقدون ، حدثت فعلا فان الآلهة الذين ارتكبوها لم يكونوا صالحين ولكنهم كانوا أشرارا ، وليسوا آلهة مثاليين ولكن قساة ينزءون الى الانتقام وفيهم شر عواطف النوع الانسانى . لقد كانت صورة مزعجة ، تلك التى رسمها ، تعبر عن المزاج الذى تغير فى عصر عقلى المذهب وكان يوريبيدس كذلك جادا الى غور عميق فى هذا التحليل الذى لا رحمة فيه للعقيدة الصادقة ، ونى عزمته التى لا يعثر بها وهن ، لأن يرى الحق ، وأن يواجه حقائق الحياة . وفوق كل شيء فى اشفاقه على الضعيف والمنكوب ، على النساء والأطفال والأُسرى والعبيد وعلى جميع الضحايا الذين لا عد لهم ، لجور الانسان والقانون الطبيعى (١) . وكان قد وافى الزمن عندما كانت القوى خارقة الطبيعة لعقيدة اسبق ، تخلى السبيل لقوى الطبيعة ، أمام العقول المفكرة . ولكن بمجرد أن أصبح هذا جليا ، فان مهنة الشاعر ، كمعلم للمعرفة صار مقضيا عليها وتطلع الناس الى العلم ، وليس الى الشعر ، للمهذبة فى البحث عن الحق .

= لير King Lear وعن دهاء الخليفة ، راجع فلوكيتيس Philoctetes ويبين مصير دينرا فى طراخنيا Trachiniae ، جيدا كيف أن الأمل والخوف يتحدان فيعميان حكم امرأة ضعيفة ويستغويانها الى موارد الهلك - راجع عليه فصل ٦ ، ١٢ .

(١) توضح هبوليتس Hippolytus هذه النقاط . ومن الناحية الأخرى ، تبين أنه كان فى قدرة يوريبيدس أن يندمج فى روح ديانة ديونوسوس . وكلما كان القرن يتقدم فى مداه ، كانت تؤخذ قصص الآلهة فى حد أقل ، وبينما كان الجمهور الأثينى المثقف يسير وفق عبادات دولة المدينة فانه كان متشككا فى صراحة . ويمكننا أن نتبع فى صور الأوانى ، فى ذلك الزمن تحول الاهتمام من الموضوعات الدينية الى مسائل الصنعة فى تجميع الأشكال وانجازها . وهكذا كانت الحال فى فن عصر النهضة فان الدافع التعبدى يخلى السبيل أمام الدوافع الجمالية الخالصة ، فى معالجة صور العذراء Madonna

١١ - وكانت « المأساة » قد وطدت لنفسها مكانا فى أثينا قبل الحروب الفارسية . ولكن كانت تلك الأزمة وما أعقبها من توسع الحياة العامة الاثينية هما اللذان أوجدا الحافز فى سبيل تقدمها . ان كل واحد من واضعى « المأساة » ، الثلاثة العظام يمثل أحد العصور الثلاثة التى ينقسم اليها تاريخ أثينا القرن الخامس ، بطبيعة الحال . كان أسخولس فد حارب فى مراثون وفى مصنعه « الفرس » وضع فى صيغة الفاجعة الانتصار البحرى فى سلاميس . وفن سفيوكليس هو التعبير الذى وصل الى مرتبة الكمال لمناسبة عصر بركليس . ويعبر يوريبديدس ، كما لاحظنا ، عن الفلق العفلى الذى يبسط رواقه فوق أثينا فى سنى الحرب البلو بونيزية . ولكن فى المسلاة الاثينية نجد أعظم آصرة مباشرة بين الفاجعة والحياة المدنية الاثينية . وكان أرسطوفانس ، كمعظم شعراء المسلاة ، محافظا أضفى المثل الأعلى على الديموقراطية المعتدلة فى زمن الحروب الفارسية . ولما كان ذا منحى شخصى وفيه مجانة رابلية Rabelais لدرجة لا يمكن تصورها فى أحوال الحياة الحديثة فانه هال التهكم ، فى رواياته التمثيلية ، على الاتجاهات الجديدة فى الشعر والفلسفة والسياسة ، التى قامت فى النلت الأخير من القرن ^(١) . وفى الفرسان (٤٢٤) كان همداس لسخريته كليون Cleon السياسى الديموقراطى وفى « الدبابير » (٤٢٢) المحلفون فى محاكم القانون الشعبية وفى « العصافير » (٤١٤) أحلام الامبراطورية الجامحة التى أدت الى الكارثة الصقلية وفى « الضفادع » (٤٠٦) فن يوريبديدس الحديث ، وهو الذى يمثل فى « المأساة » الثقافة الجديدة وفى « السحب » (٤٢٥) آراء وتعليل سقراط وفى لبسستراتا Lysistrata (٤١١) و « السيدات فى البرلمان » (٣٩٢) مطالب النساء فى أن يسهموا فى الحياة العامة للمدينة ، المطالب التى نادى بها الكلبيون من أتباع سقراط وبعد ذلك أفلاطون فى « جمهوريه » ^(٢) . ان لأغانيه العاطفية التى تتناثر فى رواياته التمثيلية جمالا خارق العادة . ومن مظاهر « الكوميديا القديمة » التى أتاحت للشاعر فرصة خاصة للتهكم الشخصى كانت « براباسس Parabasis » وهى بقية من احتفالات القرية الصاخبة ، القديمة ، وفيها كان الجوق يستدير فى وسط الرواية التمثيلية ويخاطب الحاضرين بأغنية فيها مساس بأشخاص أو بموضوعات اليوم . ولقد أوقع سقوط أثينا وانهيار سياستها الديموقراطية ، الضربة القاضية على مثل هذا النقد السياسى

(١) كانت لغلظة « الكوميديا القديمة » مغزى تعبدى ، ومن الضرورى أن نتذكر هنا كما فى كل مكان فى الفاجعة ، علاقتها الوثيقة بالعبادات الدينية .
(٢) راجع « الجمهورية » الفصل الخامس . العنوان الاغريقى لرواية أرسطوفانس التمثيلية هو Ecclesiazousai ومعناه الحرفى « أعضاء الجمعية الشعبية » ، ecclesia من الاناث .

الصريح . والحال مع الشعوب كالحال مع الأفراد في أنهم يستطيعون فقط الاستمتاع بالسخرية طالما كان وعيهم بالأمان باقيا لا يتزعزع . وفي ساعة القوة ، كان الأثينيون يحبذون حق كل مواطن في الإفصاح عن دخيلة عقله دون أن تقيده قوانين القذف . وقد عبر عن حرية الكلام هذه التي اختصوا بها ، أصرح تعبير في « الكوميديا القديمة » . ومن الجهة الأخرى فإنه بقيام القرن الرابع ، كفت المسلاة عن أن تكون شخصية أو تعنى بالسياسة وكانت « الكوميديا الجديدة » كوميديا أخلاق تصور طرزا من الحياة الاجتماعية في مناهج اتباعها الرومانيان فلاوطس Plautus وطرنس Terence وفي الأزمنة الحديثة موليير Molière وواضعو الفاجعة الانجليز في عصر الإصلاح . وقد شاهد نفس العصر تدهور المأساة . ولكن أعمال واضعي الفاجعة في القرن الخامس تظل مع نحت فيدياس من عداد جلائل الأعمال التي بلغت الذروة التي قامت بها العبقرية الهلينية في مجال الخلق الجمالي . وفي عبارة شاعر معاصر وهو يجيل الفكر في تمثال زيوس الهائل الذي صنعه فيدياس من ذهب وفضة لمعبد الومبيا وفي المأساة التي صور فيها أمسخولس المارد الجبار الذي وهب الناس النار ولغنون وقد صفده بالأغلال ، « على القوقاز المغطى بالصقيع » ، طغيان الاله ذاته ، القلق .

قضى الاله العظيم المصنوع من ذهب وعاج ، عندما سقط الندي عشية أمس أن رغام الأرض أو زبد المحيط رمز رأسه .
والأرض والمحيط سيكونان ظلالا ، عندما يحين حين بروميشيوس (١) .

١٢ - لقد كان موطن أدب النثر الاغريقي ايونيا حيث تطور الى صورتين ، الفلسفة والتاريخ (٢) . وقد سبق أن تحدثنا عن الفلاسفة الايونيين الأوائل . كان اناكسيماندر أول من عرف أنه صنف كتابا . وكان

(١) سوينبرن Swinburne « أثينا » و « الفاجعة » المشار اليها هي بالطبع « بروميشيوس المقيّد » . ولا يغيب عن القارىء تأثير نماذج وقوانين الانشاء التي قدمها واضعو الفاجعة الاغريقية وأرستطاليس في « نقد الشعر » على الأدب الفاجعي الاوربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو تأثير كانت نتيجته ، من وجوه عدة ، أشكالا صورية مصطنعة . وتوضح « فاجعات » كلدرن Calderon وكورنى Corneille وراسين Racine وفولتير Voltaire هذا التأثير في مستويات من الجودة متباينات . ويمكن أن يشار في هذه المناسبة الى Samson Agonistes للمثلون و Iphigenie لجوته . ولكن « بروميشيوس الطليق » Prometheus Unbound لشلي تمثل روح الفاجعة الاغريقية تمثيلا أبعد من هذا بكثير في قدرته .

(٢) كذلك كان الحديث المنظوم في الفاجعة وكان الوزن Iambic من

أصل ايووني .

أدب اليونان الغربية شعرا حتى شوط بعيد في القرن الخامس عندما أدت دراسات جورجياس الصقلي الفصاحية الى تطورات هامة في كتابة النثر ولو أن فارمنيدس وأنبادقليس كانا قد أوضحا فلسفتهما نظما . وكان أول مؤرخ نقدي ، هقطايوس Hecataeus من أهل مليطوس وكان له دور بارز في الثورة الايونية ضد الفرس . وتبين كلمات كتابه الافتتاحية ، المحفوظة في جذادة أنه ضرب على نغمة علمية جديدة بالموازنة بتواريخ البلدان ، الاخبارية في جيل أسبق . « يتحدث هقطايوس المليطوسي ، اني اكتب كما ارى أنه صدق لأن تقاليد الاغريق تخال لي أنها متعددة ، ومضحكة » (١) . لقد خلق الاغريق التاريخ ، كما خلقوا الفاجعة ، اذ كانوا أول من فهم كنه حقيقتها الجوهريتين ، التفرقة التي لم يدركها قط في وضوح مؤرخو الجوليات الشرقيون بين الواقع والخرافة والحاجة الى تفسير للحقائق المدونة يقوم على الاستدلال العقلي (٢) . والقول أنهم قذفوا بشخصيتهم في كتابتهم ودونوا انطباعاتهم وأحكامهم هو طريقة أخرى فقط لذكر الدعوى نفسها . لقد كان التاريخ العبري لا ينسب الى اسم بعينه ، انه كان نتاج جماعة . وحتى الأنبياء يضعون التمهيد لرسالتهم ليس بالعبارة « هكذا يقول أشعيا بن عاموس » ولكن « هكذا يقول الرب » . لقد كان المؤرخ الاغريقي كالفيلسوف الاغريقي يتكلم كل منهما باسمه الخاص . « هذا هو عرض لبحث هيرودوتس الهلقرناسسي Halicarnassus و « كتب ثقوديدس الاثيني عن حرب البلوبونيزيين والاثينيين » . ولقد فعلوا ذلك عن صدواب لأن التاريخ والفلسفة على السواء ، يعبران عن نقد المفكر الفرد نقدا تأمليا لحقائق الحياة . ولقد وصل الينا مؤلفان تاريخيان عظيمان من القرن الخامس وكلاهما يرتبط ارتباطا وثيقا بأثينا في عصر بركليس . ان هيرودوتس اتخذ موطنه هناك أعواما

(١) مري Murray - « الأدب الاغريقي القديم » .

(٢) وعلى هذا فان الساميين ، على الرغم من كل احساسهم بالمغزى الديني للحوادث التاريخية ، لم يتركوا تاريخا جديرا بهذا الاسم . والأسفار التاريخية في العهد القديم ، على سبيل المثال ، ليست الا مجرد تاريخ اخباري ، التعبير عن حكم جماعي وليس فرديا . وكان الاغريق أول من أقاموا الحكم على الماضي بالاستدلال العقلي . وكان مدلول كلمة historié في الأصل واسع النطاق - كان معناها « البحث » وكانت تنسحب على جميع البحوث في مسائل الواقع ، والتاريخ الطبيعي والجغرافيا وعلم الانسان (انثروبولوجي) وكذلك التاريخ السياسي . ولقد نبئنا أن مؤرخا اغريقيا من القرن الرابع (افورس Ephorus) وجه اللوم في صراحة لادخال الأسطورة (mythos) في التاريخ

قبل أن يلحق بمستعمرة بركليس فى ثورى Thuri فى إيطاليا الجنوبية ، وكان تقوديدس أثينى المولد وتشبع فى حدائته بتقاليد سياسة بركليس العظيمة . وكان هيرودوتس رحالة نافذ البصيرة وزار مصر وفينيقيا وبابل وسواحل الأكسين وكذلك كل أرجاء العالم الهلينى ونزعته المتحمسة للاستطلاع والرغبة فى فهم ما يسمعه ويراه « الأعمال العجيبة التى قام بها الاغريق والهمج وخاصة لتذكر الاسباب التى لأجلها شن هؤلاء الحرب » الواحد على الآخر ، مما يجعله على الراجح أعظم من توفرت فيه الخصائص الاغريقية من بين جميع الكتاب الاغريق ^(١) . وفى السياسة الهلينية تجيش فيه عواطف قوية نحو أثينا والحكومة الديموقراطية . انه مرارا وتكرارا يظهر المساواة فى القوانين وحرية القول ضد دعاوى الطغيان ^(٢) . وفى منهاج العقل ، له صفات النوع لجيل كان يتأرجح على خط الحد بين التصديق والتشكك . انه يوشك على الدوام أن ينبئنا بأن تقاليد شعبه الدينية حكايات عجائز ولكنه لا يستطيع قط أن يوطن نفسه تماما على أن يقول ذلك . وهو يرى الى ما وراء كل الطبيعة وتاريخ البشر ، يد اله خفى « اله يشكل مصائرنا ، وينحتها فى أول صورة ، لما سنكون » . ولقد ظفر ، بعدالة ، باسم « أبى التاريخ » ليس لمجرد أن تاريخه هو أول تاريخ موجود يفرق بين الحق والخرافة ويسعى الى معرفة أسباب الأمور التى تحدث ولكن أيضا لأنه سعى أولا الى أن ينظم قصته لغرض واحد وهو أن يستعرض قيام فارس والقصاص الذى لحق بها خطيئتها hubris ، باستخدام اليونان أداة لذلك ^(٣) . وكان موضوع

(١) ولد هيرودوتس فى حوالى عام ٤٨٤ فى هلقرناسس فى آسيا الصغرى الجنوبية الغربية وزار أثينا حوالى عام ٤٥٠ واستقر فى ثورى عام ٤٤٣ وكان قاريا Carian فى تبعته ، ايونيا فى ثقافته وأثينيا فى عواطفه وآخر اشارة فى كتابه (٧ فصل ٢٣٣) هى الى الحوادث التى وقعت فى العامين ٤٣١ - ٤٣٠ فى بداية الحرب البلوبونيزية والعبارة المقتبسة جاءت فى الجملة الافتتاحية من الكتاب الأول .

(٢) انظر الفصل ٤ § ٥ تذكرة اعالىه ووازن بالنصوص التى اشير اليها فيه ، ٥ ، ٧٨ و ٩٢ وما بعدها (عن الطغيان فى كورنث كتوضيح لمساوئه) وعن وطنية أثينا الديموقراطية ٧ ، ١٣٨ وما بعدها و ٨ ، ١٤٣ وما بعدها .

(٣) عن خطيئة خشيارشاي راجع ٧ ، ٧ وما بعدها وعن غيرة العناية الربانية وعدم ثبات رخاء البشر ١ ، ٥ ، ٣٠ وما بعدها . والأسفار ١ - ٥ تصل بالتاريخ حتى الثورة الايونية والسفر ٦ حتى انتصار مراثون بينما تسرد الأسفار ٧ ، ٩ قصة غزو خشيارشاي . كان فى تبة هيرودوتس أن يكتب تاريخ حرب التحرير (راجع ٧ ، ٢١٣) ولكنه ترك عمله دون أن

ثقوديدس أكثر تركزا ونظرته للأمور أعظم مراعاة للنهج العلمي ، وكان هدفه تدوين الحرب البلوبونيزية حتى سقوط أثينا عام ٤٠٤^(١) . وبينما يسرد هيروودوتس قصة الخطيئة الفارسية hubris بكل ما لدى فنيان أدب من سماحة واستفاضة مزهوا في بهاء الظفر الرائع ، فإن ثقوديدس سجل قصة أثينا في وقار صارم كثيب تدفعه الرغبة الوحدة في كشف الغطاء عن الحق في واقعه المرير . وبين المؤلفين ، حدث ليس فقط سقوط أثينا ولكن عصر الاستنارة . وفي اللغة وأكثر من ذلك في الفكر ، ينتمي ثقوديدس الى صفوف السفسطائيين . ولما كان يكتب كسياسي لتعليم السياسيين ، فإنه يحلل في دقة أسباب ونتائج الظواهر الخلقية والسياسية^(٢) . ولقد أشرنا الى قصته عن الحملة الصقلية التي دونها في شدة فاجعية لا مثيل لها في الأدب التاريخي لأن ثقوديدس كان يعتقد كما كان يعتقد يوريبيدس أن منهاج الحياة البشرية لا تقرر عوامل خارقة للطبيعة ولكن يقرره القانون الطبيعي . وهو يبدي ضيق تشكك تام في قبول الدعوى بوجود دافع لعمل الانسان لا غرض من وراءه وله كل ايمان رجل ينتهج المذهب العقلي ، بالعقل كمفتاح يكشف أسرار خلائق الرجال ومسلكهم . وأخيرا في الأحاديث التي يزخر بها مؤلفه ، يمكننا أن نتتبع تأثير فن الفصاحة الجديد الذي كان موطنه صقلية

يتمة . ولقد أدمج ثقوديدس خلاصة السنوات ٤٧٨ - ٤٣٢ في السفر : ١ ، ٨٩ - ١١٧ من تاريخه .

(١) لقد كان ثقوديدس منفيا عن أثينا لمدة عشرين عاما نتيجة لفشله كقائد للأسطول لانقاذ أمفيبولس Amphipolis في سنة ٤٢٣ . ولم يكن صديقا للديموقراطيين الذين جاءوا بعد بركليس (مثل كليون Cleon) وكان من أعوان مذهب التحرر المعتدل البركليسي . ولقد عاش بعد سقوط أثينا (٤ ، ١٠٤ - ٧ و ٥ ، ٢٦) ولكن سار بتاريخه فقط حتى عام ٤١١ . وقد استمر اكسنوفن Xenophon في كتابه Hellenica وهو عمل أقل مرتبة من عمل ثقوديدس ، في القصة من هذه المرحلة حتى موقعة منطنيا Mantinea (٣٦٢) .

(٢) راجع على الأخص ، العبارة الافتتاحية (١ : ١ - ٢٢) - قصة الطاعون في أثينا وأثرها الخلقى (٢ : ٤٧ - ٥٤) الدراسة التحليلية للثورات السياسية (٣ : ٨٢ - ٤) عرض القصص الأثينية والطغيان الامبراطوري (١ : ٧٤ - ٨ و ٣٧ : ٣٧ وما بعدها و ٨٣ : ٨٣ وما بعدها وفوق كل هذا الديالوج المبل ٥ : ٨٤ وما بعدها) والمقابلة بين الخليفة والسياسة الأثينيتين والاسباطيتين (١ : ٧٠ ، ٢ : ٣٥ - ٤٦) وكذلك Cornford Thucydides Mythistoricus

ولكن سرعان ما وجد جوا صالحا فى اثينا (١) . وفى الربع الأخير من القرن الخامس ، بدأ يكون له أثر حاسم على النثر الاتيكى . واتخذت الخطابة فى المحاكم والسياسة مكانا معترفا به ، كصورة لفن أدبى . وفى القرن الرابع ، لا نجد المستوى العالى للخطابة الاغريقية فى خطب ديمسثينس فقط ، ولكن فى ديالوجات أفلاطون الفلسفية ، العمل الجليل الذى وصل الى أعظم كمال فى النثر الذى عرفته اليونان والعالم على الإطلاق ، فيما هو راجع .

٣ - السفسطائيون وسقراط

١٣ - لاحظنا أن تاريخ ثقوديدس ، وتراجيديات يوريبندس ، وكوميديات أرسطوفانس على السواء ، فى مختلف طرائقها تحمل طابع الحركات التفكيرية الجديدة ، التى كانت تموج فى العصر البركلىسى ، وكانت نزعة الفكر المتزايدة تتجه نحو مسائل النظرية الخلقية والسلوك . وكان بعض هذا يرجع الى شعور بالاصطدام بالواقع فيما يتصل بالبحوث الطبيعية فى الحقبة السابقة ، وكانت خطوط التفكير المتنوعة قد أنجزت حتى تمامها وأصبح يواجه الناس تيه من النتائج المتضاربة التى يبدو ان التوفيق بينها كان مستحيلا . ولقد قنطوا من الوصول الى اليقين فى مثل هذه المسائل ، وتحولوا الى السعى نحو معرفة لها اتصال مباشر أعظم ، بالحياة العملية . وكذلك غدا للعلم الطبيعى نواحي تخصص أكثر ، وكان المتخصصون يميلون الى استنكار اقتحام الفيلسوف للأمكنة التى هى حرم لهم . وعلى أية حال فإن المشكل الخلقى كان ينادى بأعلى صوت لمعالجته وفقا لمناهج البحث العقلية . ولقد رأينا فى الفصل الأخير ، كيف أن نقدا للمقاييس والمنظمات الخلقية ،

(١) عن خطب ثقوديدس راجع الكلمة الافتتاحية، من وصفه (١ ، ٢٢) وعجالة جب Jebb فى Hellencia . والخطبة الجنازية التى اقتبست عالياً (§ ٥) تكاد لا تكون شيئا غير ، تقرير دقيق لعبارات وحجج بركليسى وربما القيت على مسمع من ثقوديدس نفسه .

ومما يسترعى النظر عند قراءة أعمال المؤرخين الاغريق (والرومان) قربها الوثيق للشعر وخاصة الشعر الفاجعى فى الصيغة والفحوى والغرض . ولقد كانوا يفهمون التاريخ على أنه شيء جد مختلف عما يذهب اليه تصورنا فى القرن العشرين . انه كان فنا وليس علما ولم يكن يدرس قط ، كما تدرس العلوم ، فى الجامعات . فضلا عن هذا ، فانه كان يكتب لتقوية رجال الأعمال . ويبدى كونطليان Quintilian ملاحظا (Inst. Orat. ١٠ ، ١) §§ (٣١ ، ٣٤) : « ان التاريخ يأتلف اثتلافا وثيقا بالشعر ويمكن أن يشبه بقصيدة منشورة وغرضه هو السرد وليس اقامة البرهان وقيمتة الرئيسية هى فى تقديم أمثلة لتعليمنا » .

كان النتيجة المنطقية للجهد الذى يبذل للعثور على جوهر دائم يقع فيما وراء تغيرات الطبيعة المادية . ولقد عمل على تنمية الاهتمام ، الذى استيقظ حديثا ، بالمسائل التى تتصل بقواعد السلوك ، الأحوال الخاصة للحياة العامة فى أثينا الديمقراطية ، والطموح العام لمقياس أعلى ، فى الدين والأخلاق الذى جهد الشعراء ، على تحقيق بغيتهم . وكان العهد من عام ٤٥٠ وما بعده عهد خصب خارق للعادة ، فى النقد وفى الانشاء على السواء ، فى الفكر السياسى والذى يتصل بقواعد السلوك ، وقد مهد هذا كله الى ثورة قوية الاثر فى حياة الاغريق العقلية ، وعن طريق الاغريق فى الحياة البشرية . ولأول مرة فى التاريخ ، سلط نور العقل الصافى على مسألة سلوك الانسان . ولقد كان عصر استنارة كالعصر الذى أطلقت عليه مثل هذه التسمية ، فى أوربا القرن الثامن عشر ، حيث كان فيه فولتير قطب الرحى . وكما أن الاستنارة الحديثة أدت الى فلسفة كانت ، الانشائية العظيمة ، فكذلك مهد العصر الأسبق الطريق لفلسفة أفلاطون . ويمكن أن يعتبر قول فروطغراس : « الانسان مقياس كل الأشياء » دليل ذلك العصر (١) . وقد قام اعتقاد واسع النطاق فى العالم الهلنى مؤداه أنه فى المهن الخاصة وفى الفنون ، على السواء ، وفى فن العيش على وجه عام ، لا سبيل للنجاح بغير اعداد من المعرفة يقوم على الاستدلال العقلى ، وأن الفضيلة (areté) لا تعتمد على القدرة الطبيعية أو على هبات الثراء وحسب ، كما كان يتوهم الناس على وجه عام ، ولكن على عدة من النظريات المكتسبة . وقد قامت الحاجة الى نوع جديد من التعليم تأهب له وقام على تنشئته لفيف من المعلمين النابهين وقد جعل أساتذة الثقافة الجديدة معرفتهم تأخذ وجهتها نحو المراتب على الحرب والموسيقى والزراعة وكذلك التدريب الأكثر تخصصا على الفروسية وفن المسرح والطبخ . وقد وضعوا كتباً للتعليم أطلق عليها techni (فنون)

(١) وقد شرع فروطغراس من أبدا فى طراقية ، الذى ولد حوالى عام ٥٠٠ . وتوفى حوالى عام ٤٣٠ ، لمستعمرة بركليس فى ثورى . وقد طلب الى أحسن عقول فى اليونان القيام بهذا العمل . ولقد وضع تخطيط المدينة هيرودامس من هليطس ، أعظم مهندس معمارى وكان هيرودوتس ، كما ذكرنا آنفا أحد سكان المستعمرة . ومعنى قول فروطغراس ، الذى اقتبس فى النص ، أن حكم أى فرد كان المعيار لما كان مرغوبا فيه أن يفعل أو لا يفعل فى أى موقف عملى . وبعد ذلك طبق المبدأ آخرون لدعم نظرية عن نسبية المعرفة ، أى ، أن أى شيء يدركه الانسان ادراكا حسيا يكون صادقا لديه عندما يدركه . وأن هذا هو الصديق الوحيد الذى يمكن الوصول اليه . راجع ثياططس لافلاطون (Plato's Theaetetus) عن هذا التطور ، ونقدا له على أنه القول الفصل ، كإى شيء فى الفلسفة يكون كذلك .

عن طائفة عظيمة من مثل هذه الموضوعات ، وعلاوة على هذا كله ، فانهم كانوا يعلمون الفصاحة ، فن مخاطبة الجماهير الذي كان لا غنى عنه للأرستقراطي الذي كان يجد نفسه على الدوام مهددا باتهامات أمام المحاكم الشعبية وللشباب الطامح الى مراتب الشرف السياسى فى محكمة القانون وفى الجمعية . ولقد أثر نهوض الفصاحة لا على خاصة الحياة العامة الاغريقية فحسب ، ولكن على تطور الأدب الاغريقى عن طريق الفنين القريبين له ، النحو والأسلوب ولكن أهميتها الكبرى كانت فيما قدمته من تدريب على السلوك العام ، فى الحياة العامة والخاصة . عندما سأل سقراط فروطغراس ، فى دياالوج أفلاطون الذى يحمل اسمه ، ما الفوائد التى سيحصل عليها تلميذه الحدث ، أجاب بأنه سيعلمه أن يتكلم وبذلك يجعله يوما بعد يوم مواطنا أفضل وأكثر قدرة على الاضطلاع بالشئون سواء أكانت شئون دولة المدينة أم شئون بيته الخاصة (١) .

وفى الواقع استهل واضعو الفصاحة عهدا جديدا فى البحث الخلقى ،

ان الالفاظ رموزا لأفكار ، ودراسة التعبير عن الأفكار الخلقية يترتب عليه تحليل الأفكار نفسها .

١٤ - وكان يطلق على القائمين بالتعليم الجديد السفسطائيين Sophists وكان معنى اللفظ ببساطة أساتذة الحكمة (Sophia) ولم يكن بعد قد اتسم بالدلالة التى كان مصدرها أفلاطون ، بأن الحكمة التى جهرروا بها كانت خدعة (٢) . ولقد قدموا من جميع أصقاع العالم الهلينى ، وكانوا يرتحلون

(١) أفلاطون ، فروط : ٣١٨ - ١٩ وازن ٣٢٨ و « الجمهورية » ، ٦٠٠ ، ويجب دراسة الديالوج بأجمعه على أنه مثال لتعليم السفسطائيين . ولقد قال اسقراطس فى القرن التالى ان السفسطائيين كانوا يدعون أن أولئك الذين يأخذون العلم عنهم « سيعرفون ماذا يجب أن يفعل وعن طريق هذه المعرفة يحققون السعادة » .

(٢) ان ما يوحى به التعبير مبدئيا هو التعليم المهنى ، ولو أنه يطلق أيضا فى معنى أوسع على أى رجل حكيم ، كأن يكون شاعرا . ان هيردوتس يدعو صولون سفسطائيا . ولقد كان السفسطائيون كثيرا ما يأخذون أجرا عن تعليمهم ، وقيل أن فروطغراس سمح لتلاميذه فى نهاية الفترة الدراسية ان فروطغراس كان أول من سمى نفسه سفسطائيا . ولقد كان أفلاطون بأن يدفع كل منهم ما يعتبره موازيا تعليمه . ويقول أفلاطون (فروطغ ٣١٧) يفرق بين الفيلسوف الصادق والسفسطائى تفريقا دقيقا مطبقا نقيضته المحبوبة « حقيقى » و « ظاهر » راجع غرغ . Gorg. : ٤٦٣ ووازن سف Soph. ٢٢١ « الذى يتمرس بفن من فنون الخديعة ، الذى دون معرفة

من مدينة الى مدينة ويلقون المحاضرات والتعليم غير الرسمي في جميع فروع المعرفة (١) .

وقد ادعى هيبياس (Hippias) وهو أحد جماعة السفسطائيين الذين قدموا الى الفروطغراس ، بأنه أستاذ كل فن ، وعلاوة على ما قدمه من بحوث ذات قيمة حقيقية في علمي الرياضة والفلك فإنه كان يعلم علم التقويم وعلم اثار الذاكرة (mnemonics) وعلم الأصوات ودراسة الايقاع ونظرية النحت والتصوير والموسيقى والمهن الصناعية . وقد جاء في قصة أنه ظهر في الألعاب الأولمبية وهو يرتدى ملابس ، كلها من صنعه .

وقد كان أيضا عالم أخلاق وشاعرا وخدم دولته الوطنية كسفير ، ومن الخطأ الظن بأن علم السفسطائيين كان سطحيا لأنه في تلك الأزمنة ، كان من الأسر أن يكون المرء عارفا بعلوم وبقنون عديدة عما هي عليه الحال الآن - حيث تتطلب المقادير العظيمة من المواد ، التخصص .

وراء عداة أفلاطون للطراز ، يمكننا أن نتبين احترامه الصادق للمفكرين العظام من أمثال غرغياس وفروطغراس ، ولقد قال الأخير : « ان الشكافة لا تزدهر في الروح الا اذا سبر المرء أغوارها » ولم يكن السفسطائيون شيعة تلتزم مبدأ منتظما ، وانا اذا التمسنا نظيرا في العصر الحديث ، فانا نجده في الصحفيين في زمننا أو فيما كان للكتاب أمثال هكسلي Huxley ورسكن Ruskin وماثيو أرنولد Matthew Arnold من تأثير على الرأي العام الفطن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر (٢) . وكان في مقدور

حقيقية بما هو خير يمكنه أن يضيف على نفسه مظهر تلك المعرفة » . وهكذا قال أرسططاليس في « الفصاحة » Rhet : ١ و ١ و ٤ « مدع يداجي بالمعرفة مستخدما ما يعلم أنه باطل بغرض الخديعة والكسب المالى » ولقد كان جورج غروت George Grote (تاريخ اليونان : ٨ فصل ٦٧) هو الذى أنقذ سميت السفسطائيين من الوصمة التى ورثوها من أفلاطون وأرسططاليس . وفى هذا ، سبقه الى حد ما ، هجل .

(١) مثل غرغياس ، من ليونطينى فى صقلية ، وهيبياس من الس Elis وفردقس Prodicus من الجزيرة الايجية قاوس Ceos واثراسومخس Thrasymachus (راجع « جمهورية » أفلاطون : ١) من خلقسندون Chalcedon

(٢) أو ، مرة أخرى ، هربرت سبنسر . ومن بين الكتاب المحدثين « يمكن موازنة مستر برنارد شو وهـ . جـ . ولس بالسفسطائيين الاغريق . ويمكن أن نجعل الفكر أيضا فى التوسع السريع فى جامعاتنا فى تطبيق.

تراث العالم القديم

أفلاطون أن يحقر السفسطائي وينعته بأنه « مصدر بالجملة لبضائع روحية صنعها آخرون » ، وفي أحوال معينة كان للزراية ، دون ريب ما يبررها ولكن كان بينهم عدد ليس بالقليل جمعوا في أشخاصهم مواهب الوسيط العقلي ومواهب المفكر المبتكر .

١٥ - وكانت المناقشات التي تتصل بعلم الأخلاق ، التي أثارها تعليم السفسطائيين تتركز حول لفظي طبيعة (physis) وعرف (nomos) (١) . وقد اختلف أفراد السفسطائيين اختلافا بعيد المدى في النتائج التي وصلوا إليها ، فكان بعضهم مثل هيباس يذهب إلى أن أساس الواجب الخلقى هو قانون الطبيعة غير المكتوب ، الأبدى والالهي ، في حين يعتقد غيرهم مثل ثراسومخس Thrasy-machus أن الحق للقوة بموجب قانون الطبيعة أو ، مرة أخرى ، أن العدالة الاجتماعية كانت تصالحا مصطنعا فرضه على القوى الضعيف ، في الدفاع عن النفس . وأنكر غيرهم أيضا مثل فروطغراس ، وجود أى مبدأ طبيعي لا يتغير وكانوا يعلمون أن قواعد العرف في المدينة يجب أن يقبلها ويراعيها المواطن (٢) . وتهمي هذه المناقشات في نغمتها شبيها يلفت النظر بتلك التي جرت في استنارة أواخر القرن الثامن عشر والتي تضمنتها كتابات روسو Rousseau وتوم بين Tom Paine ووليم جودون William Godwin .

وفي مقدمة إعلان الاستقلال الأمريكى وفي بيانات الثورة الفرنسية وفيما أثاره في زمننا ، المنادون بدعاوى الانسان الأعلى (السوبرمان)

النظريات على الأعمال ، فى الزراعة والهندسة والتجارة والعلوم الاجتماعية ، وخاصة أعمال الرعاية والخدمة الاجتماعية . ومن شأن التعليم فى زمننا أن يعمل لأجل الكثرة ما كان السفسطائيون يدعون عمله نحو القلة .

(١) Nomos = « العرف » وكذلك « القانون » أى ما يكون من وضع الإرادة البشرية ويمكن أن يشرع أو يلغى ويختلف باختلاف الزمان والمكان . وكثيرا ما يستخدم فى معنى « القانون والعادة » كما جاء فى نص لأرسططاليس (علم السلوك - ٥ فصل ٢ § ١) بأن ما لا يأمر به nomos فإنه يمنع . (٢) عن آراء هيباس راجع اكسنوفن Mem. : ٤ ، ٤ وازن انطيفون ، لسفوكلس ٤٤٩ - ٥٧ عن مبدأ مماثل . وعن ثراسومخس ، راجع أفلاطون « الجمهورية ١ » ووازن خطاب غلوقن Glaucon فى مستهل الكتاب الثانى ويجى حكم أفلاطون النهائى عن التناظر التاريخى بين nomos, physis « فى » القوانين ٨٨٩ .

والدولة العليا ضد قيود التقديرات (١) الخلقية التقليدية ، وانها لتمثل عبقرية الاغريق ، في ادراك المشاكل الجوهرية والدائمة في سلوك الانسان ، ولقد أفاضوا البحث في موضوع الطبيعة والعرف ذاته ، في متنوع تطبيقاته ، على أصل المجتمع واللغة ومركز المرأة والرقيق الاجتماعى ، واقامة نظام الملكية الخاصة وصحة التقاليد الدينية (٢) .

وكان نتاج المناظرة استخلاص تصور أكثر صدقا ، عن الطبيعة والطبيعى على أنهما يعنيان ، ليس حالة بدائية وهمية تتجرد عن كل اكتسابات اجتماعية ، ولكن بالحرى الادراك التام لطبيعة الانسان الاجتماعية ، وكان هدف أفلاطون فى « الجمهورية » - الكشف عن هذا المثل الأعلى لشخصية انسانية ، اكتملت لها خصائصها ، وبهذا يشفى الانقسام الجافى بين نفع أو صالح الفرد وذلك الذى يكون للمجتمع .

وسنعود فيما بعد الى حله للمشكل ، وهو الذى جعلته بحوث السفسطائيين النقدية ميسورا . ولو أن تعليمهم كان ينحو منحى التشكك ، وبهذا اثار الخصومة المريرة فى المحافظين أمثال أرسطوفانس ، فقد ثبت مع هذا ان نتائج كانت فى جوهرها انشائية ، وكان من الضرورى التحليل التام للمعتقدات التقليدية ، اذا كانت القيم الخلقية ليعاد صوغها على مبادئ عقلية ، وقد أتى نقد السفسطائيين النفاذ بالشار على مذهبى أفلاطون وأرسططاليس ، التفكيرين .

(١) كان الانسان الأعلى superman موضوعا شائعا فى اليونان فى النصف الأخير من القرن الخامس . وكان يمثل البطل هرقلس Heracles راجع تمثيلية أريفيديس « هرقلس المجنون » . وعن الدولة العليا راجع الديالوج الميلى Mellian dialogue فى ثوقوديدس .

(٢) عن أصل المجتمع - راجع أفلاطون - فروطغراس صفحة ٣٢٠ وما بعدها والجمهورية : ٢ (خطاب غلوqn) . أما عن الرق فانظر التذكرة الاضافية عن هذا الفصل . ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أنه بينما كانت الثقافة الاغريقية تقوم ، دون ريب ، على أساس الرق فان الاغريق كانوا أول شعب شك فى مبرراته . وعن الشيوعية راجع أفلاطون : الجمهورية - ٤ ، ٤١٦ - ١٧ و ٥ . وينتقد أرسططاليس - السياسة : ٢ هذه الآراء وخطط فلياس الحلقة دونى Phaleas of Chalcedon لوضح تعادل بين الملكية الحقيقية وامتلاك الدولة للعبيد ، وما يترتب عليه من رقابة الدولة على الصناعة . وعن مركز النساء ، راجع أول التذكرات الاضافية فى هذا الفصل .

١٦ - وأبعد المفكرين شهرة ، فى ذلك العصر ، دون منازع كان سقراط الأثينى (٤٦٩ - ٣٩٩) أعظم معلم بشرى عاش على الإطلاق (١) . وبين فيض العبقرية التى ازدانت بها أثينا فى النصف الأخير من القرن الخامس كانت شخصيته فريدة ولها تأثير فى الروح ، الى أقصى حد . كان مظهره الغريب وأساريره - الشكل البدين والرأس الصلعاء ، والأنف المفرطح والشفتان المكتظتان والعينان الجاحظتان - يذكر أفلاطون بصورة اله الغاب سىلنوس Silenus وكان يسير فى خيلاء وهو حافى القدمين مهلهل الشياب ، خلال شوارع أثينا « كابن الماء » كما يقول أرسطوفانس ، وكانت عاداته وسمته يبعثان الانزعاج فى نحو غريب ، عندما كان يقاجى جماعاً من السفسطائيين أو الصاخيين فى وليمة ، أو نبلاء أحداث فى حلبة المصارعة ، أو وهو واقف فى تجهم وصمت مددا من الزمن فى طريق المرور أو فى المدخل ذى العمود وقد استولت عليه غيبوبة تألهية (٢) . والهاتف الداخلى أيضاً - (الشئ الالهى) "daimoneon" كما كان يدعو - الذى كان يقدم اليه النصيح فى صوت مسموع ليتجنب الخطر فى اللحظات الحاسمة فى حياته وينهاه على سبيل المثال ، من ولوج السياسة ، كان مما يتفرد به عن غيره من معلمى زمانه (٣) . ولقد كان يعيش فى فقر نسبي ويحقر أن يستولى على أجر عن القيام بما كان يعتبره رسالة الهية ، وكان يقف فى معزل عن السبيل المعترف بها للوصول الى الميزات المدنية ، الا فى فرصتين حدثتا فى ختام حياته عندما أجبر على أن يكون فى الطليعة فى السياسة ، وأظهر الاستقلال

(١) ان أهم المصادر للمعرفة بسقراط هى مذكرات اكسنوفن Xenophon's Memorabilia والسحب "Clouds" لأرسطوفانس وديالوجات أفلاطون . وما ذكر فى النص يرجع أصلاً الى المصدر الأخير . وليس من الميسور فى هذا المؤلف مناقشة الأسباب التى تحدد الى رفض اعتبار سقراط أفلاطون ، أسطورة فاجعية . وللقارىء أن يرجع الى كتابات الأستاذين بورنت Burnet وتايلور Taylor (اللذين أثرت آراؤهما على ما أورد هنا) على أن يذكر أن ما وصلا اليه من نتائج ليس ، بأية حال موضع قبول عام . ومع هذا فان المؤلف مقتنع أنه اذا لم يقبل أفلاطون على أنه المصدر الأساسى عن سقراط ، فمن المستحيل تقديم تفسير مفهوم لفلسفة أفلاطون أو تأثير سقراط أو « تهكم » أرسطوفانس . راجع بورنت من ثالىس الى أفلاطون Thales to Plato وتايلور «متنوعات سقراطية Socratica Varia» ومقدمة طبعة بورنت لكتاب أفلاطون Phaedo

(٢) أفلاطون "Symposium" - ندوة الفلاسفة ٢١٥ - ٢٢ وعن الغيبوبة Sym. : ١٧٤ - ٥ قابل أرسطو : الغيوم ١٥٠ .

(٣) عن daimonion راجع Apol. : ٣١ ، ٤٠ و Rep. : ٦ .

الذى كان ديدنه فى مقاومة وصاية الديمقراطية ووصاية الطغيان ، على السواء ^(١) . ومن الوجهة الأخرى ، فإنه خدم فى مناسبات عديدة فى بسالة ظاهرة فى الميدان ، وكانت شجاعته الشخصية مضرب الأمثال فى جميع أرجاء اليونان ^(٢) . ولم يكن سقراط معزلا ، ولم يكن فى طبيعته شئ من الصرامة التى تكون فى الأرستقراطية العقلية أو زهد المتطهرين .

وكأخـر — كان يأتى طاعما شاربيا ، وكانت رقة حاشيته صفة تميز بها كضبط النفس الذى أثار إعجاب وحسد معاصريه . وكان سر تأثيره فى قوة شخصيته وفى سحر حديثه . وفى هذا ، كما كان أيضا فى مظهره العجيب ومسلكه ، ورعاية اهتمامه الانسانى وميله الشديد للجدل وحبه للمدينة التى لم يغادر حيطانها قط الا عند الاحتجاج — «انى أتعشق المعرفة، والناس الذين يقطنون بالمدينة هم معلمى ، وليس الاشجار أو الريف» ^(٣) . — فإنه يورد الى ذاكرتنا أحيانا دكتور جونسون ، ولم يترك أية كلمة مكتوبة ، ولكنه عاش مدى سبعين عاما تحت بصر الجمهور ، يتفق أيامه فى محادثات مع أقرانه من كل صنف وحالة ، الأغنياء ، والفقراء ورجال السياسة وقواد الجيش والشعراء والمفكرين والوضعاء من رجال الحرف والنسوة الدنيويات ، محادثات يصفها أفلاطون بأنها مضحكة عند أول سماعها . وحديثه يدور حول الحمالين والحدادين ورائقى الأحذية ، وهو أبدا يكرر نفس الأشياء فى نفس الألفاظ حتى ان أى جاهل أو أى شخص غمر لم تصقله التجارب قد يحس ميلا الى الضحك منه . ولكنها ألفاظ هى فى صميمها الألفاظ الوحيدة التى تحمل معنى فى مطاوها والتى هى الهية الى أعظم حد ، وتزخر بالجميل من صور الفضيلة ومفهومها أعظم ما يكون رحابة ، أو بالحرى تنسحب على واجب الرجل الخير الكريم ، بأجمعه ^(٤) .

١٧ — وعندما يلخص أرسططاليس ما أضافه سقراط لتاريخ الفكر فى عبارة « الاستقراء والتعاريف العامة » فإننا نتعرض الى هزة من الرجوع للواقع وذهاب الوهم ^(٥) . ان عمل حياته لا بد أنه كان يعنى أكثر من ذلك . ان أرسططاليس بالطبع معنى بخدمة سقراط للمنهج الفلسفى وكل باحث يعلم كيف أن اصلاح المنهج يعلن مقدما عن كل تقدم حاسم فى تاريخ العلم . وفضلا

-
- (١) كانت المناسبتان فى ٤٠٦ و ٤٠٣ راجع أفلاطون . Apol. : ٣٢ .
 - (٢) راجع Symp. فى النص المذكور .
 - (٣) أفلاطون : Phaedr. ، ٢٣٠ .
 - (٤) على فم القبيادس ، يمتدح سقراط Sym. ٢٢١ — ٢ .
 - (٥) أرسططاليس : Met. : ١ ، ٦ و ٨ ، ٤ .

عن هذا - فان استقراء سقراط كان يتضمن الاعتراف بطبائع الأشياء ، الحقيقية التى تشتمل عليها مظاهرها المحسوسة ، بينما « التعريف » فى اعتباره كما فى اعتبار أرسططاليس لم يكن مجرد ألفاظ ، ولكن التعبير الدقيق عن جوهر الأشياء المعرفة . وفى حدائته ، كما تعلم من « الغيوم » ومن نص عن تاريخ حياته فى « فيدو » لأفلاطون كان سقراط باحثا شغوفاً فى المذاهب الطبيعية التى اكتسحت وقتذاك الميدان . ولكنها عجزت عن ارضائه لأنها كانت تتحدث فقط عن « كيفية » الأشياء وكانت رغبته تجنح الى معرفة « أسبابها » ، وخرج من نفس الباب الذى دخل منه ^(١) . والفيشاغوريون وحدهم ، الذين هدتهم البحوث الرياضية الى التفكير فى حقيقة فطنة تقع الى الخلف من رأى الظواهر المحسوسة ، كان يظهر أنهم يبينون الطريق الذى يؤدى الى هدف مسعاه ، المعرفة التى يدعمها الاستدلال العقلى بالخير المثالى . ولقد كان سقراط مفكراً يسير على النهج العلمى ومتألهام دينياً فى الوقت عينه . وكان ايمانه بالعقل لا تطفأ غلته . انه كان ابن اليونان الصادق فى اعتقاده أنه فقط بالكدح العقلى تستطيع روح الانسان أن تصل الى رؤية الحق الكامل ، ولهذا كان تقويم الفلسفة فى نفس الوقت ، انجاز دعوة دينية . وقد حفظت القصة التى تحكى كيف أنه وهو بين الثلاثين والأربعين عاماً من عمره أعلن مهبط الوحى فى دلفى أن سقراط أحكم الناس ، وعلى ذلك استدعى الى الرسالة التى خصص لها بقية حياته ^(٢) . وقد سأل نفسه كيف يتأتى ذلك بما أن الله وحده هو الحكيم وهو ، سقراط ، لا يعلم من الحكمة شيئاً . ولدينا هنا التفسير لتصور سقراط لأروس Eres أو الحب ، وليد الوفرة والحاجة الذى كان يتلاعب حوله فى أحاديثة مرة فى مزاح ومرة فى جد عميق - الفكرة أن الانسان خليفة عالمين ، ويتوسط الطريق بين الجهل والمعرفة وخلاصه يكون فى التعطش بعاطفة عنيفة للحكمة "Philosophia" ذلك التعطش الذى يقود الروح صعوداً من حب مسائل الحس الزائلة ، الى حدس جمال عقلى ، نوره وحده هو مصدر النعمة والحق لحلم الحياة القلق ^(٣) . وقد صدق سقراط مهبط الوحى بقوله : « انه ولو لم يؤت من العلم شيئاً آخر ، فانه يعلم أمراً واحداً - جهله هو ، بينما كان غيره يظنون أنهم حكماء وهم ليسوا على شئ من ذلك . وهذا هو « تهكم » سقراط (irony) منهج

-
- (١) راجع Phaedo : ٩٦ وما يليها . فى مطلع شبابه ، قابل سقراط فارمنيدس وزينون وكذلك فروطغوراس : أفلاطون : Parm. : ١٣٠ : ١٣٥ و Protag. : ٣٦١ .
- (٢) Apol. : ٢١ وما يليها .
- (٣) شلى « ترنيمة للجمال العقلى » Hymn to Intellectual Beauty . راجع Symp. : ٢١٠ وما يليها .

سقراط في المناقشة بادعاء الجهل) الذي كان ينير مثل ذلك الدهش والضحج
في سائليه (١) . كيف كان يستطيع أن ينقذ أرواحهم بالكشف عن معرفة
هو لا يزال يبحث عنها - الا باقناعهم بجهلهم هم ، وبذلك يوقظ فيهم الرغبة
في أن يعرفوا ؟ وهذه كانت في الحق الرسالة التي تهيأ لها في ولاء لا تعترية
كلالة ، أن يأتي بالفحص على موازين الرجال في السلوك والغايات التي
يحبونها ويعيشون لأجلها ويختبرها بمنطق صارم مبدد ، الى أن ينزاح عن
السامع طمأنينته ويقر أنه أصبح متسلولا ولا حول له . . . ولقد قال سقراط
« ان حياة لم تفحص لا تستحق العيش » (٢) .

وقد شبه نفسه بنعرة أرسلها الله ليلسح حصانا كريما هو الشعب
(demos) الأثيني ليخرجه من عفوة الحمول ، ومرة أخرى يشبه نفسه
بقابلة روحية تأتي بمولد أفكار صادقة في أرواح الناس (٣) . وعلى هذا
يمكن أن نتخيله وهو يسأل انجليزيا معاصرا - ماذا كان يعنى على وجه
التدقيق بمثل هذه التعبيرات ، الشرف "honour" الرجل المهنـب
"gentleman" أو مسيحي "Christian" ولماذا حدا به الطموح لدخول
« البرلمان » ولماذا أرسل ابنه الى الجامعة أو الى مدرسة عامة .

وكان سقراط يعمل دون هوادة ليكشف غموض آراء الناس في مثل
هذه المسائل وأنهم لم يقطعوا بالتفكير فيها نهاية الشوط أو يواجهوا
بديلا لها ، وفوق كل شيء أن نظراتهم ومراسهم العمل لم يكونا الا انعكاسا
باهتا لرأى يمثل المستوى العام لما يراه العالم المحيط بهم . وهذا يعتبر
الموضوع ذا الاهمية القصوى الدرة غالية الثمن ، الخير الأعظم وغاية الحياة .
وعلى هذا ، اتخذ تعليم سقراط ، صورة سلبية تكذب مغزاهما الحقيقي .
وتخلى عن لقب معلم لأنه كان يعلم أن الحكمة المنقذة يجب أن يظفر بها كل
انسان لنفسه ، وأن مهمته الخاصة تكون فقط في أن ينتزع حجاب الجهل
الذي يخفى الناس عن أنفسهم . والمعرفة بالذات وهي شعار معبد دلفى ،
كانت الشيء الوحيد الذي يحتاج اليه في الحياة وقوام الفضيلة .
وكان يقول ان الرذيلة هي الجهل ، أو اذا اقتبسنا ما يظهر أنه طرفا نقيض .

(١) Symp. : ٢١٦ - sly = Eiren ماكر (بورنت الذي يقابلها
باللفظ الاسكتلندي "Canny") . كان يوجد الكثير من الحس المشترك في
سقراط ويستخلص من تهكم رفضه اطلاق « معلم » عليه . Apol. : ٣٣ .
(٢) Apol. : ٣٨ .
(٣) Apol. : ٣٠ ، ٣١ ، Theaet. : ١٥٠ ، ٣٥١ راجع أيضا Meno
٧٩ ، ٨٠ لما كان من تأثير على سامعيه .

«لا يخطئ» أحد بإرادته الحرة، ^(١) وكان يعلم أن الرخاء دون معرفة بالذات كان مصدر نصف التعاسة والشر في حياة البشر، وكان يعلم أيضا، وأفرط في علمه، كيف أن الناس، يغتفرون أى شيء إلا اظهار جهلهم لهم وكيف يعمقون مقتا مريرا تحطيم شعورهم بالرضى عن ذواتهم، ذلك الرضا الذى قبروا فيه أرواحهم. وقد أنبأ قضائته «لم أكن غير عليم بالعداوة التى أثرتها ونالنى الأسى والخوف من ذلك ولكن الضرورة وضعت على - ورايت أن كلمة الله يجب أن يكون لها الاعتبار الأول» ^(٢) - والقاعدة الرئيسية التى وضعها لآخوانه المواطنين بأنه يجب عليهم «أن يراعوا أرواحهم»، كانت تحمل دلالة، تميز عصرا ليس فى الفلسفة الاغريقية وحسب، ولكن فى الفكر البشرى بأجمعه عن الروح، وكانت الروح (Psyché) تعنى للاغريقى العادى فى القرن الخامس ما كانت تعنيه لهومر، وكما سبق أن رأينا ^(٣)، للعبريين كذلك، بأنها أصل الحياة الذى يغادر الجسم عند الموت ويسير الى العالم السفلى حيث يعيش كشبح لا حياة فيه، فى حالة دون وعى. ان أمر الناس بمراعاة مثل هذه الروح، كان استخدام الفاظ لا معنى لها. ومن الجهة الأخرى، فان المعلمين الأرفيين والفيثاغوريين ميزوا فى تحديد واضح الروح بأنها الهية، وعلى ذلك خالدة، عن الجسد الذى احتبست فيه عقابا لحطينة ما قبل الميلاد، وهى فى غفوة الا فى أحلام التنبؤ وكانوا يعلمون طريقا للخلاص، بالتطهير من الحاجة الى العود للتجسد. ومثل هذه الطريقة للتطهير يمكن على اليقين أن توصف بأنها «مراعاة الروح». ولكن سقراط كان يعلم شيئا آخر يختلف عن أى من هذين الرأيين. لقد رأى فى هوية الروح شخصيتنا الواعية، الذات التى تملك القدرة على النشاط العقلى - التفكيرى والعمل كليهما - الذى اذا ما روعى فى عناية فانه يجد تعبيرا له فى المعرفة العلمية وفى الطبع الخلقى على السواء. وكان هذا مبدأ ثوريا وجديدا على الاطلاق، ويمكننا أن نفهم فى يسر ما كان له من مغزى لسقراط والعداوة التى أثارها فى جماعة سامعيه الذين فزعوا لما كان ينطوى عليه من معان، وأخرجهم عن طمانينتهم ^(٤).

(١) المعرفة بالذات : Phaedr: ٢٢٩ و Mem: , Xem. : ٤ ، ٢ ، ٢٤ وما يليها . الخير هو المعرفة Laches : ١٩٤ و Protag. : ٣٤٥ و Apol. : ٢٥ راجع Mem, Xem. : ٣ ، ٩ ، ٤ و Ethics, Arist : ٣ ، ٧ ، ١١٤٥ ب ، ٢١

(٢) Apol. : ٢١ ح .

(٣) راجع ما سبق فصل ٣ § ١٥ تذكرة ١ .

(٤) راجع بورنت عن مبدأ سقراط عن الروح (Proc. Brit. Acad., 1915-6) أعيد طبعه فى «مقالات وخطب» (Essays and Addresses London 1929, pp. 126-62.

١٨ - وجاءت النهاية عام ٣٩٩ عندما وصل سقراط الى سن السبعين ، وقد وجد أنه أذنب في تهمتين - عدم التقى وافساد الشباب وحكم عليه بالموت - والعجيب حقاً هو أنه تأجل زمناً استطال بهذا المقدار وكان الأثينيون كغيرهم من الشعوب الأخرى يحدوهم ميل للاشتباه في أولى العقل ولم يظهر سقراط قط أنه يضرر للديموقراطية ودأب . وكان يعتقد أن الحكومة السياسية ، كأي ناحية أخرى من نواحي العمل ، يجب أن تكون في أيدي أولئك الذين يعلمون . وفوق هذا كله ، وهنا قوة الاتهام - عد من بين المقربين الى سقراط رجلان يحملان من بين الكافة ، المقت الذي نجم عن سقوط أثينا حاكم القلعة اقرطياس وهو أحد الطغاة الثلاثين الذين أقامهم الاسبرطيون لتولي زمام الحكم بعد استيلائهم على المدينة والسبيادس الذي أدى به مظمحه الجامح أولاً الى الحضر على الحملة المشؤومة الى صقلية ، وبعد ذلك الى ما قدمه من نصيح لأعداء أثينا عن السياسة التي كان فيها دمارها . ولم يكن هذا ، في نظر الديمقراطيين الذين أعيدوا للحكم الا ثمرة التعليم الجديد فعادوا باللائمة على سقراط باعتباره المصدر الحقيقي لما أصابهم من محن . على أية حال كانت عداوتهم سياسية وليست دينية ، لأن سقراط كان يحرص أدق الحرص على المحافظة على عبادات المدينة . وكما حدث ، فانه كان قريباً من الحكم ببراءته . لو أنه رضى بالانسحاب الى النفي ، أو لو أن دفاعه لم يتخذ صورة تبرير رسالته تبريراً لا يقبل مساومة ويغلب أن يكون فيه زراية ، لكان قد أنقذ حياته دون ريب . ولكن طبيعة سقراط لم تكن لتهدى، أي سبيل لفكرة المساومة على التصالح . لقد أقامه الله حارساً ويجب أن يكون أميناً على حراسته . وقد دفع عنه ما عرض عليه من فرار من السجن ، اذ عده عملاً ينطوي على عدم ولاء لقوانين أثينا التي في كنفها ولد ونشأ ، كما ولد ونشأ والده ، ومات يتجرع السم ^(١) ، شهيداً في سبيل العقل وحب الحق ^(٢) . وهو برفضه أن ينكر ما كان يعتبره

(١) hemlock - شوكران - صرو - درست (فارسية) Conium masculatum l. (المترجم) .

(٢) راجع Apology و Crito و Phaedo لأفلاطون ولفايدو الذي خص بها رفاق سقراط الفيثاغوريين ، أهمية خاصة (١) في أنها توضح تأثير الأفكار الأورفية والفيثاغورية على سقراط وأفلاطون ، عن الروح والفلسفة على أنها نهج في الحياة والصور (أو الأفكار) على أنها موضوعات المعرفة الحقة ، (ب) للتمهيد الذي يعالج السيرة حيث يسرد سقراط تاريخه العقلي المبكر ، (ج) للمشهد الختامي الذي يصف موت سقراط وربما كانت أعظم نص في الأدب المنشور بأجمعه . ويذكر هجل (فلسفة التاريخ (٢٨١) أنه ولو أن سقراط أدى واجبه في ولاء نحو دولة المدينة ، فان عالم الفكر ، وليس أثينا ، هو الذي كان موطنه الحقيقي .

رسالة الهية ، ولو لمجرد انقاذ حياته وفي رفضه أن يرتكب ضرا ضد سلطة القانون ، بتجنب العقوبة التي أوقعتها المحاكم فإن سقراط يقدم أعلى مثال للمعارض الذي يهتدى بضميره .

٤ - أفلاطون

من بين رفاق سقراط الاحداث ، كان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) وهو ثرى أثينى من أسرة كريمة خصص أعوام نفيه الاختيارى التي أعقبت الحكم باعدام استاذة لتلك الكتابات التي حفظت ذكرى عقل سقراط وشخصيته أحسن حفظ . ويقع خارج نطاقنا أن نتبع أثر ينبوع الفكر ، الذهبي الذي يفيض خلال الديالوجات الأفلاطونية (١) . ان هذه نماذج عليا بلغت الغاية فى الاستدلال العقلى الذى يسير على النهج العلمى ، وفى الفن الفاجعى ، على السواء . ويمكننا أن نقدر تمام التقدير كيف أن أفلاطون ، فى صدر شبابه اجتذب الى كتابة الشعر . ولم تفسح الصورة الديالوجية المجال فقط أمام خيال الفنان ولكنها كانت تعكس - بطبيعة الحال - الحركة الحية لمحادثات سقراط وتصور أفلاطون الخاص للمنهج الفلسفى على أنه المحاولة الصاعدة للأرواح

(١) لقد وصلت إلينا جميع كتابات أفلاطون . ولا يمكن أن تذكر هنا الأسباب التى حدثت الى تحديد ترتيبها التاريخى لدرجة عظيمة من الاحتمال . ويمكن أن تذكر النتائج كالاتى لارشاد القارئ فى أول تعرف بأفلاطون . والترتيب بين كل حقبة أكثر مدعاة للشك .

الحقبة الأولى - (بين ٣٩٩ وحوالى ٣٨٧) :

Crito, Apology, Euthyphro Euthydemus, Cratylus, Lysis, Laches, Charmides, Meno, Gorgias, Protagoras,

(والثلاثة الأخيرة كانت فى ختام الحقبة) .

الحقبة الثانية - (حوالى ٣٨٧ الى حوالى ٣٧٥) : Phaedo, Symposium: (مبكرا) و Phaedrus, Republic

الحقبة الثالثة - (حوالى ٣٦٧ الى حوالى ٣٦٠) :

Politicus Sophist (أو السياسى) , Parmenides, Theaetetus,

الحقبة الرابعة - (حوالى ٣٦٠ الى ٣٤٧) :

Critias, Timaeus, Philebus Laws.

و « الجمهورية » هى نقطة التحول عندما بدأ فكر أفلاطون ، الذى كان دائما لا يننى يتحرك ، فى الانتقال الى ما يوالى خطوط فلسفة سقراط ، وفى الديالوجات الأخيرة ، لا يكون سقراط (الا فى فليبس Philebus) بعد ، المتحدث الرئيسى . وعن الموضوع برمته راجع بورنت Thales to Plato وتذكرة ١ § ١٦٩ . ورسائل أفلاطون اما أنها أصلية واما أنها على أية حال وثائق معاصرة عظيمة القيمة .

المتقاربة ، بمصاولة العقل للعقل في السعى وراء الحق المطلق ^(١) . ومن بين هذه الكتابات تقدم « الجمهورية » التي وضعها بعد عودته الى أثينا ، وعندما بلغ نضج عبقريته مداه ، أفضّل مدخل الى دراسة فلسفة أفلاطون ^(٢) . ولقد أوجزت أعظم إيجاز في مدى جميع الديالوجات وتستهل بالسؤال ماهي العدالة ؟ وهي تضع صورة للمجتمع المثالي ولتقدم الروح صوب الحكمة الفلسفية وتختتم بصورة للحياة فيما يلي القبر . ويعالج مسائل علم الأخلاق والسياسة وعلم النفس والتعليم والأدب والفن والدين والعلم في وحدة حية كعوامل في مسألة الكون الموحدة ، مفكر كان موضع فخاره الذي يزهو به أن يكون « المتفرج على الزمن كله وعلى الوجود كله » ^(٣) . ولكن جاء الإلهام لأفلاطون ليس فقط بدافع الفلسفة ليعرف الحق ، ولكن أيضا عن عاطفة منحمسة للإصلاح العملي . ومنذ حدائته عندما كان يتطلع الى ولوج الحياة العامة في أثينا وطنه حتى رحلته الأخيرة ، في شيخوخته الى صقلية التي كانت على غير طائل ، كانت تستبده به رغبة مستعرة لكي يخلص أرواح الناس وأن يفهم ، على قدر ما كانت تسمح به الأحوال الدنيوية « مدينة الله » ، على التربة الهلينية وعنده ، كما كان عند أستاذه سقراط ، كانت الفلسفة أبدا « نهجا في الحياة » وكان قد تعلم من سقراط أيضا أن الخير كان المعرفة وأن الأساس الوحيد الوطيد للسلوك العملي كان الإدراك الذي يقوم على الاستدلال العقلي ، لمبدأ الخير . وعلى هذا فإن المسألتين ، التفكيرية والعلمية أوجدتا لأفلاطون حلها المشترك في الفلسفة ، في معرفة يجب أن تكشف حقيقة العالم الداخلية ، كخير مآلى وتكون الهدف لعمل الفرد والمجتمع . ما كنه هذه المعرفة ، وكيف يستطيع الانسان الوصول اليها ؟ هذه هي الاسئلة الاصلية في فلسفة أفلاطون .

٢٠ - ولم يخامر أفلاطون ريب قط في أن المعرفة يجب أن تكون معرفة ما هو كائن وموضوعها يجب أن يكون له وجود حقيقى . وعنده أن الحقيقة

(١) ان تعبير أفلاطون عن الفلسفة ، كعلم وكنهج على السواء هو dialectic وهو مستمد من الفعل dialegesthai (= يتحادث) ويرتبط بلفظ « ديالوج » . ويقول أفلاطون ان الروح ، حتى عندما يكون الانسان مشغولا في تفكير منعزل ، تشباجى نفسها في ديالوج (Theaet, 189, Soph., 263) . وكان أفلاطون نفسه يفضل التعليم الشفوى على العبارة المكتوبة راجع - Phaedr. : ٢٧٥ وما يليها .

(٢) ربما أكملت الجمهورية في الوقت الذي كان فيه أفلاطون مشغولا بتأسيس الأكاديمية بين حوالى ٣٨٧ وحوالى ٣٧٨ . وكان حينئذ بين الأربعين والخمسين من عمره .

(٣) "Rep." الجمهورية : ٦ - ٤٨٦ .

لا يجب أن تكون قابلة للمعرفة وحسب ، ولكن المعرفة يمكن فقط أن تكون بما هو حقيقى . اذن أين يوجد الوجود الحقيقى ؟ اعتقد هرقليطس أن كل ما يوجد فى عالم الحس هو فى تغير لا ينقطع يصير أبدا الى وجود وينقطع عن أن يكون موجودا ، ولا يظل ثابتا فى وجود . وطبق اتباع فروطغراس هذا المبدأ لينبينوا كيف أن كل مظهر عابر ، على الأقل فى مجال الحس ، كان حقيقيا بالنسبة للفرد القادر على الادراك الحسى فى لحظة ادراكه الحسى ، ولقد جردت هذه الآراء الحقيقة من كل معناها ولم يستطع أفلاطون أن يظل قانعا بها وعلى ذلك ، سيق مثل سقراط قبله الى أن يلتمس الوجود فى مكان آخر غير عالم الحس . ويبين التأمل فى تفكيرنا الواقعى أنه يشمل مواضيع من نوع جد مختلف عن معطيات - الحس لان هذه يمكن معرفتها فقط بمعاونة التصورات العامة التى تدرك ليس بالحواس ولكن بالفكر . وهذا جلى على الأخص فى أحكام علم الرياضة وتلك التى تعبر عن القيم الخلقية والجمالية . ولا توجد خطوط أو دوائر تدرك بالحس ، تتعادل تعادلا تاما واطلاق « خير » على عمل و « جميلة » على صورة يتضمن ميزانا واحدا من الخير أو الجمال ، وتكون الحالات الفردية بالنسبة له تقريبا ناقصا ^(١) . وعلى هذا اهتدى أفلاطون الى الاعتقاد بعالم يمكن أن يدرك بالتفكير فقط حيث تكون فيه الصور أو الأفكار فى « وجود » لا يتغير كحقائق مادية ، وهى الأنواع الأولى فى درجة الكمال « يسهم فيها » أو « يحاكيها » نماذجها العديدة المتغيرة ، فى عالم الحس . وهذه الصور وحدها كانت « مواضيع » المعرفة ، العلمية وامثلتها المعينة ، فى عالم الحس ، من الجهة الأخرى ، كانت مواضيع « الظن » المعرض للخطأ والتقلب ومصدر الخطأ التفكيرى والمصدرة الخلقية . وذاك الذى يفكر ويعيش فى عبودية لجسده وأشياء الحواس فانه على الرغم من بصيرته النفاذة فى الظروف الخاصة التى تحيط به يشبه شخصا يسير وسط أطياف حلم فى نومه ، والفيلسوف بعين عقله وقد حددها فى الحقائق التى يمكن أن تدرك بالتفكير فقط ، هو دون سواه الذى له رؤيا يقظة ^(٢) . ولقد نادى أفلاطون بمبدأ عالمين وربما لأول مرة فى تاريخ الفكر الغربى ، ينسب الوجود الحقيقى للجواهر غير المادية . وبالإضافة الى هذا ، فان الصور ليست ذرات روحية

(١) راجع Phaedo التى توضح كيف وصل أفلاطون (سقراط ؟) الى مبدأ الصور (أو الأفكار) بدراسة الأحكام الرياضية والخلقية والجمالية .
(٢) راجع الجمهورية : ٥ ، ٤٧١ وما يليها ٦ و ٧ . من المحتمل جدا أن مبدأ الصور (ويستخدم أفلاطون اللفظين Eidos (صورة) و Idea فكر - واللفظ الأخير غامض فى الانجليزية) ، قال به سقراط وأنه استمدته من التفكير الفيثاغورى . وقد وضع أفلاطون النظرية ، كما قدمت فى Phaedo و « الجمهورية » ، موضع النقد والتعديل الأساسى فى الديالوجات الأخيرة (وخاصة Parmenides) .

منعزلة ولكنها تكون اقتصادا أو نظاما يمكن ادراكه بالتفكير فقط ومهمة الفيلسوف الأساسية هي في تقصيه . وفي أسعى مكانة في هذا النظام التدرجى الذى يقع فوق ما يدرك بالحس ، تعلو صورة الخير ، أصل القدرة على المعرفة وعلى الوجود ، على السواء فى جميع الصور الأخرى وهو فى ذاته « يسمى فوق المعرفة والوجود » ^(١) . وفى « الجمهورية » يعبر أفلاطون عن ضيقه فى أن يفسر تفسيراً مباشراً « موضوع المعرفة الأعلى » هذا ولا يأتى بتكملة النقص فى أى مكان فى كتابته ، وفى الواقع فإنه يذكر بإيضاح فى خطاب « لا توجد كتابة لى عن الموضوع ولن توجد أبداً . لا توجد القدرة على التعبير عنه كغيره من فروع الدراسة ولكن نتيجة للتواصل الطويل وحياة عامة أنفقت فيه ، فإن نورا يشتعل كشرارة تقفز وعندما تصل إلى الروح تجد تغذية لنفسها » ^(٢) . ومع هذا فإننا نعلم أن الخير كان يكون المرمى لكل مسعى أفلاطون العقلى وأنه كان يلقى محاضرات عن الموضوع فى الأكاديمية حتى ختام حياته ^(٣) . لقد أعطى وحدة ومذهباً للعالم الذى يمكن أن يدرك بالتفكير فقط ، وجاء بالانسجام على الصور فى غرض عام واحد وله مكان السيادة .

وكما فى عالم الحس تكون الشمس مصدر النور والحياة لكل المخلوقات فهكذا الحال فى عالم الفكر ، تستمد الصور قدرتها العقلية ووجودها من صورة الخير ^(٤) . كان هذا مجمل جواب أفلاطون على السؤالين : ما هى المعرفة؟ وما هو الوجود؟ وهما اللذان يكونان عبء الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) فى جميع العصور وحله عرضة لاساءة التفسير وفى ثلاثة اتجاهات: (١) ان الصور ولو أنها تدرك بالذهن عن طريق التصورات العامة ، ليست معنويات فكرية ولكنها جواهر توجد مستقلة عن ذهن أى مفكر ، فى عالم روحى موضوعى ^(٥) . (٢) وصورة الخير لا يربط أفلاطون هويتها بالله . ان الله ليس صورة ولكنه روح نشيط حتى . المصدر - المتحرك بذاته - لحركة السموات وكما يسرد أفلاطون فى لغة شبه أسطورية فى « طمايوس » ، فإنه خالق الكون الذى يدرك بالحس . (أى الكون المحسوس) ، نقلا عن نماذج الصور ووفقا لقانون

(١) الجمهورية ٦ ، ٥٠٩ هذا التعبير كان النص الذى استمدت منه ، بعد ذلك ، الأفلاطونية الحديثة فكرة الواحد ، الذات الأعلى = الخير وهو أعلى عضو فى ثلاث فلوطينس Plotinus الروحى (راجع المجلد الثانى فصل ٩ § ١٢) (٢) Epp. : ٧ - ٣٤١ (ترجمة بورنت) .

(٣) لقد نشر ارستطاليس تذكراته على محاضرات أفلاطون عن الخير ولكن هذه لسوء الحظ لم يحتفظ بها .

(٤) « الجمهورية » : ٦ ، ٥٠٤ وما يليها .

(٥) فى Parmenides : ١٣٢ ، رفض فى ايجاز الرأى الذى يقول ان الصور هى تصورات فى العقل .

رياضي . ان المبادئ القائلة ان الله هو بذاته الخير الاعظم وان الصور هي أفكاره الأبدية ووجودها كائن في العقل الالهي ، لم تكن مبادئ أفلاطون ولكن تعديلات لنظرية أفلاطون أوحى ، بطبيعة الحال بذاتها للأفلاطونية الحديثة ولمفكرى العصور الوسطى ^(١) . وأخيرا (٣) يجب ألا يذهب الظن الى أنه بانكار المعرفة العلمية لأشياء الحس ، فقد نبذها أفلاطون على أنها خدعة أو لا قيمة لها . ليس لأن عالم الحس لا حقيقة له ، ولكن لأن حقيقته الجزئية يمكن أن يراها فقط ذهن الذي يدرك اعتمادها على الصور - هو ما يدعو أفلاطون الى أن يصر على أن الصور هي في ذاتها موضوعات الدراسة العلمية الحقة . وفي الواقع تصور أفلاطون عالم الحس بأن الله صاغه في الفراغ من أشكال هندسية وهي نظرية لا تبعد كثيرا عن ارجاع ديكرت للجسم المادى الى حدود امتداد له شكل . ولقد كان أفلاطون باحثا متعمقا في العلوم الرياضية التي كان يعتقد أنها المدخل المناسب للفلسفة . وتوجد أسطورة تقول انه كتب على بوابات الاكاديمية هذه الكلمات « لا تدع أى شخص لا يلم بالهندسة يدخل هنا » وفي رأيه ، كانت الرياضيات تهى التفسير للطبيعة المادية ونظريته التي جاءت بعد ذلك ، عن الصور ، كانت على ما يرجح كثيرا مبدأ من مبادئ النسب الرياضية ، قريبا من مبدأ علم الطبيعة الحديث ، الا أنه في اعتبار أفلاطون ، يتطلب التفسير الرياضى أساسا له - وهو أبعد من أن يعزل الشرح عن حدود الغرض - صورة الخير الذاتية ^(٢) .

٢١ - وفي طبيعة الانسان ، يظهر التمييز بين النظام الذى يمكن ادراكه بالتفكير فقط ، والمحسوس ، كالتمييز بين الروح والجسد والروح psyche

(١) وهب الله العالم المحسوس روح - عالم حتى يمكنه ، الى أبعد حد ممكن ، أن يشبه خيره هو . ولقد كان لهذا التصور تأثير على التفكير اللاحق . وكان فيلو Philo (القرن الأول الميلادى) اليهودى المتأهلن ، فى الاسكندرية اول من عالج الصور على أنها أفكار الله . ويذهب بورنت «ثاليس الى أفلاطون» الفصل ١٧ الى أن أفلاطون كان اول فيلسوف يضع الألوهية على أساس علمى .

(٢) عن العلوم الرياضية راجع الجمهورية : ٧ ، ٥٣٢ وما يليها . وكانت فلسفة أفلاطون ، كفلسفة سقراط ، فى جميع مناحيها ، تنتهج بحث العلة الغائية ، ويرجع الوجود أو الحقيقة لكل جزء فى الطبيعة الى وظيفته أى فى علاقته بغاية أو خير . ويكون أحسن فكرة لصورة الخير كغاية عليا ، وحدة ، تجمع كل الغايات الفردية والجزئية فى وحدة ذات مذهب . وكل قوانين الوجود لأجزاء العالم الخاصة يمكن الاستدلال عليها من هذه الغاية العليا الوحدة . ان مبدأ أفلاطون يبعد بعدا عظيما عن مبدأ الحتمية الميكانيكية ، وأينما يجد قانونا وهو يجده فى كل مكان ، فانه يجد العقل والخير .

عند أفلاطون ، كما كانت عند أرسنتطاليس بعده هي أصل الحياة والحركة وعلى هذا ، فأينما توجد الحياة والحركة ، توجد روح والروح الانسانية وهي أبعد من أن تكون التعبير الوحيد أو الرئيسى للروح ، ليست الا صورة واحدة من مظاهرها . والفلسفة الاغريقية تتناقض تناقضا تاما مع النزعة الحديثة في اعتبار الذهن الانسانى الواقعة المحورية للتجربة . وبجانب الروح البشرية وما دون الروح البشرية ، يوجد فى كون أفلاطون روح الله وروح العالم والأرواح الالهية التى تحرك النجوم . وفى شدة اعتقاد عنيفة ، كان أفلاطون يؤمن بأن الأرواح خالدة خلودا ملازما ، وبرهانه القاطع الذى ذكر فى فيدرس ومرة أخرى فى آخر ديالوج له « القوانين » يقيم الدليل من واقعة الحركة على ضرورة سبب للحركة التى تتحرك ذاتيا وعلى ذلك لا يمكن أن تبدأ أبدا أو تنقطع عن الحركة ^(١) . وتبعاً لهذا فإن الروح البشرية كغيرها من الأرواح كافة ، كانت توجد قبل حلولها فى الجسم وستبقى بعد موت الجسم . وبهذا يشرح أفلاطون كيف أن نسخ الصور ، غير الكاملة ، فى عالم الحس تورد للذهن ، الأنواع الأولى الكاملة التى كانت تعرفها قبل الحلول فى الجسد وتوجد حلاً للتساؤل الصعب وهو « كيف يتاح للانسان معرفة تتعالى عن حدود الاختبار الحسى » ^(٢) . وتساعده أيضا على معرفة السبب فى أن الألم الحاضر هو تكفير عن شر ارتكب فى تجسد سابق وعلى أن ينشئ المبادئ الخلقية الصادقة عن الثواب أو العقاب بعد الموت وفى التطهير الاطرادى فى سلسلة من الحياة ^(٣) . وهنا يقيم أفلاطون البناء على تربة التعليم الأورفى الذى وصل اليه عن طريق الفيشاغوريين وسقراط . ان الجسم هو سجن وقبر الروح وموته هو تحرير الروح وحياة الفلسفة التى تعلق فكر الذهن على صور ما وراء الحس هو التمهيد لهذا التحرر وفى الحقيقة البحتة ، دراسة الموت ^(٤) . وتظهر الروح البشرية وهى فى اتحادها الموقوت بالجسد ، ليس فى نقاوتها الطبيعية ، ولكن كاله البحر غلوقس Glaucus فى القصة ، « تتغشاها الأصداف والأعشاب البحرية » ، حتى ان طبيعتها الذاتية ، « العقل » يكون مستخفيا عن الرؤية الخارجية ^(٥) . وفى تجاربنا الواقعية تكون الروح

(١) Phaedrus ٢٤٥ ج القوانين : ٨٩٣ ب وما يليها . وقد أهملت الأدلة الأولى فى Phaedo و « الجمهورية » فى الديالوجات التى جاءت بعد ذلك ومن المرجح أنها كانت أدلة سقراط خاصة ، بمعزل عن حجج أفلاطون .

(٢) راجع Meno ، ٨١ وما يليها عن مبدأ التذكر anamnésis ، هذا .

(٣) راجع الأساطير فى Republic, X, Phaedo, Gorgias, Phaedrus

وأساطير أفلاطون لاستوارت Stewart

(٤) راجع Phaedo ، ٦٤ وما يليها .

(٥) Rep. ١٠ : ٦١١ .

وحدة مركبة من ثلاث قوى : العقل وهو الموهبة الفلسفية والسلطة العدل
فى اقتصاد الروح الذى يضمن حكمه الانسجام فى الداخل وكذلك مع العقل
القريب له فى الأرواح الأخرى وفى الكون ، ثم الموهبة « النسيطة »
أو العاطفة المندفعة ، المشاغبة وهى الخادم الطيع للعقل ولكنها عرضة إذا لم
توجه ، لأن تقود الروح الى الانحراف فى طريق التوكيد الذاتى والشهوات
التي ترتبط بالمتع الجسدية ، بعضها مشروع والبعض الآخر غير مشروع
ولكنها جميعا لا يشفى لتعطشها للرضى غلة وإذا لم يقومها العقل فى صرامة
فإنها تهوى بالروح فى مضطرب من الفوضى والتفكك . ويمكننا أن نتصور
وراء مظهر الرجل ، الخارجى ، مخلوقا يتركب من ثلاث طبائع - تلك التى
لرجل (العقل) ولأسد (العاطفة) والعداء (١) hydra ذى الرؤوس العديدة
(الشهوات) (٢) . ومنهاج « الجمهورية » الخلقى والتعليمى يستند فى معظمه
على هذه التفرقة النفسية مثلثة العرى ، فمثلا صورة ثلاثة أنواع من الحياة ،
أهم بها على التعاقب ، حب المتعة وحب الشرف وحب الحكمة وتحليل الفضيلة
الخلقى الى ثلاث الصور المعينة ، الحكمة والشجاعة والاعتدال ، التى ترجع
الى أصل واحد وهو العدالة والمبدأ الذى يعاون كل قسم فى النفس على القيام
بعمله المناسب ، فى اقتصاد المجموع ويضمن انسجاما أو « موسيقى » فى
الروح بأجمعها وتقسيم التعليم الى موسيقى وألعاب بدنية وأنواع تقويم
الشهوات و « المزاج » ، التى تكون الأساس الخلقى المطلوب لاستخدام العقل
فى الأعوام الأكثر نضجا وأخيرا تصور الفلسفة على أنها تحويل الروح من
ظلمة عالم الحس الى نور عالم الصور وعلى أنها استعداد يستمر مدى الحياة ،
لمراس العقل مراسا لا يعوقه عائق فى عالم ما وراء القبر (٣) .

٢٢ - وعلى النقيض من أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الأخلاق ما هى
الا مجرد عرف وأن الفرد يجد سعادته الحقيقية فى حياة توكيد الذات ، بين

(١) العدار هو فى أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل وزعموا أنه
كان لها تسعة رؤوس كلما قطع رأس منها نبت آخر . وفى أساطير العرب دابة
فى اليمن لها شئ أعظم من رؤوس عدار اليونان - المترجم عن معجم الحيوان
لأمين المعلوف .

(٢) « الجمهورية » : ٩ ، ٥٨٨ - ٩ قابل تشبيه مركبة الروح
Phaedrus ، ٢٤٦ وما يليها .

(٣) عن علم النفس عند أفلاطون وتطبيقه على علم الأخلاق وتعليم
الصغار راجع « الجمهورية » : ٢ - ٤ ولتدريب العقل تدريبا عاليا -
« الجمهورية » : ٧ (وخاصة القصة الرمزية عن المسجونين فى الكهف)
وكذلك عجالة نتلشب Nettleship عن نظرية التعليم فى « جمهورية
أفلاطون » فى المجلد بعنوان Hellenica

أفلاطون كيف أن الإنسان في صميم كيانه ، عينه ، تميز بالتعاون الاجتماعي وقد صاغ موقفين لهما ارتباط وثيق وهما أن كل فرد له بطبعه قدرة فريدة تحدد وظيفته الخاصة في المجتمع وأن هذه الوظيفة يمكن فقط القيام بها على الوجه الأتم ، حتى تجلب السعادة للقائم بها ، عندما يكون المنظم لهما ، « الخير العام »^(١) . ان «اقتصاد» الدولة يتوقف على نفسية المواطنين ، وهذا التماثل بين دولة - المدينة والفرد يتحكم في صورة طرزهما ، الخيرة والسيئة خلال « الجمهورية » بأجمعها . ويلزم تقسيم الوظائف الاجتماعية على أساس خصال المواطنين الفردية ، فأولئك الذين تغلب في نفوسهم الشهوة يؤدون العمل البدني بأن يمدوا المجتمع بحاجاته المادية كالصناع والزراع ، والنفوس « النشيطة » تكون الطبقة العسكرية ، والنفوس « الفلسفية » التي برهنت في اختبارات متكررة على قدرتها على حياة العقل ، يوكل اليها أعلى مهمة وهي الحكم . وبهذا يخلص أفلاطون ، في خلال خطوات منطقية ، الى نقيضته المشهورة « الى أن يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة فلن يكون خلاص للدول أو لأرواح الناس »^(٢) . ولن يكون خلاص للدولة بما أن العقل هو القوة الكامنة في الروح ، التي تدعو الى الوحدة . وتحقيق العقل في الحياة الفلسفية هو الضمان الوحيد من الفوضى الاجتماعية ولا يكون خلاص لروح الفرد لأنه اذا لم يكن للعقل السيادة في المجتمع ، فلن يستطيع أى فرد مقاومة ما للرأى العام وغوايات العالم^(٣) من تأثير مفسد . ولما كان يعتقد أنه في مقدور الفيلسوف أن يصل في مدرجة حياته الدنيوية الى قصارى المعرفة التفكيرية فى رؤية الخير المطلق فقد استخلص النتيجة اللازمة الطبيعية فى أن الفشل فى التوافق فى السلوك مع تلك الرؤية ، كان مما لا يمكن تصوره وكانت المعرفة فى هذا المستوى الرفيع تتطلب توافق السلوك . وكان من المستحيل ارتكاب الخطيئة ضد النور . ولقد آزرت المسيحية فى الحال المبدأ الأفلاطوني وأدخلت عليه التعديل . فمن جهة كان للمفتدين فى النعيم الذين يستمتعون برؤية الله رؤية مباشرة ، الخير المطلق non posse peccare

ومن جهة أخرى لم يكن فى مقدور الناس فى هذه الحياة الوصول الى تلك الرؤية المباشرة حتى فى المستوى الأعلى من التأمل التألهي . والقديس ، على الرغم من كل قداسته ، يظل خاطئا . انه يرى الله فقط « من خلال

(١) راجع الجمهورية : ٢ ، ٣٦٩ وما يليها ويعبر عن مطالب التوكيد الذاتى فى الفرد ثراسومخس Thrasyarchus فى الكتاب الاول ، وغلوكن Glaucon وأديمنطس Adimantus فى بداية الكتاب الثانى وقليلقلس Calicles فى غرغياس Gorgias

(٢) الجمهورية ٥ ، ٤٧٣ .

(٣) الجمهورية : ٦ ، ٤٩٢ .

زجاج ، فى ظلام » per speciem in aenigmate وليس « وجها لوجه »
وصورة الخير عند أفلاطون لم تكن هويتها الله (الذى كان « روحا » وليس
« صورة ») ولكن كان يمكن للفيلسوف معرفتها « وجها لوجه » وعلى هذا
وقد واثاه بعض الالهام من الاعتقاد بأنه فى مجتمع كامل يجب أن تكون كل
الأشياء مشتركة ويشعر كل عضو بالفرح والحزن فى فرح وحزن كل واحد
غيره ، وبعض الالهام الآخر من شعور بالخطر ، حتى على القلة المختارة ، من
لعنة المصالح الخاصة فان أفلاطون كان ينكر على الطبقات الحاكمة الاستحواذ
على الممتلكات الخاصة واستبدال بالمنزل الخاص أسرة - دولة واحدة ينظمها
الملوك والفلاسفة فى حزم لا هوادة فيه . وفى هذه الشروط نرى على الفور
شوق أفلاطون العارم للوحدة وإدراكه الواضح لعوامل الشر التى هى أبدا على
أهبة لأن تؤكد مطالبها فى حياة الفرد والمجتمع . ولقد تألفت مثاليته
الصارمة ومنطقه الذى لا هوادة فيه ليؤدى به ، فى مزاج مؤسس نسبك بأن
يقضى عنه كل المغريات ، كالممتلكات الخاصة والفن الفاجعى ، التى قد يرجع
أن تثير الإباحية الخلقية . وهو ينحى على عالم زمنه وعلى الأخص نغمة أثينا
القرن الرابع ، السياسية والخلقية ، باللائمة ، فى « الجمهورية » دون تحفظ .
وكان يظهر له أن الفرد الأثينى قد قذف به بعيدا عن اتجاهه السوى فى
طوفان من الفساد العاطفى وأن الدولة الأثينية قد مزقتها أربا التشيع الحزبى
والتعاطف الذاتى فى قادتها . وإذا كانت نفوس الناس أو المجتمعات الانسانية
لتظفر بالخلاص ، فيجب أن يكون هذا عن طريق تغير أساسى فى القلب ،
تغير يحمل معه تقويم الذات تقويما عنيفا وثورة فى مبادئ الحياة والحكومة .

وتذكرنا بصيرة أفلاطون النفاذة ، فى شر طبيعة الانسان واحساسه
المزير بأن المجتمع الواقعى لا رجاء فيه ، مرارا كثيرة ، بتولستوى ولكنه كان
يختلف عن تولستوى فى أنه كان أيضا على الدوام فيلسوفا . وكان علاجه
لمساوىء العالم هو أن توضع السلطة فى أيدي أولئك الذين يعلمون ، فانهم
دون سواهم ، الذين وصلوا ، كشجرة لتدريب عقلى وخلقى مديد ، الى معرفة
وجيب الخير الأعظم ، هم المؤهلون لتكييف خليفة المواطن وتوجيه سياسة
الدولة . وعلى النقيض من المثل الأعلى عند الديموقراطية البركليسية فان
أفلاطون يبشر باشتراكية الأساتذة .

وفى تشبيه شهير جاء فى الكتاب السادس من « الجمهورية » ، يمثل
الشعب الأثينى برهان سفينة دمت الطبع غير أنه متكاسل ، سهل التأثر
بتملق النوتية الدهاة الذين يتنافسون الواحد منهم مع الآخر فى التزلف
إليه ليوكل سكان السفينة لواحد منهم ، ولم يكن واحد منهم قد
تعلم قط فن الریان أو أوتى المعرفة الحققة التى يكون فيها صاعدا لقيادة
السفينة على الطريق الأقوم . وطوال الزمن يظل الریان الحقيقى الذى اتقن
مهنته مهملًا ووحداً وعلى هذا ، فى رأى أفلاطون وقع الشعب الأثينى فى أيدي

مغامرين لا يقيمون وزناً لشيء وليسوا بأكفاء . بينما الفيلسوف بحقه الطبيعي ، الحاكم ، الخليق بالحكم بنشأته ، يحكم عليه بخمسود حياته الخاصة (١) .

٢٣ - ولا حاجة للقول ان أفلاطون فشل في اقناع مواطنيه وواصلت آثينا سيرها حتى مجيء المغير المقدوني . ولما كان لا يعتريه كلال في جهوده في القيام بالاصلاح العملي فقد زار ، ثلاث مرات ، سيراكوز الصقلية والأمل يحدوه في أنه كناصح لطاغية ، قد ينجح في انشاء الدولة التي تقوم على أساس فلسفي ولكن كان قد وصل في « الجمهورية » الى الرأي بأن المدينة المثالية كانت « أنموذجا أقيم في السماء » لا يمكن تحقيقها تحقيقاً كاملاً على الأرض (٢) . وفي اثنين من الديالوجات الأخيرة « السياسي » و « القوانين » عبر عن مزاج أكثر اعتدالاً نحو الصور الموجودة للحكومة وفي مصنفه الأخير وضع تخطيطاً مجملًا لسياسة في المستوى الثاني تكون مجالاً للمثل الأعلى الذي يتكافأ مع حقائق الحياة ولكن وظيفته الحققة في خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياته كانت في الأكاديمية كلية البحوث العلمية والفلسفية التي أسسها ومنحها الهبات . ويمكن أن تقيم الأكاديمية وهي على حق ، الدعوى في اعتبارها أقدم جامعة في التاريخ . وكان الطلاب يهرعون الى هناك من جميع أنحاء العالم الهليني وخاصة أدكسس Eudoxus (٣) وهو رياضي وفلكي من كوزكس Cyzicus وأرسبتطاليس الشاب من سستاجيرا ، على الساحل المقدوني . وكان أعضاء المدرسة يسهمون في حياة مشتركة ويقيمون في الأكاديمية وينهمكون لا في الدراسات الفلسفية الخالصة فحسب ، ولكن في البحوث ، في الرياضيات وعلم الحياة ومسائل الاخلاق والقضاء . وكان من بين جلائل أعمالها وضع الهندسة المجسمة ، ولقد نادى أفلاطون عند وضع تخطيط مجمل ، لمنهاجه في الدراسات العليا ، في « الجمهورية » بمعاونة الدولة لهذا العلم الجديد (٤) . ويرجع أساس النهج الذي سار عليه بعد ذلك الفكر والمراس التعليمي في العصر الاغريقي - الروماني وفي العصور الوسطى على السواء ، الى انشاء أفلاطون للأكاديمية ولقد جرت العادة في البحث عن المصلحين في التشريع من بين صفوف المدرسة . وآخر مصنفات

(١) الجمهورية : ٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ .

(٢) الجمهورية : ٩ ، ٥٩٢ .

(٣) عن أدكسس راجع هيث Heath في « تراث اليونان » الصفحات ١١٧ وما يليها وقد كشف عن نظرية التناسب التي جاء شرحها في اقليدس الكتاب الخامس وكذلك منهج الفناء في قياس المساحات والمجسمات منحنية الاضلاع ، الذي أفاض فيه بعد ذلك ، أرخميدس .

(٤) الجمهورية : ٧ ، ٥٢٨ .

أفلاطون «القوانين» هو مثل لهذا الفرع من بحوثها^(١) . وللا كاديمية تاريخ طويل باقى الذكرى . لقد كانت النموذج للمؤسسات التى جاءت بعد ذلك مثل كلية أرسططاليس فى اللسيوم Lyceum « الملعب الرياضى » وكليات الرواقين والأبيقوريين واستمرت قائمة كموطن مركزى للتعليم الأفلاطونى طوال ألف سنة الى أن قطع الاعانة نهائيا عن المدارس الوثنية وألغى نظامها ، الامبراطور المسيحى جوستينيان (٥٢٩ م) .

٢٤ - لقد ظهرت فلسفة أفلاطون ، بسبب اعراضها عن الدنيويات ومشاليتها الكاملة، التى لا تقبل انتقاصا، لعقول كثيرة، أكثر قربا لروح المسيحية منها لروح اليونان التى كانت تتطلع الى هذه الحياة وفرصها لارضاء مطامح الانسان العقلية والخلقية . وفى هذا التوكيد صدق ، ولو أن للاختلافات أهمية حيوية أكثر من التشابه . ان مبادئ أفلاطون عن خلاص النفس عن طريق تقويم العقل تقوينا شاقا وقيام أرسطقراطية علمية بالتوجيه الروحى للمجتمع ، تقصينا فى شوط بعيد ، عن المثل الأعلى لحكومة روحية يكون دخولها ليس للحكيم والمتعقل ولكن بروح الطفل الصغير . وعلاوة على هذا ، فقد قام الدليل على أن أصول التصورات فى فكر أفلاطون ، أثبت بالشمار فوق ما كان يتوقع ، فى صوغ المثل الأعلى الهلينى فى الحياة . وظل الاعتقاد الذى عبر عنه فى « الجمهورية » بأن أسمى حياة ليست حياة المتعة أو السلطان ، ولكن حياة التأمل ، المثل الأعلى الذى كان له السيطرة على الفكر القديم . وعندما فقدت دولة - المدينة استقلالها وأوصدت الحياة العملية للنشاط العام أمام المواطن الاغريقى فان أحسن العقول شغلت نفسها ، فى زيادة مطردة ، بالسعى وراء المعرفة . ان أرسططاليس ولو أنه كان على نقيض أفلاطون ، فى الكثير الغالب ، فانه مع هذا يقيم البناء فى كل مرحلة ، على أسس استاذة ويمكن بالحرى أن يعتبر أول أفلاطونى عظيم أسهم فى اعتقاده بأن حياة الفلسفة هى الحياة التى تجد فيها الروح أتم رضى وتقرب قربا عظيما مما هو الهى . وفى القرون التى ترادفت بعد ذلك ، كانت نفس العقيدة يشترك فيها على السواء الأفلاطونيون والأرسططاليون والرواقيون والأبيقوريون^(٢) ولم

(١) ان وضعه لمدونة القانون الاغريقى وخاصة الأثينى ، كما تطور فيما بعد ، كان له تأثير عظيم على القانون الهلينى وعن طريق القانون الهلينى ، على القانون الرومانى ، راجع ما يلى فصل ٦٧ § ٦ تذكره ٢ .

(٢) وخاصة اشباع الأفلاطونية الحديثة راجع السفر الثانى فصل ٩

تكن محصورة فى العالم الوثنى . ولما انتزع عنها التفسير العقلى الخاص بها ، بصفتها حياة الفلسفة فان المثل الأعلى لنشاط التأمل ، أصبح يسيطر على مسيحية القرون الوسطى ^(١) وأصبحت مريم ومرتثا اللتان ذكرهما الانجيل تمثلا نوعين من الحياة ، الحياة النظرية وحياة العمل والنشاط وقد اختارت الأولى النصيب الأفضل . ان قيام الرهبنة وكتابات دانتي وفنون النحت التى تزدان بها كاتدرائيات العصور الوسطى كلها شواهد على السيطرة التى ظفرت بها هذه الفكرة ، وهى نتاج العبقرية الهلينية والعبقرية المسيحية مجتمعتين ، على مطامح البشرية ، الروحية . ان أفلاطون مثل جميع عظماء الاغريق ، سواء اكانوا فى الأدب أم فى الفلسفة ، له اعتبار شئ ذى نفع عام . وكلما تعرض روح الانسان عن عالم الحس والتغير وتوجه صوب ما هو ابدى ولا يتغير وله وحدانية ، سواء اكان فى التأمل العقلى أم الدينى ، فانها تكون قد أقامت دعوى القوابة بروح أفلاطون .

تذكرة إضافية

من بين الاسئلة الخلقية الى كان المفكرون فى عهد الاستنارة فى القرن الخامس فى اليونان يلقونها على أنفسهم ، كأن يوجد سؤالان يتشوق اليهما القارىء فى عصرنا ، بصفة خاصة وهما (أ) مسألة مركز النساء فى المجتمع (ب) مسألة الرق .

أ - مركز النساء (١) :

فى الخطبة الجنازية كما أوردها ثفوديديس ، خاطب بركليس الناضحات من النسوة بكلماته المعروفة تمام المعرفة : « اذا كان لزاما على أن أتحدث عن الفضائل النسوية الى أولئك من بينكن اللواتى سيصبحن أرامل منذ الآن فاسمحن أن أجملها فى نصيحة واحدة وجيزة : انه لمجد عظيم ألا تظهر المرأة ضعفا أكثر مما هو من طبيعة جنسها وألا يتناولها الحديث بالخير أو بالشر بين الرجال» (٢) . وهذه العاطفة التى لا يمكن تصورها على شففى رجل سياسة معاصر يقدم تعزية علنية لشكالى الحرب ، لا بد أنها كانت تظهر مناسبة للمقام تماما لدى غالبية مستمعى بركليس من الجنسين . ومنذ قرن قبل ذلك ، كان ثيوجنس قد كتب « اننى أمقت المرأة التى تملكها نزعة الاندفاع هنا وهناك » وبعد ذلك بقرن ، أعلن مناندر Menander « ان باب المنزل هو حد المرأة الحرة» ولم يكن للنساء دور فى حياة أتيينا العامة المدونة . ومع هذا ، ففى الفن والشعر كما فى الدين ، فانهن حاضرات فى كل مكان . وقد يكن حينئذ موضوع شففة وحينئذ آخر موضوع رعب وقد يضاف عليهن المثل الأعلى فى فزع ، أو يؤنى عليهن بالتحليل فى تدبر دويق ، ولكن لا يهمل شأنهن أبدا . كانت بطلات هودر يستمتعن بوفار وحرية يتناوضان مع خضوعهن وانعزالهن فى الأزمنة اللاحقة ولو أنه من الجائز أن فروسية الاثانيين ، كفروسية العصور الوسطى ألفت على زوجات وبنات الرؤساء هالة من الرومانسية « الابداعية » أنكرت على النسوة من أصل

(١) راجع بالاضافة الى المراجع الموضحة فيما بعد ، أكسنوفون

Oeconomicus (ترجمة دكينس Dakyns) ، وبنيسكى Benecke «النساء فى الشعر الاغريقى» Women in Greek Poetry وزمرن Zimmern الجزء الثالث فصل ١٢ .

(٢) ثقو : ٢ ، ٤٥ ترجمة جوت Jowett .

وضيح (١) . ولا يوجد أدب فاجعي فيه مثل هذه الوفرة من صور النساء كما في الأدب الاغريقي ، الذي لم يهمل أى مظهر من مظاهر البشرية النسوية - الا (حتى الا زمن الهلينيستية) الحب الذى يقع بين فتى وفتاة ، بغير أن يرتاد (٢) . ان كلتمنسترا Clytaemnestra وأنتيجون Antigone وميديا Medea وفيدرا Phaedra والسستس Alcestis يقفن فى مستوى بطلات ماتسى شكسبير ، العظيمات . وفى حياة الاغريق الواقعية ، لا نتبين الا القليل الذى ينطبق على هذا الاهتمام . والمرأة الوحيدة التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ الاثينى اسفزيا Aspasia كانت أجنبية وارتبطت ببركليس فى رابطة ليس فيها تكافؤ (٣) . وفى أثينا كانت دائرة المرأة المنزل . أما دائرة الرجل ، من الناحية الأخرى ، فكانت المدينة ولم يكن للمنزل الا شأن يسير فى حياته . وفى اسبارطة ، لأسباب عسكرية ، كان يسمح للنساء بحرية أعظم وقد كن يتدربن على التمرينات العلنية حتى يشبين أمهات جنود ، قويات - ولقد أثبتنا أن النتيجة هى أنهن كن ، على ملاحظتهن ، سريعات الحركة ، يملن الى الترف والبخل والعصيان وينزعن الى الدسائس السياسية (٤) . ولقد أثار إبعاد النساء عن الحياة العامة الاغريقية الكثير من

(٢) ومن المرجح أيضا ، كما يذكر الاستاذ مري Murray (نهوض الملحمة الاغريقية صفحة ٧٥ 75 Rise of the Greek Epic) ، ان تقليد نظام الامومة الذى كان حيننا من الزمان سائدا فى العالم الايجى ، بقى بعد الغزو الاخائي . ويشير نفس الكاتب (ص ١٢٤) الى أنه فى الالياذة ، كملحمة حرب ، لا نسمع الا القليل عن النساء (الا فى نصين عظيمين الالياذة ٣ و ٦ ، ٢٣٧ حتى النهاية) فى طروادة . ويظن أنه فى الحملات العسكرية ، كانت النساء محظورات . ولقد كان صموئيل بتلر يصدق النقيضة الشيقة أن امرأة كتبت الاوديسيا وربما كانت نوسيكيا Nausicaa (انظر كتابه « مؤلفة الاوديسيا ») .

(٢) ان الاستثناء الوحيد فى رواية باقية لدينا من العصر الاتباعى هو حب هيمن Haemon وانطيجون فى « انطيجون Antigone » لسفوكلس . وفى « المسلاة الجديدة » فى القرن الرابع يكون الحب بين فتى وفتاة ، الذى ينتهى بالزواج موضوعا شائعا .

(٣) بعد قانون عام ٤٥١ ، الذى كان ينص على أن كلا الموالدين يجب أن يكونا مواطنين ، اذا كان الاطفال ليعتبروا شرعيين ، أصبح هذا الزواج الثانى من النسوة غير المواطنين ، أمرا ذائعا ولم يكن يلحق به شين .

(٤) رفى زمن لاحق ، أصبحن يملكن جزءا عظيما من الاراضى الاثبرطية . وعن النسوة الاسبارطيات ، راجع أرسططاليس « السياسة Politics ٢ ، ٩ وكذلك افلاطون : القوانين ٧٨٠ وما يليها و Protag. : ٣٤٢ و Euripides ، 'Andromache' ، ٥٩٥ وما بعدها .

الاعتراضات فى القرنين الخامس والرابع . ومما يدل على أن خطط الإصلاح كان يدور التفكير فيها ، المسلاتان ليسستراتا Lysistrata (٤١١) وبرلمان النساء Ecclesiazousae (٣٩٢ أو ٣٨٩) وفيهما نال أرسطوفانس مطالبهن فى التحرر ، بالتقريع . وكان يوجد بين الكليبيين نسوة مبعوثات ، ولقد كانت تجيش فى يوريبيدس عاطفة من الاشفاق والاشمئزاز لمصير النسوة اللواتى كان يفرض عليهن عند الوضع تحمل آلام أشد قسوة من تلك التى يلاقىها الرجال فى معمة القتال^(١) . ولقد تأثر أفلاطون من ضياع مادة طيبة لخدمة الدولة . وكان يعتقد أن الاختلاف بين الجنسين لم يكن اختلافا فى النوع ولكن فى الدرجة . كانت النساء فى الواقع أضعف من الرجال ولكن لسن أقل قدرة على أن يسهمن فى وظائف المدينة بما فيها وظيفة السيادة الفلسفية ويمكن أن يكون للنساء مكان فى كل من الطبقات الثلاث فى مدينته المثالية . وكما يسهمن فى الوظائف فكذلك يسهمن أيضا فى تعليم الرجال ولا يوجد تفكير هنا فى « حقوق المرأة » وكان لزاما أن يتبع فى تعليمهن المناهج الموضوعة للرجال ، ليس لمصالح جنسهن ولكن لمصالح المجتمع ويسير النص بأجمعه الذى جاء فى الكتاب الخامس من « الجمهورية » على مذهب المنفعة الى حد عظيم . وعلاوة على هذا ، فإن أفلاطون يقترح إلغاء البيت الخاص وادماج جميع المواطنين من كلا الجنسين فى أسرة - دولة واحدة والارتباطات الزوجية وتربية (أو التخلي عن) الأطفال والتغذية فى بواكير الطفولة يجب أن تسيطر عليها ، بصفة شاملة ، الحكومة^(٢) . وكانت الدوافع التى جهر بها :

(أ) تحسين النسل للمحافظة على نوع الطبقة الحاكمة .

(ب) الخوف من التفرق والتشيع المدنى (Stasis) اللذين ترجع نشأتهما الى المصالح والممتلكات الخاصة .

(ج) مطمح مثالى الى مجتمع لا يعرف تفرقة بين «مالى» و «مألك» ، ولكن يدق فى نبض واحد ينتظم جميع الأعضاء^(٣) .

(١) "Medea", Eur. : ٢٤٨ وما يليها ومناجاة السستس Alcestis لنفسها فى الرواية التى تحمل اسمها يستفاد منها أمور كثيرة عند موتها سيصيب طفلها الابن حظه ولكن ما سيكون من أمر البنت ؟

(٢) ان واد الأطفال ، الذى يرجح أن أفلاطون أقره فى بعض الحالات ، كان شائعا فى كثير من المجتمعات القديمة ولو فى غير أثينا على ما يحتمل . ان خطب اسأوس Isaeus تقدم الأدلة على ما يناقض هذا . لقد كان ، على وجه عام ، الأطفال من الاناث هم الذين يلاقون هذا المصير .

(٣) انظر الجمهورية : ٥ .

وأخيرا وطن أرسططاليس نفسه على حصر مشروعات المصلحين من الأحرار المتطرفين في داخل حدود الحس المشترك : واعتقد ، على عكس أفلاطون ، أن النساء يختلفن عن الرجال في النوع وعندهن نقص في القدرة العقلية والقدرة الخلقية ولو أنهن لا يفتقرن كلية اليهما . وعلى هذا فبينما يحال بينهن وبين حق المواطنين الكامل ، يجب أن يحكمهن الرجال حكما دستوريا لا حكم طغاة ، كالعبيد . ويجب أن يستمتعن بحرية محدودة ويلقن تعليما ، جعل بحيث يتناسب مع وظيفتهن الثانوية في دولة - المدينة ، وما يظهر أنه كان متأثرا به هو عدم وجود فطنة علمية لديهن وخصيصة العقل الذي يكون له السلطان (١) . ويمكننا أن نسمعه يردد صدى صوت تفوق الذكور في كل عصر : « كوني طيبة . أيتها الفتاة الحلوة ، ودعي من له القدرة » . والرجال - « كونوا مجتهدين » وظل على اتصال وثيق بالفكر الاغريقي السائد وهو يضع فيه خميرة من بهار التحرر ولكن في معالجته للقيم المثالية وحقائق الطبيعة البشرية ، على السواء ، فانه كان يتخلف عن أفلاطون شوطا بعيدا .

ب - الرق (٢) :

كان الرق بين الاغريق ، كما كان على وجه عام خلال الأزمنة القديمة جزءا من نظام تقليدى وبهذه الصفة كان يقبل دون سؤال . ونقرأ في هومر وخاصة في الاودسيا عن عبيد - قليل العدد نسبيا - يؤسرون في القرصنة أو الحرب . لقد كان مصيرا يمكن أن يلاقيه أى انسان . كان يومايوس Eumaeus ويوروكليا Eurycleia عريقى النسب ولو أنه كان يشطر عن الضحية « نصف رجولته » فلم يكن يترتب عليه أى عار . كان يومايوس يستمتع « بحياة طيبة » كملحق بالأسيرة ، مكرم ويتحدث الى أسيرة سيده كما يتحدث رجل الى رجل . وكانت خطوط الفواصل الاجتماعية أقل حدة في تلك الأزمن الأكثر بساطة (٣) .

ويظهر في العصر التالى مع الغزو الدورى نوع من الرق جديد . ان الرقيق كانوا أهليين مقهورين يرتبطون بالأرض كالعبيد في اسبرطة Helots Penstae في ثيساليا ، وبعد ذلك أيضا ، جلب انتشار الصناعة والتجارة في أعقابه تجارة الرقيق في العالم الايجى ، والمناطق الرئيسية التى كانوا يؤخذون منها كانت بين همج آسيا الصغرى وتراقيا والأراضى التى تقع

(١) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصلين ١٢ ، ١٣ وما وجه من نقد الى « الجمهورية » في ٢ الفصول من ٢ - ٤ .

(٢) راجع عن الموضوع زمون فصل ١٥ وقاموس سمث عن الآثار والفن Smith's Dictionary of Antiquities, Art. servus.

(٣) عن يومايوس Eumaeus راجع الاودسيا : ١٥ ، ٣٨٠ وما يليها .

حول أكسين ، وكانت الأسواق الهامة ، فى الولايات البحرية التى كانت تسيطر على تجارة النقل مثل خيوس وبعد ذلك أثينا . وفى أثينا ، كان يستخدم العبيد : (أ) فى البيوت للأعمال المنزلية وليس كما كانت الحال بعد ذلك فى روما ، للمتعة (ب) فى الصناعات العظيمة وخاصة فى مناجم الفضة فى لوريون Laurion (ج) كرقيق دولة ألخ ، كمجذفين فى السفن الحربية ^(١) . وقد أوردت قائمة الإحصاء عن سنة ٣٠٩ ، عددا من العبيد يبلغ ٤٠٠.٠٠٠ فى أتيكا . وكانت الغالبية العظمى همجا أما الأسرى الاغريق فكان المجال مفتوحا أمامهم للفدية . وكان يوجد ما يخفف من مصير الرقيق الأثينى العادى ويمكن مقابله بمقابلة موفقة بمصيره فى عصر لاحق فى روما أو فى مزارع ملاك الرقيق المسيحيين فى زمننا الحاضر . وكان القانون الأتيكى يبسط حمايته على الرقيق ولم تكن حياته رهن مشيئة سيده . وكان تعذيب الرقيق محصورا داخل حدود محكمة ، ولم يكن يوجد تمييز فى الملابس بين الرقيق والأحرار ولو أنهم كانوا ممنوعين عن ارتياد المعابد وميادين وأبنية الرياضة والحديث Gymnasia ، والجمعية العمومية ، فإنهم فى الكثير الغالب كان يسمح لهم بحرية الكلام والعمل . ويدعو اكسنوفن الرقيق « الزميل العامل » للمواطن ، الذى يجب أن يحكم بالحق وليس بالعنف ويوعز اليه بأن يعمل عن طيب خاطر على أمل التحرر . وهو يأتى بالتعليق على اللين الذى يعامل به العبيد فى أثينا وحكمه تؤيده الصور المرسومة فى « المسلاة الجديدة » وتقريع أفلاطون الساخر للإباحية التى يتصف بها الرقيق فى الدولة الديموقراطية ^(٢) . ولقد أصبحت عادة شائعة أن يمنح السيد رقيق منزله العتق أما فى حياته ، وأما فى وصية عند موته . ودون ريب ، كان يختلف مصير الرقيق اختلافا عظيما تبعا لمركزه كخادم أسرة أو صبى مهنة فى التجارة أو مرة أخرى ، بما فيه عثور جده ، كمستخدم فى المناجم . والحقيقة البشعة كانت ماثلة خلال التاريخ الاغريقى كله . ولكن التوكيد بأن المدنية الاغريقية كانت تعتمد على الرق كأساس لها ، يصدق فقط بتحفظات والأمران لا يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافا فيه تناسب . كان الرق على مجال واسع قد جاء لاحقا لقيام الفن والعلم الهلينى

(١) كان الرجل الفقير يمتلك عبدا واحدا لمنزله وقد يقتنى الغنى عددا قد يصل الى الخمسين . وكانت مساوىء الرق أكثر وضوحا فى المناجم . وقد كان نسياس Nicias يمتلك ألفا من الرقيق فى لوريون . قابل ثقو : ٧ ، ٨٧ عن محن الأسرى الأثينيين فى محاجر سيراكوز . ولقد أورد بروننج Browning فى قصيدته مغامرة بلاوستيون Balaustion's Adventure قصة ظفر بعض هؤلاء الرقيق بحريتهم بتلاوة يوريبندس . (٢) Mem. ، Xen. : ٢ ، ٣ ، ٣ والجمهورية Ath. : ١ ، ١٠ ، ١٢ وأفلاطون : الجمهورية : ٩ ، ٥٦٣

وازداد كلما سار ذلك الفن وذلك العلم الى تدهور . ان الأمم الأخرى مثل مصر وأشور التي كانت تستخدم الرقيق في اعداد أكثر وفرة عجزت عن أن تحقق ثقافة يمكن مقابلتها بثقافة اليونان . وعلى ذلك فلا يمكن تفسير الصفة الفريدة التي اقتصت بها المدنية الاغريقية ، على أنها ترجع الى الرق . وفوق كل شيء كان الاغريق أول من ناقش المبرر الخلقى له ^(١) . حتى لو أن ثقافتهم كانت ترجع الى الرق ، فكذلك كان أيضا فكر أولئك الذين وصلوا ، مثل السفسطائيين ، الى أصول هذا الشر . لقد كان موضوعا عاما بين شعراء وفلاسفة القرنين الخامس والرابع ، أن الرق لا يقوم على أسس طبيعية ولكن على العرف . ولقد كان الكليون ينادون في جسارة بالتحريم . وكان السفسطائي الكيداماس Alcidas يشرح في أرجاء اليونان بأن « الاله خلق جميع الناس أحرارا وأن الطبيعة لم تستعبد أى انسان ^(٢) . وقد نعى أفلاطون استعباد الاغريقى للاغريقى ^(٣) . وعلى هذا المثال فعل أرسططاليس الذى عالج الموضوع فى « السياسة » كالعهد به ، بروح مصلح محافظ ^(٤) . وكان يعتقد أن العبيد بالطبيعة كانوا ، مثل معظم الهمج ، أولئك فقط الذين بسبب قصور فى العقل والقدرة الخلقية فقدوا أهليتهم للاشتراك فى حياة دولة - المدينة . ومثل هؤلاء الرقيق « الطبيعيين » كان مقضيا عليهم بالعبودية كأدوات لازمة للحياة الحيرة ، للمواطن الهليني الحر . لقد كانوا وسائل لغايات آخر ، ولم يكونوا غايات فى أنفسهم وفى لغة زمن جاء بعد ذلك كانوا « متاعا » ولم يكونوا « أشخاصا » ويجب أن يحكم الرقيق حكما استبداديا ، لصالح سيده ، وليس لصالح الرقيق ذاته الا أن يكون ذلك بصفة عارضة . وكان يجب حقا أن يعامل بروح انسانية ولقد ذهب أرسططاليس ابعد من هذا حتى صرح أن الرقيق ، بهذه الصفة ولو أنه لا قدرة له على حياة العقل ولا يستطيع أن يكون له أية علاقة صداقة (philia - رابطة الاتحاد الاجتماعى) مع سيده ، فإن مثل هذا الارتباط قد يكون ميسورا له بصفته انسان . ان منحاه يتناقض تناقضا ظاهرا مع المثل الأعلى المسيحى للروح الانسانى . وعند أرسططاليس لا يكون للفرد من الناس ، على شاكلة هذا ، قيمة جوهرية ولم يخطر له على بال أبدا أن

(١) راجع مري : نهوض الملحة الاغريقية الصفحات ١٦ وما يليها .

(٢) وهكذا يوريببوس Ion : ٨٥٤ - ٦

« الاسم فقط هو الذى يرى فيه العبد عارا

وفى كل الامور الأخرى ، فإن رجلا كريما استعبد

لا يقل مستوى عن طبيعة الحر » .

(٣) « الجمهورية » : ٥ ، ٤٦٩ . يظهر أنه لا يوجد رقيق فى « الجمهورية »

وفى « القوانين » حيث يعترف بالرق ، توجد نصوص لتخفيف مساوئه .

(٤) راجع على الأخص « السياسة » : ١ ، الفصول ٣ - ٧ و ١٣ .

السلالات المتخلفة يمكن أن تدرب حتى تصل الى القدرة على حياة أتم وتقرر مصيرها نسبيا . وكان أرفع وظيفة لهم هي القيام على خدمة حاجات المواطن الهليني المادية . ان طرق الحصر هذه طليقة في ظاهرها . لقد أدت عند الاغريق كما عند غيرهم ، الى مساوئ خلقية لا يرغب أى شخص فى التخفيف من خطورتها . وان ما حدث من أن المفكرين الاغريق أدركوا وجود المسكل وحاولوا ايجاد حل له ، يدل على تقدم عظيم على كل ما تحقق حتى ذلك الحين فى التاريخ . وفى قصر الرق على أولئك الذين لم يكن لهم قدرة على الحياة الحرة فانهم صاغوا مبدأ يمكن أن يتوسع فى تطبيقه فى نطاق لا حد له وشال ذلك ما فعله الرواقيون . وتوجد مشاكل مماثلة فى العالم الحديث ولو أن حالة الرق وطرازه قد عفا عليهما الزمن . وعلى سبيل المثال : كيف يمكن تحقيق مستوى من الثقافة ، رفيع دون التضحية بالكثرة فى سبيل قلة تاح لها وقت فراغ وكيف تذاغ المعرفة بين الجماهير دون المجازفة باستقرار المجتمع^(١) . ان ما تسير عليه الأمور فى عصرنا الحاضر كما يقوم عليه الدليل فى معاملة السلالات المتخلفة والسير الرتيب وبشاعة الأحوال الصناعية فى البلاد المتمدينة ، على السواء ، هو على نقيض صارخ مع المثل الأعلى الذى جهر به . وليس من اللائق لناقد أن يقذف حجرا على الاغريق القدامى ، لأن ما قاموا به فعلا كان دون مستوى وصايا أعظم مفكريهم .

(١) ان قراء روايات هنرى جيمس Henry James لهم أن يعجبوا ، كيف يمكن للعالم المثقف الرائع الذى صور فيها أن يحتفظ بكيانه وهو بمعزل عن الرق الموجود افتراضا وليس فعلا ، فى الجالبين لراحته غير المثقفين .

الفصل السادس

الثقافة اليونانية المقدونية

١ - الاسكندر

١ - بانبلاج فجر القرن الرابع نلج عالما جرى عليه التغيير . ولم تعد السلطة السياسية تتركز بؤرتها في أثينا واسبارطة ، ولكن مكانها انتقل الى مراكز جديدة في الشمال ، وبدأت أحلام حكم عالمي في مجال لم يسبق له مثيل في التاريخ الاغريقي تثير مطامح رجال السياسة والقادة العسكريين . ولم تكن لسيادة اسبرطة - قصيرة الأمد ، تلك التي أعقبت سقوط الامبراطورية الاثينية - الا أهمية يسيرة أو لا أهمية للمدنية ، وسرعان ما أيقنت المدن البحرية خواء دعوى اسبرطة الظافرة في أن تكون محررتهم من نير الاثينيين ، وأن أصبح طغيانها الصغير أغلظ من حقوى أثينا . وكان العالم الاغريقي يتحرق خجلا وسخطا عندما أعادت في صلح أنتالسيدياس Antalcidas (٣٨٧) المدن الآسيوية الى ملك فارس ، ومما كان له مغزى أبعد في خطورته ، اتجاه مركز الثقل السياسي صوب الشمال ، أولا الى طيبة في بويوثيا عندما حطمت تشكيلاتها المتكتلة المتراسة مشاة الاسبرطيين الذين كانوا مرة ، أولى منعة ، في لوكترا Leuctra (٣٧١) ثم عن طريق ثيباليا الى مقدونيا . ان قيام مملكة مقدونيا هو الواقعة الأساسية في تاريخ يونان القرن الرابع (١) . وكانت تربط المقدونيين آصرة قرابة مع الاغريق في السلالة واللغة . ولما كانوا من سكان الجبال الأصلاب ومحاربين بنشاطهم ، ويملأهم نشاط مضطرم ويخلصون الى رؤساء عشائريهم فقد حافظوا على عاداتهم البدائية التي كانت لغزاة العالم الايجي الأولين . على الرغم من قشرة الثقافة التي تحيط ببلاط كان قد رحب بمؤلفي الفاجعة يوريبيدس وأغاثون Agathon . ان ملكا قويا داهية يستطيع أن يظفر ويستحوذ على اخلاص النبلاء الجامحين وأتباعهم ، كان ليجد في هذا الشعب أداة رائعة لسياسة عسكرية عظيمة .

(١) سمح للمقدونيين الذين كانوا قد حاربوا مع الاغريق ضد فارس بدخول الألعاب الأولمبية ، عام ٤٧٦ .

وفى الواقع كان مثل ذلك الملك ، فيليب الذى ارتقى عرش مقدونيا عام ٣٥٦ وهو فى سن الثانية والعشرين . وفى شبابه كانت تنشئته فى طيبة حتى يقدر الثقافة الهلينية ، وما كان أقرب لغرضه ، أن يتقن تنظيم المحاربين ، للمشاة المتكتلين المتقاربين (phalanx) . وعلى غرار بطرس الأعظم الروسى الذى استخدم المدنية الغربية لتوثيق شمل امبراطورية شبه همجية فقد نقل فيليب حاضرة ملكه من الداخل الى موقع ضاح على مقربة من الساحل وأعاد تنظيم مملكته ودرب المحاربين من رعاياه على فن الحرب . وبهذا السلاح الذى صنعه فتح تراقيا الى الشرق وأفاد من التفرق الدائم بين الدول الاغريقية فى اخضاع مدن ايجا الشمالية وأمكنه أحيانا بالقوة وأحيانا بأعمال السياسة التى كان فيها أستاذًا لا يجارى أمكنه بهذا كله الظفر بالسيطرة على ثساليا واليونان الوسطى . وحاز ذروة النصر فى خايرونيا Chaeronea (٣٣٨) على جيش طيبة وأثينا مجتمعين فغدت اليونان كلها تحت قدميه . وكانت خايرونيا - التى تتجلى فيها البطولة ، تعنى أكثر من فشل جهود ديمستيتس Demosthenes خطيب أثينا الوطنى ، لانقاذ دعوة الحرية الهلينية . لقد دق فى ذلك الميدان المشئوم ناقوس موت دولة - المدينة المستقلة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تاريخ اليونان السياسى تاريخ غزاتها المقدونيين .

٢ - وكان اخضاع اليونان فى اعتبار فيليب مجرد الخطوة الأساسية لتحقيق مشروع امبراطورية ، كان يعتمل فى عقول رجال السياسة والمفكرين فى اليونان خلال نصف قرن ونيف . وقد بينت هزيمة الغزاة الفرس عام ٤٨٠ تفوق جيش من المواطنين مدرب ، يدقعه الولاء لدولة - المدينة الحرة فى الحرب على الوفرة الهائلة من المجندين سيئى النظام والتقويم ، الذين كانت رابطتهم الوحدة فى الاتحاد ، خضوعهم المشترك لطاغية شرقى - وتعلمت فارس أن تعترف بهذا التفوق ، وقبل ختام القرن الخامس رحبت بزعماء العصابات المرتزقة من المغامرين العسكريين condottieri فى خدمتها بينما تمكنت بأربها السياسى وذهبها من بث الفرقة فى الوطن الاغريقى . ولقد أوضح ارتداد ١٠,٠٠٠ من المرتزقة الاغريق من قلب الامبراطورية الفارسية حتى الاكسين عبر أرض وعرة وبين أهلى معادين يناوئهم جيش من الأعداء - أن اليونان لا يمكن التغلب عليها حتى لو كانت الحرب على غير تربتها .

ومنذ تلك اللحظة (٤٠١ - ٤٠٠) خامرت فكرة حرب انتقام ، غزو يونانى لفارس ، عقول القادة الاغريق^(١) . ولقد رأى الفلاسفة وأصحاب

(١) مثل الملك أجسيلاتوس Agesilaus الاسبرطى وجيسون Jason من فراى Pherae الزعيم التسالى القوى .

المثل العليا من السياسيين من أمثال أفلاطون واسقراطس في حملة صليبية قومية ضد الهمج الفرصة للاتحاد الهليني وعلاج الصراع الداخلي (١) . ولكن دول - المدينة في اليونان كانت تحرص على استقلالها حرصا جاوز الحد ، دعاهم ألا يتسامحوا في قيام تكتل سياسى . ولقد فرض الاتحاد من الخارج ، الملك المقدونى . ولما دانت السيادة لقيليب بعد خايرونيا بقوة عتاده ، أعلن عن المغامرة التى طال وضع الخطة لها . وكان جيشه قد نظم وأخذ أهبطه للحرب عندما مات بيد سفاح (٣٣٦) . ووقع عبء تحقيق المهمة على عاتق ابنه الاسكندر .

٣ - ان الاسكندر يجىء فى ختام فصل قديم فى تاريخ العالم وبداية آخر جديد . كان غزو خنسيارشمى لليونان قد استهل ناحية جديدة فى المبارزة العتيدة بين الشرق والغرب . وكان اجتياح الاسكندر للامبراطورية الفارسية ختام هذه القصة فى الفاجعة التاريخية . وكانت الكارثة تعشى البصر فى سرعتها . ففي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر السبنطس وسحق حرس الفرس الأمامى على جرانيفس Granicus واجتاح الأراضى الساحلية فى آسيا الصغرى واستوثق التحكم فى الطريق العام العظيم الذى نيسر عبر جبال الداخل حتى بوابات كيليكية . وفى السنة التالية ، ظفر بأول نصر له عظيم على الملك دارا بشخصه فى اسوس Issus فى الركن الشمالى الشرقى من أرض المشرق وقد عرض عليه الملك المغلوب الشطر الغربى من امبراطوريته حتى الفرات غير أنه رفض فى استعلاء تصالحا فيه مساومة .

ان الاستيلاء على صور فى عام ٣٣٢ بعد مقاومة تنبىء سلفا عن مقاومة قرطاجنة أو اورشليم - كان الساميون مروعين عندما يحاصرون - جعل الاسكندر يملك زمام القوة البحرية فى شرق البحر المتوسط وأعقب هذا اجتياح كنعان ومصر .

وفى عام ٣٣١ واصل السير الى قلب الامبراطورية الفارسية وظفر بالغبلة فى ذروتها على دارا فى جوجميلا ، فى وادى دجلة . وقد كشف موت الملك الهارب ، فى الصيف التالى للعالم عن غرض الاسكندر الحقيقى الذى كان الى ذلك الحين ، ملكا مقدونيا وقائدا عاما للاغريق ، وهو الآن يبرز للأمام كوارث للمملكة الفارسية ، « كملك الملوك » ، بدلا عن دارا . ولقد شهدت السنوات الخمس التالية سلسلة من الحملات الرائعة والتقدم دون عائق وأخضع فيها الاسكندر الولايات الشرقية حتى أكسس

(١) يظهر أن هذا ما ينطوى عليه ما جاء فى جمهورية أفلاطون

جاسكرتس Jaxartes والى ما وراء الهندوكوش ، واخترق ممر خيبر وفتح البنجاب واجتاز وادى السند حتى مصبه . وعندما رفض جيشه السير صوب الشرق الى الكنج Ganges عاد الأسطول عن طريق الخليج الفارسي والقوات البرية عبر صحراء مكران المروعة ، ورجع الاسكندر الى سوس حاضرة فارس القديمة . في ربيع ٣٢٤ وقد خصصت شهور قليلة لتنظيم الامبراطورية واسعة الأرجاء . وقبل يونيو من عام ٣٢٣ كان قد جمع في بابل جيشا لجبا لغزو بلاد العرب . وهناك اخذته فجأة حمى ووافته المنية بعد مرض دام عشرة أيام ، وله من العمر اثنان وثلاثون عاما .

٤ - وقد فتحت غزوات الاسكندر عالما جديدا أمام اليونان ، وبتوسيع مدى المعرفة أثمت بنتائج هامة على الفكر العلمى . ولكن أعظم جلائل أعماله كان نشر الهلينية على العالم الشرقى . وتظهر عبقرية الاسكندر السياسية فى أعظم بيان فيما انتواه عن تدبير ، من صهر الروح الهلينية والروح الشرقية فى كتلة واحدة .

فمن جهة تبنى الوسيلة الفارسية فى العيش واللبوس الفارسي والعادات الفارسية - ومارس وشجع التزاوج المتبادل واعترف بديانات الشعوب المغلوبة وصار فى جميع الأمور شرقيا أمام الشرقيين . ومن الجهة الأخرى ادمج فى نظام المشاة المتكتلين المتقاربين ، الفرس وربى شجابتهم على الثقافة الهلينية ورقى أشرافهم فى خدمته . ولما كان يدرك فى وضوح أن سياسة المزج هذه يجب أن تقوم على أساس اقتصادى ، جهد فى أن يخلق مذهباً للتجارة العالمية يربط النيل ودجلة والسند ، بالبحر المتوسط^(١) . ان قلة من أتباعه المقدونيين كانوا قادرين على أن يسهموا فى هذه الأفكار العظيمة وانا لنقرأ عن سخط وعصيان بين حين وآخر فى الأعوام التى تلت عام ٣٣٠ مما كان يدفع الاسكندر الى ندرة من أفعال القسوة هى على نقيض بين من ديدنه فى السماحة وانسانية طبيعه . وكانت أدواته الهامة فى العمل على تلاحم الشرق بالغرب ، تأسيس المدن على النموذج الهليني وكانت مدن الامبراطورية

(١) كان الاسكندر يقدم نفسه فى كل مكان على أنه نصير الأديان والعادات الوطنية . وقد أظهر مجاملات خاصة ، على سبيل المثال ، لليهود ومن المحتمل أن اليهود كانوا منتشرين فى جماعات عظيمة فى أرجاء الامبراطورية الفارسية وكانوا يحافظون على طرق المواصلات الداخلية (وخاصة مع بيت المقدس) ، قدموا له خدمة عظيمة كمرشدين فى سيره فى بلاد لا بد أنها كانت ، فى الواقع ، غير معروفة . ويتحدث مهافى Mahaffy عنهم فى « امبراطورية البطالمة » صفحة ٨٥ ، على أنهم « ادارة مخبراته الطبيعية » .

الفارسية قليلة العدد وهي حقيقة تفسر نهائية انتصاراته الحاسمة في الميدان .

وكان الاسكندر يقيم المدائن في كل مكان أثناء تقدمه

الاسكندرية وهي أشهرها جميعا ، في مصر ، وفي وادي الفرات ، وفي أقصى شمال شرقى التركستان ، وعلى ضفاف السند ، وعلى شواطئ الخليج الفارسي . وهذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهلينيين كانت تكون المراكز الدائمة للثقافة الاغريقية . وكانت نتيجة هذه السياسة ، التي اتبعها خلفه ، ان حياة الاقليم الشاسع من ايجا الى السند ومن القزوين الى الحبشة أتت عليه الروح الهلينية بالتحول ، في درجة تعظم أو تصغر ، وقد تأصل العلم الاغريقي في بابل وتآذر فن ودين وحكم الهند السياسي ، بطابع العقل الاغريقي . وعندما تمنع الفكر في أن هذا العمل العظيم يمثل جزءا فقط من سياسة الاسكندر أنجزه في شهور الفراغ القليلة بين الغزوات ، تدرك أنه حدث لا يكاد يوجد له مثيل في تاريخ البشر .

هـ - وقد ادعت الاسرة الحاكمة في مقدونيا أنها من سلالة اغريقية وكان الاسكندر في خصائص الخليفة الجوهري ، اغريقيا - وفي أوقات ، كانت العواطف الجامعة تحطم حدود ما كان يتجمل به من شمائل انسانية وتقويم نفسى بطبيعته ولو أنه اظهر ، عن أعمال العنف القليلة المدونة ، ما يوازيها من ندم عارم . ولم تكن الثقافة الاغريقية عنده ، كما كانت عند الكثرة من ضباطه قشرة رقيقة تحجب الطبع الهمجي فيه - ان شعرها وفكرها أثارا اثارة عميقة طبيعته المتحمسة المستعرة ، وكان لمدة ثلاثة أعوام في أحداثه وهو بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة تلميذا لأرستطاليس أعظم مفكر في عصره ، ولقد تغذى خياله بقصيد هومر ، وفي بلاطه ومعسكره كانت تقام احتفالات الألعاب الرياضية وتمثيليات الفاجعة ، وفي ساعة الانتقام من طيبة عفا عن منزل بندار من أن تلتهمه السنة النيران . وعندما كان يجلس « كملك الملوك » على عرش دارا العظيم أو يتخذ في مصر أنواع التشريف التي كان يتميز بها فرعون ، لم يكن أبدا ضحية مجده الخاص ، ولكن ظل قلبا وعقلا اغريقيا وكانت له قوة بدنية عظيمة وشجاعة ويجازف بحياته في تهور ظاهر في الميدان . وحدث مرة في الهند أنه وثب مع ثلاثة رفاق داخل مدينة محاصرة وأصابته جراح كادت تقضى عليه . وكان لزاما على ملك المقدونيين غلاظ القلوب ، الذين كانوا ينزعون الى الحرب ، أن يملك زمام ولائهم بالبسالة الشخصية . ان قلة من الشخصيات التاريخية العظيمة يتجردون عن ضعة الروح ، كما كان الاسكندر .

ولما كان مكشوف الطوية ، صادقا ، متحمسا في الصداقة الشخصية - ويتسم بصفات الفروسية للأصدقاء والأعداء على السواء ، وتستبد به

كبرياء نبيلة وحب للشرف فانه قسر قواده وجنوده كليهما على خدمته بوشيجة قوية من المغناطيسية الشخصية ، وكانت نقاوة خصاله الخلقية مضرب الأمثال ، وأعجوبة زمانه . وبهذه الخصائص فى عقله وشخصه كان يأتلف صفاء البصيرة وقدرة على أن يلائم بين الوسائط والغايات وأسمى تفوق فى فن الحرب والجمع النادر بين الخيال السياسى وفن ادارة شؤون الدولة ، فى ذروته . وكان بطل خياله الابداعى (الرومانسى) أخلوس الياذة ولكن فى الاسكندر ترى وقد ازدوج بالحماس والشجاعة وحب المجد الذى كان للبطل الهومرى ، ميراث الثقافة الخلقية والعقلية الزاخر الذى جاءت به السلالة الهلينية فى مجرى تاريخها الطويل .

٦ - وقد جاء فى الأسطورة أن الاسكندر وهو فى النزع عندما سأل قواده عمن يورثه امبراطوريته ، أجاب « للأقوى » ولمدى عشرين سنة كانوا يتآمرون ويتحاربون من أجل الميراث ، الى أن قررت معركة أفسس فى فروجيا (عام ٣٠١) - الخطوط العريضة للتقسيم ، للعصر اللاحق . وقد آلت شبيه جزيرة البلقان الى لوسماخس Lysimachus وكونت مملكة مقدونية منفصلة لها السيادة على اليونان الاوربية وكان بطلميوس قد احتل مصر عقب موت الفاتح العظيم مباشرة ، واستمرت أسرته فى حكم ذلك القطر الى أن اندمج فى الامبراطورية الرومانية . ووقع معظم أملاك الاسكندر ، الأقاليم الآسيوية من ايجيا حتى السند ، فى يد سلوكس الذى أصبح منذ ذلك الحين ملكا على آسيا . ولا يمكننا أن نتقصى التاريخ المفصل للمشاحنات التى وقعت بين هؤلاء الحكام خلال القرنين التاليين اللذين ثارت فيهما العواصف والتغيرات . لقد كانت سياسة شرق البحر المتوسط فى أيدي حكام مستبدين ، هليينيين كثيرا ما كانوا قادة قادرين فى الحرب والسياسة ، وكثيرا ما كانوا ابداعيين (رومانسيين) فى شخصياتهم وأقدارهم ، ومن الجهة الأخرى ، كثيرا ما كانوا مجرد أوساط ، لعبا للفرص والظروف ، مغامرين محبين لذواتهم أو هاوين فن ، فيهم لخمولة ، أو عبيدا للفساد والعاطفة التى تنزع للانتقام^(١) ، وفى عصر كان يتيح فرصا لا حد لها للعبقرية الفردية فاننا لا نجد زعيما للناس من الطراز الأول الا الى تلك اللحظة التى سار فيها فى فجر القرن الثانى

(١) ان أول السلوكيين ، وأول البطالة وحكام فرغامس الا تاليديين هم أمثلة للحكام ذوى القدرة ، دمترىوس Demetrius محاصر المدن (Poliorcetes) وفورهس الافيروسى Phyrus of Epirus زعيم عصاة المرتزقة من الجنود المغامرين ، الرومانسى وانطيوخس افيفانيس Antiochus Epiphanes (مظهر الله) من هواة الفن . وتضيف « الأميرة - النمرة » التى ترجع الى أصل مقدونى اضافة عظيمة ، الى الاهتمام بأشخاص العهد (راجع بيفان Bevan - بيت سلوكس House of Selencus) .

شخص البطل القرطاجنى العظيم الى مصيره ، عبر المنظر العام للعالم الشرقى يضم الى النهاية المريرة ، كراهية لروما لا يخمد اوارها .

ولكن هنيبال كان ساميا ومنفيا فى بلاد غريبة ، وكان حكامها الانتيجونيين والبطالة والسلوكيين قد صيغوا فى قالب جد مغاير . واهميتهم للتاريخ ترجع غالبيتها تقريبا الى توسيع سياسة الاسكندر فى صبح الشرق بالهلينية . وبخلاف ذلك فقد تابعوا طريقة التعاظم الشخصى او اتبعوا فى مناهجهم فى الادارة النماذج التى وضعها السلف من حكام مقدونيا ومصر والامبراطورية الفارسية .

ولما كانوا اغريقا فى السلالة واللغة والعادات ، فقد كانوا يديرون دفة الحكم فى القصور الهلينية بمعاونة الجند الهلنى والوزراء الهلنيين . وفى نية مدبرة نشروا المدنية الهلينية وحافظوا عليها ، وسبقوا فى جيلهم رسالة روما التاريخية فى زمن لاحق ، وكان تأثير هذه السياسة فى الشرق وفى الغرب على السواء لا يمكن حصره . وكان معظم نجاحها مستقلا عن شخصية الملك الذى كان . كما لاحظنا لا يعمل شيئا أو فظا جافى الطبع . أن بلوبيوس يوصم اسم البطالة فى صراحة بأنهم شيوخ لا أهمية لهم^(١) . ومع هذا فقد كان هؤلاء البطالة عينهم هم الذين درجوا على تأليه الحكام . لقد كان ملوك مصر القديمة يعبدون على أنهم المظاهر الجسدية لأمون (= رع) وحتى الاسكندر عبد كاله أثناء حياته . وسرعان ما شاعت العادة ، بين السلوكيين مثلا . وفى منشأها كانت هلينية دون أن تكون شرقية . ان الدين الالومبى كما رأينا قد صور الالهة فى شكل الانسان وفى نهج غريب عن ديانات الشرق ، وكان اختلافهم عن الناس اختلافا فى الدرجة لا فى النوع ، الا فى واقعة خلودهم . وفى العصر الهلنى كانت الحاجة الى الخلاص يحس بها احساسا ملحا ، والاناجيل الفلسفية (التى سأحدث عنها قريبا) كانت عسيرة الفهم عسرا تجاوز الحد ، لتستهوى الخيال الشعبى ، لماذا اذن لا يجب اعتبار مخلص حى الها ؟ وزيادة على ذلك فان الممالك التى تركز الحكم فيها والتى اقيمت فى الجيل الذى جاء بعد الاسكندر كانت فى حاجة الى رمز

(١) انه يقابل « عدمهم » (Oudememeia) بقدرة السلوكيين العالية ٣٤ ، ١٤ . ولو أن الاسكندرية كانت مركزا هاما للثقافة الهلينية (راجع القسم الثانى) فقد حكم البطالة مصر على مناهج الفراعنة القدامى ، وامتخدموا القطر كضيعة شخصية تاتى بالكسب قاصرين همهم على سيادتهم ونفعهم . وانا نشمع القليل عن وزراء السلوكيين ولكن يبدو أنه أحسن القيام على الحكومة حتى تحت حكم ولاية خاملين . ان البيروقراطية كانت قد وطدت نفسها ، قبيل هذا الوقت ، فى عالم البحر المتوسط .

ظاهري للوحدة والولاء الشخصي للحاكم . وقد حققت عادة التأليه هذه المطالب الجديدة في عهد السيادة المقدونية كما بعد ذلك ، في عهد سيادة الامبراطورية الرومانية ، وانها تظهر للعبريين والمسيحيين الذين ترعرعوا في عبادة اله واحد ، خالصة ، لعنة كفر . ولكن الاغريقى والرومانى كانا ينظران اليها نظرة جد مغايرة . ولم تكن تعنى عندهم أكثر ما يعنى الوضع فى قائمة القديسين ، عند المسيحيين الكاثوليك فى زمننا ، الا قليلا .

لقد كانت طريقة طبيعية للتعبير عن العرفان بالجميل لمنافع الخلاص . ولو كان ما لدينا من سجلات وافيا أكثر مما هو عليه ، لكنا على الأرجح قد وجدنا أن مهمة بسط الهلينية كانت فى أيدى بيروقراطية قديرة ، وأن الادارة كما حدث بعد ذلك فى عهد الامبراطورية الرومانية حافظت على كفاءتها على الرغم من شطحات الأفراد من الحكام . ومثل يسترعى النظر ، لهذه الكفاءة هو تقدم الزراعة المصرية تقدما سار على مذهب منظم ، فى عهد البطالمة وهى مهمة كان قد أهملها الحكام الفرس . ونتيجة لهذا ، أصبحت مصر أهم مخزن للذخائر فى الامبراطورية الرومانية ، وزيادة على هذا - فان المدينة الهلينية وهى أداة السياسة العظيمة كان من شأنها بمجرد أن تؤسس ، أن تزدهر عن طريق حيويتها الخاصة ، العضوية . وسنتحدث فى قسم ثان قادم ، من هذا الفصل ، عن طبيعة الثقافة التى نشأت على هذا المنوال فى الاسكندرية عند مصب النيل وفى انطاكية على الاورنت وفى سلوكيا على الدجلة وفى مائة مدينة أخرى كانت تدين بوجودها الى الاسكندر وخلفائه . ولقد كان الملوك السلوكيون فى آسيا ، من بين الأسرات الثلاث الاغريقية المقدونية هم الذين حملوا أثقل عبء ، ومع هذا فقد ساروا قدما فى العمل على نشر الهلينية بما كان له عظيم الأثر . وكانت كل من مقدونية ومصر دولة متضامنة متجانسة ومن السهل نسبيا الدفاع عنها ، بينما كانت الامبراطورية الاسيوية يعوقها عدم الوحدة الداخلية والتماسك ، كما كانت الحال عينها فى فارس فى زمن مضى ، وقام الدليل على أن ملوكها كانوا غير أكفاء على أن يصاولوا فى نفس الوقت منافسيهم فى الغرب ، وفى الشرق ، البطالمة والمقدونيين من جانب ، ومن الجانب الآخر الدولة الفارثية التى نهضت فى القرن الثالث فى ايران ^(١) . وسرعان ما استعادت البنجاب استقلالها ^(٢) ، وآلت الولايات الى الشرق من دجلة ، الى الفارثيين ، وفى

(١) كان الملوك الفارثيون أسرة سقوثية ، واستقروا على الهضبة

الایرانية .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال أن مدنا اغريقية بمبستعمرات اغريقية اقيمت

فى البنجاب وأن النفوذ الاغريقى فى ذلك الجزء من الهند لم ينته باستعادة الاستقلال . لقد كتب أمير وطنى الى انطيوخس الاول يطلب منه أن يرسل سفسطائيا اغريقيا الى البنجاب ، وأجاب انطيوخس أن السفسطائيين لا يباعون (بيفان ١ ، ٢٩٧) .

بواكير القرن الثانى وجد خلفاء سلوكس أنفسهم محصورين فى الأراضى التى تقع بين الفرات والمشرق وقد حبسوا بين فارسيا وروما . وبعد مائة سنة ، توارى حكمهم حتى من سوريا وواجهت جحافل الرومان الفارثيين على الفرات .

ومع هذا - ففى خلال هذه القرون القلائل حقق بيت سلوكس أمورا عظيمة للمدنية . وبتأسيس طائفة عظيمة من المدن فى سوريا وبلاد بابل وفى آسيا الصغرى والأراضى الواقعة حول القزوين ، فانهم غرسوا الهلينية فى الشرق الأوسط ومهدوا ساحة اجتماع للفكر الاغريقى والشرقى (١) . ولم يكن الدين من جانب واحد وحسب . واذا كانت الثقافة الهلينية قد تأصلت فى آسيا ، فان ديانات الشرق أيضا بدأت تسيطر على عالم البحر المتوسط . وكان الاندماج مشحونا بنتائج هامة . انه كان فى انطاكية الحاضرة السورية للسلوكيين أن تلاميذ الديانة التى قدمها الشرق الى الغرب أطلق عليهم لأول مرة الاسم الاغريقى المسيحيون (٢) .

٧ - لقد ذكرنا آنفا أن قيام الدولة المقدونية كان معناه سقوط دولة - المدنية الهلينية ، كوحدة سياسية مستقلة ، وكان هذا الثمن الذى دفعته اليونان للفرصة التى تاحت لها فى بسط الهلينية على الشرق . وكان هذا العمل الجليل ميسورا فقط لدولة عظيمة ، وفى الأزمئة القديمة فى طول مداها ، كان معنى الدولة العظيمة ، الحكم الاستبدادى ، وسنرى كيف أن روما أيضا كفت عن أن تكون جمهورية عندما استحوذت على امبراطورية عالمية . ان الأساليب التى تستخدمها الأمم الحديثة للتوفيق بين ممتلكات فسيحة الأرجاء والاحتفاظ بالحرية السياسية وهى الطباعة والنقل بالبخار وطرق المواصلات بالكهرباء ، وفوق هذا كله الحكومة النيابية ، لم تكن معروفة للأقدمين . ولكن توكيدنا ولو أنه صادق فى معظمه ، يجب أن يقبل بتحفظات معينة . ويرجع أحد الأسباب الى أن المدنية الهلينية ماتت موتا عسيرا ولقد شاهدها

(١) حلت سلوكيا على الدجلة محل بابل التى أصبحت منذ ذلك الحين مجرد مركز دينى . وظلت سلوكيا مدينته اغريقية فى عهد الفارثيين (Tac; Ann. : ٦ ، ٤٢) وقد نسب اسطرابون (١١ ، ٥٠٩) ، الذى عاش فى عهد أغسطس عدم تقدم موارد هورقنيا Hyrcania واقليم القزوين فى زمنه الى ما وقع من أن الاغريق لم يحكماهما اطلاقا . لقد قامت الحكومة الاغريقية المقدونية فى حماس بتنمية التقدم المادى والاقتصادى ، الطرق والرى والمصارف . الخ . وعن عاليه ، راجع بيفان ١ ، ٢٨١ وعلى وجه عام الفصول ١١ الى ١٤ من كتابه .

(٢) الأعمال : ١١ و ٢٦ بدأ مذهب مشرا فى الديوع فى آسيا الغربية فى عهد خلفاء الاسكندر ، راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٨ .

الحقبة الاغريقية المقدونية مكافحات متكررة بين القوات التي تناصر النزعة الجمهورية وتلك التي تنزع الى الحكم الاستبدادى ، ولم يكن فى قلة من الحالات أن الجمهوريات كانت قادرة على الاحتفاظ بكيانها . وكان الأمر كذلك فيما يوالى حدود امبراطورية الاسكندر فى الغرب حيث ظلت جماعات مثل سيراكوز وطرنظم Tarentum ومسيليا Massilia مستقلة الى أن أدمجت تحت حكم روما . وفى جهات أخرى نجد المدن الفردية تحتفظ أو تسترد استقلالها طبقا لظروف الزمان والمكان المتغيرة . وفى اليونان الاوربية فازت أثينا واسبارطة وفاز التحالف الايطولى والتحالف الاخائى بحكم ذاتى لفترة عابرة ، وشبيه هذا يصدق على بوزنطية ، وهرقليا ، على الاكسين وخيوس وبعض بلدان ايجة ، ولقد استتمعت المدينة الجزرية ، رودس « خاصة » بعهد باهر من الرخاء التجارى تحت حكومة جمهورية ألغت القرصنة وبسطت حمايتها على الولايات الاضعف دون فرض ضريبة وأنشأت مدونة قانون بحرى ، جليلة الشأن وقامت بالوصاية على الدين والثقافة جميعا وحافظت على ابتعادها عن المشاكل الدولية حتى منتصف القرن الثانى (١) .

ومثل آخر : كانت فرغامس Pergamos التي ازدهرت كموطن للفن والثقافة تحت حكم ولاية منها ، بيت أطلس Attalus وكانوا أمراء من التجار ذوى ثراء دافعوا عن دمار الهلينية ببسالة ضد حملات المغول الهمج على آسيا .

ولكن غالبية المدن الهلينية كانت خاضعة سياسيا لاحدى الممالك المقدونية الثلاث ولقد سمح لهذه المدن ، فى معظم الحالات بالحرية التامة فى الحكومة المحلية واعترف بكثير منها مثل أزمير او المدن الهامة فى كليكىة وفينيقيية ووادى الاورنط بأنها « مقدسة ومعصومة » ، تقوم خارج مذهب الادارة العادى ، وكان مركزها تحت الحكم المقدونيين . كما كان فى عهد روما ، مماثلا لمركز المدن الهانسيية الحرة فى زمن الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان الحكم حريصين على مراعاة صور الاحترام الخلقى بتقاليد دولة - المدينة الهلينية ، العليا ، وأن يتحدثوا ليس عن « رعية » ولكن عن « حلفاء » وعن « المساعدات الاختيارية » ، بدلا عن « الجزية » وأن يقووا صالحهم المادى بمنح سخية وخاصة لمعابد المدن وأن يحجبوا على وجه عام ، تحت قناع من الحرية المعترف بها ، حقيقة الخضوع القاسية . وكانت المدن فى دورها على استعداد بأن تنزل الى الطغاة بأنواع التكريم الالهى ،

(١) أسست رودس عام ٤٠٨ وكانت تقوم بما يقوم به الوسييط ، بين اسكندرية وسوريا والاكسين والموانى الاوربية .

وهذا علامة على تدهور في مزاج دولة المدينة في القرن الخامس (١) . وفي جميع الأحوال ، كان السلوكيون يحبون الهلينية حبا صادقا ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن بسط الصبغة الهلينية كان يمكن انجازه فقط عن طريق متعضى المدينة . ولكن عندما يضع المرء موضع الاعتبار الكلى استقلال المدن الفردى وتضاعف البلدان الجدد ، في المملكة السلوكية وسياسة التسامح التى جرى عليها حكمها للتقديم منها والجديد على السواء فإن الحقيقة تظل قائمة بأن سيادة دولة - المدينة الاغريقية ومعها اصل نبع روح الحرية السياسية قد ذهبت عن الوجود . وعلى ذلك يمكننا أن نقدر المقاومة فى حماس شديد التى قامت بها أثينا ضد فيليب بزعامة ديموثينس ورفض الولايات الاغريقية من أن تعميها روعة انتصارات الاسكندر التى تأخذ بالابصار ، عن التضحية الحقيقية التى كانت تترتب على تلك الانتصارات . ولقد شعروا - بالغيرة - أن ضربة قد وقعت على الجذور التى افترخت منها الهلينية . وفى الواقع كان الأمر كذلك . وفى بطنه ولكن فى توكيد فقدت السلالة الاغريقية نشاطها القديم فى غضون العصرين الاغريقى - المقدونى والاغريقى - الرومانى .

وكان الاغريق « أشبه بمالك أسرة قديمة لا مكوس عليها الا للملك ، رهن وفقد ميراثه ولكن لا يزال يسمح له بأن يعيش فى بيته القديم . ولقد ذهب عنهم سحر الملكية الجوهرى ، ومعهم كل بهجة الحياة الاجتماعية وفيضها ، ولو أن هذه الكارثة كانت لتعمل على توسيع أفقهم العقلى وتوجد لهم مصالح جددا وعملا آخر يضطلعون به - فإن ينبوع جهدهم العقلى ما كان ليجرى مرة أخرى بمثل ذلك الصفاء والقوة كما فى أيام الحرية الكاملة لدولة المدينة ، (٢) الفردية . ودون ريب ، تفتحت فى نفس الوقت امكانيات جدد أمام الهلينية وقد أثبت مع تبدل الأحوال الاقتصادية ، نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، فانه بوجود معظم التجارة الشرقية فى يد اليونان ، تقدمت مؤسسات الأعمال فى قياس جديد على نطاق واسع . وحلت محل مناهج المصنف القديمة مناهج أخرى ، واتسعت مسافة الحلف بين صاحب رأس المال والعامل الصناعى مع النتائج التى لا معدى عنها فى أن أمان المدن التجارية الهامة أصبح يهدده الخوف من ثورة وارتفعت الأسعار فى كل مكان بحيث خرجت عن كل تناسب مع زيادة الأجور وقد فقدت الدراخمة بين القرنين الرابع والثالث نصف قيمتها وكانت الجماهير فى خطر دائم من حدوث مجاعة ولم يكن يوجد طبقة وسطى عظيمة لتكون جسرا للهوة التى كانت تفصل ذوى

(١) لقد منحت ديموقراطية مليطوس المعادة الرتب الالهية على انطيوخس الثانى الفاسد (Theos) . وعن تأليه الأمراء ، راجع مري « خمس مراحل » الصفحات ١٣٣ وما بعدها .

(٢) ورد فولز - Warde Fowler - دولة المدينة الصفحات ٣٠١ - ٢ .

اليسار العظيم عن الفقراء فقرا مدقعا . ولهذا قامت الصيحات لمجموعة الأدوية التي تسفى جميع الأدواء الثورية كالفاء الديون وتقسيم الأرض تقسيما متعادلا ومصادرة الملكية الشخصية وتحرير العبيد - تلك التي وجدت عضدا نظريا من أفكار الرواقين التي كانت تنتشر الآن بين الطبقات المثقفة (١) . وعلاوة على هذا - فان غزوات الاسكندر جلبت عالما أوسع الى داخل مجال نظر الانسان ، أكثر مما كان يتوانق مع الاحتفاظ بوطنية تتصل بالمدينة وحسب . وقد مهد استبداد مقدونيا وروما وهو يحطم الحواجز التي كانت تفصل الاغريق عن الهمج والغربي عن الشرقي ، الطريق للمثل الأعلى للمذهب الكوني الذي كانت تعبر عن فلسفة الرواقين ، وفي القضاء الروماني وأخيرا في الديانة المسيحية . لقد كان يوجد شيء فيما خلقت به العبقريّة الاغريقية وفي روحها يتعالى على قصور السلالة التي انتهجتها . كانت الهلينية نورا ليس فقط للهلينيين ، ولكن للبشرية ورأت الساعة التي غابت فيها في سماء موطنها ، فجر طلوعها بين الشعوب غير الهلينية .

« ٢ - الثقافة الهلينية »

٨ - كان البلى الذي أصاب الهلينية جد تدرجي لأن الثقافة الاغريقية احتفظت بنضارتها وتميزها خلال الفترة المستطيلة من التدهور ، لقد غاضت الينابيع ، لكن الجدول كان لا يزال يفيض ولو أن جرمه أصبح أقل وفي ركود أعظم . وكانت الأمواه ، أمواه اليونان .

وغرضنا هنا أن نضع شيكلا مجملا لخصيصة تلك الثقافة العامة لها يطلق عليه العصر الهلينيستي الذي يقع بين حكم الاسكندر وحكم روما (٣٣٠ - ٣٠ ق م) (٢) . وفي فصل قادم ، سنتحدث عن الهلينية في عهد الامبراطورية الرومانية ، ويجب أن نأتي على ذكر حقيقتين حاسمتين ، في مستهل القول : **أولا :** كان يعنى فقدان استقلال المدينة (الاستقلال المدني) أن مهمة الحكم الخطيرة لم تعد بعد من شأن المواطن الفرد ، ومنذ ذلك الحين ، يسير الأدب والفكر في جو من المصالح الشخصية وجو الحياة الاجتماعية ، وهي بعزل عن الحياة العامة .

(١) راجع تارن Tarn ، «العهد الهلينيستي» الصفحات ١٠٨ - ٤٠ عن « المسألة الاجتماعية » بتوضيح مفصل ، من الحركات الثورية في اسبارطة في القرنين الرابع والثالث (Agis, Cleomenes and Nabis)

(٢) ان التعبير « هليينستي » Hellenistic غير واف ولكنه شائع الاستخدام . وأفضل منه التعبير الاغريقي المقدوني Graeco-Macedonian أما « الاسكندري » الذي يستخدم كثيرا ، فانه مفرر جدا . ومغزى التعبير «Hellenistic» أضيق كثيرا من مغزى «Hellenism» .

ثانيا : ان اليونان تعي وعيا يطرد ازديادا ماضيها الذي أنجز ، وهي حتى ذلك الحين كانت خالقة الحاضر والمستقبل تصبح الآن تاريخية تنزع الى التأمل . انه عندما يسير الواعز للخلق الى بلى ويبدأ النشاط في الوهن تتحول السلالة صوب جلائل أعمالها الماضية لتحلل وتسجل . ان بومة منروا Minerva لا تشرع في طيرانها الى أن تبدأ ظلال المساء تخيم (١) .

٩ - ان الأدب الهليني والفن الهليني هما نتاج أحوال الحياة والفكر التي تغيرت . ان الأدب - بصفة عامة - يتميز بالثقة والعلم وبالنقد والتأمل وبمحاكاة النماذج القديمة ، وصب الخمر الجديدة في الفوارير المتيقة أو مرة أخرى ، بالرغبة في تقديم التسلية الاجتماعية لجمهور منقذ وهو يعتمد اعتمادا وثيقا على رعاية العظماء . وفي هذا المجال ، كما في مجال العمل ، كان العصر عصر رجال ماهرين من الدرجة الثانية ، وكان رجل العلم النابه حقا ، أراطوستينس Eratosthenes يلقب (بيتا Beta) (أى من الدرجة الثانية) . ولو أن هذا فيما يرجع ، كان التعبير عن الغيرة التي كان يشعر بها اخصائيون نحو زميل له نظرة عقلية أكثر اتساعا من نظرتهم . وانا اذا استثنينا رودس ، وأثينا ، فان مراكز النشاط الأدبي والعلمي الهامة ، كانت قصور الطغاة ، وكان الشعر بالطبع ، أكثر نضارة أيضا كانت الحياة في أعظم حرية ، كما في صقلية فيما يوالى مدى الامبراطورية المقدونية او في أثينا ، موطن التقاليد العظيمة ، حيث كان مظهر الاستقلال السياسي على الأقل ، يحافظ عليه في حماس .

وكانت أناشيد الرعاة (idylls) لثيوكريتس Theocritus السيراكوزي (حوالى ٢٧٠) آخر الأعمال الجليلة التي قامت بها عبقرية الشعر الاغريقية الجديدة بالذكر ، ولها مرتبة هومر وواضعى الفاجعة الاتيكية (٢) .

لقد خلق ثيوكريتس صورة جديدة من الأدب . وكان مصدر الالهام لشعر المراعى لجميع الأزمنة اللاحقة بما فيها قصيد المراعى ، القصار Eclogues لفرجل ولوسيداس Lycidas للمتوت وأدونس Adonis لشلى . وقد ازدهرت في أثينا « المسلاة الجديدة » ، في الاخلاق (٣٣٠ - ٢٥٠) التي كانت تصور أنواع الخصائص والمواقف في الحياة الاجتماعية الاغريقية ، بدلا من الشخصيات الأحياء الذين كان أرسطوفانس ، يهجوهم في تهكم ، ولقيس جلب مناندر Menander وزملاؤه من واضعى الفاجعة ، الى المسرح ، الوالد المشاغب والأبن المسرف والطفيل ومستودع الأسرار من الاناث ، والمحظية والبخيل ،

(١) هجل Hegal - مقدمة « فلسفة الحق Philosophy of Right »

(٢) ولو أن ثيوكريتس عاش في الاسكندرية في عهد بطليموس الثانى ،

فان روح شعره صقلية .

والمغامر الثرثار ، من أشباه الهرفجونيين Harpagons (١) والدجال دجلتين Dugald Dalgetty (٢) في ذلك العصر ، وفي المسلاة والأمثال والملحمة كان أمر الحب بين الرجل والمرأة ، الذي كان يخلو منه بصفة ظاهرة ، الشعر الاغريقى ، الأسبق قد صار موضوعا سائدا (٣) . وعلى سبيل المثال كتب افولونيس ، الشاعر الرودى ، وهو يقلد صورة الملحمة ، فى عهد أسبق ، فى أبيات من ستة مقاطع قصة الارغنون Argonauts وحب ميديا ليسون Jason ولقد عبر عن روح الرومانسية (الابداعية) أجمل تعبير فى شعر المراثى الذى كان موطنه الاسكندرية .

وكانت المدنية نفسها ، تحت رعاية البطالة ، مركز العلم الهلنى وكانت تقوم مكتبتان ، تضم أحدهما ٧٠٠٠٠٠ مخطوط ، وهما يدلان على الحماس الذى كان فيه يجمع الأمراء والعلماء ، عيون مصنفات الماضى ، وكانت مدارس من النقد والشرح تكدر فى مهام التحرير والتفسير . وإلى جانب العالم كان يوجد الطفيل والمتفقه . وكان العصر يجمع بين الثقافة العامة وبحث المتخصص . وبفضل البردى أصبح يوجد جمهور مثقف يعكف على القراءة وقد ازدهر النقد اللغوى والنقد الجمالى فى الاسكندرية ، وسارت فروع العلم قدما الى الأمام بمعاونة الرسائل والمعطيات الجدد . ومن بين العلماء الذين كان موطنهم المتحف كان رجل الهندسة اقليد Euclid وأرشميدس الذى كشف مبدأ الرافعة والجغرافى ارطوسثينس Eratosthenes القورينوى أول من قاس درجة عرض على سطح الأرض والعالم الهومرى أرسطرخس (Aristarchus) السمثراقيوى (Samothrace) .

ولقد كان تقدير ارطوسثينس لمحيط الأرض بثمانية وعشرين ألفا من الأميال قريبا من الحقيقة قرابة تدعو الى الدهش حقا ، وكان ارطوسثينس ايضا هو الذى أدمج فى مصورته الجغرافية ثمرات الرحلة ذائعة الصيت التى

- (١) شخصية فى مسلاة مولير « البخيل L'avare » مأخوذة عن Euelis' لفلاوطس Plautus كان يمتلك خيولا لا يطعمها جيدا وخدمها لا يكسوهم ، أما تجويعه الفيران فليس محققا . (المترجم) .
- (٢) دجلتين . . « كابتن دجالد Capt. Dugald » شخصية فى رواية « سكوت ، Sir. W. Scott ، "Legend of Montrose" كان طالب لاهوت وأصبح من الجنود المرتزقة وهو شجاع ويمكن وضع الثقة فيه اذا دفع له مرتب حسن . (المترجم)
- (٣) كان يوريبيدس أول واضعى الفاجعة الاغريقى ، فى اتخاذ حب الجنس موضوعا أساسيا . ومع هذا ، فإن الحب فى معناه الحديث المثلث نادر فى الأدب الاغريقى . (راجع انطماخس القلوفونى Antimachus of Colophon ومركز المرأة فى الشعر الاغريقى تأليف (ي . ف . بنيكى E.F.M. Benecke

قام بها فوثياس (Pytheas) المرسيلى (أواخر القرن الرابع) فى معاذاة ساحل أوروبا الأطلانطى حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال الى مصب الألب . وفى الواقع يمكن أن يعد اغريق القرنين الرابع والثالث خالقى علم الجغرافيا . وفى منتصف القرن الثالث وضع الرياضى والفلكى العظيم أرسطرخس الساموسى (حوالى ٣١٠ - ٢٣٠) نظرية مركزية الشمس ، وهو يقتفى آثار العلم الفيثاغورى والأفلاطونى^(١) . وفى الاسكندرية أيضا أصبح علم التشريح لأول مرة أساس علم الطب (هاروفلس Herophilus حوالى ٣٠٠ ق م) . وفى المستعمرة العبرية فى الاسكندرية التى كانت تتمتع بميزات خاصة ، أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار فى اصدار الترجمة السبعينية Septugint ، النسخة الاغريقية لأسفار العهد القديم^(٢) .

ان هذه الحقبة تسترعى النظر أيضا بمصنفاتها التاريخية وأشهرها مؤلف بلوبيوس (القرن الثانى) وهو رجل سياسة جمهورى اغريقى حمل كرهينة الى روما فى زمن فتح مقدونيا واستمتع بصحبة الرهط الاسقيفيونى ، ذائع الصيت .

ولقد سجل فى لغته الأصلية توسع الدولة الرومانية وقد ألهم بذلك - وهو اعتراف نادر من مؤلف اغريقى - الاعتقاد فى صلاحية السلالة الرومانية لحكم العالم . ومن الأمور ذات المغزى عن نجاح سياسة بسط الهلينية كان تاريخ مصر الذى وضعه الكاهن الوطنى مانيثون وتاريخ بابل كذلك الذى وضعه الكاهن الوطنى بروسس (Berosus) وكان عالما بابليا ، يحمل الاسم الاغريقى سليوكس هو الذى ناصر النظرية الجديدة لمركزية الشمس فى السموات ، فى القرن الثانى . ولقد أوجد الجو السياسى الذى كانت تتوفر فيه حرية أعظم فى أثينا ورودس دافعا لقيام مدارس الفصاحة ذائعة الصيت . وسنتحدث فى قسم قادم عن فلسفة العصر . وكان العهد أيضا عهد تنظيم

(١) راجع بورنت El.Gk. Ph. صفحة ٢٢٩ و Heath ، أرسطرخس الساموسى Aristarchus of Samos . ويذكر « بورنت » أن كبرنيكس صرح فى خطاب للبأبا بول الثالث أن دراساته للعلم الفيثاغورى هى التى أوجدت لديه الدافع لاعادة الكشف عن نظرية مركزية الشمس . وقد عاش اقليد فى عهد بطلميوس الأول وينتمى أرشميدس وأرطوسثينس الى القرن الثالث وأرسطرخس السمثراقيوى للنصف الاول من القرن الثانى .

(٢) أصدرت الترجمة السبعينية (LXX) وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنه كان يظن أن سبعين مترجما قاموا بوضعها ، فى القرنين الثالث والثانى . وقد عرفت الكنيسة المسيحية بالأكرة « العهد القديم » عن طريق هذه النسخة على الأخص .

المعرفة في المدارس والمكتبات . ولقد قامت مراكز للجامعات ، على أنموذج أثينا ، في العالم الهليني ، كما في رودس ، وفرغامس وطرسوس في كيليكية وفي ختام تاريخها ، فنيت الثقافة الاغريقية اعياء من فرط التعب في أكاديميات العلم ، ولكن كان في أكاديميات العلم أنها نهضت مرة أخرى وسرت فيها الحياة ، في ايطاليا في عصر النهضة . ومظهر آخر من مظاهر الأدب الهلينستي جدير بالملاحظة . لم يعد المؤلفون بعد يكتبون كما كان يكتب واضعو الفاجعة الاثينيون ، لأجل مواطنيهم ولكن وفقا للنظرة العالمية الجديدة لجمهور كان عالميا ، وفي الوقت ذاته تدرب على ثقافة الماضي .

١٠ - وكان الفن في ذلك العهد كذلك ، منذ بداية القرن الرابع فصاعدا يعبر عن النظرة الى الحياة التي تبدلت ، واذا كان فن العمارة وفن النحت في عصر فيليب والاسكندر يعوزهما استقرار وعظمة الطراز السابق فانه يوجد كسب يعوض عن الخسارة ، في اتقان الصنعة اتقانا متزايدا وتصوير العواطف الانسانية في حرية أعظم وقدرة عجيبة على ابراز الخصائص الفردية . وكلما تقدم الزمن أصبحت آيات التدهور ظاهرة للعيان في حب للأناقة التي تفيض زخرفا ، وما يبذل من جهد واع لمحاكاة المذاهب العتيقة .

ومن بين أروع آثار القرن الرابع التذكارية ، يمكن دراسة عمليتين منحوتين ، في المتحف البريطاني « الضريح Mausoleum » وهو القبر الذي أقيم في هلقرناسس Halicarnassus لماوسلس Mausolus ملك كاريا Caria (حوالي ٣٥٠) وهو عمل ، حمل سسقوفس Scopas الفارسي عبء القيام بجزء منه و « محراب نريد Nereid » من اكسنثس في لوقيا ، والاثنان يقومان شاهدين على ما ظفرت به الثقافة الاغريقية من طول باع بين السلالات غير الهلينية في آسيا الصغرى . وفي الومبيا لا يزال يمكن رؤية هرمص لافراكسيطيلس Praxiteles وهو نحات من المدرسة الاثينية خلقت تماثيله للالهة أفروديت طرازا جديدا من الجمال النسوي في الفن . وربما كان أعظم تقدم فني اختص به ذلك الزمن قيام التصوير . ولقد جلس الاسكندر مرارا الى النحات لوسيبوس Lysippus والى المصور الاغريقي العظيم أفلس Apelles القلوفوني . ولا توجد صور بين أيدينا ترجع الى ذلك العصر ولكن قسمت زعماء الحكام محفوظة على عدد عظيم من الجواهر والعملية . وفي فن العمارة ، عاين القرن الرابع استخدام تاج الأعمدة الكورنثي ذي الزهور (على سبيل المثال أثر خزجي للوسقراطس - Lysicrates في أثينا ، حوالي ٣٥٥) وفي اليونان الأصلية ، حلول الطراز الدوري الصارم محل الطراز الايوني الزاخر ، وعندما نصل الى القرن الثالث نجد أحسن فن كالحسن شعر ، يزدهر حيث تكون الحياة على أعظم جانب من الحرية . وفي اسكندرية كان يوجد اليسير مما هو جدير بالتسجيل فيما عدا احياء مصطنع للفن

المصرى الوطنى تحت رعاية البطالة ، ولقد ازدهر بطبيعة الحال تخطيط المدن .

ولما كان تخطيط المدن موضع اهتمام الاغريق منذ أن استخدم بركليس هيبوداموس Hippodamus المليتوسى لرسم موقع ثورى Thuri في مربعات ، ومنذ أن أعاد ديونوسيوس الاول وضع سيراكوز ، فقد ازدهر ، بطبيعة الحال ، فى عهد حكام مقدونيا وأقيمت الاسكندرية وانطاكيا فى تخطيط محكم يسير فى مذهب منسق . وأعظم كل المدن جمالا ، فى الموقع والبناء ، كانت فرغامس وهى من خلق أمراء بيت أطلس Attalus وكان كل من فرغامس ورودس مركزا للفن الحى فى القرنين الثالث والثانى . وقد نمت الاولى حول حصن ربوة الى أن أصبحت حاضرة الأمراء المثقفين الذى على غرار أسرة مديشى (Medici) فى عصر النهضة ، كانوا يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين . ولقد كانت رسوم فرغامس المنحوتة التى تخلد ذكرى انتصارات أطلس الاول (٢٤١ - ١٩٧) وأمنيس الثانى (Eumenes II) (١٩٧ - ١٥٩) على الغال أجمل ما وصل اليه ذلك العصر (١) . وفى تاريخ معين سابق ، توجت رودس مقاومة البطولة التى قابلت بها قوات الطغيان ، باقامة التمثال الهائل (Colossus) وهو تمثال لاله الشمس ، يبلغ ارتفاعه ١٠٠ قدم ونيف ومن صنع أحد تلاميذ لوسيبونس ، ولقد شكلت مجموعة لاقون Leocoon على نهج المدرسة الرودسية وكان فروطغنس (Protogenes) الرودسى أحد عظماء المصورين فى زمنه . ويمثل ما جاء بعد ذلك من تطورات فى فن النحت ، أعمال معروفة جيندا مثل أبولو بلودير Appollo Belvedere وفينوس (أفروديت) ميلوس . وتصوير المناظر المألوفة أو الريفية ، وصور مناظر داخل المنزل ، كأمثال صور عظام الفنانين الهولنديين فى القرن السابع عشر كان له ذبوع ويقدم تمثيلا لمشاهد الحياة الاجتماعية « فى المسلة الجديدة » . وفى عهد السليوكيين ذاع الفن الاغريقى صوب الشرق ، فى القارة الآسيوية . ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الاغريق الذين حكموا لمدة قصيرة فى البنجاب أن الهندود تعلموا نحت الحجر واقامة الابنية به . ويجب أن نتذكر أيضا أن أدب وفن العصر الهلينستى وضعا طابعهما على أدب وفن روما وعلى هذا ، فعن طريق روما ، أثرا على المدنية الخالفة تأثيرا أكثر عمقا من تأثير الأعمال المثالية العظيمة فى عصر بركليس .

(١) مثل «رجل الغال فى النزاع» المحفوظ فى متحف كابيتولون Capitoline

وكثيرا ما يطلق عليه خطأ (المجالد فى النزاع Dying Gladiator)
لقد كان فن فرغامس يتميز بواقعيته الفاجعية وتفوق الصنعة وكانت تشيع فيه الحياة الحقة أكثر من أى فن آخر فى ذلك العصر .

« ٣ - عصر أرسططاليس »

عندما فقد العبريون استقلالهم القومى سعوا الى اللياذ بالدين . ولقد ترك تدهور دولة - المدينة الهلينية الاغريق ، دون ذلك المصدر للتعززية . ولقد رأينا أن معتقدات الاغريق الشعبية كفت عن أن تؤثر فى أولئك الذين كانوا أعظم السلالة تفكرا وجدا وقد تحول هؤلاء - وهم أرسطقراطية الثقافة - الى الفلسفة لتهدبهم السبيل وتقدم العون . انها فلسفة هذا العصر هى التى أثرت أعمق تأثير فى أجيال البشرية اللاحقة .

ولقد كان أعظم تلاميذ أفلاطون ، أرسططاليس - معلم الاسكندر خلال ثلاثة أعوام - وربما كانت هذه أروع آصرة تقوم بين أشخاص فى تاريخ البشرية . ان أرسططاليس ، على غرار الاسكندر ، يقف عند مفترق الطرق وتتأصل فلسفته فى فلسفة أفلاطون ولا تكاد توجد فكرة من أمهات أفكاره لا توجد جرثومتها فى الديالوجات الأفلاطونية ^(١) . ولقد فاق أفلاطون الذى كان موقفه من حياة عصره موقف الاستنكار دون ترفق ، فى أنه يمثل الحياة الاغريقية كما كانت تشتمل عليها دولة - المدينة . ويبدو أن أرسططاليس لم يكن عليما بأن ناقوس نعى المدينة الحرة قد دق فى خايرونيا ، ان ادراكه القوى بالواقعى فى الطبيعة والحياة الانسانية واهتمامه بمظاهر العالم الهليني الاجتماعية والطبيعية ، هما اللذان جعلاه من فلسفته شرحا موضحا للثقافة الاغريقية .

وكان لأفلاطون نظرة أكثر عمقا ، فى نوازع أعمال البشر ، ولكن أرسططاليس كان أكثر قربا من الهليني الذى يمثل النوع .

وكان مثله الأعلى السياسى ، دولة - المدينة الهلينية التى جاء عليها الإصلاح ٧ الثورة ومثله الأعلى للفرد ، حياة العقل التى تهيب الصورة كمبدأ للتناسب والقياس ، لمجال واجب المواطن الزاخر المتنوع الذى تقدمه حياة الدولة الاغريقية .

انه هذا الاحساس بقيمة الواقع الذى أدرك ، وضرورة تحقيق الصورة المثالية بين مواد الأحوال الفعلية ، هو الذى يميز أرسططاليس عن أفلاطون .

(١) كان أرسططاليس فى الواقع أول أفلاطوني . وتفسير فلسفته على أنها التطور الأصلى لفلسفة أفلاطون أدق الى حد بعيد من التنويه بالتناقض بينهما ، كما جرت عليه الحال مرارا كثيرة فى الأزمن اللاحقة . وبالطبع كان أرسططاليس تحدوه الرغبة فى أن يوضح لجيله المواضع التى انحرف فيها عن المذهب السائد . وكان هذا مدعاة لاساءة التفسير .

وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن حياة التأمل هي أسمى حياة ، وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن أعظم ما يكون حقيقيا هو أعظم ما يكون قابلا للمعرفة ، وقد التمس هذه الواقعية في الحقائق الأبدية التي تكون موضوعات الفكر ، لا الحس . ولكن هذه الصور الأبدية لم تكن في اعتباره كائنات عالم ينأى عن عالم التجربة الفعلية ، وإنما كانت المبادئ التي تسيطر على العالم الذى كان يعيش فيه (١) .

١٢ - وبيان مجال قيمة فلسفة أرسططاليس فى نطاق موجز ، هو مهمة غير عملية وخاصة لأنه لا يوجد توليف واحد يرجع إليه ، يهيم ، « كجمهورية » أفلاطون ، أساسا شاملا للدراسة .

لقد كانت أعماله عجالات تخصص كان يحتفظ بها فى الغالب ، فى صورة تذكرات محاضرة ، هو أو تلاميذه . موجهة الى عقول على المام بالموضوعات العديدة ويفترض فيها سلفا معرفة بأجزاء المذهب الأخرى والعلم كما لاحظنا ، كان قد أخذ طريقه للتفرع الى أقسام متنوعة . وتزخر كتابات أرسططاليس بالصيغ والتعابير الصناعية التى تفصلها هوة واسعة عن لغة التخاطب العادية . وليس الأمر فى الواقع أن أرسططاليس يصعب فهمه أكثر من أفلاطون ، ان أفلاطون يصعد بأجنحة قوية نحو الشمس . وقليل هم الذين يمكنهم أن يتتبعوه فى طيرانه ، « ان حاملي عصا باخوس thyrsus كثيرون ، ولكن الملهمين قليل » (٢) . ومع هذا فان عبقريته تجتذب القارئ دون مقاومة الى طبقة الهواء العليا ولو أن البهاء غير المعتاد يبهره ويربكه . وليس لأرسططاليس مثل هذه الجاذبية السحرية . وفى دراسة فلسفته يتطلب الأمر من البداية ، جهدا صابرا وكأمل قوة تلك « الرغبة فى المعرفة » التى يقول لنا عنها انها طبيعة فى الانسان (٣) . ولم يكن لدى معرفته ما يعادله فى ذلك العصر أو فى أى عصر آخر . والعجالات الموجودة لدينا ، تشتمل مصنفات فى المنطق والمنهج العلمى وفى الفلسفة الأولى.

(١) فى الرسم التمهيدى Cartoon لرفائيل عن « مدرسة أثينا » ، صور أفلاطون وهو يشير الى أعلى ، الى السماء ، وأرسططاليس وهو يشير الى أسفل ، الى الأرض . ويتضح من « أرسططاليس » لجيقر Jaeger تطور أفكاره بعيدا عن « العالم الأفضل » لأفلاطون ، واتجاهها نحو تركيز فى العلم الإيجابى .

(٢) Phaed. ، ٦٩ .

(٣) Met. : ١ ، ١ ، الكلمات الافتتاحية .

تراث العالم القديم

أو الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) (١) وفى الطبيعة المادية وفى علم الأخلق وفى علم النفس ، وفى الفصاحة وفى الشعر ، يضاف إليها عدد وافر من الكتابات جلية الشأن فى علم الحياة . ويمكن أن يعد أرسططاليس واضع علم الحيوان وتلميذه ثيوفراسطس واضع علم النبات . لقد كان هذان العلمان هما اللذان كان يعنيهما شارلس دارون عندما كتب « لقد كان لنايوس Linnaeus وكوفيه Cuvier الهينلى ولو فى طريقين جد مختلفين ولكنهما كانا مجرد صبيى مدرسة بالنسبة الى أرسططاليس العتيد » (٢) . وفى مجال واحد فقط خبا ضوءه أمام غيره فى عصره ، فى علم الرياضسة حيث قام الدليل منذ زمن بعيد على أن نقائصه ، نظرا لما كان له من سلطة على الأزمن التالية ، كانت عقبة فى سبيل تقدم تلك العلوم - كالفلك - التى تعتمد على أسس رياضية . وبالنظر الى استحالة احصاء هذه المجموعة العظيمة من البحوث النظرية فاننا سنختار مسألتين من شأنهما أن يوضحا المبادئ الأصلية فى فلسفة أرسططاليس وكذا اختلافها عن فلسفة أفلاطون ، ونقدم القارئ الى تصورات أثرت تأثيرا عميقا على مدرجة الفكر الهلينى والفكر فى العصور الوسطى ، فيما جاء بعد ذلك من الزمان . وهذا هو مبدؤه عن الوجود ومثله الأعلى عن الخير الأعظم للانسان (٣) .

١٣ - نظرية الوجود : كانت واقعة التغير الظاهرة على السواء فى الحركة المادية وفى نمو المتعضيات الحية Living organisms وفى تقدم الانسان العقلى والخالقى هى التى أوجدت لأرسططاليس مسألة العلم التفكيرى ، الأساسية - ان التغير يتضمن ذاك الذى يتغير أى أن موضوعات التغير الدائمة - الأشياء الجامدة والأشخاص - التى تكون فى آن حارة ، وفى آن باردة وفى آن صالحة وفى آن طالحة وتتخذ صور الحرارة والبرد والفضيلة والرذيلة . ان البرد لا يصير حرا ولا تكون الفضيلة رذيلة - انها ليست الصورة التى تتغير ولكن الفرد الذى يستقبل الصور . وهذه الأفراد الجامدة ،

(١) أطلق تسمية « متافيزيقيا Metaphysics » (أى ما وراء الطبيعة) على هذه العجالة كتاب جاءوا بعد ذلك ، فى الأزمنة القديمة ، لسبب عرضى محض وهو أنها جاءت تالية لفيزيقيا Physics فى ترتيب أعمال أرسططاليس التى نشرت . وعلى هذا استخدم التعبير متافيزيقيا Metaphysics بصفة عامة ليدل على علم الوجود ، وهو مادة هذه العجالة . وقد أطلق أرسططاليس نفسه على هذا العلم « الفلسفة الأولى » أو علم اللاهوت .

(٢) دارون ، حياته ورسائله ، ٣ ، ٢٥٢ .

(٣) عن الأقسام التالية ، على القارئ أن يرجع الى المصنفات التى وضعت عن أرسططاليس ، التى جاء ذكرها فى فهرست قائمة الكتب فى المجلد الثانى .

هذا الحجر أو هذه الشجرة أو سقراط مركبات من المادة (hylé) والصورة (eidos) ولا يمكن ارجاعها الى مجرد صورة لأنه كما قلنا ، لا يمكن للصورة أن تتغير ولا يمكن ارجاعها الى مادة ، لأنه لا يوجد شيء إلا اذا كان ثمة شيء ، معين ، وهب خصيصة أو صورة كحجر أو شجرة أو رجل . ومجرد مادة ، غير محددة على الإطلاق وخالية من الصورة ، ليست موجودة وجوداً فعلياً ولكن تصور محدد ، لازم لشرح الضرورة والتغير . كيف يمكن في الحق لأي شيء ، أن يصب الى وجود ، من ذاك الذي لم يكن من قبل شيئاً محدداً ؟ والصورة ، مرة أخرى ، لا وجود لها كما كان يظن أفلاطون ، في سماء ، تسمو على الحس بمعزل تام الانقطاع عن عالم تجاربنا الواقعي لأنه ماذا كان يمكن لنمل تلك الصور المنعزلة أن تضيف الى وجود عالمنا عالم التغير ، أو الى معرفتنا به ؟ وعلى هذا فقد كان أرسططاليس يذهب الى أن الفرد الجماد وليس مجرد الفرد العام ، هو الذي له وجود جوهري . وعندما سُئل ماهو الجوهر (ousia) ؟ - أجاب : « هذا الحجر ، هذه الشجرة ، أنت ، وأنا »^(١) . وجميع حالات الموجود الأخرى هي صفات وميول أو علاقات هذه الحالة الأساسية ويمكن أن توجد فقط وهي تعتمد على الموجود الجوهري . ان « أسود » أو « تعادل » ، يمكن فقط أن يكون لهما وجود اذا كان يوجد شيء أسود أو شيئان متعادلان ، وشأن الفلسفة هو الكشف عن علل هذه الجواهر الفردية وبهذا تشرح التغيرات التي تطرأ عليها ، ويوضح أرسططاليس كيف يتطلب مثل هذا الشرح تعاون أربع صنوف من العلة ، حتى يمكن لأي شيء أن يكون له وجود وافرض تمثالا ، فيكون المطلوب :

(أ) المادة (hylé) التي ينشأ منها مثل كتلة الرخام .

(ب) مبدأ للحركة خارجي يستهل عملية التغير النسقية أي العقل واليد والمنحاحات .

(ج) الصورة (eidos) التي تتحقق في العملية النسقية وعن طريقها

مثل صورة زيوس لفيدياس أو صورة هرمس لأفراكسيطيلس .

(د) هدف وغاية العملية أي التمثال المنجز كهدف لعمل المنحاحات .

وعلى هذا يجب أن نفترض علة مادية وملائمة وصورية ونهاية . ومن الواضح أن العلل الثلاث الأخيرة من شأنها أن تتألف . انها صورة (ج) التمثال التي هي غاية المنحاحات و (د) فكرة هذه الغاية في عقله هي الدافع المحرك (ب) التي تكون بادئة وهادية نسق عمله . وتصور الصورة على أنها غاية أو غرض التقدم ، بالمقابلة مع المادة غير المهيأة هو الفكرة الأساسية في

(١) في الواقع ، أدلى أرسططاليس بإجابات متعارضة عن هذا السؤال :

ولكن النص يذكر الاتجاه الأساسي في حله للمسألة .

كل فلسفة أرسططاليس . وكذلك فى علم الأحياء وفى علم النفس وفى علم الأخلاق وفى نظرية الفن ، فإن شرحه ، كشرح ألاتون ، ينتمى الى مبحث العلة الغائية ، وعملية الكون النسقية فى جميع تفصيلاتها تفسر على أنها جعل القدرة على تقبل الصورة واقعية ، فى تدرج وفى كل حالة تصل العملية النسقية الى غايتها فى تحقيق الصورة المناسبة وعلى ذلك فإن الشئ الذى لم تكتمل تهيئته ، يجب أن يفسر فى ضوء الشئ المهيأ وليس العكس . إن الرجل يسبق الطفل وشجرة البلوط تسبق ثمرة البلوط - والبده من البداية هو ببساطة البده من الطرف الخطأ^(١) . وبهذا يعبر أرسططاليس عن الفرق بين المادة والصورة بما فيه أعظم جدوى فى حدود ديناميكية كحد القدرة (dynamis) والواقعية (energeia) فالطفل هو قدرة الرجل وثمره البلوط هى قدرة شجرة البلوط وعندما تجعل صورتا الرجل وشجرة البلوط واقعيتين فى كلا الفردين على السواء ، فإن العملية النسقية تكمل وتحقق الغاية . ولكن يجب أن يلاحظ ، اذا كانت العملية النسقية لتبدأ اطلاقا ، أن الصورة والواقعية بسبق افتراضهما ولو أن هذا فى فرد آخر من النوع . ويمكن أن يصير الطفل الى وجود ، فقط عن طريق وساطة والد بشرى موجود فعلا . وبهذا النهج فى التفكير يصل أرسططاليس الى وجود الله الأبدى كصورة خالصة . وبما أنه فقط فى قوة واقعية (صورة) موجودة فعلا - يمكن لقدرة الفرد أن تتحرك صوب الواقعية ، بما أن الانسان فقط يستطيع أن ينجب انسانا ، ويتطلب انتاج التمثال وجود سابق للصورة فى فكر النحات . فهكذا الحال أيضا مع واقعة التغير الأولى ، حركة الكون . واذا كنا لنتخلص

(١) هذا يبين كم كان تفسير أرسططاليس للطبيعة العضوية - على الرغم من اصراره على فكرة التقدم وعبقريته كعالم أحيائى - يختلف عن تفسير العلم الحديث الذى يقول بالتطور . ولم يطبق فكرة التقدم على الأنواع ، التى كان يعتبرها منعزلة وثابتة . وقد أدى به مبحث العلة الغائية الى أن يرفض فى احتقار الآراء عن عملية نسقية تطورية بالانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح التى أفضى بها أنبادقليس . « يمكن أن نفرض أن جميع الأشياء حدثت عرضا كما كان ليحدث لو أنها أنتجت لثمة غاية . لقد بقيت أشياء معينة لأنها كانت فى الوقت نفسه قد حصلت على تكوين مناسب بينما تلك التى لم يتهىأ لها ذلك فنيت وأنها تسير الى فناء كما يقول أنبادقليس عن الثيران التى لها رؤوس بشرية » . وهذا ، فى رأى أرسططاليس ، من شأنه أن يفسر الطبيعة على أنها وليدة الصدفة بينما الطبيعة لا تعمل عبثا وتحقق الهدف بطريقة عادية «فى الكثير الغالب» . راجع « الطبيعة » ٢ : ٨ وبورنت E. Gk. Ph. صفحة ٢٤٣ (عن أنبادقليس) الذى أوردت، هنا ترجمته للنص . قابل كذلك (عن انكسيمندر) E. Gr. Ph. صفحة ٧١ .

من الرجوع بالأسباب رجوعا لا نهاية له ، فيجب أن يوجد محرك أول أبدي لايجاد سبب حركة السموات الأولى ، الأبدية ، وبما أن السبب هو دائما شئ آخر غير النتيجة والمحرك غير المحرك فإن المحرك الأول لا يمكن ، كما كان يعتقد أفلاطون أن يكون متحركا بذاته ، ولكن يجب أن يكون هو غير متحرك^(١) . والمحرك الأول الذى لا يتحرك هو صورة خالصة واقعى أبدا والهى . وفى مذهب الألوهية لأرسططاليس ، لا يوجد مكان لخالق ، لأنه ليس للكون بداية فى الزمن وفعل الخلق يتضمن حركة وتغير وقدرة فى الله ، كذلك يرى أرسططاليس الا مكان لعناية ربانية لأن الله يقع خارج الطبيعة ومنعزل عنها ، وحياته ليست حياة نشاط عملى ولكنها حياة تأمل بسيط (theoria) وهو لا يعرف حتى الكون ولكنه ادراك له وعى ذاتى خالص وهو فى نفس الوقت ذات ، وموضوع فكره الذاتى البالغ شأن الكمال . وهو الأحد فى هذا تعالى المطلق ، يجتذب العالم نحوه كهدف رغبته « ان العلة النهائية تنتج حركة كما يفعل موضوع حب » ، وعن طريق ذلك الذى يحركه (الطبقة الخارجية للنجوم الثوابت) تتحرك جميع الأشياء الأخرى ، وعلى مثل هذا المبدأ ، اذن تعتمد ، السموات وعالم الطبيعة ، وحياته تكون كأحسن ما نستمتع به ، ونستمتع به أمدا قصيرا ، لأنه أبدا فى هذه الحالة (التى لا نستطيع أن نكونها) بما أن واقعها هو أيضا متعة .. فإذا كان الله على الدوام فى تلك الحالة الخيرة ، التى تكون فيها أحيانا - فان هذا يدعوا جبرا الى عجبنا وإذا كان فى حالة أفضل - فان هذا يدعوا جبرا الى المزيد منه . والله بالتوكيد فى حالة أفضل والحياة أيضا ملك الله . لأن واقعية الفكر هى الحياة والله هو تلك الواقعية وواقعية الله الذاتية هى الحياة على أعظم خير ، وأبدية . وعلى ذلك نقول ان الله موجود حتى أبدي ، وهو الخير فى منتهاه ، وان الحياة والبقاء مستمرين وأبديين يملكهما الله . لأن هذا هو الله ،^(٢)

١٤ - الخير الأعظم للإنسان . ودليل أرسططاليس على وجود الله من واقعة الحركة ، يهيم الأساس الفلسفى لعلم اللاهوت فى القرون الوسطى . وكان له المكانة الرئيسية بين البراهين التى صاغها أكويناس Aquinas ويمكن تعرفه على أنه المصدر الذى استمد منه دانتي تصوره للمحبة التى

(١) ان تأثير دليل أرسططاليس على أن الله عمل خالص وأنه المحرك غير المتحرك ، للكون ، على فلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ، كان عميقا كما يعرف كل قارئ لدانتي .

(٢) « ميتافزيقا » ١٢ ، ٧ (ترجمة روس Ross) .

تحرك الشمس والنجوم الأخرى»^(١) . والعبارة المقتبسة آنفا من «الميتافزيقا» توحى بجواب أرسططاليس عن المسألة الثانية من مسائلنا ، وهي Summum Bonum أو الخير الأعظم للإنسان . وبينما كان أفلاطون يلح دون هوادة على أن معرفة الخير المطلق كان أمرا جوهريا للفضيلة الحقة والنعيم وأن هدف طبيعة الإنسان كان يمكن فقط تحقيقه في حياة الاخلاص للفلسفة ، فان أرسططاليس يتحول عن البحث عن المطلق الى البحث عن صورة خير الإنسان المعينة ، وهي الغاية التي يمكن أن يصل اليها المواطن الخير في دولة - المدينة الهلينية في مدار حياته الأرضية ، انها توجد هنا أو توجد في أي مكان آخر ، لأن الروح الفردية ، كصورة للجسم العضوي ، تعيش في اتحاد مع الجسد ، مادتها ، ولا يمكن أن يكون لها دعوى في الخلود . وتحديد صورة الحياة الخيرة التي فيها يكون النعيم الانساني (eudaimonia) هو موضوع العلم السياسي الذي يعالج تقدم قدرات الإنسان الطبيعية نحو تحقيق هذه الغاية ولقد تناوله أرسططاليس في «عجالتين» (Nicomachean) ، علم الأخلاق والسياسة^(٢) . وعند أفلاطون كان علم السياسة لا ينفصل عن الميتافزيقا (ما وراء الطبيعة) اذ يجب أن يكون الفيلسوف ملكا والملك فيلسوفا ، ومن الوجهة الأخرى يفرق أرسططاليس تفرقة قاطعة بين المعرفة والعمل وبين العلم النظري والعمل . ولقد عنى أرسططاليس بمسائل الأخلاق بروح تجريبية واستقرائية ، وكان الفرض من العاملين أن يكونا كتابين يدوين للشارع في مهمته العملية في تعليم المواطن استيعاب الصورة الكاملة للفضيلة الاجتماعية^(٣) . وقد عرف النعيم (eudaimonia) ، الخير الأعظم للإنسان بأنه « نشاط الروح المطابق للفضيلة (areté) والفضيلة بأنها « مزاج الارادة المستقر وهو ، في معمله ، النسبي ، يحدده المبدأ العقلي وكما يمكن أن يحدده انسان ذو حكمة

(١) أكويناس Summa Thed. ، ١ ، ٩ ، ٢ - Art. ٣ و Summa

contra Gentiles ١ فصل ١٣ - ودانتى « الفردوس » ، ٣٣ ، ١٤٥ .

(٢) ينصح الى القارئ ، اذا كان غير ملم بأعمال أرسططاليس ، أن يبدأ دراستها مع « علم الأخلاق » وعن الترجمة الانجليزية ، يراجع فهرست قائمة الكتب في المجلد الثاني .

(٣) وهنا أهمية علم الأخلاق كمعبر عن المثل العليا الاغريقية الشائعة وأنواع السلوك . ويكتب أيكن Eucken « ان مذهب أرسططاليس متأصل تأصلا كليا في العالم الكلاسيكي وتعمل آراؤه الأساسية وقيمها ، دون انقطاع ، فيه . ان مذهب أرسططاليس يبرز جوهر العالم الاغريقي الكلاسيكي في تعبير علمي مكتمل رائع وعلى هذا يسلمه الى البشرية القادمة » (مسألة الحياة الانسانية) .

عملية «^(١)» . ويجب أن يفهم « المعدل النسبى » على أنه ليس مقياساً للشيء الوسط ، أو التصالح مع الشر ولكن مراعاة التناسب العدل الذى يقابل الافراط ونقصان الوجدان والفرض فى كل من المواقف المتنوعة التى تستدعى العمل . وقوة التعريف تكمن فى نزعتة الى مبدأ عقلى (logos) ويعنى به ليس صبغة معنوية للسلوك ولكن حكماً صائباً فى جميع الأمور يوجد فى نفس المواطن التفوق السامى فى الحكمة العملية phronêsis .

ان أرسططاليس يبحث طائفة من المسائل التى تنجم عن هذا التصور للخير الانسانى كوضع مبدأ خلقى بالتعود على السلوك القويم وطبيعة العمل الاختيارى والمسئولية عما يرتكب من خطأ وصور الفضيلة المعينة وما يقابلها من رذائل ومقياس العدالة فيما يتعلق بتطبيق القانون لها ، والعلاقة بين النعيم والمتعة والمثال الأعلى للصدقة الانسانية^(٢) . وهو يوجه التفاتاً خاصاً بالنظر الى تعرف سقراط وأفلاطون هوية واحدة للفضيلة والمعرفة الى الطالب العقلية للخير والحياة الخيرة . ولو أنه لا يشك فى الحاجة الى التفوق العقلى كأمر جوهري للعلاج الخلقى فان واقعة الرجل ذى الارادة الضعيفة الذى يعرف ما هو صواب ، ومع هذا يفعل ما هو خطأ يبعد تعرفهم هذه الهوية الواحدة لهما . وعلاوة على هذا فان الحكمة التى تكون مطلوبة ، ليست حكمة (Sophia) الفيلسوف النظرية ولكن حكمة السياسى العملية^(٣) (Phronêsis) . انه من الصعب الغلو فى بيان اثر بحث أرسططاليس لهذه المسائل على الفكر فى الأزمنة اللاحقة . ان المبادئ الأخلاقية عند الرواقين وأصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة وحتى الأبيقوريين هى الى حد عظيم تطورات لمبادئ أرسططاليس وقد أثرت معالجته للمسئولية عن الجريمة على القضاء الرومانى ، والأقسام الخلقية فى "Summae" لأكويناس وبنه وفحوى منظومة دانتي « الكوميديا الالهية » تبين أثر «علم الأخلاق» فى كل حيدة^(٤) . واذا كان التفكير المسيحى فى قصارى نعيم الانسان يقتضى ، بطبيعة الحال طريق « العالم الأفضل » لأفلاطون فقد استمد الكثير

(١) علم الأخلاق : ١ ، ٧ و ٢ ، ٦ .

(٢) التعود - « علم الأخلاق » ٢ - المسئولية « علم الأخلاق » ٣ و ١ صور الفضيلة والرذيلة ، المعينة « علم الأخلاق » ٣ و ٦ وما يليها ٤ و « علم الأخلاق » ٥ المتعة - « علم الأخلاق » ٧ ، ٦ وما يليها ، ١٠ ، ١ - ٥ الصداقة « علم الأخلاق » : ٨ و ٩ .

(٣) عن ضعف الارادة « علم الأخلاق » : ٧ ، ١ - ٥ . عن التفوق العقلى (وخاصة Phronêsis, Sophia) - « علم الأخلاق » : ٦ .

(٤) انظر المجلد الثانى فصل ١١ §§ ١٠ و ١١ و ١٤ .

من تعليم أرسططاليس . الخلقى فى تطبيق ذلك المثل الأعلى على حياة الانسان الأرضى .

وأرسططاليس نفسه على الرغم من توكيده للمواضع التى اختلف فيها عن أستاذه يضرب ، فى ختام « علم الأخلاق » ، على نغمة أفلاطونية قوية وبما أن النعيم يكون فى ممارسة أعلى نشاط للروح وبما أنه فى الروح الانسانى يكون للعقل بالطبيعة المكانة العليا وعلى ذلك يتحتم أن تصل صورة وغاية تطور الانسان الى أكمل تعبير لها فى حياة التأمل الفلسفى وفى تلك الحياة يمكنه أن يستمتع ، ولو فى فترات متقطعة ، بنصيب من الرضى الذى يستمتع به الله ، كعقل خالص بصفة أبدية . وعندما يتحدث أرسططاليس عن واجب الانسان بأن يوجه حياته على هدى ذلك الذى فيه ، الذى يغلب أن يكون شبيها بالله والنعيم العجيب الذى يجلبه مثل ذلك الاخلاص ، من مجامع القلب ، ويتعرف هوية هذه الخدمة الحرة فى حياة الدراسة الفلسفية فانه لن نفشل فى أن نتعرف فى لغته الانعكاس المباشر لتجربة شخصية « ان الانسان يجب ألا يفكر ، كما يظن أولئك الذين يقولون بذلك ، الأفكار البشرية لأنه انسان أو الأفكار الآدمية لأنه آدمى - ولكن بقدر ما يستقر فيه يجب أن يرتدى الخلود ويفعل كل شيء لكى يعيش وفقا لإسمى ما فيه لأنه وان كان صغيرا فى الجرم ، فانه يسمو على كل ما عداه فى القوة والقيمة ، (١) .

١٥ - ولم يكن أرسططاليس مجرد تلميذ أفلاطون ولكنه رسول عهد جديد فى تاريخ الفكر ولقد زيدت المواد الموجودة فى متناول المعرفة زيادة تربو على القياس ، عن طريق حملات الاسكندر وأصبح تحت تصرف أرسططاليس مجموعات هائلة جمعها العلماء الذين رافقوا تلك الحملات . ولقد كانت له الحرية فى استخدامها لأبحاثه التى تتصل بعلم الحياة ، وكذلك للمعاونة على إعادة بناء فلسفة يجب أن تربط مختلف العلوم فى مذهب شامل . ان عمليتين جليلين يرجعان اليه خاصة ، لقد حدد منهج البحث العلمى ووضع مصوره بأقاليم المعرفة الانسانية . لقد كان أرسططاليس المؤسس الحقيقى للمنطق ليس فى معنى القول المأثور ذائع الصيت الذى يرجع الى جون لوك John Locke « لم يكن الله مقترا الى هذا الحد على الناس ليجعلهم مجرد حيوان ذى رجلين ، فترك لأرسططاليس أن يجعلهم أولى عقل » (٢) . ولكنه فى ذلك وهو يقيم البناء دائما على أسس أفلاطون ، نراه يحلل طرق التدليل

(١) « علم الأخلاق » : ١٠ ، ٧ .

(٢) لوك « عجالة عن التفكير الانسانى » : ٤ و ١٧ .

العقلي النسقية ويصوغ المنهج الذى يمكن الوصول به الى الحق المرشد ،
الذى يتميز عن الحق المرجح وحسب .

ولقد أثارت الصورية والاصطناع فى المنطق الأرسطوى الكاذب لدى
رجال المدارس المتأخرة رد فعل طبيعى بين كبار رواد العلم فى القرنين
السادس عشر والسابع عشر ، وهو لا يزال يربك عقول الكثير الذين يجهلون
تاريخ الفكر .

وفى الواقع كان أرسططاليس ، الذى لم يكن قط عبدا للصيغ ، ليتعرف
فى غاليلو وفى ديكارت التحقيق الصادق لمبادئه الخاصة فى المنهج العلمى .
ولقد كان يستهل كل عصر جديد فى تقدم العلم التفكيرى باصلاح فى المنطق .
وكانت الحال كذلك ، ليس فقط فيما يتصل بالأرغانون Organon
أو « أداة » أرسططاليس المنطقية ، ولكن أيضا بمباحث المنهج
"Discours de la Méthode" لديكارت والأداة الجديدة Novum Organum
ليكون والمنهج النقدى Critical Method وكانت والمنهج الجدلى
Dialectic Method لهجلى . ان الفلسفة والعلم يختلفان عن التفكير
الشعبى ليس لأنهما يعنيان بمواضيع مختلفة ، أكثر من أنهما يعالجان نفس
المواضيع بطريقة مغايرة . ان النبات والحيوان وهما يكونان مادة الموضوع
لعلم النبات وعلم الحيوان كانا قد وضعا فى مجموعات وميزا وفهما فهما غامضا
قبل قيام هذان العلمان . وكانت مهمة العلم تصحيح هذه التصنيفات
الشعبية ووضع مذاهب لها ، وأن تحدد فى احكام الخصائص الذاتية للأشياء
وقوانين نموها . ولقد أدرك أرسططاليس فى جيله ، أن مسألة المنهج كان لها
أهمية حاسمة ووطن نفسه على تحليل منطق العلم فى بصر « منقطع النظر » ،
بطبيعة العملية النسقية للفكر البشرى . وثانيا - لقد حدد مختلف أقسام
العلوم كأجزاء فى كل واحد . ولا يوجد فليسوف وازن ، يمثل هذه العدالة ،
التناسب بين الكل والجزء فى المعرفة ، أو استمسك بمثل هذه القبضة الثابتة
على ما يوجد بين الأشياء من فروق مميزة حقيقية بينما أدركها جميعا فى مذهب
موحد . لقد كانت عبقريته فى وضع مذاهب تتألف بالمدى الشامل لبحوثه ،
وتقديره لتنوع المبادئ الأساسية فى عالم تجاربنا ونظره الذى لا يخطئ
فى تبين وجوه الاختلاف والقربا فى النوع فى الكون بأجمعه ودقته المحكمة
فى صوغ المنهج الفلسفى ، هى التى تجيء مصداقا لقول دانتي فى نعت
أرسططاليس بأنه « سيد من يعلمون » ^(١) ، وهى تبين السبب فى أن فلسفة
العالم الغربى سارت مدى ألفى سنة فى معظمها على الخطوط التى رسمها .
وكانت الثقة التى وضعت فيه فى جميع مسائل المعرفة الدنيوية لها اسمى

(١) « الجحيم Inferno » : ٤ و ١٣١ .

مكانة في خلال العصور الوسطى المتأخرة ^(١) . وحتى عندما أعلنت روح التعليم الجديد الغاء الثقة ، بالبحث الحر وأنكرت أرسططاليس المدارس فانها اقتفت دون انتباه خطواته . وكنظم عظيم للمعرفة فان له في مسائل العقل مكانة تماثل مكانة الامبراطورية الرومانية في مجال الحكومة والقانون .

٤ - الرواقيون والأبيقوريون

١٦ - كانت الفلسفة في اعتبار أفلاطون وأرسططاليس « موجة حياة » يستطيع الانسان بها وحدها أن يصل الى معرفة الخير الأعظم الذي يجد فيه الخلاص .

ولكن استهواها كان لدى القلة الذين كانوا يشعرون بالدعوة الى التأمل العقلي ، وحتى لهؤلاء ، كان من شأن الفلسفة أن تتدهور الى عدم مبالاة ارتيابي أو الى مذهب صوري ، خواء . ان الرجل العادي المثقف كان يحتاج الى شيء أقل عسرا ، وأكثر أن يكون عمليا بطريقة مباشرة ، مما كان يقدم اليه في الأكاديمية ، وملعب الرياضة والدرس Lyceum . والمعلم القديم ، دولة - المدينة ، بعباداتها الدينية وفروضها الخلقية كان يتوارى سريعا عن النظر ، ولما تقطعت الأسباب بينه وبين مرساه ، فانه التمس عقيدة تنقذ روحه من التحطم وتقوده الى مرفأ يلجأ اليه من شرور الحياة ^(٢) .

ولارضاء هذا المطلب ، ظهر في الجيل الذي جاء بعد جيل أرسططاليس والاسكندر ، مذهب الرواقيين والأبيقوريين . وكانا كلاهما يسودهما النهج الخلقى ، فى الهدف والمبدأ ونظرية المعرفة (المنطق) ونظرية الطبيعة (الفيزيقياء Physics) كانا يقومان كصقالة وليس كقسم لا يتجزأ من بنائهما الفلسفى ، بينما الميتافيزيقياء (ما وراء الطبيعة) النواة للتفكير الأفلاطونى والأرسططاليسى تراجعت بكيانها الى خلفية الصورة ، وفى مجال علم الاخلاق مرة أخرى ، أقام كل منهما الدعوى لتقديم الهداية لروح الفرد ليبين له كيف يعيش بحكمة ، ويصل الى سكينة بمعزل عن العالم المضطرب فى الخارج وعواصف العواطف فى الداخل . وكلاهما صور خليفة الرجل الحكيم كأنموذج

(١) راجع موضوع الثقة فى أرسططاليس دانتى "Convivio" : ٤ و ٦ ولم يكن هذا النفوذ دون عوائق أمام التقدم وخاصة فى مجال علم الطبيعة فعلى سبيل المثال ، كان تميز أرسططاليس بين السموات العليا والعالم الأرضى أشبه بحمل على علماء الفلك والطبيعة حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

(٢) وبطبيعة الحال، ظلت التصورات الدينية التقليدية، والعبادة باقيتين بين الجماهير ولكن لم يعد بعد أن يكون لهما تأثير فعال لهداية أرواح الناس ، كما كان تورااة العبرانيين .

للمحاكاة ، وكانا يعلمان كيف يمكن الوصول الى هذا المل الأعلى ولكن هنبا ينقطع التشابه وعندما نسال عن طبيعة الحياة الفلسفية ، تقدم المدرستان أجوبة مختلفة اختلاهما عظيما فيذهب الرواقى الى أنها تكون باتباع الفضيلة ، قلبية لقانون للطبيعة له السلطان أو العقل الحكيم ، باخضاع العواطف وبالانفصال عن عالم الظروف الذى لا يستقر على حال ، فيقوم روحه لتصل الى الاكتفاء الذاتى والاستقلال الداخلى ، ويذهب الأبيقورى الى أن الحياة الخيرة هي حياة الاستمتاع فى تعقل ، بكل ما يقدمه العالم مما فيه الرضى ، والحكيم يتحكم فى الظروف باستخدامها كوسيلة لدعته - والخير هو المتعة أى لا يكون بارضاء مطالب الحواس ارضاء عابرا . ولكنه ثمار « حب الذات الرصين » . وفوق كل شيء مباهج الدراسة العقلية والتواصل الاجتماعى . وفى أحسن حالتهم ، كانت الرواقية أكثر سموا أما الأبيقورية فكانت أكثر سماحة وروحا انسانيا ، من بين المثاليين الأعلى . وكان الرواقى أروستقراطيا خلقيا ، فيه بعض النزوع الى الزهو بقوة تجلده على الزهد واحتقار اخوانه الأكثر ضعفا ، بينما كانت العقيدة الأبيقورية وخاصة فى اعترافها بتساوى الجنسين واصرارها على متع الصداقة أقل من أن تكون قاصرة على طائفة بعينها ، وأكثر ديموقراطية . وفى مستوى أوطى تدهورت الرواقية الى رسميات ممحضين وتصالح افتاء ، مع العالم مما لم يكن يتوافق مع دعاواها الرفيعة ، كما انحدرت الأبيقورية الى رضوخ راض لسد رغبات الحياة الأكثر غلظة . ولكن كان كلاهما على السواء لا يبالي بنهج المجتمع والحكومة . لقد كان ذلك بين أيدي الطاغية وجيشه وموظفيه المدنيين . أما شأن الفرد فكان له وجهة أخرى فى تنظيم مدينة روحه الخاصة تنظيما صائبا .

١٧ - وكان لكلا المدرستين تاريخ طويل امتد الى شوط بعيد فى العهد المسيحى وكان للمذهب الرواقى من بين المدرستين ، التأثير الأبعد مدى فى العهود القديمة ، وفى العالم الحديث ، على السواء . ولقد استهوت مبادئه بطبيعة الحال رجال الأعمال وتبناها وأحيانا تمرس بها ، الحكام ، ورجال السياسة فى العصر الاغريقى المقدونى . ولقد أصبح مألوفاً ، كما سنرى فيما بعد . لدى الأشراف الجمهوريين فى روما . وكان يوجد شيء فى مزاج الرومانى العملى نحتته المذاهب الفلسفية الأخرى ، ولكن كان يتجاوب فى يسر مع العقيدة الرواقية . ولقد ترك طابعه على القضاء الرومانى وعلى الافلاطونية الحديثة الهلينية على السواء ، حيث يمتزج التعليم الرواقى بالتعليم المستمد من افلاطون وأرسططاليس . وقد اجتذب المفكرين المسيحيين بسموه الخلقى ومثاليته التى لا تقبل انتقاصا . وفى الأزمنة الحديثة أثار

اعجاب فلاسفة مختلفين من أمثال ديكارت وبیشوب ومانويل كانت^(١) .
 اذن ، ما السر في السيطرة التي ظفر بها المذهب الرواقي وحافظ عليها
 هذا الأمد الطويل ، على قلوب الناس ؟ ان الجواب يكمن فيما كان له من وقع
 على قوة ارادة الانسان وفي توكيده الوثيق للحرية البشرية وللعناية الالهية
 كليهما . لقد كان الرواقي يعلم أنه ولو أن الانسان عديم الحول ، كما يظهر
 في مواجهة الظروف المعادية ، من رق وتعذيب ومرض وموت ، فانه في
 الواقع كان سيد ارادته المطلق وانه في هذه السيادة على الارادة وحدها
 كانت تتوقف كل قيمة الحياة وخيرها . « لا شيء خير دون تحديد غير الارادة
 الحرة » وهذا القول المأثور الذي نطق به بعد ذلك بعشرين قرنا ونييف
 فيلسوف كنجزبرج "Königsberg" كان يمكن أن يتعرفه الرواقي وكأنه قوله^(٢)
 لأنه في اعتبار الرواقي ، كما في اعتبار كانت ، تكون الارادة الحرة ، خيرة
 دون تقييد بشرط . ولا توجد درجات من الخير . فاذا كنت على صواب فأنت
 على صواب بصفة مطلقة . واذا كنت على خطأ فانك مخطيء بصفة مطلقة .
 وسواء أكنت على صواب أم كنت على خطأ ، فان هذا يتوقف على الحصيدة
 الداخلية لارادتك دون سواها . وبالإضافة ، فان الارادة خيرة عندما تريد
 الخير ، والخير هو - ما هو كائن . ونظام الكون وصدق كل أحداثه والطبيعة
 (Physis) التي هي طاقته الخالقة هو كامل وهو قانون وعقل والله^(٣) .
 وعلى هذا فان الرجل الحكيم ، القديس الرواقي ، يتعرف عن طيب خاطر في
 أية معنة تصيبه ، كائنة ما كانت ، اتمام غرض العناية الالهية ويؤكد حريته
 غير المقيدة بشرط في مواجهتها ، بأن يرضى أن تكون - ما هي كائنة -
 ويسير عقله قدما وهو جذلان ليقابل عقل العالم الذي تجمعه آصرة قرابة -
 وعلى هذا فانه بقوة الحتمية الذاتية الداخلية تكون له الغلبة على العارضة
 ويظفر بسكينة الروح "e la sua voluntate è nostra pace"^(٤) .

(١) عندما سألت الأميرة اليصابات ، عام ١٦٤٥ ديكارت ، الذي لم
 يضع أي تأليف في علم الأخلاق ، عن آرائه في الموضوع ، أجاب موصيا
 بعجالة سنيكا ، الرواقية الامتناع الممتع devita beata على أنها تفي
 بالغرض . راجع (أعمال Oeuvres لديكارت) طبعة آدم وتانري
 Adam and Tannery المجلد الرابع الصفحات ٢٥١ وما يليها و٢٦٣ وما يليها .
 (٢) كانت "Grundlegung zur Metaphysik der Sitten" القسم

الأول (ترجمة أبوت Abbott صفحة ٩) .

(٣) يوازن الاستاذ جليبرت مري ، في محاضراته عن المذهب الرواقي
 physis عند الرواقيين و élan vital عند برجسون Bergson ومن بين
 المذاهب الفلسفية الاغريقية كانت الرواقية فقط تقرب من مذهب وحدة الوجود
 Pantheism (أي من يرون الله والعالم واحدا - المترجم) .

(٤) « و ارادته سلامنا » دانتى ، الفردوس Par. : ٣ و ٨٥ .

ولذا فإن النصائح الرواقية - « اتبع الطبيعة، اتبع العقل، اتبع الفضيلة » هي مجرد طرق متنوعة للتعبير عن الشيء بعينه . . . وكان الرواقي يقول أيضا « اتبع الله » : لأنه على الرغم من مادية نظرياته الطبيعية الغليظة الى حد ما ، كان يعتقد أن القانون الذي يتحكم في نهج الطبيعة لم يكن ميكانيكية عشوائية ، ولكنه انجاز غرض الهى متواصل ، ينتهج العقل ، وهو خير في ذاته ، وفي مبحثه القويم عن العلة الغائية ، سار المذهب الرواقي في توائق مع تقاليد أفلاطون وأرستطاليس^(١) ، وكون هذا المذهب مبتكر كعقيدة خلقية ، يرجع بعضه الى إستهوائية للارادة والبعض الآخر الى استقلاله الكلى عن تقاليد دولة - المدينة التاريخية ورسالته من البداية الى النهاية توجه الى الفرد وهي تأمره أن يقف متحررا عن جميع الروابط العرفية التى رسمها الانسان ، وجها لوجه ، بما له من قوة ، ضد جميع الرياح التى تهب . وفى وقعه الشخصى هذا ، وكذلك أيضا فى العقيدة الحاسمة التى وجه فيها ، نتعرف روح أول مؤسس للمدرسة . لقد كان زينون Zeno ساميا من كتيوم Citium فى قبرص ، استقر وهو لا يزال فى صدر شبابه فى أثينا (حوالى عام ٣٢٠) وكان يقوم بالتعليم هناك مدى نصف قرن ونيف فى الرواق المدهون (Stoa Poikilé) . وكان كثير من أبعد أتباعه شهرة من أهل الجزر وأراضى المشرق الساحلية . ويمكن تبين طابع العقل السامى على المذهب ، أسفل الوضع الهليني^(١) . ولقد كان المذهب الرواقي فى الحق ، أول الثمار العقلية لسياسة الاسكندر فى المزج . ولم يكن يوجد شيء ضئيل فى زينون يورد للذاكرة ، التبنى العبرى ، وعبارة هذا ، « هكذا يقول يهوه » يظهر أن صداها يتردد فى الصورة « وهكذا قال العقل »^(٢) . وكان يجب أن يكون الصوت

(١) كل شيء حتمى فى المذهب الرواقي ، ولكنه أصبح حتما نتيجة عمل متواصل لفرض ينتهج العقل . وقد هيا مبدأ المطابقات فى الطبيعة الذى كان يتلاءم مع هذا التصور ، أساسا للتوافق بين الفلسفة الرواقية والاعتقاد بالرجم بالغيب ومظاهر أخرى فى الدين الشعبى . ويوضح فلوطرخوس Plutarch (راجع السفر الثانى فصل ٩ § ٧) هذا الميل . وقد استخدم الرواقيون القصة الرمزية والأسطورة استخداما طليقا . وقد أخذت عنهم المسيحية منهجهم فى التفسير بالقصة الرمزية ، لقد كان الرواقيون فى الواقع مهرة فى ايجاد أسباب التلازم .

(٢) كان خروسيبوس Chrysippus مؤسس الرواقية الثانى (٢٠٦) من أهل صولى فى كيليكية . وقد وضع لمبادئ المدرسة ، الصورة المنظمة التى ظلت قزونا . وقد جاء اقليدس (القرن الثالث) من أسوس Assos فى طرواد Troad وكان فنيطيوس Panaetius (القرن الثانى) من أهل رودس وفوسدنيوس Posidonius (بواكير القرن الاول) من سوريا ، وكانت طرسوس ، أهم مدينة فى كيليكية وبها جامعة ، مركزا مزدهرا للتعليم الرواقي

(٣) راجع بيفان Stoics and Sceptics

صوت العقل لأن زينون كان يبشر بانجيله للاغريق ، شبيب التاريخ الوحيد الذى كان من العيب توقع استماعه الا اذا وجهت قولك الى فطنته ولكن بمجرد أن يخطو هذه الخطوة ، كان من شأن الوقع أن يضم أكثر من الحكم الخاص للمستمع الفرد ، والعقل كما بين أفلاطون ، هو مجال مشترك ، والتعليم الذى يكون وفقا له ، لا يمكن أن يكون انجيلا لمجرد الخلاص الشخصى الخالص . ولهذا كان الرواقى ، فى نفس الوقت ، يعلن مثالا أعلى ، عالميا . والمدينة التى كانت تطالب بولاء الرجل العاقل ، كانت مدينة الطبيعة ، مدينة العقل ، مدينة الله . وكان هذا التصور لمجتمع يشمل كل البشرية يتوافق مع نظرة العهد الأكثر اتساعا وقيام دول العالم ، واقعا ، أولا تحت الحكم المقدونى وبعد ذلك تحت حكم روما .

وقد ساعد على صوغ مبدأ قانون للطبيعة (jus naturae) تقوم عليه التشريعات الايجابية للجماعات المعينة ، التى تمثلها شارع الرومان ، وعن طريقهم كان لها تأثير بعيد المدى على الأخلاق والقضاء فى العصور الوسطى والحديثة . وقد استخدم القديس بولس وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية المختارة ، لغة تلك المدرسة للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم فيه كل المسيحيين أعضاء . وتتردد باستمرار فى رسائله فكرة رعوية سماوية . وفى عظته فى أثينا ، اقتبس من أنشودة اقليمنثس Cleanthes الرواقى . لزيوس وأعلن فى ألفاظ تردد صدئ العقائد الأسباسبية فى المذهب الرواقى أن الله « لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدي » ، وأنه « صنع من دم واحد جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض » (١) .

١٨ - ولقد قيل ان المذهب الرواقى ، انتهى بحماس خلقى وافلاس منطقى (٢) ، ولقد كانت مبادئ الأبيقوريين منذ البداية أقل أهمية من وجهة التفكير ، وكان تأثيرهم على العالم أقل ذيوعا من تأثير الرواقيين ، لقد كان أبيقور Epicurus هيلينيا خالصا ، وربما كان من أهل ساموس قدم الى أثينا بعد زينون بزمن يسير وأسس هناك مجتمعا صغيرا من التلاميذ الشخصيين . ويتميز تاريخ أنصار المذهب فى مداه بالسير فى خلاص ،

(١) الاقتباس من اقليمنثس Cleanthes (الأعمال ١٧ ، ٢٨) هو « لائنا أيضا ذريته » ، وازن مع الأفكار الرواقية فل : ٣ ، ٢٠ وأف : ٢ ، ١٩ الخ . والتماثل بين الحكيم المسيحى والحكيم الرواقى كور . الأولى : ٤ ، ٨ وكور . الثانية : ٦ ، ١٠ وفل : ٤ ، ١٢ ، ١٣ .

(٢) برت Brett تاريخ علم النفس .

وفق ذكرى وتعليم مؤسسه (١) . ولم تكن نظرية أبيقور عن الطبيعة مبتكرة ولذا كان له انجيل خلقى يبشر به ، فقد اتخذ كاساس تفكيرى ، فلسفة دموقريطس الذرية ، أعظم مذهب مادى كامل ومنطقى فى الوجود . وكان دموقريطس يعلم أن الكون وكل ما يوجد فيه ، يمكن ارجاعه الى حدود ذرات متجانسة فى حركة دائمة ، فى الفضاء الفراغ (٢) . والضرورة الميكانيكية تحدد على السواء ، نهج الطبيعة ونهج النشاط الانسانى ، وينحى تنحية صارمة كل اثر للحرية والغاية . وقد أمكن تكييف مثل هذه المبادئ تكييفاً يدعو الى الاعجاب لتكون أساساً للرسالة الخلقية التى تكون دعوى أبيقور الصادقة فى الابتكار .

وكان هدفه الذى تابعه فى حماس اخلاص عنيف ، أن يحطم آخر حصن ، كان لا يزال الدين التقليدى يحتفظ به فى العقل الشعبى ، ان أنواع الرعب فى حياة مستقبلية فى أرض الأرواح المخيفة الاخروية حيث يوقع من يدعون آلهة ارادتهم غير الانسانية ، على أطياف لا حول لها ، كانت فى نظره مصدر كل قلق وألم يقعان على الناس فى الحياة . « انه هو الخوف الذى كان أول صانع للآلهة » .

ومن الوجهة الأخرى ، اذا كان حقاً أن روح الانسان هى مجرد تجمع للذرات وشيك الزوال ، ينحل عند الموت ليكون جزءاً من تجمعات جدد ، مع انقطاع الحياة الشخصية والوعى انقطاعاً كلياً ، فإن الخوف يتبدد ويمكن للانسان أن يستخوذ على روحه فى سلام (٣) . والمتعة عند أبيقور يمكن

(١) راجع قصيدة لقرطيس de rerum natura السطور الافتتاحية من الكتب ٣ و ٥ و ٦ عن مديح أبيقور .

(٢) راجع عاليه فصل ٤ § ١٥ . ولو أن المذهب الأبيقورى لم يكن له الا القليل من التأثير على الأزمن اللاحقة الا أنه يمكن ملاحظة أنه فى القرن السابع عشر نشر الأب جسندي Father Gassendi وكان صديقا لديكارت مذهباً فى الفلسفة يشتمل على نظرية ذرية طبيعية ومذهب لذة خلقى يماثل مبادئ أبيقور .

(٣) مذهب اللذة Hédonism - مذهب اخلاقى . ويقوم على أن اللذة الحير الأسمى - المترجم) .

(٣) راجع النص العظيم لقرطيس : ٣ ، ٨٣٠ - النهاية . لقد كانت الفكرة الشائعة عن الله والخلود أمراً راعباً نلابيتورية ولكن الأبيقورين لم يكونوا كفاراً . لقد كانوا يعتقدون ، لما قام من التجارب النفسية خارقة العادة ، بأن الآلهة كانوا يوجدون فى منطقة من الكون - قاصية - لا يعيرون بنى الانسان التفاتاً ويستمتعون بحياة مباركة واكتفاء ذاتى يصل الى الكمال . راجع أيضاً الأمثال التى ترجمت فى « مذهب الأبيقورية » لولاس Wallace ، صفحة ١١٠ .

تفسيرها حقا بأنها التحرر من العاطفة والقلق (ataraxis) وهذا الوضع السلبي للتعبير يجعل مثله الأعلى ، على الرغم من مواضع اختلاف عديدة ، يسير على نهج تعبير الرواقيين ^(١) . وانه لمن التضليل التام أن نعتبر القول « دعنا نأكل ونشرب ، لأن غدا نموت » ، لا يبدو أن يكون محاكاة ساخرة للمبدأ الأبيقورى . لقد كان أبيقور وتلاميذه يعيشون عيش بساطة رائعة يتميز بحب متبادل قوى ، وقد احتذى أتباعهم فى الأجيال اللاحقة ، مثالهم وحاز مبادئهم وعاداتهم اطراء حارا من الكاتب التهكمى لوقيان Lucian فى القرن الثانى بعد الميلاد . ولا يوجد مجال للسؤال بأن المذهب الأبيقورى جلب السكينة فى الكثير من النفوس المضطربة فى الأوقات العاصفة التى جاءت عقب تقسيم امبراطورية الاسكندر . ان قدرته وكذلك قدرة المذهب الرواقى على بعث الالهام والسمو تبينهما القصيدة الرائعة التى أدمج فيها الشريف الرومانى لقرطيس (Lucretius) ^(٢) معتقدات المؤسس ، الطبيعة وانجيله الدينى .

الخاتمة

١٩ - سنعود الى الفلسفة الرواقية عندما يحين الوقت للتحدث عن الصراع بين الهلينية كما يعبر عنها تعليم المدارس وروح المسيحية الجديدة . وهنا يجمل بنا فقط أن نذكر بأن كلا المثلين الأعلى للحياة ، الرواقية والمسيحية كان مولدهما فى العالم الجديد الذى فتحه الاسكندر على مصراعيه ، هو وخلفاؤه وهذا فى ذاته يكفى لتكذيب رأى القائل ان قوة الهلينية خبا أوارها بانهايار استقلال دولة - المدينة ولكن الحال كذلك فى أن الهلينية كانت فى ذلك الوقت قد قاربت على انجاز عملها فى التربة الهلينية البحتة وأنه كان يكيف طاقتها منذ ذلك الحين ، الامتزاج بمدينة البلدان الأخرى وقبيل ختام القرن الرابع ، كان بنى المدينة الهلينية عضويا وكاملا . ولقد حاولنا أن ننقل ثمة فكرة عن خصيصتها وتاريخها فى هذا الفصل وفى الفصلين السابقين . ان أهميتها للتقدم الانسانى فى جوهرها وفى نتائجها واضحة ولا يمكن تقديرها . والعصر الذى شاهد خلقها ، من القرون الثامن الى القرن الثالث قبل الميلاد يعد من أعظم العصور باقية الذكر فى تاريخ البشر ، اذ فى غضونه يقع ليس فقط خلق الهلينية ولكن تحول دين العبريين البدائى الى عقيدة لها قدر عالمى . وكان أول الأنبياء العظام ، عاموس وهوشع معاصرين

(١) راجع لقرطيس : ٢ ، ٢٢ وما بعدها و ٣ ، ٥٩ وما بعدها و ٩٩٥ وما بعدها و ٤ ، ١٠٣٧ وما بعدها و ٥ ، ١١٥٢ وما يليها . وعن المثل الأعلى للرجل الحكيم : ٣ ، ٣٢٢ وما يليها .

(٢) توفى لقرطيس عام ٥٥ ق م .

لرواد الاستعمار الاغريقى ، فى البحر المتوسط - ويتفق السبى البابلى وكتابات اشعياى الثانى فى الزمان مع ميلاد الفلسفة فى ايونيا ونطور الدولة الاثينية فى عهد صولون وبسسراطس (١) . وكان واضعو المزامير يكتبون فى اورشليم أثناء الحرب الفارسية وعصر بركليس . ولم يكن الأمر قاصراً على هلاس والعبرانيين فى وضع أسس المدنية للزمن القادم على هذا النحو . ولقد تقدمنا بقصتنا أكثر من مرة فى هذه الفصول الى المرحلة التى جمعت فيها ثقافة البحر المتوسط فى دولة وحدة تحت الحكم الرومانى . ولم « نشيد روما فى يوم واحد » . وبعد أن تقدم الاسكندر ليغنم الشرق لليونان ويستهل السياسة التى كان من ثمارها الرواقية والمسيحية على السواء بزمان طويل كان رجال سياسة وجنود لم تصل اليها أسماؤهم يصيغون أسلحة للحرب والحكومة ويبنيان المنظمات والقانون ، مما عاون مدينة ايطالية صغيرة على الاستحواذ على السيادة فى البحر المتوسط وتوطيد أساس امبراطورية روما العالمية .

(١) مرى - « خمس مراحل » صفحة ٥٧ - يوجد اقتباس عن بيهان بأنه حدث فى اليونان وآسيا الدانية (أى فلسطين) والصين والهند فى القرنين السادس والخامس ، قيام عهد جديد .

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

ـ أسس الدولة الرومانية :

على سلسلة من التلال التى تقوم على شاطئ نهر التيبر وعلى بعد أربعة عشر ميلا من مصبه ، كانت تقوم فى القرون الأولى من الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، مجموعات من الأكواخ الحشنة يحيط بها سياج حيث كان الرعاة يأوون بقطعانهم عندما كان يهبط عليهم الغزاة السابينيون Sabine من التلال السابينية . وبمضى الزمن انحد عدد من هذه القرى الصغار داخل سور دائرى واحد ونشأت مدينة^(١) . وكانت تحتل موقعا موفقا كسوق طبيعى لسهل لا تيم حيث كان النهر لا يزال صالحا للملاحة وبعيدا عن متناول القرصان الأترودرين Etruscan الذين كانوا يغيرون على الساحل^(٢) . وفى فجر تاريخها كانت هذه المستعمرة أحد أعضاء حلف أيدته مراسم دينية ، عقدت رياسته لالبا وفيه اتحد سكان السيل ، لتبادل التجارة والدفاع ضد قبائل المرتفعات وكان الحلف يدعى الحلف اللاتينى وكانت المدينة الواقعة على ضفاف التيبر ، روما .

(١) توجد آثار واضحة لامتزاج باكر بين مستعمرتين أحدهما للاتين على التل الفلاتينى Palatine والأخرى للسابنيين على القويرينال Quirinal ويظهر أن السابنيين دانت لهم السيادة وأنهم كانوا أجداد أجمرات الأشراف . وكان يطلق على مواطنى روما فى العهد الملكى قويريطين Quirites وهو اسم ربما يرجع الى أصل سابينى .

(٢) كان موقع روما ملائما للغاية . وفى عبارة لوى Livy كان الموقع « قد وصفت معالنه بصفة فريدة ليسمح بتوسع المدينة ،
(ad incrementum urbis natum unice locum)

: ٥ ، ٥٤ ، ٤ . كانت روما تحتل موقعا متوسطا فى إيطاليا ، شبه الجزيرة الوسطى فى البحر المتوسط ويتعادل بعدها من قادس والاسكندرية ، وتواجه افريقيا وفى نفس الوقت ترتبط بأوربا الوسطى والغربية والجنوبية ومحمية عنها وكانت ميناء برنديزى تصل إيطاليا بالشرق .

ويمكننا أن نفتق في خطوط عريضة بواكير نمو روما . وأول معلم واضح في قصتها هو طرد الملوك وتأسيس جمهورية أرستقراطية في ختام الفترة السادسة (٥٠٩ قبل الميلاد) وكانت قد ارتقت قبل ذلك التاريخ إلى المكان الرئيسي في التحالف اللاتيني واستحوذت على شاطئ التيبر حتى ميناء أوستيا (Ostia) عند مصبه وأقامت منظمات سياسية وجيشا وطنيا منظما . ويظهر أنه في زمن ما في القرن السادس غدت روما حاضرة أمراء من أصل أجنبي دان لهم الحكم على أتروريا الجنوبية وكل سهم لاتيم ^(١) . وكان معنى طرد الملوك الاطاحة بهذا الحكم الأجنبي . ومع هذا فإن الاحتلال الأتروري قد غير بصفة دائمة مركز روما فيما يتعلق بجيرانهم اللاتين . ولم تهبط قط إلى مكانتها الأولى كواحدة من المدن اللاتينية الكثيرة المتحالفة . ولكن احتفظت بسيادة فعالة وأولا السيطرة الأترورية فكان دسنورها قد اتخذ صورة مغارب . ولكن لاتيني ، وهذا من القناصل . وفي الواقع عوضا عن الخضوع لهذا المطلب من جانب اللاتين فقد تاح لروما أن نحو الحلف في النهاية ، وكان الأسياد الأتروريون قد وضعوا أسس مجد روما المستقبل . ولقد بقيت إلى اليوم قطع من فنهم المسماري ، كالحائط الحجري الذي ينسب إلى ميرويس طليوم . Servius Tullius بفوم شاهدا على مهارتهم وفي عبارة موننسكيو « كانوا قد بدأوا بناء المدينة الخالدة » ^(٢) .

٢ - ان الوسيلة التي نهضت بها روما من هذه المصادر التوضيحية خلال قرون من النمو ، إلى سيادة عالم البحر المتوسط ، هي إحدى القصص التي تبقى ذكرها إلى أبعد مدى في تاريخ الإنسان . ولم تكن امبراطوريتها خلقتا لامعا أنت به عبقرية فردية ، ولكن الذاج البطيء المنزل لنشاط تقومى قوم شعب من أصل خليط ، ولكن إتحد في الغرض . وكان لهذا السبب ، أن نأح لها البقاء . ان أسسها كانت تنأصل في أحكام في خلية الشعب الروماني ولقد كتب فرجيل "Tantae molis erat Romanam condere gentem" أى « كان عملا ذا صعوبة يمكن تأسيس السلالة الرومانية » (فرجيل اينناد ١ ، ٢٣) . وكان يعلم جيدا أن « السجل العظيم » لم يكن الخضاع الامبراطورية

(١) الطرقون Tarquins ، من المحتمل أنهم مستعمرو أتروريا الاغريق الذين غنموا ثراء وسلطانا في صناعة الفخار والتجارة . انهم مماثلون للطغاة الهلنيين في نفس العصر . راجع « أصل الطغيان » للاستاذ ف . ن . يور ، فصل ٨ .

(٢) عظمة وتدمور الرومان :

"Grandeur et décadence des Romains"

الفصل الأول .

الرومانية ولكن « بناء السلالة الرومانية »^(١) . ان سجل تاريخهم الباكر أسطوري في معظمه لان ما كان قد تدون من حويلات جائة ، دمر عندما حرق :بغال المدينة عام ٣٩٠ ، ولكن الخليفة القومية تنعكس في جلاء في الأساطير التي حازت الايمان بها .

لقد كانوا سلالة من المحاربين أصلاب القلوب ، ولقد كان الشعب الروماني وليس رميولس Romulus وريموس Remus الأسطوريين ، رضيع الذئبة الخارج من فرغ مارس .

وقد قصت الأساطير أيضاً كيف أن الرومانيين الأوائل عاشوا عيش النهب والسلب وكيف أن الدولة والأسرة على السواء ، كان أصلهما القوة^(٢) ولقد أوجد أول ملوكهم اتحادهم السياسي وأسس الثاني ، نوما Numa العبادات الدينية التي كانت خلال التاريخ الروماني تقوم كعوامل في السياسة العامة ، ويمكن أن تقتبس أسطورة لها مغزى خاص وهمى نسر كيف أن ثلاثة هوراطيين Horatii ناصروا روما في عراق مع ثلاثة قورياتيين Curiatii من ألبا Alba وقد ذبح اثنان من الأولين وصمد هراتيوس Horatius الذي لم يصب بجرح في الميدان ضد خصومه الثلاثة . وبإدعاء الهرب ، أودى بهم الواحد بعد الآخر إذ أن الجراح كانت قد أقعدتهم . وعندما رجع إلى روما يحمل الأسلاب انفجرت أخته ، التي كانت مخطوبة إلى واحد من اغورياتيين الذبحاء في العويل ، وذبحها أخوها في الحال . وأدين بجرم القتل ولكن برئت ساحته بصوت الشعب وذلك لأنه نفذ العدالة في واحدة ناحت على عدو روما .

وبهذا كما اعتقدت العصور اللاحقة ، قام الحق الذي كرمه الزمن ، في أن يستأنف المواطن الروماني الحكم بالاعدام للجمعية العمومية (provocatio) لتتدبر مغزى القصة .

ان حظ الشعب الروماني كما لحظ مونتسكيو ، طوال تاريخهم ، ألب أعداءهم عليهم واحدا بعد واحد^(٣) . ان حروبهم تستهل على الدوام تقريبا ، بالوبال ولكن تختتم في جميع الأحوال بالنصر .

(١) فرجل ، انيد : ١ و ٣٧ « ان تكون الشعب الروماني كان عملا جبارا » .

(٢) مثال ذلك ، أسطورة اغتصاب النسوة السابينيات . راجع هجل

« فلسفة التاريخ » الجزء ٣ ، قسم ١ فصل ١ : ١ ويذكر بلوبيوس ١ ، ٣٧ كيف كان الرومان يستخدمون القوة في جميع مهامهم .

(٣) Gr. et déc. فصل ٤ .

وفوق كل شيء ، لم يشك الروماني قط في أن مطالب النفع الشخصي يجب أن تكون خاضعة لمطالب الولاء المدني . وكانت غريزة الخضوع وعادة احترام السلطة العامة تتأصلان تأصلا عميقا في طبيعته .

وكان فضيلة ، وذيوع صيت ، أن يفكر وأن يفعل كمواطن وكجندي روماني مثالي ، « أن يفعل في روما كما تفعل روما »^(١) . ولقد كان أعلى مطمح له ، أن يعيش وأن يموت لأجل روما . أن روح التضحية هذه في سبيل نفع المصالح المشتركة هي التي تشيع النبيل في التاريخ الجمهوري الروماني . وكان الفرد من أوساط الرومان يفهم معنى المسؤولية العامة والواجب المدني . أن العصور اللوحي استمستكت بهذه الحصلة في الخليقة الرومانية وعظمتها . وفي زمن متأخر في قصتها ، عندما كانت توشك على الذهاب بددا على أيدي الغزاة الهمج رأى أوغسطين Augustine فيها ما يبرر قيام امبراطورية عالمية تخضع لروما .

وكان الاخلاص الروماني لدولة دنيوية مثلا لمواطني المدينة السماوية . وهويها من مكانها الرائع كان القصاص العدل ، للرجوع عن فضيلتها القديمة .

ولقد ردد صدى مديح أوغسطين ، دانتي بعد ذلك بتسعة قرون ، وفي « الملكية » « de Monarchia » يقيم الدعوى بأن « الشعب الروماني هيأته الطبيعة للامبراطورية » وذلك أنهم ، باحتقارهم الجشع وتعشقهم السلام مع الحرية فانهم تجاوزوا عن نفهم الخاص لضمان الأمن العام للبشرية . ويشير الى تضحية المواطن الروماني الفرد ، الذي كان يحتمل « الكدح والفقر والنفى وموت القريب ، وفقدان أعضاء الجسم والحياة وهو يجهد في تنمية الصالح العام »^(٢) .

ورأى القديس والشاعر كلاهما الحقائق يضيف عليها المثل الأعلى من خلال ضباب الزمن الفاصل ، ولم تنفذ بصيرتهما الى ما يجاوز حدود تاريخ البحر المتوسط ولكن عندما تستبعد كل أنواع الحذف فإن حكمهما يستند الى أساس من الحق . وكما كان يعلم فرجل ، ان في حب أرض الآباء والتعطش الى الشهرة الذي لا يحده قياس ، يكمن سر سيادة روما بين الشعوب^(٣) .

(١) Virtus = بسالة ، رجولة من vir = رجل .

(٢) أوغسطين de Civitate Dei الكتاب الخامس (راجع Figgis ، « المظاهر السياسية لمدينة الله » للقديس أوغسطين : صفحة ١١) ، دانتي : de Mon. : ٢ و ٥ .

انيد : ٦ و ٨٢٣

(٣) "Vincet amor patrioe laudumque immensa cupido"

٣ - ان مثل هذا الشعب كان مقدرًا له أن يتفوق في مهام القانون والحكومة ، وكان قد وضع في العهد الملكي أسس الدولة الرومانية وضعا محكما صادقًا . وبفضل الروح المحافظ الفطري في خليفة الرومان فقد حافظت خلال جميع التطورات على المبادئ التي ابتدعت في صمت في أزمنة ما قبل التاريخ كمعاداة للسلالة ، غير المكتوبة ، ونفس الصور والمناهج للإجراءات التي كانت تنظم حياة المجتمع المدني في القرن السابع قبل الميلاد ، ظلت باقية - ولو أن القضاء الاغريقي وعلم الأخلاق المسيحي عدلاها وجعلها مطابقة للعقل - في مجموعة القوانين المختارة التي صنفها بعد ذلك بألف ومائتي عام جوستينيان . وبذلك أصبح في قدرتنا أن نعيد بناء ، ليس أفعال الأفراد أو حوادث التاريخ السياسي المفصلة ولكن المظاهر العامة للمجتمع الروماني في عهد الملكية . وكانت الدولة الرومانية ، الأسرة المكبرة ، وكان الرومانيون يفهمون معنى وقدر الحياة المنزلية وعبروا عن ذلك في أدبهم وقد أوجدت عبادة آلهة الأسرة (لارس وبناتس) Lares and Penates مذهبًا دينيًا . وقد اقترح أفلاطون في جمهوريته إلغاء البيت الخاص ، لهذا السبب ضمن غيره من الأسباب وهو أنه كان يجزى إخلاص المواطنين للدولة^(١) . ولكن الأسرة الرومانية كانت في وقت واحد المرأة وميدان التدريب لنزعة حب الوطن المدنية وبنفس الكلمة (ورع) pietas كانت تدل على الإخلاص الذي يرجع للضمير ، الذي يكنه الابن نحو أبيه والمواطن للحاكم والانسان للآلهة . وشخصية الروماني المدنية كانت تتألف من ثلاثة عوامل جوهرية : الحرية وصفته كمواطن وعضوية أسرة . والطراز الروماني في الأسرة فريد في نوعه عندما يوازن ليس فقط بالأسرة الحديثة ولكن بالأسرة في المجتمعات الأخرى القديمة وفي توكيده البالغ أقصى حد ، للسلطة الأبوية^(٢) . وكانت تتحقق أفكاره الأساسية عن الوحدة والقوة في شخص رئيسها بصفة قاصرة عليه وكان للأب (pater familias) طوال حياته السلطان المطلق (patria potestas) على الزوجة والأبناء والبنات غير المتزوجات والوكلاء والعبيد شخصوصهم وممتلكاتهم ، وفي داخل الأسرة كان المالك الأوحد للمتناع والكاهن الأوحد والحارس لمقدسات sacra الأسرة والقاضي الأوحد . وكان من حقه اعدام زوجته أو طفله . وفي يده فقط كانت تنشئة أو إهمال شأن نسله حديث المولد . وكانت أوامر الأسرة يعترف بها عن

(١) الجمهورية ، الكتاب الخامس .

(٢) كان للرومان وعى تام بهذا . ونقرأ في وصايا جوستينيان : ١ ، ٩ «ان حق السلطة التي نتولاها على أطفالنا هو الميزة الخاصة للمواطنين الرومان» .

طريق فرع الذكور ولم يكن القانون يعتبر الابن نسيبا لأقارب الأم وقرابته حتى لأمه كانت عن طريق الأب^(١).

ولم يكن القانون الروماني يعترف بالأبوة عن طريق السفاح كنىء يفترق عن الأبوة الشرعية ، والابن المتبنى شرعيا كان يعدا ابنا تاما . والابن الذي ولد عن غير رابطة الزواج الشرعية ليس ابنا على الإطلاق . وعند موت أبى الأسرة يصبح الأبناء على التو ، أرباب أسرات بينما تخضع الزوجة والبنات غير المتزوجات « لعدم ثبات مزاج المرأة » على حد قول جايوس Gaius لوصاية الأبناء . وعلى هذا فان المرأة الرومانية ، المواطنة الحرة بالمولد ، كانت اما تحت سلطان أبيها potestas أو (بعد الزواج) تحت سلطان زوجها ، أو « فى حالة الترميل » تحت وصاية قريب من الذكور . وفى عبارة مجموعة القوانين المختارة (Digest) « المرأة هى بداية ونهاية أسرتها » لان القانون لم يكن يعترف بأمومتها ، ولم يكن لديها أية سلطة على أبنائها^(٢) . والوالد وحده ،

(١) كانت سلطة الوالد بالطبع مقصورة على المواطنين . وكان الابن عند موت أبيه ، يصبح « والد الأسرة » حتى لو كان غير متزوج ويكتسب « سلطة الوالد » فقط عند الزواج . والزوجة اذا كان زوجها مطابقا بدقة الصورة القانونية ، تصبح فى « يد » (manus) زوجها وتكون خاضعة لسلطته potestas فى مرتبة الابنة (loco filiae) . وكانت الابنة تحت سلطة أبيها (أو اذا كان ميتا ، فتحت سلطة قريب من الذكور) حتى تتزوج وعند ذاك تصبح فى عداد أسرة زوجها . وخاصية ظاهرة فى الأسرة الرومانية كانت حصر القريب المعترف به شرعا فى agnati أى أولئك الذين كان يمكن أن ينضوا تحت سلطة سلف من الذكور ، واحد لو أنه بقى حيا . فعلى سبيل المثال ، ابن « أ » كان « agnati » لأخ « أ » أو ابن أخ وليس لأب الأم أو أخيها . وقد اعترفت القوانين اللاحقة فى ازدياد مطرد بقرابة cognati أى قرابة الدم سواء أكانت عن طريق الذكور أم الاناث . وعن الموضوع بأجمعه ، راجع مين Maine « القانون القديم » فصل ٥ . وأهم الذنوب من جانب الزوجة التى تستحق الاعدام كانت الزنى والسكر ونسج عن أم رومانية نفذ فيها الاعدام لأنها سرقت مفتاح قبو الخمر .

(٢) المرجع الى جايوس هو ١ ، ١٤٤ والى مجموعة القوانين المختارة Digest هو ١ ، ١٦ ، ١٩٥ ، « mulier familiae suae et caput et finis est » كانت أسرة المرأة تبدأ بها لأنه عند موت أبيها تصبح sui juris « مستقلة بحقها » وكانت. تنتهى بها لأنه بمجرد أن تحاول مواصلتها بالزواج ، فانها تتحول الى « حق jus » زوجها وأسرته . وكانت تستطيع بالطبع أن تكون sui juris « مستقلة بحقها » ومع هذا تكون تحت الوصاية أى وصاية ابن أو أخ .

هو الذى كان يمثل الأسرة وكانت علاقته بالأفراد الآخرين من جانب واحد، فان كل الحقوق كانت الى جانبه ، وكل الواجبات الى جانبهم ، وفى نظر القانون ، كانت سلطة الوالد *patria potestas* مطابقة فى الأسرة كما كانت سلطة *imperium* الموظف فى الدولة^(١) . ولكننا نسيء تصور نظام المجتمع الرومانى كل الاساءة اذا توهمنا أن سيره كان يحدده فقط ، او حتى فى معظمه اعتبارات الحق النظرى فى حالة الوالد . كما فى حالة الموظف ، كانت النظرية القانونية عند التمرس بها عمليا تأتى بالتعديل فيها ، فى كل مرحلة تقريبا عادات السلف . وأعظم ما كان يوجد من قيود على سلطة الوالد، كان التقليد المعتاد أنه فى حالات عمل تأديبى خطير داخل الأسرة ، كان على الوالد أن يستدعى الأعضاء الذكور البالغين ، للمشورة . وعندما كان يقع الاتهام على الزوجة كان يستدعى أيضا ذوو قرباها من الذكور . وفى بواكير عصر الجمهورية نجد الرقيب يحط من مكانة شيخ (سيناتور) لانه طلق زوجته دون أن يطلب نصيحة مجلس الأسرة^(٢) . وكان مراس السلطة فى التخلي عن طفل محدودا فى شدة صارمة . و مراس السلطة فى بيع زوجة ممنوعا منعاً باتاً وفقاً لما جرت عليه العادة الدينية . وكان يسمح للأبناء وحتى الرقيق وفقاً للعادة بأن يكذبوا تحت اسم *peculium* ما أصبح يمرور الزمن، افتراضاً ، ولو لم يكن فى نظر القانون ، يعادل الملك الخاص . وكان الواقع فعلاً أن يقوم الوالد فى المعتاد على ادارة ثروة الأسرة بروح القيم ، وليس بروح المالك الخاص . وكذلك - مرة أخرى - كانت الفروض الأدبية التى تقنع على الوالد نحو زوجته وولده ، معترفاً بها اعترافاً تاماً من الوجهة العملية . ولقد كان كاتو Cato الرقيب ، وهو النصير الذى لا تلين قناته للتقاليد المحافظة ، يشعر بأن الواجب عليه كل صباح أن يرى طفله وقد اغتسل على الوجه المناسب . وكانت الأم الرومانية تستمتع بمكانة تكريم ، أنكرت على الأمهات فى أثينا وفى معظم البلدان الأخرى ، وكانت مكانة زادهـا ثباتاً أنها كانت تستند الى عادة ، لا يمكن انتهاكها ، ومرار الزمن ، تضافر تقدم الرأى العام ، والتخلي تدرجاً عن صور الزواج القديمة التى كانت تضع الزوجة تحت يد *Manus* زوجها وادخال مناهج جديدة للتملص من قانون الوصاية -

(١) كان الابن ، ولو تحت سلطان أبيه ، يستطيع القيام بصفة المواطن كما لو كان والد أسرة ، أى كان يمكنه القيام بمهمة وظيفة وفى تلك الصفة تكون له السلطة العامة على أبيه . ان سلطة الأب لم تمتد الى *jus publicum* السلطة العامة .

(٢) لم يكن يفرض على الأب شرعاً بأن يتبع نصيحة مجلس الأسرة أكثر من أن يكون مفروضاً على الموظف شرعاً اتباع نصيحة مجلس الشيوخ . ولكن السلطة (*auctoritas*) فى كلتا الحالتين ، كان لها شأن عظيم .

فى ضمان حرية واستقلال للمرأة الرومانية - يكاد لا يوجد لهما مثيل فى المجتمع القديم أو الحديث (١) . ومن وجهة واحدة فى الواقع ، ظلت سلطة الوالد *Patria potestas* لا تتغير ، وسواء أكانت دون قيد ، كما كانت الحال من الوجهة النظرية ، أو محدودة كما كان الأمر عمليا ، فانها كانت تظل باقية طوال حياة المالك لزماتها . ولكن حتى فى الأزمنة الباكورة ، ولو أنها كانت صارمة فقد كانت فى النادر استبدادية . وكانت القسوة البالغة هى الاستثناء وليست القاعدة . وعلاوة على هذا ، فيجب ألا يغيب عن البال أن معايير الطهارة المنزلية ، والاخلاص لواجبات الأسرة التى كانت تلقن بمثل هذه الشدة ، ظلت المحافظة عليهما أمدا طويلا فى البيت الرومانى وقام الدليل على أنهما أديا خدمة لا تقدر للثبات الخلقى فى الدولة الرومانية (٢) .

٤ - لقد كانت روما دولة - مدينة ، وكانت منظماتها الباكورة ، الملك والمجلس الاستشارى ومجلس الشعب هى تلك المألوفة فى غيرها من فروع الأسرة الهندية - الأوربية وقبيل فجر تاريخهم المدون ، كان الرومان قد تدرجوا ببذور التنظيم الاجتماعى ، هذه ، الى مجموعة من عناصر ومبادئ حكومة مدنية ، محددة تحديدا واضحا - وكان الملك (*rex*) كموظف أعلى يملك كحق له ، سلطة تنفيذية مطلقة *imperium* وعلى مدى التساريف الرومانى ، تظل سلطة الموظف التنفيذى كمحور للتقدم الدستورى .

ولما كانت هذه السلطة قد منحت بتصويت رسمى من المجتمع على واحد من أعضائه عينه الملك فى حضورهم (أو اذا لم يكن يوجد ملك ، فنائب الملك المعين من قبل مجلس الشيوخ) وصدق عليها بموافقة مجلس الشيوخ فان السلطة *imperium* كانت مطلقة شرعا فى السلم ، وفى الحرب جميعا وكانت

(١) كان الاعتراف بصور الزواج التى فيها لا تصبح الزوجة ، كما فى الصور القديمة ، فى يد *manus* زوجها ، أول انهيار خطير لسلطة الوالد . ويرجع تاريخه الى ما قبل القرن الثالث ق م .

(٢) لقد عبر عن هذا فى بيتى فرجل (*Aen* : ٩ و ٤٤٨ - ٩)

Dum domus Aeneae Capitoli immobile saxum

Accolet, imperiumque pater Romanus habebit

بينما يظل منزل انياس قائما الى جوار صخرة الكابيتول

التي لا تتزعزع ، ويظل الأب الرومانى يحمل سيادته .

(ترجمة مكيل (Mackail))

المصدر الذى منه تستمد كل سلطة تنفيذية أخرى بطريق النذب (١) ، وكان الملك - فى نفس الوقت - القائد فى الحرب والقاضى الأعلى ورئيس دين الدولة . وكان القضاء الجنائى يتركز فى يديه . والتشابه الوثيق مع مركز الوالد فى الأسرة يتجلى واضحا فى نظره ، ولكن فى الدولة ، كما فى الأسرة ، كانت العادة تهيم . حدا لرأس السلطة المطلقة ، ولقد كانت قاعدة أساسية عند الرومان أن القابض على زمام السلطة يجب أن يقوى نفسه بالتضحية . ان مجلس الشيوخ من رؤساء الأمر ، وهو نظريا جماعة استشارية يعقدون اجتماعهم فقط بدعوة من الموظف ليجثوا ما كان الموظف يريد أن يعرضه عليهم ، أصبح عمليا ، مجلسا ذا مهابة فى الدولة . ويمكن تجاهل رأيه فقط بعمل من أعمال ثورة ، افتراضا ، وكانت توازى سلطة الملك (imperium) سلطة مجلس الشيوخ الأدبية (٢) Auctoritas وأخيرا عندما كان يطرأ فى حياة المجتمع حدث يستلزم خروجا على السوابق المقررة مثل اعلان الحرب

(١) كانت السلطة (imperium) ، فى العهد الملكى ، تمنح بالاجراء الاتى الذى يوضح توضيحا رائعا ، النهج الرسمى للاجراء الدستورى الرومانى . عند موت الملك (rex) كان مجلس الشيوخ (آباء العشائر الموكلون اليهم مهمة فرائض المجتمع الدينية) يعين رافدا interrex وهذا فى دوره يعين رافدا آخر لأن السلطة كان يمكن فقط نقلها الى الملك الجديد ، بتنصيب شخص كان قد تملكها (وأحيانا كان يعين رافدا ثالث أو رابع لوضع قناع على انقطاع الاستمرار ، بخرافة محسوسة) . وكان آخر رافد فى السلسلة ينتخب ملكا بالتشاور مع مجلس الشيوخ ، وعندئذ يعلن الرافد اسم المرشح للملك للمجلس لقبوله واذا قبل ، كان مجلس الشيوخ يصدق على تعيينه بصفة نهائية . وعلى هذا كان التعيين الشخصى وتعاون مجلس الشيوخ والانتخاب الشعبى تتألف كلها فى العملية النسقية . وكان هذا الاجراء عينه يتبع فى عهد الجمهورية فى حالة الموظفين المخولة لهم السلطة أى القنصلية والبريتورية فقط . (أ) لم تكن الحاجة الى رافد موجودة فى المعتاد ، حيث أصبح يوجد موظفون لهم السلطة لتعيين المرشح الجديد . و (ب) بعد عام ٣٣٦ ، كان يجب الحصول على موافقة مجلس الشيوخ قبل الانتخاب الشعبى ، وعلى هذا فقد أصبحت صورية خالصة ، كالموافقة الملكية على مرسوم تشريعى فى بريطانيا فى الزمن الحاضر ، وكانت الحال كأن الموافقة الملكية تصدر عن كل مشروع قانون يعرض على البرلمان قبل قبوله أو رفضه من المجلسين .

(٢) ان معنى auctoritas هو « النفوذ الأدبى » والكلمة الانجليزية authority بمعنى السلطة التنفيذية كان يعبر عنها فى اللاتينية بلفظ imperium أو potestas .

وتبنى أسرة جديدة آخر فود من الذكور بقى على قيد الحياة من أسرة قديمة ،
أو انتخاب خليفة للعرش كان من الأمور الجبرية الحصول على موافقة الشعب
ذى السيادة (١) .

وكانوا يجتمعون لهذا الغرض فى جماعات Curies للتصويت على ما كان
يعرضه عليهم الموظف الذى يتولى الرئاسة ، دون تعديل أو مناقشة وعلى هذا
كانت الحكومة الذاتية الاستثناء لا القاعدة ، فى روما الباكورة ، وكانت
العناصر الملكية والارستقراطية فى الدستور تربو الى حد بعيد على العناصر
الشعبية . ولكن على الرغم من كل الظواهر المتناقضة فانه كان يوجد اعتقاد
واحد يتأصل فى تقاليد المجتمع الأصلية ولم تعد بتاتا عواذى النسيان عليها ،
بكليتها أن لفيف المواطنين كان المصدر النهائى . الذى له السيادة ، لكل
سلطة قانونية .

١١ - قيام الجمهورية

٥ - رأت فاتحة القرن الخامس قبل الميلاد روما جمهورية وكان آخر
الملوك الأترويين Etruscan قد تجاوزوا الحدود التى رسمتها العادة لمراس
السلطة Imperium وكان أن طردهم رعاياهم اللاتين (حوالى ٥٠٩ ق م)
ولم يترتب على هذه الثورة ، اذا كنا لنطلق عليها هذه التسمية ، أى تغيير
فى مبادئ الدستور الأساسية ، ومنحت السلطة ، التى كانت الى الآن
مخولة للملك وحده مدى الحياة ، لموظفين أعلىين متعادلين ينتخبهما سنويا
الشعب بتصديق مجلس الشيوخ (٢) . وكان الحكم الثنائى من شأنه أن يضع
حدا فعلا للسلطة ، ذلك بأنه ولو أن كل قنصل كان يستحوذ عليها فى كامل
نطاقها ، الا أن هذه الواقعة بعينها كانت تعاون الواحد على نقض عمل
الآخر ، وفى روما كما يكون بين موظفين متعادلين ، كانت الغلبة دائما للصوت

(١) كان التبنى أمرا شائع الحدوث فى روما ، لأن هم الرومانى - الأول -
كان أن يترك خلفا من الذكور ، يعقبونه وعلى هذا يحتفظ بقيام أسرته ، فاذا
لم يكن له ابن من صلبه ، فقد كان يستطيع أن يتبنى ابنا ، ليصبح من كافة
الوجوه مساويا لذاك الذى ينجب عن طريق زواج شرعى ١ ولكن اذا كان الابن
المتبنى أبا لأسرة فان انتقاله الى أسرة أبيه الجديد ، كان يترتب عليه انقطاع
أسرة ومقدساتها sacra وهو مسألة دينية جد خطيرة تتطلب تصديقا
خاصا من المجتمع .

(٢) كان يطلق على الموظفين فى الأصل لفظ "praetors" ثم بعد ذلك
"consuls" وأصبحت البريتورية وظيفة منفصلة .

السلبى . وزيادة على ذلك فان من المحتمل أن القنصل لم يكن لينغلب على ارادة مجلس الشيوخ الذى صدق على انتخابه . والذى كان ماله أن يرجع الى صفوفه عند انقضاء عام ولايته ، لبقية حياته . وعلى هذا كانت فترة التحول الى الجمهورية تعنى أن حكومة روما آلت الى أيدي حكومة قلة من أسر الأشراف . ولقد توارى لقب ملك ، المقوت ولو أنه نص على إعادة الحكم الملكى مؤقتا فى وقت الأزمة ، فى شخص دكتاتور . وفى خلال القرنين الدائنين (٥٠٩ - ٢٨٧) كانت الجمهورية الصغيرة يتألب عليها الأعداء من الخارج وتمزقها المشاحنات السياسية . وكان من أهم هذه المشاحنات ، التماس الطويل بين المواطنين من الدهماء ، للمساواة فى الحقوق الاجتماعية والسياسية والدينية مع الأشراف ، الذى انتهى قبيل نهاية القرن الرابع بانتصار الأولين على طول الخط . وقد يكون منشأ التمييز بين الطبقتين ، على الراجح ، الاختلافات السلالية كتلك التى كانت بين الأشراف النورمانيين والسامية المسكسون فى التاريخ الانجليزى ^(١) . وكانت المعالم الباكورة فى الصراع : (٤) القانون الذى ينص على أنه ليس لأى موظف أن ينفذ حكما بالاعدام على أى مواطن دون التصديق عليه من المجلس (ب) اقامة عشرة من الضباط (تريبونيين Tribunes) الشعبين ، نتيجة لاضراب عام قام به لفيف الدهماء ضد الدولة (٤٩٤) ، للحماية من الموظفين الأشراف وكذلك مجلس من العامة (ج) نشر الاثنى عشر لوحا فى منتصف القرن الخامس (٤٥٢ - ٤٥٠) وهى أقدم مدونة للقانون المدنى الرومانى . ولقد كان لنظام التريبونية نتائج بعيدة الأثر على التاريخ الدستورى اللاحق ولم يكن التريبونيون موظفين ولكتهم كانوا ضباطا من العامة وكانت أشخاصهم معصومة (محظورة، محصنة دينيا) ولهم السلطة فى ادخال النقض intercessio على أى عمل من أعمال الظلم يرتكبه الموظفون داخل حدود المدينة ^(٢) . وبترادف الزمن ، اتسع سلطانهم فأصبحوا أولا ، القادة السياسيين الشعبين ، المعترف بهم وبعد ذلك السادة ، افتراضا ، لما لهم من حق نقض كل أداة الدولة . ولقد

(١) لا يمكننا أن نناقش هنا المسألة المرتبكة عن أصل هذا التمييز . لقد كان الأشراف والعامة كلاهما أعضاء لفيف المواطنين . ولكن لما كان الأولون السادة الأوحد فى الدين فان الآخرين كانوا فى واقع الأمر ، يقصون عن الامتيازات التى تتصل بشعائر الدين مثل الزواج ، فى مركز متعادل وعضوية مجلس الشيوخ وولاية الوظائف التى كانت تلازمها السلطة imperium

(٢) لم يكن نقض التريبون أو حق الاستئناف الى الشعب عن تهمة اعدام مجديا تجاه .مراس السلطة imperium عسكريا . وعندما كان يعين دكتاتور ، كانت كل القيود تتوارى وكان التعيين يعادل اعلان الأحكام العرفية .

ترتب على توسيع نطاق الوظائف التدرجى ، بزيادة تعدد واجبات الإدارة وتقدمها ، تقسيم جرت عليه العادة ، لدوائر السلطة provincia ونتيجة لهذا ، مراجعة متبادلة يقوم بها الزملاء ، الواحد للآخر . ولقد أزاح القانون Canulesian (٤٤٥) الفوارق الاجتماعية بين الطبقات بأن أباح شرعا ، التزاوج بين العامة والخاصة .

ورأى القرن التالى (٣٦٧) خاتمة المناظرة الطويلة لتولى عليا الوظائف ، بصدور القانون الذى ينص على أن يكون قنصل ، منذ ذلك الحين ، من العامة . وقد فتح الطريق للوظائف الأخرى فى تتابع سريع ، ووصل انتصار العامة الى ذروته عندما استولوا على الجمعيات الدينية (٣٠٠) وفى عام ٣٣٦ تمكن دكتاتور من العامة من خفض رقابة مجلس الشيوخ على الانتخابات الشعبية حتى صارت من الرسميات الحاوية (قانون فبيليليا lex publilia) وفعل دكتاتور آخر فى عام ٢٨٧ (قانون هرطنسيا lex Hortensia) مثل هذا الصنيع فيما يتصل بالفوانين التى أصدرها المجلس الشعبى والتى أصبحت منذ ذلك الحين مفروضة (٢٣٦) ipso facto على المجتمع كله ^(١) وبهذا جرد التمييز بين العامة والأشراف من أى مغزى عملى . وزيادة على ذلك ، فقد كان يترتب على هذه الإصلاحات عينها ، على ما كان يظهر جليا للعيان ، أن الدولة الرومانية ، مرت من صورة حكم القلة الى صورة الحكم الديموقراطى . ولقد ثبت أن ما وقع كان بخلاف هذا ، ويرجع ذلك الى أسباب كان مصدرها يتأصل فى الحياة الخارجية للمجتمع وسننظر فيها فى قسم آت . ولكن الصراع السياسى الذى أجملناه آنفا كان أبعد من أن يكون الدافع الوحيد لهيجان داخلى فى العصر الجمهورى الباكر . وانا لنقرأ أيضا عن المطلب الدائم من جانب فقراء العامة فى أنصبه فى أراضى الأعداء المغلوبين وفى الخلاص من ضغط الدين المائل على الدوام . ولقد كان الرومانى فى الأزمنة الباكورة مواطنًا وجنديا وزارعا فى نفس الوقت ، وكان مركزه الاجتماعى ومركزه السياسى ، كلاهما يعتمدان على التزام تملك الأرض .

لقد كانت قوة الدولة العسكرية والسياسية تتأصل فى التربة ،

(١) لقد أهملنا عن عمد التفاصيل عن مختلف المجالس فى الدولة الرومانية . ويكفى القول ان أقدم مجلس "Curies" زالت أهميته بعد العهد الملكى ، وان مجلس "centuries" (فى الأصل مجلس عسكري كان فيه للطبقات أصحاب الأملاك النفوذ الراجح) ، كان ينتخب القناصل والموظفين ذوى السلطة imperium بينما أصبح مجلس القبائل المنظم بطريقة ديموقراطية ، فى العصر الذى نتحدث عنه ، أهم جماعة تشريعية .

ولموضوع الزراعة الأهمية الأولى خلال التاريخ الرومانى كله . لقد كانت نزعة المواطنين الأكثر ثراء - الاشراف والعامّة على السواء - التى تطرد ازديادا ، للاستحواذ على مساحات عظيمة من الأراضى التى تم فتحها - بما كان فيه الضرر على السياسة الحكيمة فى تخصيص مثل هذه الأرض ، كمتلكات حرة للفقراء من الأهلين - هى التى أثارت الاضطرابات المتكررة التى قام بها العامة . ولم ينجم عن قانون لقينيوس سكسطين *Lioinio - Sextian* الصادر عام ٣٦٧ الذى حدد مساحة أمثال هذه الأراضى « المحتلة » لتكون ملكا لأسرة واحدة ، أكثر من ايجاد خلاص جزئى مؤقت من مساوئ سنجدها تتكرر فى صنورة حادة حدة بالغة ، فى مرحلة متأخرة من التاريخ الجمهورى . أما عن مسألة الدين ، فقد كان القانون الرومانى شديدا شدة رابعة ، اذ كان يترتب عليه أسر شخص المدين فى حجرات سجن الدائن ، وهنا ايضا أتى تشريع عام ٣٦٧ ببعض الانصاف ، فعلى مر الزمن تعدلت صرامة القانون ليفى بالحاجة الى معاملة أكثر نزوعا للروح الانسانى ، بينما جعل رخاء الدولة التجارى ، المتزايد ، المواطن أقل عرضة للافلاس .

٦ - ومن بين هذه الوسائل ، تبرز وسيلة مفعة بمغزى خاص للمدنية الرومانية . لقد كانت مدونة الاثنى عشر لوتا التى وضعتها لجنة العشرة موظفين ، التشريعية *decemvirs* فى عام ٤٥١ و ٤٥٠ ، أول قانون مكتوب فى روما ، وبهذه الصفة كانت تعتبر خلال تاريخ الجمهورية والامبراطورية الأساس للقانون المدنى *jus civile* أى القانون الذى ينظم علاقات المواطنين الرومان (*Cives*)^(١) . عندما كان شيشيرون صبيا ، كان صبية المدارس ما زالوا يتعلمون عن ظهر القلب جملها الايقاعية بما يقرب كثيرا مما كان يجرى عليه الصبية الانجليز فى تعلم

(١) لا كان *jus civile* هو القانون المحلى لدولة - المدينة (*jus proprium civitatis, Gaius*) ، فانه لم يكن ينطبق على أحد سوى المواطنين . وكان يلزم صفة المواطن الكاملة ، الحقوق العامة (*publica jura*) كالخدمة فى الجيش ، والتصويت فى المجلس والأهلية للوظائف العامة وكذلك الحقوق الخاصة (*privata jura*) كالتزاوج والتجارة مع المواطنين الرومان . وفى عهد الجمهورية ، أصبحت توجد درجات من صفة المواطن يترتب عليها بعض هذه الحقوق بمعزل عن البعض الآخر (راجع مايلي §§ ١٠ و ١٧) ومرة أخرى ، كانت الحقوق « اللاتينية » تعاون مالكيها على المساهمة فى القانون المدنى . ويصدق هذا عندما منح حق كالتجارة مع المواطنين الرومان لأعضاء مجتمع آخر ، بمعاهدة خاصة . وعن *jus gentium* راجع § ٢٠ فيما يلى .

« أصول الايمان » ولو أنه بعد ذلك بجيل ، كانت قد بدأت تخلى المكان للصيغ البريتورية . ولا توجد ناحية استبانة فيها ، فى أعظم جلاء ، قدرة الرومان الطبيعية على الحكم الصائب فى المسائل العملية ، أكثر من مجال القانون وهو أعظم ما قدموا من اضافة باقية على الزمن ، لمدينة العالم . وفى غيره من المناحي ^(١) ، كانت وظائفهم ، تلك التى تكون للشرطى والوسيط ، أن يحافظوا على النظام فى منطقة البحر المتوسط وأن يسلموا ثقافة الشعوب الأخرى للزمن القادم . ان فلسفتهم كما كانت عليه حالها وشعرهم ، ولو أنه كانت تشيع فيهما روح الاخلاق الرومانية والتاريخ القومى ، كان الحافز والملم لهم النماذج الهلينية ولكن قانونهم كان فى معظمه من خلقهم الخاص . لقد اكمل اطار القانون الاغريقى بالصيغ البريتورية ، وقانون القضايا الرومانى . وعلى ذلك ، فمنذ عهد باكر وضعت أسس البناء الرائع الذى قام حجرا على حجر فى استمرار لا انقطاع له خلال ألف سنة من الصنعة الى أن استوفى كماله فى مجموعة القوانين Corpus juris فى عهد الامبراطور جوستينيان فى القرن السادس بعد الميلاد . لقد كان يوجد تطور زاهر لقانون العادة الأسبق الذى يكتل فى صورة محددة فى عهد الملوك . وكان الرومان يعتبرون العادة دائما مصدر القانون الموثوق به . وتمثل الألواح الاثنى عشر نفسها منتخبات من العادة المعترف بها وتجعل تركزها فى المواضع التى كانت عرضة لاساءة استخدامها اجتماعيا أو كانت مثار جدل ، ولو أن لوى Livy كان ما زال يمكنه اعتبار الألواح الاثنى عشر ينبوع لكل قانون عام أو خاص ، فان القانون الرومانى كقانوننا ، لم يكن نتاج قوانين تشريع وضعية أكثر من أن يكون العادة التى لم يوضع لها سنن ، فسرتها وصاغتها تقاليد ثابتة لطبقة علماء من محامين محترفين prudentia وكذلك المراسيم البريتورية . ولو أن النفوذ الاغريقى موجود من البداية فلا يننى يتزايد فى غضون عهد الجمهورية ، فان المنهج القانونى prudentia هو نتاج العبقرية الرومانية ^(٢) الذى تتميز به . وفى كثير من التفاصيل ، على سبيل المثال ، كان يفضل قانون العادة عند العامة على نظيره عند الاشراف وكان الهدف عاج تنازع الطبقات فى المجتمع المدنى . وعلى هذا ، كانت قوانين المدونة تفرض سلفا قانون دولة منظم على أن له وجودا . ولقد توارى منذ زمن طوبس فى روما الكثير من العادات البدائية المألوفة لدى القانون

(١) تسجل التقاليد أن الأعضاء العشرة درسوا نماذج اغريقية . وقد يكون الامر كذلك ولو أن أثره لا يتجلى فى الألواح الاثنى عشر . وسنرى حالا كيف وضعت الهلينية طابعها على القضاء الرومانى ، فيما بعد .

(٢) راجع de Zulucta فى « تراث روما » الصفحات ١٨٦ وما يليها وشيشرون De Oratore : ١ و ٤٤ و ١٩٧ الذى اقتبس فيه (صفحة ١٨٧) .

الباكر الهليني والألماني والسكندناوى ، ويكاد لا يبقى أثر لانتقام الدم لو شراء الزوجة أو الصراع بين قضاء العشيرة وقضاء الدولة ، وعلاوة على هذا فإن الرومان كانوا منذ زمن باكر قد وضعوا فاصلا بين fas وهو القانون الدينى الذى ينظم أواصر الناس بالآلهة و Jus القانون الدينى للمجتمع الانسانى . ومع الصلة الوثيقة التى كانت تقوم بين اتحاد الأداة السياسية والأداة الدينية فى المدينة ، فإن الخروج على القانون الدينى fas كان يندر أن تعاقب عليه ، السلطة الدينىة . وفى احكام متعادل فرقوا بين (١) القانون العام الذى يحدد دستور الدولة وتنظيم السلطة العامة ، والقانون الخاص الذى يحدد العلاقات المتبادلة بين الأفراد من المواطنين ، ونتيجة لهذا (٢) فإنه فى الذنوب ، فرقوا بين الأضرار التى تقع على الصالح العام بما فيها جريمة القتل حيث تكون الدعوى من مهام الموظف التنفيذى ، والأضرار التى تقع على الأفراد العاديين حيث يتدخل القانون فقط بناء على شكوى الطرف المتظلم . وفى الحالة الأولى ، لم تكن الدولة فى حاجة الى استخدام الاجراء القانونى ، ولكن تنتصف فى الحال عما وقع عليها من مظالم . فعلى سبيل المثال ، كان يمكن لموظف المالية القسطور Questor أن يصادر السلع التى تكون من حق الحكومة ، دون اذن قضائى ، وعلى هذا فإن الاقتصاص العام ، كان ينفذ من تلقاء نفسه ، ولم يكن للفرد حقوق قبل المجتمع ولا يمكنه اقامة دعوى قانونية .

ويبين القانون الذى يتعلق بالذنوب الخاصة كما تفصح عنه الألواح الاثنى عشر ، التقدم التدرجى من :

(أ) عادة الانتقام الشخصى البدائية خلال مراحل (ب) التعويض الاختيارى بالدفع النقدى ، متوقفا على ارادة كلا الطرفين و (ج) التعويض الجبرى الذى يقرره القانون الى (د) منع الانتصاف الشخصى على الاطلاق وادماج جميع الأضرار الشخصية فى درجة الأضرار العامة باعتراف قانون الدولة وفى الألواح الاثنى عشر ، يجيء القتل وحده تحت الباب الأخير . وفى غير هذا من المواضع يسمح بالانتصاف الشخصى حيث لا يوجد ما يمنعه صراحة ويسمح بالتعويض الاختيارى عن السرقة الجسدية والأضرار البالغة التى تقع على الشخص . أما عن الذنوب الصغرى فإن الغرامة يحددها القانون ، وبعض الجرائم مثل سوء معاملة الأبناء للآباء ونقل أحجار التخوم واتلاف الخنطة التى تسمى على سمورها . كان القانون الدينى كفيلا بهذا ، ولكن فيما عدا حالات خاصة تراث العالم القديم

قليلة ، لم تكن توجد محاكم نظامية للقضاء الجنائي . وكان يجب أن يساق مرتكب الذنب شخصيا أمام الموظف الذي كان يحيل القضية الى مواطن عادى ، القاضى judex لوضع قرار عن نتيجة الواقعة ^(١) . وهنا ، مرة أخرى نجد مثلا للاحساس الرومانى بالتفريق البينة ، فقد وكلوا حكم القانون للموظف بصفته القائم على المحافظة على قانون الدولة ، وسماع الوقائع ، للقاضى ^(٢) judex . وكان هذا الاجراء ينطبق كذلك على القضايا المدنية ، التى كان للاثنى عشر لوحا الشأن الأول فيها .

وكان القانون المدنى ينظم مجموعة العلاقات بأكملها بين المواطنين ، الزواج والأسرة والوصاية وتحرير الابن أو العبد والتركة بوصية والملكية والعقود ، فى أوضاع ضيقة فى الواقع ولكن فى دقة وبعد عن الغموض ، وهو ما كان خصيصة لروما من بين جميع المجتمعات الباكرة المعروفة للتاريخ . ولو أن كل ملكية كانت تعتبر أنها مستمدة عن طريق الانتقال المفهوم ضمنا ، من المجتمع ، وعلى ذلك يمكن أن يستحوذ عليها المواطنون فقط فإن الملك الخاص ، كان منذ أمد طويل واقعة مقررة . وكان المواطن بمجرد أن يستوثق من حقه ، يترك فيما يقرب أن يكون حرية كاملة للقيام عليه والتصرف فيه كيفما شاء .

وكان قانون الوراثة الرومانى قد قطع شوطا بعيدا فى التقدم على غيره من مدونات القوانين الهندية - أوربية الباكرة فى أن النص على عدم وجود وصية كان خاضعا للاعتراف بالميراث الذى ترك بوصية اذ كان للرومانى

(١) لم يكن حتى قيام دكتاتورية صولا (٨٠ ق م) أن أنشئت محاكم جنائية دائمة (quaestiones perpetuae) بطريقة منتظمة . وفى حالة الجرائم العامة حيث تكون فيها عقوبة الاعدام أو غرامة تتجاوز مبلغا معيناً ، كان حق الاستئناف الى الشعب (provocatio) مسموحا به . وكانت معظم الجرائم تعتبر مظالم خاصة ولا تتدخل الدولة الا عند التماس الفرد الذى وقع عليه الجرم وتمثل فى اجراءاتها مناهج الانتصاف الشخصى .

(٢) كان لا يستطيع الموظف النطق بحكم (sententia) فى قضية متنازع فيها . كان يمكنه فقط أن يحيل القضية الى قاض judex وفى حالتها يقرر طبيعة الدعوى . وكان يترتب على هذا سماعها قانونا in jure ثم يلى هذا سماع الوقائع بالسير فى القضية in judicio أمام القاضى judex الذى كان يصدر حكمه . وفقط عندما يعترف المدعى عليه أو يوافق على دعوى المدعى أن الاحالة الى القاضى يستغنى عنها ويصدر الموظف قرارا فى القضية على التو وتنتهى الاجراءات القضائية (in jure cessio)

الحرية فى اختيار وريثه وتحديد ما يورثه وإقامة أوصياء على أبنائه الباقين على قيد الحياة^(١) . وفى حدود مرسومة ، فى عناية ، كانت حياة المواطن وملكه حماية القانون الذى كان يعنى بإقامة معلم tutor للطفل وقيم Curator على المعتوه ، كما كان لا يتسامح فى تنفيذ دعوى الدائن الكاملة ضد شخص المدين المفلس^(٢) . وكانت الألواح الاثنى عشر تنص على عقاب الربا وتحدد نسبة قانونية للربح ، ثابتة . وقد أقروا أيضا وسائل الاجراءات القضائية فى روح قوية ونهج عملى صارم .

ولقد سار احترام الأوضاع القضائية جنبا الى جنب مع التخلص من التأخير الذى لا تدعو الحاجة اليه والرسميات المربكة . وكان تعذيب المواطنين شرعا ، غير معروف فى ذلك الحين وفى خلال تاريخ القانون الرومانى . وكانت تفصيلات الاجراءات ، حتى ذلك الحين ، فى أيدي لجان الكهنة وكان الجمهور يستطيع قراءة مدونة القوانين ولكن كان يحال بينه وبين معرفة تفسيرها .

(١) قبل عام ٤٥٠ كانت الوراثة دون وصية ، القاعدة وكانت الوصية تتطلب موافقة الشعب بقانون خاص وكانت خاضعة لرقابة جمعية الكهنة (pontifices) . وبعد عام ٤٥٠ ، أصبحت هذه الرقابة مجرد شكل صورى . ومرة ، كانت الملكية الجماعية دون شك سائدة فى روما ، وكانت الملكية الخاصة قاصرة على رقعة صغيرة من الأرض يقوم عليها بيت المواطن ، ولكن الملكية الجماعية توارثت قبل وضع الألواح الاثنى عشر بزمان طويل . وكانت القيود الوحيدة على حرية المواطن فى استخدام ممتلكاته والتصرف فيها ، ثمة ضمانات صغار لحفظ حقوق الجيران وصالح المجتمع . ويذكر جبون (فصل ٤٥) أنه عند الرومان « كان الحق المجحف لتأريث أول مولود ، غير معروف » .

(٢) كان يسمح للنساء باقتناء الأملاك بمقتضى الألواح الاثنى عشر . وكان قانون الدين صارما الى أبعد حد . وكانت الصورة القانونية الوحيدة للتعاقد فى روما الباكرة هي nexum أو القرض (معناه الحرفى ، الرباط القاسر) . فاذا قصر المدين عن الدفع خلال ثلاثين يوما من الموعد المذكور فى العقد ، كان فى مكنة الدائن استخدام القوة للحصول على مطلبه دون اجراءات قانونية أخرى بالقبض على المدين وسوقه الى سجنه الخاص . وكانت الألواح الاثنى عشر تنص على وجوب حجزه هناك زمنا آخر يبلغ مداه ستين يوما ، ثم اذا لم يتوصل الى اتفاق فانه كان يحضر أمام الموظف ثلاث مرات وكان يستطيع الدائن (اذا لم يتقدم طرف ثالث كنصير ، تحت مسئوليته) ان يقتله أو يبيعه كرقيق . وفى أية لحظة سابقة كان سداد الدين يعنى اطلاق سراح المدين . وقد خففت صرامة هذا القانون فى بواكير عهد الجمهورية .

ومن المعقول أن هذه المجموعة الأولى من القانون المنشور كانت تتسم بالتصلب والضيق اللذين يعبران عن تقاليد مجتمع صغير بسيط . ولقد رأت القرون التي تعاقبت تعديلها التدرجى وتوسعها حتى لم يحتفظ بند ، قبيل ختام عصر الجمهورية بمغزاه الأصلي . ولكن الاثنى عشر لوحا لم تلغ قط .

وبينما استمسك الشعب الرومانى بتقاليده كما يستمسك بصخرة ، فإن ذكاءه العملى ابتكر وسائل عديدة للتوفيق بين القانون القديم والحاجات المتشعبة لمجتمع يتزايد بسرعة ولايجاد انسجام بين التغيرات الأساسية فى التفصيل بنهج محافظ وثيق ، فيما يتعلق بميراث الماضى القانونى (١)

٧ - اننا نعرف القليل أو لا نعرف شيئا عن الرجال الذين وضعوا أنظمة وقانون روما على هذا النمط . لقد صاغ العمل ، ليس أفراد أولو عبقريه استثنائية ولكن الشعب . والأسماء التى تجىء فى صفحات التاريخ الرومانى الباكر هي أسماء رومانين أو صباط ، أسماء جنود مواطنين لا تتميز حياة الواحد منهم عن حياة الآخر وتكون سلسلة رتيبة ، فيما عدا حالة يظهر فيها ثم أبيوس كلوديس Appius Claudius أحد الموظفين فى العشرة Decemvir أو رقيب Censor على المسرح .

ان التاريخ الرومانى الباكر هو سجل للقوانين والسياسة المدنية وإقامة المستعمرات وإنشاء الطرق العسكرية . ولا يعيننا قانليوس Canuleius أو لقينيوس Licinius ، ولكن الخطط التى تدخل أسماءهم . وعادة على هذا فان خصيصة هذه الوسائل ، لم يحددها تفكير سابق مدبر بقدر ما كان يحددها الواقع الموجود . ولم يضع الرومان قط خطة لمستورهم الذى كان ينمو على شاكلة قانونهم كلما تطلبت الفرصة . ونتيجة لهذا ، فإن بعض

(١) كان استخدام الأساليب القانونية الصورية استخداما طليقا ومبدلة شائعة للتوفيق فى القانون الرومانى والقانون الانجليزى ، وكان التبني مثلا مبكرا وظاهرا ، وكذلك كان القبول المضمور ، الذى يلاحظ بعد ذلك ، للتعديلات التى أدخلتها على القانون اجابات علماء القانون التى كان يقدم طوال الوقت أنها تفسيرات دقيقة لدونة القوانين التقليدية . راجع مين « القانون القديم فصول ٢ » . ان الأساليب القانونية الصورية ، « هو ابتكار طبيعي للجمع بين النهج المحافظ وتواصل التطور القانونى وبين التكييف الذى تتطلبه التجارىات الجديدة » .

صورة (١) لا تسير على مذهب ، فريدة في ذاتها . ويتضح عدم وجود خطة منطقية من الوضع الذى كان الحجر الأساسى فى البناء اذ أننا نجد فى صميم نواة الحكومة الجمهورية ، السلطة imperium المطلقة التى لا تقبل قسمة فى حيازة قنصلين ، كموظفين تنفيذيين ، أعليين متعادلين . ولصاحب النظريات السياسية ، تكون مثل هذه الثنائية فى السلطة العليا ، نذيرا أكيدا بوقوع الخطب . ولكن هذه الوسيلة التى لا يمكن تصورها كما تظهر فى أطواء الأوراق ، سارت سيرا يدعو الى الاعجاب فى التمرس بها ، لأنها كانت وليدة التجربة ومؤسسة على الصخرة التى يقوم عليها الواقع .

لقد تعاظم طغيان عبء سلطة الموظف فى مجموعة المصالح الرومانية حتى أصبحت الحاجة لفرض الحدود على اساءة استخدامها ، أكثر إلحاحا من وضع شروط لاستخدامها دون قيد . وكانت الرقابة الثنائية اللياذ الذى يمكن اللجوء اليه لتحاشى الحكم الاستبدادى ، وقد كانت نشأتها فى عهد الجمهورية وظلت قائمة طوال خمسة قرون ، وعندما قام الدليل فى النهاية على أن لا حول لها فى مواجهة الحكام الاستبداديين العسكريين ، أعيدت فى صورة بعدلة كنظرية للامبراطورية الباكورة (٢) وفى هذا ، وفى كثير غيره فى خصيصة الدولة الرومانية ترد الى ذاكرتنا مزاج ومراس شعبنا نحن . ان تاريخ روما الدستورى وتاريخ انجلترا الدستورى يعرضان نفس المظاهر العريضة للتقدم التدرجى على أساس التقاليد السبلالية ، والاحترام الذى لا حيد له للشكل والسابقة ، ومرونة التطبيق العملى وتقييد العرف والعادة للسلطة النظرية . وظل كلاهما قائما مدى قرون فى استمرار لا انقطاع فيه ، بفضل قدرتهما على التكيف وفق الظروف المتغيرة . وكلاهما يكون مجموعة من ابتكارات غير منطقية ، وخرافات غريبة وبقايا متهاكة ، وهى الثمن السهل الذى يكون غرما عن نظم ليست من عمل شارع فرد ولكن التعبير الرضى للتجارب القومية . وينسحب التشبيه كذلك على مسلكهما فى الحرب ، كانت الحرب فى الغالب تجد الرومانيين غير متأهبين وهو آية أكيدة على أن سياستهم لم تكن تنزع للحرب بل للسلم . وكانوا فى جميع الحالات تقريبا ، يلاقون صدمات جساما فى مراحل القتال الأولى ولكن يخرجون دائما مظفرين فى

(١) يذكر بلوبيوس (٦ ، ١١) كيف ، صاغ الرومان دستورهم . ليس وفقا لنظرية ، ولكن عن طريق الكثير من المشاحنات والأزمات العملية . وكانوا يختارون أقوم سبيل فى كل موقف فور حدوثه . وفى (٦ ، ٤٣) يقابل عظمة روما بعظمة أثينا فى أن الأولى كانت ترجع أصلا الى طراز دستورها أما الأخرى فالى عبقرية الأفراد .

(٢) راجع المختار الأول فصل ٨ § ٧ فى الرقابة الثنائية للزعماء principes ومجلس الشيوخ فى مشروع أوغسطس لاعادة التنظيم .

الحنام . وكانوا يتلقنون درسهـم خلال الصراع وما كانوا قط ليرضخوا للهزيمة وسنأتى فيما بعد على ذكر التشابه بين المناهج التى كانت روما وبريطانيا يـكـيفان بها مبادئهما فى الحكومة حتى نحقق المطالب المتغيرة لامبراطورية فسيحة . وكانت مهمة كل منهما حراسة العالم داخل نطاق نفوذها وكان الهادى لها فى منح الحقوق وفى المحافظة على السلام على السواء ، دوافع المنفعة وليس الخيال . لكن بالرغم من أوجه التشابه هذه ، الظاهرة ، فانه يوجد اختلاف واحد عظيم فى حياة الشعبين ، الدستورية . فبينما فى انجلترا ينحصر مركز الثقل السياسى فى البرلمان فان مثيله فى روما كان يوجد ، ليس فى التشريع . ولكن فى السلطة التنفيذية . ولقد قال ادموند بيرك Edmund Burke « ان المباريات العظيمة لأجل الحرية فى هذا البلد ، كانت منذ أقدم العهود ، على الأخص عن مسألة فرض الضرائب وأغلب المباريات فى مجموعة مصالح الأمم القديمة كانت تدور - أصلا - على حق انتخاب الحكام أو عن توازن طبقات الدولة ، العديدة . ولم يكن موضوع المال لديهم يمثل هذا الإلحاح » (١) .

والتاريخ الانجليزى السياسى يزخر بموضوعات مثل حق التاج فى فرض ضريبة على المراكب وحق البرلمان فى فرض ضريبة على أمريكا أو حق مجلس اللوردات فى رفض الميزانية . وفى روما الباكورة لم يكن لموضوع فرض الضرائب وجود . وهناك كان الصراع كله من أجل الحرية يهدف الى تحديد سلطة imperium الموظف الأول .

٣ - توسع روما

٨ - ان العملية النسقية فى توسع روما تقع فى ثلاثة عصور (أ) فتح شبه الجزيرة الايطالية (ب) الصراع مع قرطاجنة للسيادة على البحر المتوسط الغربى و (ج) الاستحواذ على سيادة مماثلة على الشرق الهليني .

(١) خطاب عن الصلح مع أمريكا . فى روما ، لم تكن توجد ضريبة مباشرة وكانت توجد ضريبة غير مباشرة ، يسيرة . . . وبعد ذلك كانت الأقاليم تدفع جزية ثابتة (stipendium) للخرينة الرومانية . وكانت الانصبية تدفع الى موظفى المالية quaestors جباة الضرائب فى الأقاليم أو (كما فى صقلية والشرق) تجبى بنظام يجلب الكسب الوفير للراسمالين الرومان .

١ - توسع روما فى إيطاليا : (١)

ان الفترة (٤٥٠ - ٢٧٠) التى طالعت نهوض روما لتكون سيادة إيطاليا كانت تتفق فى الزمن مع المساحات السياسية التى انتهت بصدور القانون الهرتسنسوى Hortensia (٢٨٧) ولمدة قرن ونصف قرن بعد ابعاد الملوك ، شنت روما حروبا لا تنقطع على جيرانها الأقربين . وفى الخمسين سنة الأولى من الصراع ، كان وجودها ذاته كدولة مدنية مستقلة ، مهددا بالزوال كل سنة ، على التقريب وبدأت روما بعد عام ٤٥٠ نسير قدما الى الامام وقبيل عام ٣٥٠ دانت لها السيادة على اتروريا الجنوبية وسهل لاثيوم وحتى هجوم الغاليين المظفر وتدميرهم المدينة عام (٣٩٠) أوقف فقط ، لعدد قليل من السنين نسير تقدمها المنتظم . وعندما استقر أمرها فى لاثيوم زال الحلف اللاتينى القديم عن الوجود الا فى الرسميات المدنية فقد عاون روما فى هاتيك الأيام الباكرة عدم وجود أى شعور قوى بالوحدة بين أعدائها الايطاليين . وانا نجد أثرا يسيرا لوعى ايطالى مشترك يمكن مقابله بذلك الذى نجم عنه فى الاغريق الباكرة أحلاف مدن والألعاب اللومبية . لقد قام دون ريب فى تاريخ لاحق ولكنه فقط بعد أن أدمجت إيطاليا سياسيا فى الدولة الرومانية ، وقد ترتب على غزو لاثيوم أن أصبح لروما أواصر مباشرة بالمدن الاغريقية على الساحل القمبانيوى وبذلك دخلت فى صراع مع القبائل الجبلية القوية فى إيطاليا الوسطى . وبرزت روما كنصير للنظام والتجارة والثقافة الهلينية ضد عصابات السلب والنهب التى وجدت ميدان صيد هائلا بين الاغريق أولى الرءاء الذين لاينزعون الى الحرب ، وأعقب ذلك الكفاح الطويل الشاق مع السامنيين (٣٤٣ - ٢٩٠) الذى ترك روما الدولة الوحدة التى تمتد صوب الشمال حتى سفح الابنين وصوب الشرق حتى شواطئ الادرياتيك وأخيرا فى بواكير القرن الثالث أحضر فورهمس Pyrrhus ملك ابيروس Epirus أول قائد فى عصره ، محاربيه من سكان الهضاب وفيلته عبر البحر بحجة حماية اغريق طرنطم Tarentum من تقدم روما صوب الجنوب . ولما كان جنديا بالهنة من مدرسة الاسكندر فقد كانت تراوده أحلام جامحة فى أن يحقق فى الغرب انتصارات شبيهة بانتصارات الاسكندر فى الشرق ، ولكن كان ينقصه أرب الاسكندر السياسى ، وبرهنت روما وهى دولة حرة موحدة على أنها خصم من نوع يختلف اختلافا بعيدا عن فارس .

(١) كانت إيطاليا ، عند رومان الجمهورية ، تحدد شمالا ليس بجبال الألب ولكن بالابنين وكان يطابق على المنطقة الواقعة بين الابنين والألب Cisalpine Gaul أى الغال على هذا الجانب من الألب . وكان يسكنها كلتيون ينتمون بالقرابة الى القبائل التى كانت تستوطن Transalpine Gaul أى الغال على الجانب الأبعد من الألب فرنسا وبلجيكا الحاليتين .

وعندما فشل فورهمس ، وقع اغريق الجنوب فريسة سهلة للكتائب الرومانية واصبحت روما تحكم دون منازع من سهل لومبارديا الى مضائق مسينا .

٩ - والقول ان « روما لم تبني في يوم » ، يصدق ليس فقط على خصيصة وانظمة المدينة ذات السيادة ولكن على امبراطوريتها العالمية أيضا واستغرقت هذه الجهود الأولى للسيادة في ايطاليا مدة تبلغ في مداها ضعف المدة التي تمكنت فيها من الاستيلاء على منطقة البحر المتوسط بأجمعها . ويمكن أن نفتق في المناهج التي تمكنت بها بعد ذلك من السيطرة على العالم وحكمه . انا نلاحظ أولا ، كفاءة تنظيمها العسكري . ولقد أبدى احد الكتاب اللاتين الرأي بأن الكتائب كانت الهاما من اله (١) . وكانت تجمع بين ثقل صفوف المشاة المتراصة المتقاربة Phalanx المقدونية والتفوق في الحركة كما قام عليه الدليل في الحرب ضد فورهمس . وفي التسليح ومناهج القتال كان الرومان أبدا على استعداد لأن يتعلموا من أعدائهم وكانت الهزيمة اشارة بالقيام بالاصلاح الذي كان يعاونهم على الخروج من الحرب وقد عقد لهم لواء النصر . وعلى هذا فقد استعاروا الرمح الثقيل من السامنيين كما تعلموا بعد ذلك تشييد السفن الحربية العظيمة من القرطاجنيين وفي نهاية الحرب الفوننية الثانية ، أوقعوا الهزيمة بهنوبال بالخيالة التي كانت الأداة التي استخدمها في انتصاراته الأولى . وعلى غرار الانجليز فانهم كانوا يقومون بحروبهم وقد أخذ منهم التخيبط "Muddled through" وهي عبارة عامية تشير الى انتصار المثابرة السلالية والقدرة على استخدام الهزيمة كوسيلة الى النصر وكان أيضا يحدوهم التواضع فيما يتصل بسبب انتصاراتهم وكانوا ينسبون لها الى « حنظ الشعب الروماني » . وما له أعظم وقع في النفس هو الوثوق من الذات الذي لا يعتريه وهن . لم تعقد روما قط صلحا بينما كان يوجد على التربة الرومانية فرد من الأعداء . انها غلطة عظيمة أن نظن بأن الرومان كانوا شعبا يجنح الى العدوان ، يحدوهم الميل الى اخضاع ايطاليا أولا ثم بعد ذلك العالم . ان أعظم من هذا صدقا القول ان حروبهم جاءتهم بما لا معدى عنه في ترتيب الأهرور . وفي كل مرحلة في تاريخهم كانوا يواجهون بالاحتمالين ، السير الى الأمام او النكوص الى الخلف . ولم تنكص روما الى الخلف بثباتا ولما كان يتألب عليها جيران يسودهم الشغب فقد أوقعتها مهمة حراسة تخومها ، في حرب دائمة وكان معنى الحرب على مدى الزمن ، توسيع الامبراطورية

(١) واغيطيس Vegetius ، كما اقتبس عنه منتسكيو فصل ٢ . وفي واقع الأمر ، شكلت ولكن بتحسينات ، طبقا لتنظيم الاغريق العسكري . وعن تنظيم الكتيبة وتفوقها على المشاة المتراصة ثقيلة التسليح ، phalanx راجع بلوبيوس : ١٨ ، ١١ - ١٥ .

وكانت مجبرة على التدخل لكي تهدى النيران وكان يترتب على التدخل الاحتلال فى النهاية .

وكانت توجد فلسفة كلبية فى سياسة روما وكان الهادى لسياستها دائما مبدا المصلحة الذاتية ولكنها لم تتعطش قط الى الفتح ، وقصة امبراطوريتها هى أن تجد هوية المصلحة الذاتية فى دعوى القانون والنظام والمدنية .

١٠ - ويوضح تاريخ توسع روما فى ايطاليا بطريقة أكثر استدعاء للنظر عبقريتها فى الادارة المتأصلة ، وفى كل مرحلة كانت تلاحم فتوحاتها بمتاريس من حديد من الطرق العسكرية والمستعمرات . والقول « ان كل الطرق تؤدى الى روما » صدق ، ليس فقط فى مجال استعارة الطرق العامة للمدنية ولكن حرفيا بالنسبة لطرق المرور العظيمة التى كانت تشع من روما أولا عبر لاتيوم واتروريا الجنوبية ثم فى ايطاليا وأخيرا فى أقطار منطقة البحر المتوسط (١) . ولم تكن المستعمرة الرومانية على غرار المستعمرة الاغريقية دولة - مدينة مستقلة ولكن مستعمرة عسكرية للجنود الزراع فى وسط أعداء مغلوبين . وطالما ظلت هذه المستعمرات باقية على اخلاصها فقد يحتمل أن تقع الهزيمة بالكثائب الرومانية فى الميدان ولكن الدولة الرومانية تظل ثابتة الدعائم . وفى معاملتها للمهزومين كان المبدأ الرومانى فرق واحكم (divide et impera) . ولم يكن يتسامح فى قيام أية رابطة من التكتاف - فى الا زمن الأولى حتى فى حقوق التجارة والتزاوج - بين المجتمعات الخاضعة . وقد حلت الاتحادات القديمة فى كل مكان . ولقد حافظت روما على هذا

(١) كانت أقدم هذه الطرق فى ايطاليا ، طريق أبيا Via Appia وقد بدأها أبىوس قلوديس Appius Claudius الرقيب ، عام ٣١٢ . وكانت تسير عبر لاتيوم فى خط مستقيم الى الساحل . ثم أكملت بعد ذلك مجتازة سمنيوم Samnium بجوار بنيونظم Beneventum الى ونوسيا Venusia (فى أفوليا Apulia) وبرنديزيم Brundisium (برنديزى الحالية) . وكانت طريق لاطينا Via Latina تسير أبدا الى المداخل ، من روما الى قفوا Capua وطريق افلامنيا Via Flaminia صوب الشمال عبر الأبنين الى أريمينيم Ariminum (رمينى) على الأدرياتيك وهدت عام ١٨٧ الى افلاقنطيا Placentia (فيا قنزا) على البحر باسم طريق أميليا Via Aemilia . وفى القرن الثانى أنشئت طريق دوما Domitia بمحاذاة خليج ليون Golfe du Lion لربط روما بأسبانيا وطريق اغناطيا Via Egnatia عبر شبه جزيرة البلقان من دوراخيوم Dyrrachium (دورازو) الى تسالونيقا Thessalonica (سالونيك) والسينطس .

المبدأ الأصلي دون أن تشوبه شائبة ، خلال تاريخها . ونفس التوجس من الجمعيات الخاضعة الذي أدى بها إلى إلغاء الحلف اللاتيني ، كان في عهد الامبراطورية الدافع لها على إلغاء فرقة مطائى محلية في نقومدية Nicomedia (١) . وعلى اضطهادها الكنيسة المسيحية كطائفة غير مصرح بها ومن الجهة الأخرى . كانت كل المجتمعات الإيطالية على السواء تربطها مع روما أو اصر تختلف قوتها . ومنذ ذلك الحين كانت إيطاليا تكون دولة واحدة تحت السيادة الرومانية . وكان الحرب والسلام والعلاقات الخارجية والعملية من شأن المدينة الحاكمة ، القاصر عليها . وأما ما خلا ذلك فكانت توجد تفرقة بين الأراضى التى تديرها روما مباشرة وتلك التى يستوطنها « أصدقاءها وحلفاؤها الإيطاليون » على شبه تلك الموجودة فى الهند اليوم بين الولايات الوطنية والأقاليم التى يحكمها الموظفون المدنيون البريطانيون ، وكانت تشمل الأولى ثلث إيطاليا تقريبا ، بما فيها روما والمستعمرات التى تضم المواطنين الرومان ذوى الحقوق الكاملة وبلدانا أخرى لها حقوق المواطنين الكاملة أو الجزئية (municipia) وهذه المستعمرات والبلدان municipia كانت تستمتع بقسط وافر من الحكم الذاتى ولو أن روما احتفظت بحق التدخل وكان يرسل الرؤساء perfects سنويا من العاصمة للقيام على القضاء .

ومن بين « الحلفاء » الإيطاليين من الجهة الأخرى ، كانت تحتل المستعمرات « اللاتينية » مكانة ممتازة ولها كامل الحقوق فى التجارة والتزاوج مع المواطنين الرومان . وحتى منتصف القرن الثالث ، احتفظ سكان المستعمرات بحق استعادة صفة المواطنين الرومان فى حالة عودتهم إلى العاصمة ولكن جمهرة « الحلفاء » كان يحدد مركزهم معاهدة خاصة ففى حالة المدن الهلينية كانت الشروط على وجه عام سميحة ، بينما هوت المجتمعات الأخرى فى المناطق الأقل تمدينا ، إلى عبودية مفترضة وكان الكل عرضة للخدمة مع الجيش الرومانى فى الميدان (٢) . ولا يمكن أن يقول مثال أوضح بيانا عن مرونة المذهب

(١) راجع خطابات بلنى إلى الامبراطور طريان (بواكير القرن الثانى الميلادى) الكتاب ١٠ الرسالتين ٣٣ و ٣٤ (فرقة الحسرات) و ٩٦ و ٩٧ (المسيحيين) .

(٢) ان التقسيم إلى مواطنين (صفة تامة وصفة جزئية) وحلفاء يرجع تاريخه إلى القرن الرابع . وصفة المواطن الجزئية كان معناها استحقاقه على الحقوق الخاصة دون العامة . وكانت الحقوق الخاصة المنوّه عنها ، حقوق التجارة والتزاوج أما العامة فكانت حق التصويت والأهلية للوظائف . وقد منحت الحقوق اللاتينية إلى المجتمعات خارج لاتيوم فى إيطاليا (وبعد ذلك) فى الأقاليم وكان للحلفاء حكم ذاتى فيما يتصل بالحكومة المحلية وكانوا خارج دائرة التشريع الرومانى والحكومة التنفيذية .

الادارى الرومانى وقدرته على التكيف مع الأحوال المحلية المتغيرة من الصورة التى يستعرضها حكمهم فى ايطاليا فى الفترة التى تقع بين الغزو الغالى (٣٩٠) ونشوب أول حرب فونية (٢٦٤) .

ب - الحروب مع قرطاجنة :

١١ - تدور القصة كيف أن فورهمس هتف عند تركه المدن الاغريقية فى ايطاليا الجنوبية الى مصيرها ، يا له من ميدان قتال ذاك الذى نخلفه للرومان والقرطاجنيين ، . ولعدة قرون كان الاغريق الصقليون يكافحون ضد قرطاجنة من أجل جزيرتهم والآن أصبح لا يفصل صقلية عن روما سوى المضائق الضيقة . وكانت سيادة القرطاجنيين فى البحار الغربية حتى ذلك الحين ، لا يوجد من يتحداها ولو أن روما كانت قد بدأت فى حراسة ساحل ايطاليا بأسطولها ومنذ القرن السادس كانت تمارس التجارة مع صقلية وسردينيا وقرطاجنة وأصبح لها المام تام بالعادات الهلينية والفنية . وكان الصراع بين الدولتين الغربيتين العظيمتين ، أعظم صراع مروع فى التاريخ القديم وقد بدأ فى عام ٢٦٤ واستمر ، مع انقطاع عشرين عاما لكى يتمكن المحاربون من استرداد قوتهم (٢٤١ - ٢١٩) ، حتى الانتصار النهائى الذى حازه اسقفيون على هنيبال فى زاما ، عام ٢٠٢ . ويقع خارج مجالنا الاستطالة فى الحديث عن تاريخه . وقد اكسبت الحرب الفونية (الفينيقية) الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) روما أول اقاليمها ، صقلية وسردينيا وقرسيقا والسيطرة البحرية على البحر المتوسط الغربى . وفى الفترة التالية ، اخضعت الغالبين بين الابنين الشمالية واللب . واختتمت الحرب الثانية (٢١٩ - ٢٠١) ، التى جعلها غزو هنيبال العظيم لايطاليا باقية الذكر على الدوام ، بفتح اسبانيا والنزول بقرطاجنة الى منزلة ولاية مقطعة . ولم يحدث فى تاريخها الطويل أن تجلت للبيان البطولة فى حب الوطن التى نهض بها الرومان أكثر مما كان فى الساعات الحوالك ، عندما كانت شرآذم الكتائب المحطمة تلم شعثها فى استبسال حول المغير . وعندما اقترب القنصل وارو Varro من المدينة بعد نكبة كاناي Cannae (٢١٦) المروعة - فان أعضاء مجلس الشيوخ - أعداء السياسيين تقدموا لمقابلته حاملين له الشكر لأنه لم يياس من الجمهورية . وبعد ذلك بأعوام قليلة عندما اقترب هنيبال من أبواب روما ، بيعت الأرض التى كان معسكره مقاما عليها فى المدينة بثمانها الكامل فى السوق ، فى زمن السلم . والمغزى الأدبى لنتيجة هذا الصراع التاريخى واضح كالشمس فى رائحة النهار . ان حكومة قلة تجارية - كالبندقية فى زمن متأخر ، تملكها الغيرة من عظماء مواطنيها وتعتمد على الجنود المرتزقة - لا يمكن أن تتغلب بالسلاح على

جمهورية حرة (١) . ولم تكن عبقرية أعظم القادة العسكريين مجددة في تقويض بنيان المستعمرات الرومانية المتين . ولما تقرر النتيجة تصيدت روما عدوها وأردته موارد الهلاك في قسوة لا رحمة فيها فانتزعت أولا المنفى (٢) ثم قتل هنيبال ، الفرد الوحيد الذى عن لها اطلاقا ، أن ترهب جانبه ، وأخيرا عندما نهضت قرطاجنة بعد نصف قرن من حشجة موتها ، فى جهد بالغ لاستعادة حريتها فانها بعد مقاومة باسلة ، سويت بالأرض (١٤٧) .

(ج) فتح الشرق

١٢ - خرجت روما من هذا الصراع الهائل وهى سيدة الغرب ، دون منازع . ومنذ ذلك الحين كان المشكل الذى واجهها فى هذه الناحية مشكل التوطيد والحكم . وسنعود فى الفصل التالى الى الوسيلة التى أنجزت بها رسالتها كعامل فى بسط المدنية على اسبانيا وأفريقيا والغال الجنوبية ، ولكن قبل أن تضع يدها على هذه المهمة الجديدة ، وجدت نفسها وقد اشتبك قهرا بسياسة الشرق الهليني . ولم يكن مزاج الخطيئة hubris هو الذى دعاها الى التدخل ، ولكن منطق الوقائع الصارم . ولم تكن ، وقد أنهكتها حروب هنيبال وأصبحت تنوء تحت عبء الأقاليم الغربية ، فى حالة تسمح لها بالشروع فى مغامرات جدد ، لم يكن بالمستطاع التنبؤ بنتائجها . وكانت المطامع العسكرية التى تحدد ملوك مقدونيا وآسيا ، الاغريق تجبرها على العمل . والدولة التى لها السلطان فى ايطاليا ما كانت بمسنطعية فى ذلك الحين ، أكثر من استطاعتها الآن ، أن تعين سير الحوادث فى شبه جزيرة البلقان دون مبالاة ، وكدولة تجارية عظيمة ، كان على روما أن تحافظ على السلام فى البحار المحيطة ، ولقد حاربت جنود مقدونيون فى جانب هنيبال ، وكان أنطيوخس الثالث (العظيم) من أسرة سيليوكس يهدد استقلاله حلفاء روما ، أثينا ورودس وفرغامس ، وكانت النتيجة سريعة ومجتاحة . ولقد سحقته مقدونيا فى عام ١٩٧ وأنطيوخس فى آسيا ، عام ١٩٠ . أما امبراطورية سيليوكس ، وقد قطعت روما أوصالها فى الغرب ، ودولة بارثيا الناهضة فى الشرق ، فقد هوت بعد معركة مغنيسيا (١٩٢) لتكون ولاية سوريا الصغيرة التابعة . وعلى ذلك ، ففى عشية أو ضحاها أصبحت هيمنة أقاليم البحر المتوسط الشرقية فى قبضة روما . ولقد أبدى مونتسكيو

(١) يقر فلوبيس (٥٢،٦) أن تفوق الرومانيين العسكري على القرطاجنيين كان تفوق الجنود - المواطنين الذين تحفزهم الروح الوطنية على المرتزقة وهو يذكر أيضا (٣ ، ١١٨) أن الرومان أنقذتهم بعد كاناي «خصخصة» تنظيمهم السياسى التى تتميز عن غيرها وتفوقهم فى تدبير الراى ، وينسب توسع امبراطوريتهم السريع الى نفس السببين .

(٢) بلوبيوس - راجع صفحة ٢٧٤ تذكرة (١) - المترجم

ملاحظة مفادها أنه بعد سقوط القرطاجنيين ، حاربت روما حروبا صغيرة فقط ، وكسبت انتصارات عظيمة ، بينما قبل ذلك ، كسبت انتصارات صغيرة وحاربت حروبا عظيمة (١) ، واننا نلاحظ في قصة توسعها الشرقي ، الرائعة ، ثلاث حقائق بارزة أولا تظهر روما في كل مرحلة كنصير للنظام والشرطي الوحيد العامل في خضم العالم الهليني المضطرب اضطرابا مؤلما . وعلى ذلك فقد تحالفت باستمرار مع الدول التجارية المسالمة مثل مصر ورودرس وفرغامس . ثانيا كان يلهم مياستها حماس صادق للهلينية ، وسنتحدث فيما بعد عن تأثير الثقافة الاغريقية التي تنزع الى التغلغل ، في هذا العصر في حياة ومزاج القادة من المواطنين الرومانيين ولقد تجلى مثلهم الأعلى في المشهد الفاجعي الذي أعقب الانتصار على مقدونيا عندما أعلن فلامينيوس Flaminius على الاغريق المجتمعين عند برزخ كورنث أنهم منذ ذلك الحين أحرار ، وربما كان ليتنبأ مقدما نصير للهلينية أقل تحمسا بالنتيجة . لقد التهب سعي الفوضى ، في شبه الجزيرة كلها طوال نصف قرن الى أن اضطرت روما الى ضمها . وثالثا يظهر في أعظم جلاء اعراض الحكومة الرومانية عن توهييع حدود امبراطوريتها خلال هذا العصر . ان سياستهم في مقدونيا تقدم المثال لذلك . لقد أيدوا بعد انتصارهم الأول (١٩٧) الملك المهزوم كأمير غير مستقل تحت السيادة الرومانية . وعندما أثار خلفه بعد ذلك بعشرين سنة حربا ثانية خلع وقسمت أملاكه بين أربع سلطات محلية . وفقط - عندما فشلت هذه التجربة - جعل القطر اقليما رومانيا (١٤٦) . وفي آسيا ، لم تأخذ روما شيئا لنفسها ، وقد وكلت الأقاليم التي انتزعت من أنطيوخس الى امراء وكلاء والى خلفائهم الهلنيين . ويمكننا أن نوازن الأساليب المشابهة التي تذرعت بها الحكومة البريطانية في الهند في تأجيل ضم البنجاب من وقت الى آخر .

١٣ - ولو كانت غايتنا وضع تاريخ لروما لكان من اللازم أن نتتبع مرحلة بعد مرحلة حوادث هذه المناوشات بالتفصيل وأن نتبين في كل

(١) Gr. 'et déc. فصل ٥ : لقد أثرت السرعة التي استحوذت بها روما على سيادة العالم تأثيرا عميقا في معاصريها . ومنهم ، مثلا ، المؤرخ الاغريقي فلوبيس الذي كان الهدف من مؤلفه هو أن يوضح « بأية خطوات وبأي دستور انضوى العالم بأجمعه تحت حكم روما الواحد في غضون ثلاث وخمسين سنة » (١ ، ١) - أي بين نشوب الحرب الفونية الثانية (٢١٩) وتقسيم مقدونيا (١٦٧) . وهو يذكر أيضا (١ و ٣) كيف أنه في نصف القرن ذاك ، تقابلت تيارات الحوادث في الشرق والغرب ، المنفصلة ، لتكون مجرى واحدا في الامبراطورية الرومانية واصبح لتاريخ منطقة البحر المتوسط ، لأول مرة ، وحدة عضوية .

مرحلة متعاقبة ، تأثيرها المستمر على تكوين حكومتها الداخلية . فعلى سبيل المثال ، كان ضغط الحرب على أبوابها هو الذى أتى بالنفع على العامة الذين كانوا السلسلة الفقارية للجيش فى كفاحهم مع الأرستقراطية الأشراف ، وكذلك كان لادماج الشعوب الإيطالية وشعوب البحر المتوسط داخل دائرة السيادة الرومانية كما سنرى فيما بعد ، نتائج بعيدة الشأو على مذهبها الإدارى والقانونى . ولكن اهتمامنا الحالى بقصة تكوين الامبراطورية الرومانية لا ينصب على العملية النسقية أكثر مما ينصب على النتائج^(١) . وهذه يمكن تلخيصها فى عبارة : قبيل منتصف القرن الثانى ، توطد حكم روما فى أعم خصائصه الجوهرية ، على عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كانت تحكم حكما مباشرا أقاليم صقلية وسردينيا وكورسيكا والغال جنوب الألب وإسبانيا الدانية والقاصية وأفريقيا . وفى عام ١٢١ أدمجت الأراضى الساحلية الواقعة بين الألب والبرانس فى إقليم الغال النربونزية ، الذى عرفت باسم « بورفانس » فى زمن لاحق . وفى الشرق كان يوجد فقط إقليمان : مقدونيا مع أخايا « اليونان » ، وآسيا - أى المنطقة الغربية من آسيا الصغرى - التى أرثها للدولة الرومانية عام ١٣٣ آخر أمير اغريقى لفرغامس . وإلى ما يوالى حدود هذه الأقاليم ، كانت توجد سلسلة من الدويلات مثل نومديا Numidia فى أفريقيا ومصر وسوريا (بقية المملكة السلوقية) وولايات صغرى عديدة تحكمها داخليا حكوماتها الخاصة ولكن تسيطر عليها روما فى جميع ما يتصل بعلاقاتها الخارجية . وكانت إقامة هذه الولايات العميلة ، تحت السيادة الرومانية مظهرا أصليا للسياسة الرومانية فى عهد الجمهورية المتأخرة والامبراطورية الباكورة . وكانت تقوم كولايات حاجزة بين روما ودول من أمثال بارثيا ، ووفرت أثقال الاحتلال العسكرى والحكومة ونمت انتشار المدنية خارج تخوم الأقاليم . وطالع القرن التالى تهذيب المذهب الامبراطورى بتكوين أقاليم جديدة وولايات تابعة وإصلاح الإدارة الداخلية وإقرار التخوم الدائمة للامبراطورية . وفى الزمن الذى وصلنا إليه ، كانت وظيفة روما فى تاريخ العالم قد تحددت معالمها . وكانت تلك الوظيفة مزدوجة وفقا لاختلاف الأحوال التى تواجهها فى الغرب والشرق . وفى الغرب ، كانت رسالتها أن توطد دعائم القانون والمدنية بين الشعوب الهمجية والشبيهة بالهمجية . أما فى الشرق ، من الجهة الأخرى ،

(١) ليست شخصية اسقفىون أفريقانس أو أعماله الباهرة هى التى يعتد بها فى التاريخ ، ولكن النفع الذى حققته روما من فتحه إسبانيا . لقد أطاح هنيبال بفلامنيوس وكتائبه بالقرب من بحيرة اطراسمين ، ولكن اسم ضيعته لا يزال باقيا كمنشئ للطريق العام الذى عبرت به الجيوش الرومانية الأبنين إلى وادى البو وسفوح الألب .

فقد وجدت مدنية قائمة تتفوق الى شوط بعيد على مدنيتهما ، وهناك كانت مهمتها ليس الخلق وانما المحافظة ، أن تنقذ من القوضى والدمار بتيان الثقافة الهلينية وأن تسير فى النهوض بعمل الاسكندر وخلفائه ببث تلك الثقافة فى شعوب الشرق الأوسط والاُدنى .

روما فى القرن الثانى

١ - روما والهلينية :

١٤ - ان قدرة روما على النهوض الى قمة مسئوليتها كانت تعتمد أصلا على خليقة لفيف مواطنيها . وقد تألف فيض الثروة بذيوع الثقافة الهلينية خلال حقبة الحروب العظيمة لايجاد ثورة عميقة فى حياة المجتمع الرومانى الخلقية والاقتصادية . والى زمن الحروب الفونية ، كانت روما فقيرة نسبيا ، وكان يسود المواطنين مقدار من المساواة الحقيقية . والآن ، وجدت نفسها على حين غرة تقريبا غنية ومركزا لتجارة البحر المتوسط وأسواق الشرق والغرب تحت أقدام تجارها ومموليها .

وكانت النتيجة جلية فى قيام طبقة من الأثرياء الذين جعل لهم ثراؤهم نفوذا فى روما وفى الأقاليم ، وفى ازدياد الترف بين أرسقراطية مجلس الشيوخ ، ذلك الترف الذى حاول عبثا الموظفون المحافظون من أمثال كاتو Cato الرقيب ، أن يضعوا حدا له ، وفى عادة المضاربات المالية ، وفى ظهور ضياع الأرض العظيمة وتدهور الزراع من صغار الملاك واستيراد العمال العبيد على نطاق واسع من الشرق ، ولم يمكن للزراعة فى ايطاليا أن تنافس الحنطة المستوردة من بلدان ما وراء البحار . وكانت النتائج السياسية والنتائج الخلقية متعادلتن فى خطورتهما ، وفى الأزمنة الأولى من التوسع فى البحر المتوسط أثار الاداريون والتجار الرومانيون الدهش ، بسبب بساطتهم وحياة الأمانة الصارمة ، فى عالم تعود على الفساد الفونى (الفنىقى) والهلينى . ولكن فى النصف الأول من القرن الثانى كان يمكن لكاتو أن يجار بالشكوى من أن ذاك الذى يسرق من مواطن حر يقضى أيامه مكبلا بالقيود . ولكن من يسرق من المجتمع يقضيها وهو يرفل فى الذهب والأرجوان (١) . وقد خضعت مدونة قوانين الأخلاق القليلة بسرعة الى

(١) راجع مفسن الكتاب ٣ ، فصل ٢ . تزعم كاتو (قنصل ١٩٥ ورقيب ١٨٤) ، وهو من قدامى الجنود فى الحرب الهنيبالية ، وادارى قدير لاسبانيا ، المعارضة المحافظة للتأثيرات الجدد . ويعقد فلوبيس (٦ و ٥٦) وكان بالذات وطنيا اغريقيا ، موازنة بين أمانة الموظف الرومانى فى النصف الأول من القرن الثانى وبين فساد الاغريقى : « ان أولئك الذين فى أيديهم

الأحوال التي تغيرت* وفشا الخمول والعجز بين الطبقة الحاكمة ، بينما كان الأشراف يعيشون في أبهة على أسلاب المقاطعات واستخدم جباة الضرائب من الزراع والمتعهدون ثراهم في انشاء قوة جديدة منافسة في السياسة ، وتدهورت الجماهير التي ألت بها الفاقة والتي اكتظت بها الحاضرة ، الى طبقة عمال من الكسالى والمؤثرين للمتعة .

وكانت تحمل هذه التغيرات في الحياة الاجتماعية والأخلاق التي نجمت عن نهوض روما السريع الى دولة ذات هيادة ، نتائج تنذر بالشر ، ليس فقط على سياستها الامبراطورية ، ولكن على الاستقرار الداخلى للدولة . وكان أكثر نفاذا وله أثر بعيد المدى ، نتائج تمثيلها الهلينية .

١٥ - لقد كان في قمبرانيا Campania في القرن الرابع أن روما اتصلت لأول مرة اتصالا دائما بالمدينة الاغريقية وما وقع من أنها استهلكت تاريخها كدولة - مدينة بأنظمة شبيهة بأنظمة دول - المدينة في اليونان ، كان حلقة اتصال سرعان ما تبينها الرومان والاغريق على السواء . وعندما ظهر الرومان في عام ٢٢٩ للمرة الأولى على شواطئ الادرياتيك الشرقية ، سمح لهم في الحال بالعضوية في الألعاب الهلينية ولم ينظر لهم الاغريق قط على أنهم « همج » . وردا على هذا فان الحكومة الرومانية والأفراد من الرومانيين ، مثل فلامينيوس Flaminius اتخذوا في شغف وجهة موالية للهلينية في السياسة الخارجية . وقد شوهدت ثمار هذه القرابة ، الأكثر توثقا ، في غضون القرن الثالث في الوازع الذي أثارته اليونان في الأدب اللاتيني . لقد كان شعر روما الوطني والترانيم والقصيد الغنائي والملمهة الريفية ، خشنة في الصورة والمادة . وكان للشعراء القليل من الاعتبار ، ولا يوجد أساس سليم لما ذهب اليه ماكولى Macaulay من أن المشاحنات السياسية البواكر ألهمت بأدب يزخر بالقصيد الغنائي .

لقد كانت بدايات الشعر الروماني في الترجمات ومحاكاة عيون المؤلفات الاغريقية واستلهموا صيغ أوزان شعرية ترجع الى اصل اغريقى وخاصة الملحمة ذات الست مقاطع (١) . ولكن يكون من الخطأ الظن بأن الشعراء

تصريف الأموال، العامة من الهلنيين ، حتى لو كان المبلغ مجرد « وزنة » يستخدمون عشرة محاسبين وعشرة أختام وضعف هذا العدد من الشهود ، ومع هذا لا يمكنهم أن يكونوا أمناء على ما عهد اليهم . بينما بين الرومان ، يراعى الرجال الذين يتعاملون بمبالغ جسيمة كالموظفين والسفراء التزاماتهم ، بضمان قسم بسيط .

(١) كان أقدم شعير روماني في وزن يطلق عليه Saturnian

يمثله البيت الانجليزى الآتى :

"The Queen was in her parlour eating bread and honey."

الرومان ، فى اتباع النماذج الاغريقية ، كانوا محاكين لاساتذتهم محاكاة عبید فلقد نفثوا فى أعمالهم ، روح روما . ولقد عبر انيسوس Ennius الذى كان معاصرا للحرب الفونيه النانية ، واتخذ ذلك الصراع التاريخي موضوعا للمحمة ، عن صفات الجند ونشاط الرجولة والكبرياء القيصرى والذكاء السياسى مما كانت تتميز به الخليقة الرومانية . ويصدق هذا القول على مسلاة الأخلاق اللاتينية فى القرن الثانى . وقد أمكن تكييف النماذج الاغريقية للتعبير عن مصالح روما وحياتها الاجتماعية .

وكان هناك أسلوب خاص من الشعر يعتبر خصيصة ملازمة للأدب الرومانى وهو « التهكم » أو الخليط "Satura" وكان أول واضع له لوكليوس Lucilius فى منتصف القرن الثانى ، وكان يصور فى أبيات من ستة مقاطع ، مشاعدا من الحياة الاجتماعية يتناثر فيها النقد الأدبى والسياسى والسيرة التى يضعها الانسان عن نفسه والمغامرة الشخصية وتواصل الأصدقاء . وقد اظهر الكتاب الرومان اشراقا خاصا وروعة فى هذا اللون من الشعر وفى عبارة ناقد حديث . لم يكن هوريس Horace وحده أو كل أصحاب الشعر التهكمى بعده ينتمون الى مدرسة لوكليوس ، ولكن مونتاني Montaigne وبس Pepys أيضا (١) . وكان مولد أدب النثر اللاتينى فى هذه الحقبة ذاتها . ان مصالح الرومان العملية هدتهم منذ زمن مبكر الى أن يشقوا الطريق فى ميدانى الحسابات القانونية والتاريخ . وهنا أيضا نشعر بأحاسيسهم ، الحاضر أبدا ، بعظمة روما وعبقريتها فى القانون والنظام ومصيرها الامبراطورى ، ولكن لا تزال توجد خصيصة أخرى تميز الأدب اللاتينى عن أدب الاغريق . ان أعظم الشعراء الرومان يستبين منهم فهم صادق للطبيعة وحب لها . لقد وضع الاغريق عن الطبيعة شعرا لا يعترية فناء ، ولكن مع كل احساسهم بجمالها وجلالها ، ظلت بالنسبة لهم قوة غريبة عنهم ، قادرة فى الواقع على إثارة اعجابهم ولكنها شيء لم يكونوا فى الواقع قط يرتاحون اليه كل الارتياح . ان الطبيعة عند اليونانى كانت دائما شيئا خارجا عن ذاته ، شيئا يجب أن يعرف عنه أو يقهر ، وليس شيئا يجب (٢) .

وكان الشعراء الرومان يحبون الطبيعة كان لها قرابة بهم . وكان اليونانى يعيش فى المدينة ولأجلها ، واذا عن له السفر الى الخارج ، كان

(١) مكيل - « الأدب اللاتينى » - يشتمل Satura ، كما يدل عليه النص ، أكثر مما يشتمل عليه التعبير الانجليزى "Satura" . ويذكر كونتليان (Inst. Orat. ١٠ فصل ١ § ٩٣) أنه رومانى خالص Satura quidem toto nostra est

(٢) ومع هذا يجب استثناء هزيود والقمايون قراث العالم القديم

الدافع أن يرى مدائن الناس ، وكانت ضياعه مصدر إيراد وليس موضع اعتكاف مختار . كان الروماني يهرب من المدينة جذلان ، للريف . وكان أول من يقدر بيتا ريفيا ويخلق مأوى لوقت الفراغ بين الجبال أو بجوار البحر ، وعلى هذا فإن كاتولوس Catullus غادر روما إلى منفاه على بحيرة جاردا ، وهوريس إلى مزرعة السابينة ، وفرجيل Virgil إلى خليج نابلي . وكانت الحال كذلك مع رجل الأعمال والمحامي عندما كان كما جاء في تشبيه هوريس ، ذائع الصيت ، يطرح عنه حمل الأعمال العامة ، ويأوى إلى حقول فينافرم Venafrum أو طرنظم لاكديمونيا (١) . وكان الرومان يحملون في مناجاتهم مع الطبيعة شيئا من حرارة الود الذي كانت تتميز به أواصرهم الشخصية . وهذا من شأنه أن يجتذب قارئ أدبهم إلى العطف على حياة الشاعر اليومية . ولقد كانوا أول السلالات جميعا (٢) ، احسانا بالابتهاج بجمال الطبيعة ويعبرون عنه في أشعارهم ، يقرب من احساس شوسر أو شكسبير .

١٦٤ - وبانتشار الهلينية المعاصرة من الطرازين الهليني . والاسكندري أصبح المجتمع الروماني أكثر ترفا وأكثر تهذيبا ، في وقت واحد .

وكانت الثقافة الاغريقية لا تعنى ، في الكثير الغالب ، سوى قشرة رقيقة لا تكاد تحجب الحشونة الطبيعية والوحشية في الأخلاق الرومانية . ولم يحتس نفوذها على الدهماء من الشعب اطلاقا الا أن يكون ذلك ، في التأثير التدرجي على الدين الشعبي ، في تعرف الشعراء هوية واحدة للآلهة الرومان ، والآلهة الاغريق ، ولقد غدا الآلهة المعنويون في روما الباكورة ، إلى حد ما ، أولى طابع شخصي وذات محددة . ومن الوجهة الأخرى تعلم الرومانيون الأرسطقراطيون ، من الاغريق ، أن يقدروا الأدب والفنون (٣) .

(١) هوريس « القصيدة الغنائية » ، ٣ ، ٥ و ٢ ، ٥٥ - ٦ .

(٢) لقد سبقهم قدماء المصريين في هذا المضمار فان الشعر الغنائي المصري القديم يزخر بالاحساس بجمال الطبيعة والبهجة برؤية الأشجار والزهور والطيور (المترجم)

(٣) كانت الجماعة الممتازة التي التفت حول اسقفليون اميليانوس (هازم قرطاجنة في الحرب الفونية الثالثة) تضم بخلاف اشراف الرومان مؤلف الفاجعة الهزلية طرنس وشاعر الهجاء والتهكم لوكليوس والسياسي الاغريقي المنفى بلوبيوس ، وأعيد بلوبيوس (ولد عام ٢٠٦ وتوفي عام ١٢٤ ، على التقريب) إلى اليونان من المنفى عام ١٥٠ ورافق اسقفليون في حملاته في أفريقية وغيرها من الأماكن وقام بوظيفة مبعوث روما في اليونان من عام ١٤٥ . وكان تاريخه يضم ٤٠ كتابا ، الخمسة الأولى منها ، فقط ، هي الموجودة لدينا بأكملها . وقد بقيت من الأخرى مقتبسات ، فيما دونه

ولقد حملت الى روما روائع أمثلة النحت الاغريقي ، لتزخرف بيوت قواد الجيش المظفرين . ويوجد قول لجورج مريدث مفاده ان الفكرة المعنوية الوحيدة التي يستطيع العقل العسكري أن يفقه لها معنى ، هي فكرة الغنيمة ، ودون ريب كان لتعطش الدهماء للسلب شأن كبير في نهب كنوز الهلينية ^(١) . هذا ، ولكن بمجرد أن استعرضت أعمال الفن في روما ، أتت على ذوق الجمهور بتأثير خفى . وأصبح الرومان يهتمون ليس بمجرد الاحتفاظ بآثار الماضي التذكارية ، ولكن بتشجيع مثل هذه الابتكارات الجدد في الفن والأدب ، كما كانت العبقرية اليونانية لا تزال قادرة على إنتاجها . والفن الحالى يشير الى وجود جمهور . والآن صارت روما تهيب الجمهور ، ولم يصبح الرومان قط فنانيين . والواقع أن رعايتهم قد أوقعت الضربة القاضية على الفن الاغريقي . والفلسفة الاغريقية بدأت أيضا تتسرب الى روما خلال القرن الثانى ، ولو أن الرومان كان لهم القليل من القدرة على التفكير المجرد عن المنفعة وقاوموا التغلغل زمنا طويلا ، وكانت مبادئ الرواقيين والأبيقوريين التي تتركز حول مشكلات الحياة العملية أول مبادئ تاصلت في المجتمع الرومانى . ولقد عاونت على تعديل ، وفي النهاية على تقويض القيم الرومانية العتيقة للتورع والفضيلة .

ولقد وجدت علامات الفكر الارتياحى فى أشعار انيوس Ennius وكان الشيوخ من رجال السياسة فى القرن الثانى مثل كاتو ، يرتابون من النفوذ الاغريقي . وفى منتصف ذلك القرن وافق مجلس الشيوخ على مرسوم بأن يغادر المدينة جميع الفلاسفة . ولكن مقاومة الافكار كانت غير عملية كمقاومة الثروة والترف ، وفى ارواد ولكن فى يقين ، للخير أو للشر ، فان روح اليونان كما جاء فى عبارة هوريسن : « أخذت أسيرا ، قاهرها الجافى » ^(٢) .

مؤلفون بيزنطيون . وهى تستغرق المدة التى تقع بين عامى ٢١٩ و ١٤٥ . ومصنف بلوبيوس يتميز بعدم التحيز فى الحكم والصدق فى سرد الوقائع التى يمكن تحقيقها . والمؤلف ولو أنه موال ولاء متصلا لليونان وطنه ، فان احساسا بقوة دولة روما التى لا غالب لها ، ونبل وعظمة الخليقة والأنظمة الرومانية كان يلهمه باستمرار . ان الصدفه تتحكم الى حد عظيم ، فى شئون البشر (١ ، ٤) . ولكن لم يكن يوجد مصادفة فى نظر بلوبيوس فى استحواذ روما على امبراطورية عالمية (١ ، ٦٣) . والتأملات الفلسفية التى تنهال على القارىء وهى عسيرة الفهم ، هى - على وجه عام - على شىء من الابتذال واللغو . (١) ينعى بلوبيوس (٩ و ١٠) على الرومان ما درجوا عليه من سلب المدن المهزومة ، خزائنها الفنية . ويقابل هذا بما كانوا عليه سابقا من ضبط النفس وبساطة العيش .

(٢) هوريسن Epp. : ٢ و ١ و ١٥٦ .

(ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني :

١٧ - ان خلق امبراطورية شيء ، ولكن حكمها شيء آخر أكثر عمرا ، والمشكل الذي واجه روما لم يكن مجرد مشكل ايجاد وسائل جدد لادارة اقاليمها ، ولكن أيضا إعادة تنظيم حكومة الوطن المركزية . ان المناهج التي كانت تكفى لبلدة ايطالية كان ما لها أن تقيم الدليل على عدم كفايتها لحاضرة عالم البحر المتوسط ، وكانت خصيصة الدولة الرومانية في عهد الحروب مع قرطاجنة قد أتى عليها تحول أصلي ، ليس بخطة مدبرة ولكن تحت ضغط الوقائع . وقد تركزت السلطة ، ليس كما كان يتوقع ، طبقا للقانون الهرتنسي الذي صدر عام ٢٨٧ ، في أيدي الديمقراطيين الوطنيين ولكن في أيدي عصابة من أسرات الأشراف ، قائمة بذاتها وكان لسان حالها (١) مجلس الشيوخ . ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ يعينون من الموظفين السابقين ، ويضمون جنودا مجربين ورجال سياسة ، في وقت كان فيه القناصل والمواطنون يؤدون الخدمة في الميدان فان مجلس الشيوخ كان الهيئة الدستورية الوحيدة التي لها الأهلية على ادارة شئون الدولة . وقد ترتب على زيادة عدد الموظفين التنفيذيين لتوسع المسئوليات العامة ، حتى لم يكن يوجد أقل من عشرين من الموظفين كل سنة في يدهم السلطة على عقد مجلس الشعب وما وقع من أنه يوجد ثلاثة مجالس شعبية للتصديق على قرارات ملزمة ، ان استدعت الحال بصفة ناجزة لرقابة تنظيمية يقوم بها مجلس دائم (٢) . وزيادة على هذا ففي الأيام التي كانت فيها الأمة

(١) يصف بلوبيوس الدستور الروماني في هذا العصر ، وهو يكتب عنه ، (٦ ، ١٠) بأنه خليط من الملكية (الموظفين ذوى السيادة imperium) والأرستقراطية (الأسرات التي تحتكر الوظائف) والديمقراطية (comitia) أو المجلس الشعبي (راجع كذلك ممسن الكتاب الأول فصل ٢ .

(٢) كان الموظفون الذين يملكون السلطة imperium في بداية القرن الثاني هم (١) القنصلان ، (٢) الستة برييتوريون ، منهم اثنان كانا يؤديان خدمة القضاء في روما وأربعة يحكمون الأقاليم ، (٣) بروقناصل وبروبريتوريون يطرد عددهم في الزيادة ، أى قناصل وبريتوريون سابقون مدت سلطتهم لمهام عسكرية بعد انقضاء العام في القيام بوظائفهم . ومن الوجهة النظرية ، لم تكن السلطة imperium تعرف حدودا . ولكن عمليا ، وضعت فواصل بين السلطة « العظمى » والسلطة « الصغرى » للقناصل والبريتوريين على الولاء وبين مراس السلطة في منطقة روما المدنية (domi) وفي المنطقة العسكرية (militiae) . وكانت سلطة الموظف السابق تنحصر في المجال الأخير . وباستثناء حالة الدكتاتور ، الذي كانت سلطته sine fine (دون حد) فان السلطة كانت تنحصر في نطاق provincia معين (راجع تذكرة ٢ صفحة ٢٥٩) وعلى هذا أصبح للكلب الحارس مقودا .

تكافح من أجل حياتها أقام مجلس الشيوخ الدليل على أنه جدير بحمل السلطة، وكان كما قال مبعوث فورهس لسيده « مجلس ملوك » وعلى هذا حدث أن سلطة imperium الموظفين وسيادة الشعب التشريعية انحلت أمام سلطة مجلس الشيوخ الأدبية . وفي ختام القرن الثالث كان مجلس الشيوخ ، بالإضافة الى سلطته التاريخية في تقديم النصح الى الموظفين يمتلك زمام رقابة تكاد تكون شاملة ، على الشئون الخارجية والتنظيم الاقليمي والمالية والدين وجميع الأمور الحيوية في السياسة العامة . وبعد ذلك بزمان وجيز طالب بحقوق غريبة على التقاليد الدستورية وتنازعها معارضة الشعب ، بوقف الموظفين عن القيام بوظائفهم ومنح القناصل سلطات «كتاتورية افتراضيا ، بموجب المرسوم ، « بأن الموظفين يجب أن يراعوا أن الدولة لا يقع عليها ضرر » (١) . وفي الواقع نجد في روما موقفا مماثل ذاك الذي كان سائدا في إنجلترا في القرن الثامن عشر ، عندما كانت أشكال الحكومة البرلمانية يدير دفتها ، في عهد توسع تجارى وامبراطورى ، لفيف من بيوت حزب الأحرار ، العظيمة . وفي روما أيضا أصبح مجلس الشيوخ والوظائف العليا احتكارا للأسر الشريفة التي تقوم بأعباء الوظائف (٢) ، وهذا الاحتكار المتزايد وهو يتألف بانتشار الشراء والرفاهية بين الأرستقراطية الحاكمة كانت نتيجة التي لا معدى عنها تفشى المرض المزمن فى دولة - المدينة القديمة وهو التشنيع الحزبى ، ومنذ عام ١٣٤ وما بعدها شب الصراع المدنى بين مجلس الشيوخ والديمقراطية فى عنف لم يعرف حتى ذلك الحين فى التاريخ الرومانى . وتأزم مماثل كان ينعكس فى معاملات الحكومة الرومانية مع شعوب إيطاليا وقد أصبح الخط الفاصل بين المواطنين الرومان والآهلين غير المواطنين أشد تصلبا . لقد أنزلت تلك الجماعات الإيطالية التي كانت قد انضمت الى هنيئال الى حالة رق فعلية . وحتى المدن الموالية ، أى تلك التي لها حقوق لاتينية وجدت أنها تركت وقد ناءت تحت أثقال بدلا عن امتيازات . وعندما نعتبر أن الإيطاليين كانوا ينتمون بقرابة الأصل للرومان ، وأنه فى النشاط والحليقة كانوا على الأقل يقفون معهم على قدم المساواة ، وأنهم كانوا يجبرون على حمل وطأة الخدمة العسكرية فى جهات

(١) فى القرن الأول قبل الميلاد ، بدأت قرارات مجلس الشيوخ (senatus consulta) تكتسب قوة قانونية عن طريق اغتصاب فرضى للسلطة ، غريب على روح الدستور .

(٢) كانت لا توجد علاقة اطلاقا بين هؤلاء الأشراف الجدد والتميز القديم بين الخاصة والعامة ، الذى لم يعد له مغزى عملى . وأصبحت المرتبة تقاس الآن بعدد الآباء السابقين الذين اضطلعوا بعليا الوظائف وأصبح أمرا عسيرا ، عسرا يطرد ازديادا ، دخول « رجل جديد » دائرة الأشراف الشريفة .

من الامبراطورية ، نائية ، يمكننا أن نقدر النتائج المدمرة التي كان ما لها أن تنجم عن هذه السياسة ، قصيرة النظر ، المستبدة . وفي الواقع كانت كل الدلائل التي تنبئ بعصر من الانقسام الداخلي موجودة في نطاق واسع في روما وايطاليا قبل ختام القرن الثاني .

١٨ - وطالعت نفس الحقبة قيام روما بوضع أساس مذهبها في الحكومة الإقليمية (١) . وكان تنظيم اقليم جديد يحدده قانون ، يستند الى تقرير من لجنة من مجلس الشيوخ ، ينص على مبادئ الادارة والمالية . وفيما يتعلق بفرض الضرائب فقد جرت العادة على الاحتفاظ - على قدر الامكان - بالمذهب الموجود سابقا (٢) .

ولقد أدخل قانون روما فيما عدا المدن التي لها امتياز « المتحالفة » و « الحرة » التي كان لها الحق ، اذا أرادت ، في الاحتفاظ بقانونها الخاص ، وكانت معفاة من تدخل الحاكم . وحتى فيما يتجاوز هذه الحدود ، كان القانون والعادة المحليان يجدان تسامحا بعيدا . ومرة أخرى ، كانت المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia تكون مجتمعات تتمتع بالحكم الذاتي داخل الاقليم . وكانت المدن الهلينية وخاصة في صقليا والشرق تستمتع بقسط عظيم من الحكم الذاتي ، وأدرك الرومان بنظرهم الشاقب في تكييف المناهج وفق المطالب المحلية ، منذ البداية أن الاغريق المتمدين كانوا في حاجة الى معاملة جد مختلفة عن قبائل أفريقية الهمجية أو اسبانيا ، ومع هذا ، فحتى في هذه الأقاليم الغربية أنشئت مجتمعات حضرية لها امتيازات كمراكز لنشر الثقافة الرومانية . وفي الأقاليم ، كما في ايطاليا ، حلت في كل مكان ، الاتحادات المحلية القديمة ، وفيما يوالى حدود المدن ذات الامتيازات ، كانت سلطة الحاكم مطلقة الا فيما يتصل بنصوص الدستور الاصلى فقط . وكان كل اقليم يوكل أمره لبريتور praetor ، وقد زيد عدد

(١) كان معنى لفظ provincia في الأصل ، مهمة الموظف الخاصة وعندما استولى عام ٢٤١ على أول أملاك خارج ايطاليا وهي صقلية فانها وكلت الى موظف ، كنطاقه الخاص . وقد اتبعوا هذا النهج فيما جاء بعد ذلك من توسع اقليمى . وعلى هذا ، أصبحت الكلمة تعنى منطقة اقليمية تحت حكم موظف ذي سلطة imperium

(٢) وعلى هذا ، استبقى نظام العشور القديم في صقلية وفي آسيا . ولقد أدى هذا الى العادة غير الاقتصادية ، الظالمة في وكول تحصيل العشور صنفا الى محصيل ضرائب كانوا يبيعون المحصول ويدفعون مبلغا ثابتا للدولة محتفظين بأرباح الصفقات .

هؤلاء الموظفين الى ستة بعد الحرب الفونية الثانية أو ، بعد ذلك ، الى قنصل سابق أو بريطور سابق ، تبقى له السلطة لهذا الغرض خلال سنة ثانية . وكان يعاونه موظف من وزارة المالية « قسطور » Quaestor كادارى مالى وإدارة من الموظفين العسكريين والمدنيين . ولما كان الحاكم يبقى فى دست الوظيفة مدة سنة واحدة فقط ، وكان يأتى بموظفيه معه من روما ، فإن صعوبة ضمان الاستمرار فى الإدارة الإقليمية كانت جد عظيمة . وكانت تواجه الى حد بالدستور الدائم للاقليم ، والى حد آخر الى ما كان يقع من أن كل حاكم يؤول اليه الحكم كالبريتورين فى روما أن يذيع مرسوما بمجرد ولايته للوظيفة يشمل فى العادة فحوى مراسيم تسالفيه . وطالما كان فى الوظيفة فإنه كان القائد الأوحده للقوات والرئيس الأوحده للسلطة التنفيذية والقاضى الأعلى . وفى الأقاليم التى فيها لم تكن الحاجة تدعو الى عمليات حربية ، كانت الدوائر القضائية ، أهم واجب لديه (١) . ولما كان لا يمكن محاسبة أى موظف روماني فى يده زمام السلطة ، وهو فى دهم وظيفته بينما كانت التهم التى توجه بعد ذلك تسمع فى روما وأمام محكمة متحيزة ، فإن غوايات الجشع كان لا يمكن مقاومتها تقريبا . وفى الأزمنة الأولى كان الحكام يضعون أمانتهم موضع الافتخار ، ولكن كما يلاحظ مومسن Mommsen « لا يمكن من الوجهة العملية ، ولاى مدة من الزمان ، أن يكون المرء فى آن واحد جمهوريا وملكاً » (٢) . وقد كان من جراء انتشار الرفاهية بين الارستقراطية الرومانية أن تعاظمت مساوئ الحكم المطلق الإقليمى ، وحتى حاكم عدل كان يجد صعوبة تطرد ازديادا فى التحكم فى جيش من جباة ضرائب الزراع والوكلاء المالىين الذين كانت تغمر جموعهم الأقاليم الأكثر ثراء . وبمرور الزمن أصبح الحكام العبدول قلة وتباعدت المسافة بينهم ، وكان المذهب مقضيا عليه بأوخم عاقبة ، فى النهاية ، لعدم وجود رقابة فعالة على الحاكم الإقليمى المستبد . وكانت الحكومة المركزية على مسافة قاصية ولم يكن يوجد موظفون إداريون ذوى دربة لضمان رقابة دائمة فى

(١) كان الحاكم يباشر القضايا فى المعتاد ، طبقا للقانون الأهلى الذى عنى الرومان بالتصديق عليه . وفى القضايا الجنائية كان مجلس consilium من الرومان اختيروا من بين سكان الإقليم ومن إدارة موظفى الحاكم ، يستدعى للمشاورة . وكان الواجب أن اللذان لا يمكن لاي حاكم أن يهملهما ، الحرب والدورات القضائية . وفى غيرهما من المسائل ، كان يمكن لقائم على الإدارة ، متراخ أن يترك اقليما مسالما وشأنه ليحكم نفسه . وكثيرا ما كان هذا يأتى بأوخم العواقب . وعندما كان شيشرون نائب قنصل proconsul فى كليكىة ، استعلم عن مناهج الموظفين المحليين ووجد أنهم كانوا ينهبون الخزينة المحلية منذ أعوام .

(٢) مومسن ، الكتاب الثالث فصل ٢ .

مقر أعمالهم . وكانت آيات الانفصال القادم التى لاحظناها فى روما وايطاليا ظاهرة ايضا وفى صورة معظمة فى جميع أرجاء الامبراطورية الاقليمية .

١٩ - وقد ترتب على تحول مجتمع زراعى بسيط الى مركز ثراء يعج بالسكان لتجارة عالمية وحكم عالمى ، تغيرات مماثلة فى سير القانون ونهجه . وكانت الفترة الواقعة بين وضع تشريع الألواح الاثنى عشر وختام القرن الثانى فترة انشائية عظيمة فى تاريخ القانون ، وفيها تحطمت صلابة مدونة القانون الباكرة وابتكرت وسائل جدد ، وأوجدت مجموعة منسقة من الشرائع عن طريق التفسير والمراجعة والتوسع . والمصدران المعترف بهما (١) العادات التاريخية التى كانت على الدوام خالقة لقوانين جديدة (٢) القوانين الوضعية الايجابية التى زخر بها هذا العصر ، أضيف اليهما فى القرن الرابع (٣) المرسوم البريتورى (١) .

وكان كبار الموظفين على الدوام يملكون حق اصدار أوامر للجماهير (edicta) شفوية أو كتابية . وعندما نقلت فى عام ٣٦٧ وظائف القناصل القضائية الى موظف خاص ، وهو بريتور المدينة (praetor urbanus) فقد أصبح من المعتاد أن يضع فى المحكمة ، ليحيط المتقاضين علما ، ألواحا تشمل صيغ اجراءاته والقواعد التى يسير وفقها فيما ينتويه فى تطبيق القانون . والمرسوم ويطلق عليه المرسوم الدائم (edictum perpetuum) لتمييزه عن الأوامر العرضية التى تتصل بمناسبات خاصة ، كان من الوجهة النظرية صالحا فقط ، فى خلال السنة التى يكون فيها البريتور (Praetor) قائما بمهام الوظيفة ولكن جرت العادة بأن كل (بريتور) تال يدمج فى مرسومه المواد الأساسية التى وضعها سلفه ومعها التعديلات والاضافات التى يرى لزومها . وعلى ذلك فان طائفة من قوانين من صنع القاضى سرعان ما أصبح لها المرتبة التى كانت لقوانين روما الوضعية ، وقوانين العادة .

(١) كان المرسوم البريتورى مصدر القانون الرومانى اللاحق ، فى معظمه . وهو لا يمثل عمل المحامين المعترف بهم ولكن عمل أجيال من اداريين عمليين قاموا بتنسيق القانون المدنى وفق مطالب ايطاليا والأقاليم . ويطلق عليه فى « مجموعة القوانين المختارة » Digest « صوت القانون المدنى ، الحى » وأساس تقدم العدالة البريتورية يرجع الى ما جرت عليه عادة البريتورين فى منح « صيغة » (أى مرسوم بتعيين قاض وارشاده عن مرجع القضية القانونى) كلما رأوا أن دعوى ، حتى ولم يكن ينطبق عليها القانون المدنى الضيق ، كانت معقولة وعادلة وكان المرسوم يبين نوع القضايا التى كان البريتور على استعداد لأن يمنح « صيغة » فيها (أى السماح بالدعوى) وطبيعة الارشادات التى يصدرها للقاضى .

ويلاحظ أن البريتور لم تكن له سلطة التسريع أو الحكم فى قضية ، وكان فى استطاعته ثقت أن يمنح أو يرفض دعوى قانونية عن طريق «صيغة» مكتوبة موجهة للقاضى ، المواطن العادى الذى عينه ليضع قرارا عن وقائع القضية ، ولكن هذه المهمة المحددة اتسع اختصاصها بقانون ايبوتيا Aebutia حوالى ١٥٠ ، الذى خول البريتور عند انفاذ التعليمات الى القاضى بأن يعدل أو يلغى افتراضيا ، المواد الحرفية فى القانون المدنى فى ضوء العدالة والعقل^(١) ومنال واحد يوضح طبيعة هذا التطور بموجب نصوص القانون المشددة فان تعهدا ارتبط به ، بالصورة القانونية كان ملزما ، حتى ولو أن أحد الطرفين وصل اليه بطريق الغش . والبريتور ولو أنه ملزم بالموافقة على السير فى الدعوى ، فانه يعلن أنه فى منحها سينهى الى القاضى بأن يوقع العقاب على المدعى عليه فقط اذا وجد أن المدعى لم يرتكب أى غش . وهذا الاجراء كان يمكن التوسع فيه الى حد لا نهاية له تقريبا ، وكان يهين وصيله فعالة لضمان انتصار روح القانون على حرفيته . وعلاوة على هذا ، فان نفس هذه الفترة طالعت مولد القضاء العلمى . وحتى نهاية القرن الرابع ، ظلت مبادئ التفسير القانونى سرا مختوما فى ايدى لجنة الكهنة . وفى عام ٣٠٤ نشر رجل أعنفه ايبوس فلوديس Appius Claudius الرقيب بعضا من القواعد الحبرية . وبعد نصف قرن استهل أول حبر أعظم pontifex maximus شعبى مراس تقديم النصح القانونى للمواطنين علنا . ومنذ ذلك الحين كانت المعرفة بالقانون مباحة لكل روما . وكنتيجة طبيعية ، ظهر الى حيز الوجود أدب قانونى ، وقد تبع الكتب القانونية العملية ، شروح ذات منهج لمبادئ القانون المدنى . وفى القرن الأخير للجمهورية ، وضعت الأسس لمذهب العلم القانونى الذى عنى عظام الشارعيين فى عصر الامبراطورية الباكر بصياغته^(٢) .

(١) كان القانون الابوطى Aebutian يضع «الصيغة» البريتورية فى مستوى الدعاوى التى ترفع بمقتضى القانون المدنى . ولما كانت الاجراءات بمقتضى « الصيغة » أبسط وأكثر مرونة فان المناهج القديمة ، ولو أنها لم تلغ قط ، بطل السير عليها الى حد كبير . وزيادة على هذا ، فان التعليمات المعينة ، عن المواضع القانونية التى كانت تتضمنها الصيغ ، جعلت القاضى الذى كانت القضية تعرض عليه أكثر اعتمادا عما جرت عليه الحال فى السابق ، على القرار البريتورى ، ومنذ ذلك الحين تسيطر العدالة البريتورية على تاريخ القانون الرومانى .

(٢) ان الاجابات عن الأسئلة القانونية التى كان يضعها المشاهير من علماء القانون (the responsa prudentium) ، كانت ترجع قوتها الى شهرة الشخص الذى يضعها . ولما كان يعترف بها كشروح للألواح الاثنى عشر ، فانها كانت تتضمن فى الواقع تعديلات وتوضيح واعادة تكوين==

٢٠ - وأعظم تطور قانونى فى هذه الحقبة ، الى شأو بعيد ، هو وضع قانون الأمم (*jus gentium*) (١) . لقد كان القانون المدنى قاصرا على المواطنين الرومان - أو على أعضاء مجتمع غير روماني ، ضمنت لهم صفة قانونية بمعاهدة خاصة . وعندما أصبحت روما دولة تجارية عظيمة فقد قامت حاجة واضحة لقانون يكون تطبيقه واجبا على الأجانب فى معاملاتهم مع المواطنين ، وأيضا فى معاملاتهم فيما بينهم . ولقد كان لسد هذه الحاجة ، أن عين بريتور ثان عام ٢٤٢ وله مهمة خاصة فى ولاية القضاء فى الدعاوى التى ينضوى فيها غير المواطنين . ومرسومه السنوى الذى كان يشتمل على التنسيقات اللازمة للقانون المدنى ليطبق على الشعوب الأجنبية . كان أساس قانون الأمم (٢) ويمكن وصفه على أنه ذلك الجزء من القانون المدنى *jus civile* الذى كان يتوافق مع القانون المحلى لدى الشعوب الأخرى . عدل بحيث يتناسب مع الأحوال المتغيرة ووسع بتمثيل عناصر هليئية وعناصر أجنبية غيرها ، ليكون مجموعة من المبادئ العادلة التى تصلح للتطبيق فى جميع أرجاء العالم الرومانى .

ولم يكن هذا خلقا مفاجئا . لقد نما فى تدرج بطيء على مر القرون وكان يمثل ما تراكم من تجارب تدرست بها سلالة ، كان لها قدرة فريدة

وقد أنشئت مبادئ لم يكن يحلم بها قط أولئك الذين صاغوا مدونة القانون الباكورة . ويذكر مين *Maine* (القانون القديم فصل ٢) بأن هذا النوع من القانون لم يكن من عمل مجلس قضاة (لأنه لم يكن يوجد فى روما شيء يماثل مجلس القضاة فى إنجلترا الحديثة) ولكن من عمل المحامين ووكلاء الدعاوى ولو لم يكن علماء القانون يترافعون فى المحكمة . ولم يكن شيشرون عالم قانون *prudens* . وعلى ذلك فإن الفرصة التى أتت به هذا للمحامى ، للنظر فى القضايا المرضية وكذلك المسائل الواقعية كان من شأنها أن تسهل التعميم وصوغ المبادئ المتسعة . ويجب ألا يغيب عن البال بأن كل روماني تقريبا كان يطمح فى وظيفة عامة ، فى أزمى الجمهورية ، كان يتلقن تعليما فى القانون . ولقد كانت المهنة الوحيدة الخطيرة بخلاف مهنة الجندية وكان معظم الطبقة الحاكمة يترسون بكليهما .

(١) عن قانون الأمم *jus gentium* راجع زليوتا فى « تراث روما » .
(٢) كان يطلق على البريتور الثانى بريتور الأجانب *praetor peregrinus* لأنه كان يمارس القضاء بين غير المواطنين (*peregrini*) . وترجع أصول قانون الأمم *jus gentium* الى زمن سابق لانشاء هذه الوظيفة . ويجب أن يكون مفهوما بأن قانون الأمم لا يعنى « القانون الدولى » ولكن القانون الذى يسرى على أفراد ينتمون الى شعوب غير رومانية . وكان فى غالبية يعنى بالعقود وكان يقوم على العادات السائدة بين مجتمعات البحر المتوسط راجع مين (القانون القديم فصل ٣) .

فى نوعها على تكييف الوسائل القانونية لتتوافق مع غايات مجتمع سياسى .
وقد كان له فى دوره رد فعل على القانون المدنى - وخاصة عن طريق قانون
العدالة الادبية (jus honorarium) لبريتور المدينة (١) . وفى النهاية ،
وبفضل ما كان يلزمه من موافقة للنهج العقلى - فانه حل محل مواد القانون
المدنى الضيقة ليكون قانونا للمواطنين الرومان . وعلى ذلك ما عثم أن اعتبر
مدونة القانون العامة ، يصلح للبشرية جمعاء ويقوم على احساس بالعدالة
طبعى فى الانسان كائنسان ، ومن بلاط بريتور الأجنبى praetor peregrinus
ذاع فى الأقاليم حيث أضيف على القانون المحلى السائد ، قانون الأمم
ومراسيم الحكام . وقد حمل الحكام معهم الى روما ما خبروه من القوانين
الأجنبى وساعدوا فى أن يقيموا على أسس واسعة بنيان القضاء الرومانى .
وعلى هذا ، عند اكتمال الزمن ، فان القانون المحلى لدولة مدينة ايطالية
وحده ، وقد نما بإضافات من مصادر أجنبية وحورته عبقرية الشعب
الرومانى التى لها قدرة على التكليف ، صيغ فى مذهب قانونى يضم عالم
البحر المتوسط بأجمعه (٢) .

« ٥ - الخاتمة »

٢١ - قبل أن يتمكن العالم من جنى ثمار القضاء الرومانى ، قدر
للجمهورية أن تعاني آلام الثورة . وقد حدث فى القرن الثانى أن أصبحت
روما تقف وجها لوجه أمام المشكل . هل تستطيع دولة - مدينة لها أنظمة
جمهورية أن تحكم امبراطورية ؟ هل كان من المحتمل تصديقه . . . أنه حيث
فشلت أثينا فى عصر بركليس يقدر لروما النجاح ولم تكن لها الا تجارب
ضئيلة فى الحكومة الذاتية ؟

(١) لقد اتخذ قانون المراسيم البريتورية هذه التسمية لأنه صادر عن
سلطة imperium الموظف (honor = مهمة الموظف) .

(٢) يمكن دراسة تطور القانون الرومانى فى الفترة الواقعة بين
الألواح الاثنى عشر وسقوط الجمهورية على خير وجه ، مرتبطا بتاريخ
العقود . راجع مين (القانون القديم فصل ٩) . « ان الواجب الايجابى الذى
ينتج عن اعتماد رجل على كلمة رجل آخر ، يعد من أبطأ غزوات المدنية التى
تسير قدما » . فى المجتمعات الأولى ، حيث لا يخلق الفرد عن طواعية الحقوق
والواجبات ولكن تكون أما (أ) ملازمة للموطن الذى يولد فيه وأما (ب) أوامر
صادرة عن رئيس الأسرة أو القبيلة فانه لا يوجد مجال للعقد . ان العالم
المتمددين يدين بالعقود والوصايا ، كليهما ، لعبقرية روما القديمة ،
القانونية .

وعلى الرغم من قدرتها على الفتح والحراسة ، فانها لم تبرهن قط. أنها كفاء للقيام بمهمة خلق حياة عامة مشعبة الفروع . ولقد ظل تصورهما للسلطة حتى النهاية ، سطوحيا وتأديبيا . لقد كانت دولة روما تقوم على القوة ، والسلاح كما هو ديدنه ، كان يرتد على من يستخدمه . وسيكون من الواضح ادراك العمق الذى تأصل فيه المرض الذى كان يقوض الكيان الاجتماعى اذا استذكرنا العوارض التى لحظناها فى الصفحات السابقة . لقد انتزع عصير الحياة من الاستقرار الاقتصادى بسبب الثراء الذى غمر العاصمة من جميع نواحي البحر المتوسط ، ولقيام أرسقراطية المال والفقير المدقع فى آن واحد ، ولانحطاط الزراعة واستبدال زراع الأرض الأحرار بالعمال العبيد . وسياسيا كان من شأن السلطة أن تتركز فى أيدي حكومة أقلية قصصار النظر ، لا تواتيهم سعة خيال ، ازدادوا غنى بنهب الأقاليم . كانوا يتاجرون بأعمال أجدادهم الجليلة ولم يكن لهم علم بواجبات عامة الا ما يكون فيها بقاؤهم فى الوظيفة . وكذلك كان يعنى بالمصالح الذاتية مركزا المعارضة لمجلس الشيوخ ، طبقة الفرسان (equites) التى تشمل ذوى الثراء من أصحاب المصارف والتجار ، والحاملون من طبقة العمال فى المدينة ، الذين كانوا يحتشدون فى المجلس ليساوموا فى الحصول على تصويت للشعب ذى السيادة لهم مقابل أنصبه من الخنطة أو بمبالغ تدفع نقدا .

وكانت الطبقة الوسطى الزراعية التى أنقذت روما من هنيبال اما توارت واما تعيش على مسافة نائية عن العاصمة ، ليكون لها دور فعال فى الحياة العامة .

ولقد ازدادت هوة الانفصام بين الرومانى والايطالى اتساعا وأنكرت حرية التصويت . وعومل « حلفاء » روما الذين كان يقع عليهم عبء الخدمة العسكرية كمحكومين غرباء . ومن الوجهة الخلقية ، أصاب البلى المعايير القديمة للورع والفضيلة المدنية . اما الاستقامة وحافز الضمير اللذان كانا فى وقت ما ، المجد الذى يتميز به الرومانى فقد أصبح الرومانى صفر اليدين منهما .

كان الرومانى قد تعلم كيف يحكم بتعلمه كيف يطيع ، والآن ، حتى فى الكتائب أصبح عصيان الجنود المواطنين أمرا يغلب وقوعه . وقد أثرت فيه روح اليونان ، فان عادة التكتل والولاء للجمهورية ، غدت تخضع لمطالب المطمح الشخصى .

هل كان من المستطاع أن مجتمعا ، يمزقه التشيع الداخلى ، والذى كان قد أبعد ذوى قرباه الايطاليين يظل محتفظا بالسيطرة على امبراطورية اقليمية فسيحة ؟

لقد نكسست الجيوش على الحدود تحت امرة نواب قناصل وأقسمت الجيوش لهم وليس للجمهورية يمين الولاء (١) . هنا كان موضع الخطر أمام الزمن المقبل . الى أى مدى كان يمكن لقائد مظفر ، له سلطة غير محدودة على جنده وموارد اقليمية أن يقنع باظهار ضبط النفس والولاء المدنى ، اللذين كانا طبيعة ثانية فى الرومانى فى الا زمن الاول ؟

لقد كان ترابط هذه الأحوال - عدم قدرة المدينة الملازمة على حكم العالم ، والتدهور الخلقي فى مجلس الشيوخ والشعب الرومانى ، وسلطة الحاكم الاقليمى حديثة النشأة - هو الذى أدى فى خلال القرن التالى الى سقوط الجمهورية وخلق الامبراطورية الرومانية .

(١) - (ربما) كان sacramentum أو يمين الولاء العسكرى فى الأزمن القديمة ، اليمين الذى يقسم به - ويترتب على الخنث فيه عقوبة توقعها الآلهة - طرفان فى تعامل خاص وكل منهما يعلن وهو جاد أن توكيده لدعواه كان صادقا ، راجع مسن الكتاب الأول فصل ٢ ودائرة المعارف البريطانية فى موضوع « القانون الرومانى » (الطبعة الحادية عشرة) مجلد ٢٣ الصفحات ٥٤٨ وما بعدها . واستخدم هذا اللفظ للدلالة على الفرائض المقدسة ، المسيحية و « الأسرار » الشرائية والاغريقية يوجد فى طار طليان Teriullian راجع دائرة معارف هيس-تنجنس فى الدين والأخلاق ، عن موضوع sacraments (المسيحية ، الغربية) .

الفصل الثامن

الإمبراطورية الرومانية

١ - أنظمة الإمبراطورية

١ - سقوط الجمهورية

١ - ان لقصة سقوط الجمهورية أهمية خارقة العادة ، من حيث الحوادث والاشخاص كليهما ولأن لدينا علما وافيا بتلك الحقبة . وهي تستهل بتربونية طبريوس جراكس Tiberius Gracchus عام ١٣٣ ، وتختتم بقيام أوغسطس عام ١٧ ق.م بتأسيس الإمبراطورية نهائيا .

ولقد رأينا في الفصل الأخير كيف أن بذور الثورة كانت تنبت في الدولة الرومانية منذ اللحظة التي أصبحت فيها سيدة عالم البحر المتوسط . والمشكل الذي كان يواجهها هو ذلك الذي كان يناوئ المدنية القديمة خلال تاريخها وهو الجمع بين الحرية المدنية وتوسع الإمبراطورية . وكان يمكن للرومان بقدرتهم على تكييف مبادئ الحكومة طبقا لما يطرأ على المواقف من تغير ، الكشف عن حل لو أنهم استطاعوا ادراك معنى الحكومة الذاتية داخل حدود مجتمعهم المدني الخاص . وكان سبب فشلهم يرجع الى تدهور الحياة العامة . ولقد كانت الجمهورية الرومانية منقسمة على ذاتها وعلى ذلك ، لم تستطع الصمود .

ومن بين فروع الدولة الثلاثة ، الموظفون ومجلس الشيوخ والمجلس الشعبي ، كان الأخيران قد أظهرتا دلائل الذبول وظلت سلطة الموظف فقط تحتفظ بقوتها وعندما أزيحت جميع العوائق ، وطدت نفسها في صورة جديدة وفي قوة طاغية . ولما رأى الموظفون من القواد أن الدولة أصبحت تحت رحمتهم ، استولوا على السيادة التي وضعت هكذا في قبضتهم .

وفي زحمة كل التغيرات وتصاريق مصيرها ، ظلت الفكرة الأساسية في رابطة المصالح المشتركة الرومانية في استمرار لا ينقطع . وكان نداء روما انياس Aeneas والإمبراطورية التاريخية على السواء « السلاح والرجل » .

وكانت السلطة Imperium ، صخرة الأساس لحكم العالم حكما استبداديا ذلك الحكم الذى قام على أنقاض الجمهورية . ولقد برزت عارية دون خجل كالمصدر الأول للسلطان والقانون . وفى ظل العرش ، حيث كان يقوم مرة مجلس الشيوخ (السناتو) والمجلس ، ظهر طبيف الجندى والموظف ، الفاتم المنذر بالشؤم .

٢ - وسنأتى بموجز قصير عن مراحل الأزمة ، المتعاقبة :

(١) بدىء بالهجوم على الارستقراطية الحاكمة عام ١٣٣ ، عندما وضع طبريوس جراكس كزعيم للمعارضة الديمقراطية قانونا لتخصيص مزارع فى ايطاليا لزراع احرار على حساب الأغنياء من محتلى أراضي الدولة . وما له موضع الاعتبار ، هو انه أثار القوى الكامنة فى التريبونية كسلاح ضد الموظفين ومجلس الشيوخ معا وأنه وجد نفسه مجبرا على استخدام تلك القوى بطريقة غير دستورية . .

وعندما حاول ان يحتفظ بالوظيفة عاما ثانيا ، قتل فى عصيان أوعز به أعداؤه السياسيون . وبعد ذلك بعشر سنوات (١٢٣ - ١٢٢) نهض بالأمر أخوه كايوس Caius بصيغته موظفا أعلى (تريبون) أيضا ، على مجال واسع وبعد أن استحوذ على معاونة طبقة موظفى المالية (equites) بمنحهم امتيازات كمحصلى ضرائب من الزراع وكقضاة فى المحاكم ومعاونة جمهرة الشعب بانصبه من المنطة والوعد بمستعمرات عبر البحار ، فانه ناهض رقابة مجلس الشيوخ على الادارة الاقليمية والمالية . وكان رد مجلس الشيوخ القيام بأعمال عنف علنية وأوشك النزاع الحزبى أن يكون حربا أهلية .

(٢) والى الآن كان الصراع محصورا فى الميدان السياسى ، ولو أن أسلحة غير دستورية استخدمها كلا الطرفين المتنازعين . وقد تجلّت التريبونية ومجأة على انها اعظم قوات الدولة منعة . ولقد نهض مجلس الشيوخ من الصراع ظافرا ولكنه كان مزعزعا . ومنذ ذلك الحين كان المصلحون لا يفترون ينطلقون الى الهون العسكرى . ولقد واقتهم الفرصة عندما حدث فى سنى القرن الثانى الحثامية أن روما هبت من جراء تهديد من الخارج كان من شأنه أن يجلب التبور على وجودها ذاته . كانت قبائل جرمانية قد غزت الغال وصحقت الجيوش الرومانية فى الاقليم الجنوبى واجتاحت اسبانيا وكانت على وشك التوغل فى ايطاليا . ولقد نهض جندى قدير ، كايوس ماريوس Caius Marius - وكان يدعى عاما بعد عام لتولى القنصلية تلبية لنداء الشعب - باعادة تشكيل الجيش ، وفى انتصارين فاصلين (١٠٢ و ١٠١) أنقذ الدولة . وقد عملت اصلاحاته العسكرية بالغاء فروق الرتب والثراء فى الجيش ، وإحلال الخدمة الاختيارية محل تجنيد

المواطنين بايجاد جيش محترف ، على فصر الآصرة التى كانت تربط الجندى بالمجتمع المدنى ، ومنذ ذلك الحين غدا القائد الناجح ، الحكم فى السياسة الداخلية . وفى بكور القرن الأول واجهت الحكومة أزمة ثانية كانت أكثر حدة ، اذ عندما عرض كايوس جراكس بروح الأب السياسى الصادق ، انصاف مظالم الايطاليين بمنحهم حرية التصويت ، هجره ديموقراطيو المدينة^(١) . وفى عامى ٩٠ و ٨٩ ظفر الايطاليون بقوة السلاح بحرية التصويت . وأخذ هذا الصراع ميده ، دون توقف الى حرب أهلية (٨٩ و ٨٨) بين قائدين متنافسين هما ماريوس Marius نصير الحزب الشعبى ، ولوكيس كورنليس سلا Lucius Cornelius Sulla نصير مجلس الشيوخ . ان انتصار سلا جعله سيد الدولة ، وكدكتاتور استخدم مضياء السيف لاعادة مجلس الشيوخ الى سيادة لا يكاد يوجد لها ضابط (٨١) . وكانت اعادة سلا فى ذاتها ، ثورة ، فى أنها تحققت بالسلاح . وبعد أن أفنى خصومه السياسيين دون رحمة ، تولى الحكم كحكم مطلق التصرف . ولو أنه كان يعمل لصالح النظام القديم وتغلى عن حكمه الاستبدادى عندما أنجز عمله ، فقد كان مما لا معدى عنه ، أن آخرين يترسمون خطاه حيث أراهم السبيل ويستخدمون القوة العسكرية لفايات قد لا تكون غير ذاتية بأجمعها^(٢) .

٣ - (٣) وقد كشفت السنوات العشرون التى جاءت بعد اعادة سلا عن عدم قدرة مجلس الشيوخ على الاحتفاظ بالمكانة التى ظفر بها له . ولقد

(١) كان الايطاليون يملنون أحسن أرومة فى الدولة الرومانية ، ولما كان عليهم أن يضطلعوا بأثقل الأعباء العسكرية ، دون مزايا مقابلة ، فان هذا أعظم الأدلة خطورة على عدم أهلية الحكومة لمعالجة مسائل الدولة . وقد بذلت محاولات عديدة من عام ١٢٥ وما بعده لانصاف مظالمهم ، ولكن دون جدوى .

(٢) ان المجلد الباهر الذى وضعه ممسن عن عمل سلا وشخصيته (الكتاب ٤ فصل ١٠) يجب قراءته ولكن فى حذر شديد . لقد أوتى سلا ، دون نزاع ، قدرة عظيمة كجندى ودبلوماسى وسياسى . وقد أظهر أيضا ذوقا أدبيا عظيما وقدم أعمال أرسستطاليس فى روما وكتب مذكراته الخاصة الخ ، وكانت له موهبة فى المجانة الساخرة . ولما كان أرسستقراطيا عريقا ، فان ترفعه جعله لا يعتد بالنفوذ الشخصى . وكان لا يقيم وزنا للأخلاق على الإطلاق ، وحقق القليل مما كان انشائيا . وأعظم عمل دائم قام به هو تنظيم القانون الجنائى . وأى شخص يريد أن يقيم الدليل على أن الضرورة السياسية هى مرشد عديم الجدوى ، عندما تعزل عن الأغراض المثالية ، سيوجد فى الانهيار السريع لاعادة سلا لمجلس الشيوخ تأبيدا لدعواه ، يسترعى البال .

جلبت الحرب الخارجية وكانت هذه المرة قد شنت في الشرق ضد مثرادطس Mithradates ملك بنطس في آسيا الصغرى (٨٨ - ٦٤) الى الجبهة قائدا جديدا في شخص بومباي Pompey (قنايس بومبيس Conaeus Pompeius) وفي عامي ٦٧ و ٦٦ وكلت اليه سلطات غير عادية ، تنبىء مقدما ، في وضوح ، عن حكم الأباطرة الاستبدادي ، الذي جاء فيما بعد وبمقتضى القوانين الجابينية Gabinian والمنيلية Manilian أصبحت له السلطة Imperium مع الأصبقية على جميع الحكام الاقليميين في الشرق لمدة ثلاث سنين ، وإدارة من المبعوثين legati يبلغ تعدادهم خمسة وعشرين ، وموارد لا حصر لها من الرجال والسفن والنقود . وبعد أن قام بإعادة تنظيم الشرق ، عاد الى الحاضرة في سنة ٦١ وهو الشخصية التي لها الأمر في الدولة الرومانية (١) .

(٤) ويتركز تاريخ الاثنى عشر عاما التالية (٦١ - ٤٨) حول ثلاثة نفر كان من بينهم اثنان يدينان بمرکزهما الى معاونة الكتائب . فمن جهة انساق بومباي ، وكان متعطشا للسلطة ولكن أجبن من أن يقتنص الجائزة التي كانت في متناوله ، ليقوم في النهاية بدور حامى مجلس الشيوخ والجمهورية . ومن الجهة الأخرى فان الزعيم الديمقراطي جايوس يوليوس قيصر Caius Julius Caesar - ابن عم ماريوس - الذي في صباه نجى من الموت على يدى سلا بشق النفس - استحوذ بتحالف مؤقف مع بومباي

(١) كان مثرادطس أعظم خصم عنيد ، وقد أعقب موته بعد الهزيمة عام ٢٦٣ ، إعادة تشكيل بومباي لآسيا الغربية ، الذى أشير اليه فى النص . وقد استغرق هذا الشطر الأعظم من عامين وكان له أهمية دائمة . وأضيف الى اقليمى آسيا وكليكية القديمين ثلاثة أقاليم جدد ، بثونيا وسوريا وكريت . وفى فلسطين ، وضع بومباي القيود على سلطة الكاهن الأعظم اليهودى . الزمنية ، وأبعد عن اختصاصه القضائى المدن الهلينية التى ازداد عددها فى عهد السلوكيين . ولقد أظهر بومباي حكمة عظيمة فى الاعتراف بالأمراء المقطعين والمدن الحرة والأقسام القبلية كوسائل للحكومة ، تحت سلطة روما . وقد ترك آسيا الغربية فى مركز يشبه مركز الهند البريطانية فى هذا العصر ولكن كان يقوم على ادارة بعضها ادارة مباشرة ، موظفون رومانيون وكان البعض الآخر فى صورة حكومات محمية . راجع دكورت Duckworth فى « الأعمال » (المقدمة : مجلد ١ ، الصفحات ١٧٧ وما يليها) لجاكسون وليك ، الذى يقابل ملك كبدوكية بنظام حيدر اباد ومملكة أرمينيا خارج النفوذ الرومانى بمملكة أفغانستان . وكانت روما معنية أشد العناية بالتسامح فى كل مختلف العقائد الدينية والعادات المحلية . وتزول الامارات المقطعة داخل الامبراطورية فى القرن الاول الميلادى .

ورجل المال الغنى كراسس Crassus على قيادة عسكرية فى الغال مماثلة لتلك التى سبق منحها لبومباى فى الشرق^(١) . وفى خلال السنوات التسع التى قام فيها بأعباء القيادة (٥٨ - ٤٩) فانه لم يصنع فقط السلاح الذى أوقع به الضربة القاضية على الجمهورية ولكن بفتح الغال ومد الحدود الرومانية الى الراين ، صد لمدى قرون قوادم تيار الغزو الهمجى .

وفى هذه الحادثة ، وفى حوادث كثيرة فى حياته العملية ، أظهر قيصر ، لدروجة خارقة العادة ، القدرة التى يتميز بها كثير من عظماء الناس فى التاريخ بمزجه المطمح الشخصى بالمصالح القومية الحيوية . وبين هذين المتنافسين ، الذى ينظر الواحد الى الآخر فى ريبة متبادلة ، ويسنان سيفيهما للمعركة ، كان يقف شخص الخطيب العظيم ماركس تليوس شيشيرون Marcus Tullius Cicero وهو محافظ حر جاهد فى شدة لينقذ الدستور الجمهورى من الوقوع فريسة للطغيان العسكرى . وعلى غرار ديمستينس فى أثينا فى القرن الرابع ، قام بدور آخر نصير لدولة - مدينة حرة . وكانت سياسته سياسة اصلاح مزدوج : أن يوحد مجلس الشيوخ والمرفق المالى (equites) لدعم القانون والنظام ، ضد الفوضى ، وتوسيع أساس الدولة باشتراك الطبقات الوسطى فى البلدان الايطالية ، مع حكومة الدولة الرومانية^(٢) . ولكن التصلب الضيق فى نبلاء مجلس الشيوخ الذين لما كانوا لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا شيئا فى أثناء اضطراب دام خمسين عاما ونيف فقد ظلوا متمسكين فى استيئاس بآخر بقية من احتكارهم للسلطة وكذلك المطمح الشخصى الذى كان يساور القائدين العسكرين العظمين ، جعل كل جهود شيشيرون ليؤلف بين الشيوخ والمرفق المالى ، والرومان والايطاليين ، دفاعا عن مبادئ الدستور التاريخية ، تذهب هباء . وحتى هو ولو أنه كان من الأحرار بمولده ، فقد أجبر فى النهاية على أن ينادى بإقامة « منظم للجمهورية » واحد ، يمكنه - وكان يرجو عبثا - أن يحكم فى تعاون

(١) كان قيصر (الذى يرجح أن مولده كان عام ١٠٢) متأخرا فى الصعود الى المرتبة الامامية فى السياسة الرومانية . والى أن تولى القنصلية عام ٥٩ ، لم تكن قدراته معروفة ولو أنه كان قد أظهر امتهلا فى معارضة سلا ، فى شبابه وقدره ظاهرة كجندى وإدارى عندما كان يقوم بوظيفة بريطور فى اسبانيا عام ٦١ . وعن الغال الرومانية ، راجع مايلى § ٥١ . ومن غير المستطاع الحكم الى أى مدى ، وضع قيصر خطة حكمه الاستبدادى فى السنوات السابقة لعام ٤٩ .

(٢) لخصت هذه السياسة المزدوجة فى كلمتى التنبيه Concordia ordinum (« تناسق المراتب ») و Consensus Italiae (« رأى ايطاليا المجمع ») .

ولاء مجلس الشيوخ بالفانون وليس بالسيف . ولو كانت الجمهورية جديدة بالانقاذ لقام شيشرون بانقاذها ويصدق كذلك أنه لو أن شيشرون كان قادرا على انقاذها ، لكان قد أدرك أن المهمة مستحيلة . ونفضيل شيشرون الموت في النهاية على أن ينكر المثل الأعلى الجمهوري ، يفسر الى حد بعيد ما استحوذ عليه من احترام الأزمات اللاحقة . وأما ما خلا ذلك ، فإن الغرور وعدم الشجاعة أعمياء عن حقائق الموقف الذي جهد في التحكم فيه (١) .

(٥) وبهذا نجى الى الفصل الأخير من الفاجعة ، عندما عبر قيصر في ربيع عام ٤٩ على رأس جيشه « الروبيكون » Rubicon ، الجدول الصغير الذي كان الحد الفاصل بين قيادته العسكرية وإيطاليا . ولقد دهش الجميع . الذين كانوا يتطلعون وفرائضهم ترتعد لما سيقع على يده من اقتصاص لمذبحة سلا للديمقراطيين حين رأوا تقدمه المظفر يتميز بالاعتدال والرحمة اللذين كسب بهما المؤازرة العامة في روما وإيطاليا ، وطالعت السنة التالية (٤٨) بومباي وقد سحق في فارصاليا Pharsalia . لقد كان فوز العبقرية على القدرة . ولقد صمد الجمهوريون في الغرب طوال أعوام ثلاثة ولكن في عام ٤٦ ، سقط كاتو رجل الحزب المثالي الذي لا يقبل مساومة في صلح ، على سيفه في أوطيقا في أفريقيا . وفي سنة ٤٥ ، تركت خاتمة الانتصارات في موندا Munda بإسبانيا قيصر سيدا للعالم الروماني دون منازع (٢) .

(١) خطابات شيشرون (مختارات ترجمها ترجمة رائعة جينس Jeans - وقام بنشرها ماكملان) تقدم شرحا ذا قيمة عظيمة عن هذه الفترة . راجع أيضا المقدمات التاريخية في طبعة تيرل Tyrrell لرسائل شيشرون . وعن شيشرون كرجل أدب راجع ما يلي ١٩٩ .

(٢) كان كاتو محافظا صارما ، صاغ سياسته وفقا لسياسة سالفه رقيب بواكير القرن الثاني . وقامت دعوته التي لا تقبل تصالحا ، لتضييق سياسة مجلس الشيوخ تظاهرها أمانته الشخصية عقبة خطيرة أمام سياسة شيشرون المتحررة . وطبع كاتو الخلقى السامق ، ومثاليته الجمهورية ، وما وقع من ازهاق روحه بنفسه عندما تحقق أنه لا أمل في مزيد من الكفاح . كل ذلك جعله موضع تجلة الحقب اللاحقة . ولهذا كتب لوكان Lucan في عهد الامبراطورية الباكرة هذا البيت ذائع الصيت .

"Victrix Causa diis placuit, sed victa Catoni" (i, 185)

(ان الدعوة الظافرة كسبت رضى الآلهة)

ولكن المهزومة كسبت رضى كاتو)

واختيار دانتي لكاتو ، كنموذج لفضيلة الوثنية العتيقة ، ليكون حارس الشاطئ الذي يقع أسفل جبل المطهر Purg, Canto i كان مرجعه صورة فرجيل لكاتو وهو يقضى بالعدل للصالحين من الموتى (Aen., VIII, 670, "his dantem jura Catonem")

ب - يوليوس قيصر

٤ - لقد عزز قيصر سيادته بظهر له صفة قانونية ، وذلك أنه ركز فى شخصه طائفة من الوظائف الجمهورية مثل القنصلية والتربيتونية . ولقد تقرر نهائيا عام ٤٥ بمنحه الدكتاتورية مدى الحياة . ان احياء وظيفة بطل العمل بها منذ زمن طويل ، فيما عدا حالة سلا ، وكذلك اتخاذه لقب امبراطور Imperator بين مرة أخرى كيف كانت السلطة Imperium كما فى ايام الملكية السالفة ، المنبع الاوحد للسلطان فى الدولة . وكما أن الملكية تحولت الى جمهورية بالتحديد النثائي للاشتراك فى الحكم (شريكان قنصلين بدلا من ملك واحد) وبتحديد الزمن (الانتخاب لمدة سنة) فقد نجم الآن عن الغاء هذه القيود التحول من جمهورية الى ملكية . لقد تحققت ثورة ، على الطراز الرومانى الحق ، دون الغاء الأوضاع الدستورية الغاء تاما . وبفضل هذه السلطات وغيرها ، عين قيصر موظفين وحكاما اقليميين ووسع عدد الوظائف التنفيذية وسيطر فى تحكم شامل على مسائل الحرب والسلم والشئون الخارجية وادارة الامبراطورية حتى أصبح الانتخاب الشعبى مجرد صورة للتصديق على من يعينهم الدكتاتور . وفد زيد عدد اعضاء مجلس الشيوخ الى ٩٠٠ وكان كثير منهم من الاقاليم لأن قيصر أنشأ السياسة الامبراطورية لرفع مستوى سكان الاقاليم ليكونوا متساوين مع الرومان . ولقد فتح مجال الوظائف العالية فى مجتمعات ما وراء البحار للمعتقين . وفى الواقع ، أصبح مجلس الشيوخ أداة لتسجيل مراسيمه . وفى التشريع ، وضع مجموعة هائلة من الخطط وكان لكثير منها مجال واسع المدى وتشمل اصلاحات اقتصادية وزراعية وتنظيم دساتير البلدان تنظيما منسجما وتوسيع حق الانتخاب . وعلى سبيل المثال ، كانت قانس فى اسبانيا أول المدن الاقليمية التى نالت هذا الامتياز ، واعادة تنظيم النظام المالى (١) .

(١) لا يزال باقيا قسم عظيم من قانون يوليوس للبلدان Lex Julia municipalis الذى يتعلق بالبلدان الايطالية واجزاء من قانون ربريوس lex Rubria الذى يتعلق بالتنظيم الحضرى فى الغال على الجانب الرومانى من الألب Cisalpine Gaul وهذه القوانين تفرق بين ولاية قضاء البريتور الرومانى وقضاء الموظفين المحليين وتنظم شكل حكومة البلدان ، الذى يقوم به الموظفون ومجلس الشيوخ والمجالس ، والذى نما فى الأزمن السابقة . وقد منح قيصر الحقوق المدنية الكاملة للغال على الجانب الرومانى من الألب وأدمجها فى ايطاليا ، أوغسطس (عندما كان اكتاويا) عام ٤٢ وقد ألغى قيصر نظام ضرائب العشور الردىء ، فى صقلية وآسيا وعالج بقدرة عظيمة الموقف الاقتصادى الذى نجم عن الحروب الأهلية . وفى روما وضع قيودا على أنصبه الحنطة والغى المنتديات الشعبية الفاسدة . وقد كان يعتزم وضع مدونة للقانون ولكن لم يواته التنفيذ .

ولقد وضعت خطط القيام بالأعمال العامة العظيمة ونفذت في إيطاليا والأقاليم وأسست المستعمرات عبر البحار مثل كورنث وموقع قرطاجنة ، ولا يزال التقويم الذي أصلحه قيصر مقبولا ، مع اليسير من التعديلات ، لدى العالم المتمدين . وكانت السرعة والنشاط اللذان وضع فيهما تصميم إعادة بناء تاريخي ، وتنفيذه يدعو إلى الدهشة كما كانت تدعو إليه حركاته في الميدان . وقد كشف هيجل Hegel بحق في قيصر « المثال لتكييف الوسائط بالغايات عند الرومان »^(١) . وفي الأعوام الخمسة الأخيرة من حياته ، لم ينفق لا ثمانية عشر شهرا في روما وتمثل جلائل أعماله مجرد المراحل الأساسية ، في مشروع شامل لحكومة امبراطورية .

ومع هذا ، فقد حددت الخطوط التي سار عليها حكم العالم الروماني مدى قرون - الحكم الشخصي للملك ، عن طريق ادارة من الموظفين المعيّنين شخصيا والسيطرة الفعالة على الكنائس والادارة الاقليمية وتوسيع حقوق المواطن في أرجاء الامبراطورية ، والمحافظة على السلام الداخلي وتعادل القانون ، وتحديد التخوم والدفاع عنها ضد المغيرين غير المتمدينين . وفي جميع هذه الوجوه ، كان أوغسطس خليفته يعيد البناء على الأسس التي وضعها يوليوس قيصر في مثل تلك السرعة ولكن في بصيرة صادقة .

(٥) وآخر مسألة جاء ذكرها ، مسألة حماية الحدود كانت قد أهملت اضطرارا في خلال حقبة الثورة الأهلية . ولقد تحدثنا عن الخطر الذي كان يهدد إيطاليا في خاتمة القرن الثاني عن طريق تحريك العصابات الهمجية صوب الغرب من مواطنهم في الشمال والشرق عبر الراين والدانوب . وفي ذلك الحين أنقذ ماريوس روما بجيشه الذي أدخل عليه الإصلاح . وبعد ذلك بنصف قرن أمن فتح قيصر للغال تخمها الشمالي بصفة دائمة^(٢) .

(١) فلسفة التاريخ الجزء الثالث ، القسم الثاني .

(٢) كان قيصر فقط في الوقت المناسب . وفي أول حملة له في الغال (٥٨) ، كان عليه أن يواجه غزوتين ، غزوة هالوطي Helvetii بمحاذاة السرون ، وغزوة الألمان بقيادة أريوسطس Ariovistus عبر خانق بورغاندي بين الفوج والجورا . وكان أريوسطس على وشك اقامة دولة تيتونية قوية في الغال . ولو أن النصر لم يحالف قيصر ، لاجتاحت القبائل التيتونية الامبراطورية ومعها بناء المدينة الاغريقية الرومانية بأكمله . ولقد أرجأ فتح قيصر ، الكارثة الى أن تأصلت جذور المدينة ومعها العقيدة المسيحية بين الشعوب المغيرة . وقد ألحقت المنطقة الجديدة أولا باقليم الغال النربوني القديم وقد أنشأ أوغسطس ثلاثة أقاليم غالية جددا .

وفى أفريقيا أضيفت قورينا (٧٤) ونومديا (٤٦) الى قائمة الأقاليم . ولقد أتى الخطر الداهم المباشر من الشرق . وكان بومباي (٦٧ - ٦٢) قد أعاد وضع نظام آسيا الغربية السياسى عند ختام الحرب المراتبية (١) . ولقد دالت الأسرة السليوكية وآلت ممتلكاتها الغربية الى روما بينما سار اقليم سوريا الجديد مع الامبراطورية البرنية فى وادى الفرات . وفى عام ٥٤ ، شنت البرثيون شمل جيش رومانى فى « قرها » Carrhae ودعت دواعى الشرف والأمان على السواء ، للقيام بالعمل العسكرى الذى كان قد أخر أمدا استتال أكثر مما يجب . وهنا كما فى الغال ، كانت المسألة حقيقية وتتطلب السرعة . ان قيصر لم يصطنع الحروب ، للحروب فى ذاتها ، فى الشرق ، كما فى الغرب ، كان وجود الدولة الرومانية محفوا بالخطر . ولم يضع قيصر وقتا فى مجابهة الأمر . وفى ربيع عام ٤٤ كانت القوات العسكرية الشرقية تنتظر قائدها ، ولكن فى ١٥ مارت (Ides مارت) ، عشية رحيله من روما هاجمه متآمرون فى مقر مجلس الشيوخ وهلك عند أسفل تمثال بومباي .

٦ - لقد وصف مقتل قيصر بحق على أنه أعظم غلطة فى التاريخ لانه لم يأت بشئ سوى ازاحة أعظم رومانى عن المسرح ، وبعد ثلاثة عشر عاما من الحرب الأهلية - حشجة موت الجمهورية - أعاد وريثه الذى تبناه تكوين الامبراطورية . ولم تكن ظروف المسألة تسمح بإجراء مغاير . وفى نظر العصور اللاحقة التى تغذت على تقاليد الامبراطورية الرومانية والتى كانت تعتبر تلك الامبراطورية مقدسة - ليس فقط كمنبع القانون والمدنية - ولكن كأداة دبرتها العناية الالهية لنشر العقيدة المسيحية ، كان يظهر قتل قيصر كأهلك جريمة . وفى أعرق قرار فى جحيم دانتي ، وضع أكبر مذنبى التاريخ الثلاثة ، يهوذا الاسخريوطى الخائن لمؤسس الكنيسة العامة وبروطوس وكاسيوس ، خائنا الامبراطورية العامة . ولم يكن جريمة ولكن كان خطأ شنيعا ، لأنه - كمقاومة دمستينس العنيفة لفيليب المقدونى - كان نتاج مثالية فطنة . ولقد لاحظنا مرارا وتكرارا فى هذه الصفحات كم كان بعيد الغور نفع دولة - المدينة للمدينة الاغريقية والرومانية بما كان يسودها من جو المناقشة الحرة والعدالة المدنية . وليس من العجب أن كان خلف الرجال الذين هماغوا ، تحت حوى دولة - المدينة ، الامبراطورية الرومانية ببناها الرائع من القانون والحكومة ، يغارون على الأنظمة التى بعثت العظمة فى روما والرومان .

(١) راجع عالىه § ٣ . علاوة على الأقاليم التى ذكرت ، الحق أوغسطس كريت باقليم أفريقيا ، أما قبرص (وقد أدمجت عام ٥٨) فقد ألحق بكليكية ولكن أوغسطس جعلها اقليما منفصلا .

ان روابط العرفان بالجميل الشخصى أو ما عجم من ترفق قيصر أو اعجاب بعقريته ، ما كان ذلك كله بقادر على حطم ذلك الاخلاص السديد للجمهورية التى أوقع عليها الضربة القاضية ^(١) . ولا يمكننا ان نتوقع أن آخر جمهوريين فى روما قد أدركوا ما عجز شيشرون عن ادراكه بأن مصير دولة - المدينة أصبح قضاء مقضيا . ولقد انتقموا من الضربة بوصائل كانت مدونة القانون الخلقى عند اليونان وروما ، على السواء ، تبررها على أنها شريفة عندما تستخدم ضد طاغية وذبحوا قيصر ليس لدوافع انتقام شخصى أو مطمح ولكن من أجل الحرية المدنية وباسم روما .

ج - أوغسطس

٧ - فى عام ٣١ ، أصبح الساب أوكتاويان Octavian حفيد أخت قيصر ووريثه بالتبني ، بانتصاره فى اقطيوم على أنطونى ، « سيد العالم الأوحده » ^(٢) كما جاء فى عبارة شكسبير . لقد كان أوكتاويان الذى يعرفه التاريخ جيدا بلقب أوغسطس هو الذى وصل بالنظام الامبراطورى بتفصيلاته ، الى درجة الكمال ، ذلك النظام الذى حكم بموجبه العالم قرابة ثلاثمائة عام . والمرسوم الذى أعلن دافع وخصيصة هذا العمل الجليل ، لا يزال موجودا

(١) لقد كان تسامح قيصر نحو مواطنيه مشهورا . لقد امتنع عن ممارسة عقوبة النبذ من المجتمع والمصادرة وفى توزيع أراض على قدامى جنوده ، احترام فى عناية ، حقوق المالكين الموجودين . ان اجابته على ما أفصح به شيشرون من عرفان بالجميل لتسامحه نحو خصومه السياسيين الذين وقعوا تحت رحمته عند استسلام قرفينيم Corfinium أثرت فى ماكولى تأثيرا عميقا حتى نعتها بأنها « الطف جملة كتبت على الاطلاق » وهى كما يأتى « أحس بالظفر والبهجة بأن ما قمت به نال استحسانكم وانى لا أنزعج عندما يطرق سمعى القول ان أولئك الذين صرفتهم أحياء وأحرارا سيعودون الى حمل السلاح ضدى ، لأنه لا يوجد شئ أصبو اليه أكثر من اكون لنفسى وهم كأنفسهم » (راجع ترفليان « حياة وخطابات ماكولى » فصل ١٦) ولكن قيصر لم يكن شخصية محبوبة ، وعلى ما وصل اليه علمنا ، لم يكن له اصدقاء حقيقيون . ويشهد شيشرون الذى كان يكرهه ولا يثق به على قوة شخصيته . وفى هاتين الناحيتين يرد الى ذاكرتنا مارلبوره ونابليون لا الاسكندر .

(٢) « أنطونى وكليوباترة » فصل ٥ منظر ٢ كان أبو اكتاويان ، جايوس اكتاويان ايطاليا من الطبقة الوسطى وأصبح حاكم مقدونيا وتزوج من ابنة أخت قيصر . وولد ابنه عام ٦٣ وهو العام الذى تولى فيه شيشرون القنصلية فكان عمره تسعة عشر عاما فى الوقت الذى قتل فيه قيصر وواحدا وثلاثين عاما عندما انتصر فى موقعة اكتيوم .

وهو منفوش على حجر (١) وهو يستهل بجملة تقع في آذاننا وقعا غريبا عندما نمعن التفكير في طبيعة عمله الحقيقية : « لقد نقلت الجمهورية من سلطتي الشخصية الى رقابة مجلسي الشيوخ والنسب الرومانى » .

ماذا كان مرمى هذه الكلمات ؟ كان معناها اذا كنا لنقتبس من كاتب محدث أن أوغسطس قد تعلم درسه عند قاعدة ثمال بومباي . وما كانت روح يوليوس المتعالية - ويمكننا أن نستذكر الصورة التي وضعها دانتي له بين عظماء العصور القديمة « قيصر يعنى نسر » - ليراودها التفكير في التصالح مع النزعة الجمهورية باتخاذ مظهر المساواة بين المواطنين . وأوغسطس وهو أستاذ صنعة السياسة الذى لا سبيل للعاطفة اليه ، حجب حكما استبداديا مطلقا بقناع من المنهج الدستورى . ولما كان وليد روما القويم في احترامه للصور السطحية والسوابق المقررة ، فقد عقد النية على الاحتفاظ بوجود أنظمة الماضى العزيزة عليهم . ولقد لقب يوليوس بدكتاتور وهو تعبير كان يسيء الى الشعور الجمهورى لتداعى معناه بمعنى القيادة العسكرية وبامبراطور وهو اللقب الذى كان يحيى به الجنود قائدهم المظفر ، ويرضى أوغسطس بأن يكون مجرد زعيم princeps أى الرجل الاول بين زملائه الشيوخ (٢) . وفى مسلكه نحو أشراف الرومان أمسياد العالم الذين لا يملكون من الأمر شيئا ، كان فيامه بدوره رائعا . لقد كانت حياته بسيطة وصارمة ، مجردة من أى أثر لآداب السلوك ورمميات البلاط . وقد راعى أن سلطاته تمنح على الطريقة الجمهورية القديمة بتصويت مجلس الشيوخ (السناتو) أو المجلس الشعبى . وقد كان مرجع حكمه الاستبدادى الى أنه جمع فى شخصه الوظيفتين الجمهوريتين : التربيونية وهى أعلاهما رتبة وكانت أساس سلطانه فى روما ، والسلطة Imperium القنصلية مع تقدمه على جميع حاملها وهو ما ضمن له السيطرة على الجيش والأقاليم . وكانت هاتان السلطتان ، على التحقيق ، هما اللتان جلب التوسع فيهما انحلال الجمهورية فى العصر السابق . ومنذ ذلك الحين كان الجيش يقسم بين الولاء للزعيم princeps وحنه وكبحر أعظم ، كان سيد أداة دين الدولة الذى كان لا يزال عاملا هاما فى القانون والسياسة . وكانت هذه الروح المحافظة عينها ، تلك التى كان يظهرها أوغسطس لتحديد مركزه الشخصى ، حلبة للعيان فى

(١) أثر أنقرة التذكارى من أنقرة فى آسيا الصغرى . وقد أقيمت نسخ منه فى مراكز مختلفة فى العالم الرومانى . ولقد حدد أوغسطس مكانته كرئيس للدولة عام ٢٧ ومرة أخرى عام ٢٣ . وقد عولج فى هذا القسم مجموعتنا الخطط معا .

(٢) حتى زمن ديوقلطيان يكون لقب زعيم princeps خاصا بالامبراطور والزعامة principate بالامبراطورية .

اعادته أوضاع نظام الحكومة . وكانت طبقة عمال المدينة ، فى الواقع ، قد جردت عن سلطاتها التشريعية وتدهورت مجالس الشعب سراعاً الى مهزلة (١) . ومن الجهة الأخرى ، كان يعامل مجلس الشيوخ بمعاملة مدروسة . وقد كان المجلس يمنح السلطة imperium الحاكم الذى يكون قد ظفر بالتصويت من بين قائمة أسماء المرشحين للوظيفة ويوافق على المراسيم التى كانت لها قوة القانون . وكان للزعماء princeps ومجلس الشيوخ مرتبة متعادلة كتربيين أعليين . وكان كل منهما يشرف على خزينة منفصلة . وكانت حكومة الامبراطورية مجزأة بين السلطتين . ولكن مما كان له مغزى ان الأقاليم التى وكلت الى مجلس الشيوخ ، كانت الأقسام المسالمة التى تقع فى الداخل . أما تلك التى تقع على الحدود حيث كانت تتركز الكتائب ، فكان الامبراطور يحتفظ بها بين يديه . وكانت مصر ، على الأخص ، بالنسبة الى أهميتها من حيث الخطط العسكرية وكونها مخزن الغلال الرئيسى لروما ، يتولى ادارتها عن طريق رئيس perfect له رتبة الفرسان equestrian وأقل مركزاً من حكام أقاليم الامبراطورية العادية . وكان يطلق على هؤلاء لقب Legates أو معاونين عسكريين ، بينما احتفظ حكام مجلس الشيوخ باللقب الجمهورى بروقنصل (نائب قنصل) proconsuls (٢)

ومن الواضح ان هذا الظل من الرقابة المزدوجة ، كان تجربة مصطنعة دبر أمرها لارضاء الأرستقراطية الرومانية القديمة . وبصفة موقوتة ، أدت الغرض منها ، ولكن فى عهد خليفة أوغسطس أظهر خنوع مجلس الشيوخ انه على الرغم من الشكوى السطحية ، كانت السلطة الحقيقية تنحصر فى الامبراطور ، وتنحصر فيه وحده (٣) .

(١) يوجد مثالان مدونان ، فقط ، للتشريع الشعبى بعد طبريوس .
(٢) كان معاونون العسكريون يتولون الوظيفة مدة ثلاثة أعوام وغالباً ما تكون أطول من ذلك . أما نواب القناصل الذين لم تكن لهم قيادة عسكرية ، فلسنة واحدة . وعلاوة على هذا ، كان الامبراطور يؤثر تعيين نواب القناصل عن طريق رقابته على الانتخابات القنصلية ودخول مجلس الشيوخ .

(٣) لقد رأى أوغسطس هذا فى جلاء كما يتضح من آخر أقواله المدونة : « ماذا تظنون فى المسلاة يا أصدقائي ؟ هل أدبت دورى فيها خير تادية ؟ » . وفى خلال حكم دام أربعين عاماً ونيف ، لم ينفذ صبره الذى لا نهاية له وتحفظه العميق وبصره النافذ بالرجال والأمور . وكانت كل أفعاله نتاج تفكير سابق ، واع . وتداول القصة بأنه لم يتناقش قط فى شئون الدولة ، حتى مع الامبراطور لويـا Iulia ، دون أن يضع تذكرات ، مقدماً . حقاً قد يكون أوغسطس أعظم سياسى فى التاريخ .

٨ - كان هذا مبدئيا ، العهد الذى وطد دعائمه أوغسطس فى روما .
واذا أفسحنا مجال النظر نجد ثلاثة مظاهر للعمل الذى اضطلع به فى خلال حكمه الطويل (٣١ ق م - ١٤ ب م) ، جديرة بملاحظة خاصة . أولا فيما يختص بإدارة إيطاليا والأقاليم ، جهد أوغسطس فى حماسة لتحقيق الأمل الذى كان يصبو اليه شيشرون ، على غير طائل ، لادماج الإيطاليين ليكونوا جميعا على قدم المساواة فى تكوين الدولة الرومانية . ولقد شجعوا على أن يعتبروا ماضى روما العظيم ماضيهم وأن ينضوا فى كبرياء من حب الوطن ، فى مهمة إعادة بناء الامبراطورية . ومن بين أهل الحضر وأهل ريف إيطاليا ، لم يجد أوغسطس فقط الدم الجديد الذى يجب أن يعيد نشاط الخدمة العامة ، ولكن وجد رجالا أوتوا عبقرية أدبية أمثال فرجل وهوريس ولوى وأوفيد ، الذين أمكنهم أن يشيدوا بمجد روما وقيصر فى آثار تذكارية خالدة ، شعرا ونثرا . وقد نمي أوغسطس تقدم البلدان والزراعة والأعمال العامة فى أرجاء شبه الجزيرة . واتخذت الخطوات الأولى فى عملية حطم الحواجز التى كانت تفصل روما عن إيطاليا وإيطاليا عن الأقاليم . وقد وضع أحصاء شامل امبراطورى « احصاء الأراضى وقيمتها وأصحابها Domesday Inquest » عن كل الجمهورية ، وكانت تعتمد السجلات التى اختزنتم فى محفوظات البلدة كأساس نظام عادل للضرائب . « وفى تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتب كل المسكونة »^(١) . وكانت الأقاليم ، لأول مرة ، تدار شئونها كمصالح فى دولة واحدة . وقد وضعت الرقابة على سلطة الحكام ووضع حد لظلم أهل الأقاليم بسحب الامتياز الخطير فى طلب امدادات كلما شئت الإرادة وبتعيين أدارى مالى مستقل مسئول شخصيا أمام الزعيم princeps وبايجاد أداة فعالة لتقديم الالتماس والاستئناف لروما . ولو أن عبء الضريبة كان قد خفف فإن الدخل ازداد . وقد ألغيت قيود التجارة داخل الامبراطورية فى كل مكان ووسعت الحكومة المحلية وأعيد تنظيمها على أسس منتظم وأنشئت المجالس الإقليمية وخولت سلطات واسعة . وعندما قام شعب أفسوس بهياج بمناسبة زيارة القديس بولس ، أمرهم كاتم سر المدينة بأن يتذكروا أنه كان يوجد « حكام لآسيا » Asiarches . أى مستشارون إقليميون لآسيا يمكنهم أن يتقدموا اليهم

(١) لوقا ٢ ، ١ (النسخة المعدلة) كان يوليوس قد وضع الخطوط للتعداد والاحصاء الإقليمى . واستغرق انجاز المهمة كلها خمسين عاما ولخصت نتائجها فى « احصائية الامبراطورية » ، وهى سجل يبين موارد الدولة وميزانيتها وورثة أوغسطس لطبريوس (راجع طاقيطس An., i, II.) ولقد واصل أباطرة القرن الثانى وديوقلتيان العمل تباعا ليطابق آخر تاريخ .

بشكائياتهم (١) . وإذا كان أوغسطس أقل سماحا من يوليوس فى منح صفة المواطن ، فقد كانت الرغبة فى بعث حب الوطن المدنى فى روما وإيطاليا هى التى جعلته ضئينا بتوسيع حرية التصويت لتشمل سكان الأقاليم . (٢) وزيادة على هذا فقد وضع أساس الخدمة المدنية الامبراطورية الدائمة فكان الموظفون يعينون فى مبدأ الأمر من طبقة الفرسان (equites) ، ومن الايطاليين ، وبعد ذلك فى درجة تضطرد ازديادا من صفوف الرجال المحررين (العبيد المعتقين) . وقد تحولت ادارة الامبراطورية على التدرج من أيدي الأرستقراطية الرومانية ، لا الى أيدي الايطاليين وحسب ، ولكن الى سكان الأقاليم من ذوى الذكاء والمعرفة وخاصة الرجال الذين يرجعون الى أصل اغريقى أو اغريقى شرقى . وعلى هذا كان المجال مفتوحا لحياة عملية مزدهرة بالآمال ، أمام الجميع وضمن خلق بيروقراطية ماهرة الاستمرار لحكومة اقليمية . ثانيا ، جهد أوغسطس بالقدرة الشخصية والتشريع العام فى أن يضع حدا لفيض الانحلال فى الدين والأخلاق عند الرومان . ولقد شجع الشعراء على مناصرة القيم القديمة ، فى البساطة الصارمة وعلى الاشادة بأولئك الكرام الذين كان ورعهم وفضيلتهم المدنية ، مجد الجمهورية الباكورة . ولقد أقيمت المعابد وأعيدت الفرائض التاريخية . وكانت توقع العقوبات الشديدة عن الذنوب الحلقية ووضعت القوانين التى تقاوم العزوبة . وذهبت جهود الامبراطور عبثا لأن الأخلاق لا يمكن اصلاحها بقانون وأبعد تدهور الطبقات الأكثر ثراء وذيوخ الهلينية ، العودة الى القيم البسيطة التى سادت فى عصر ولى . (٣) والاستثناء الوحيد فى موجة الفشل الذى منيت به هذه السياسة ، كان عبادة الامبراطور نفسه . ولم تساور أوغسطس أية خدعة فى هذه المسألة . وبينما كان يصرح بتأدية أنواع التكريم الالهى ليوليوس ، فقد منع عبادته الخاصة ، فى ايطاليا ولكنها ذاعت كأنها النيران الجامعة ، فى الأقاليم وتطورت قبل مضى زمن طويل حتى غدت الدين الرسمى للدولة العالمية . ولم يكن يوجد شئ فى مراسمه ينجم عنه انتهاك للشعور الرومانى لأن الدين فى روما كان على الدوام فى معظمه ، سياسيا وكان يمكن أن يوضع رجل السياسة فى قائمة القديسين دون اخلال عنيف بالاحترام الذاتى . أما فيما يتعلق بامبراطور على قيد الحياة ، فإن العبادة كانت توجه الى الهه الحارس ،

(١) الأعمال ١٩ : ١٨ .

(٢) فى عام ٧٠ ق.م كان عدد المواطنين الرومان ٤٥٠.٠٠٠ وفى عام ٢٨ ق.م (أول تعداد لأوغسطس) بلغ ٤٠٠.٠٠٠ وفى عام ١٣ م . (التعداد الثانى) وصل الى ٥٠٠.٠٠٠ ر .

(٣) عن تشريع أوغسطس الاجتماعى والدينى راجع بلهم Pelham « مقالات فى التاريخ الرومانى Essays in Roman History - سياسة أوغسطس الداخلية » .

Genius . والقيام بالعبادة بعد الموت ، لم يكن غير التعبير الطبيعي عن عرفان بالجميل ، ورع . وكانت المجالس الاقليمية التي اشير اليها آنفا ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه الخدمة الدينية « للاله الحارس لروما وأوغسطس » ، وهي التي أصبحت في خلال القرن الأول الميلادي ، الرمز الخارجي لوحدة الامبراطورية السياسية ^(١) . وأخيرا أتم أوغسطس العمل الذي استهله يوليوس بتحديد تخوم الامبراطورية . ولقد كانت الطبيعة هي التي أقامتها ففي الشرق ، الفرات وفي الغرب ، الأطلنطي وفي الجنوب ، صحارى أفريقيا وبلاد العرب وفي الشمال ، الراين والدانوب من القناة الى البحر الأسود . ولقد تألفت الحرب بالسياسة للمحافظة على سوريا من الفارثيين وعادت البنود التي فقدت في قرها Carrhae الى روما ظافرة . وكان أعظم تهديد يربط على الحدود الشمالية ، وهنا كانت القبائل التيوتينية تتراعى أفواجها دون انقطاع على المواقع المحصنة حديثا ، على الدانوب والراين . وفي حملة بعد حملته جهد قواد أوغسطس في كبح الألمان الذين كانوا يسكنون بين الراين والألب . ولقد جعلت هزيمة وارس Varus - في سنة ٩ م . الامبراطور يعقد النية بصفة نهائية على الاقلاع عن سياسة التقدم ، وتكدست على محاذاة الحدود الطبيعية الكتائب ، ثمانية على الراين وثمانية على الدانوب وثمانية في سوريا ، بينما كان يقوم الأسطول الروماني بالحراسة على مياه البحر المتوسط ^(٢) وبهذا حفظ السلام الروماني Pax Romana ولقد ظل مقيما طوال أربعة قرون. يقطعه فقط ، بين حين وآخر ، ما كان يحدث عند موت امبراطور ، من سير قواد جيوش الحدود صوب روما وتقاتلهم من أجل العرش الامبراطوري .

٢ - الامبراطورية في القرون الثلاثة الأوائل ^(٣)

كان العالم الروماني يحكم طبقا لمبادئ أوغسطس الى أن اعتلى العرش ديوقلطيان عام ٢٨٤ ولأول مرة وللمرة الفريدة في التاريخ ، اندمج النوع الانساني المتمدين في دولة واحدة وكانت دولة استبدادية عسكرية .

(١) لم يكن يترتب على عبادة الامبراطور أية عقيدة لاهوتية . ولقد تقبل فرجل وهوريس Horace في سر تاليه يوليوس . ولم يخامر الأباطرة أنفسهم تصورات كاذبة . وعندما كان واصفاسيان Vespasian ينازع الموت سألته أصدقائه عن حاله فأجاب « أخشى أني اتحول الى اله » (Vae, puto deus fio).

(٢) هذا يمثل التوزيع في عهد طبريوس . وبلغ مجموع القوة زهاء

٣٢٠.٠٠٠ يضم خمسين وعشرين كتيبة .

(٣) من هذا الموضع فصاعدا ، تشير جميع التواريخ الى العهد الميلادي

الا حيث يذكر خلاف ذلك .

وليس من شأننا أن نتقصى أثر توارى الأقنعة على التدرج ، تلك الأقنعة التي كان مؤسسها يخفى بها حقيقة حكمه الاستبدادى الثابتة وكيف أن المجلس الشعبى ثم الموظفين المدنيين وأخيرا مجلس الشيوخ بطل عملهم أو حيث قدر لهم بقاء ، احتفظوا بقيمة محلية شرفية وحسب (١) . فعلى تبديل المثال ، كانت الدولة لا تزال تعرف رسميا « بالجمهورية » حتى خاتمة القرن الثالث . ولقد سبق أن تحدثنا عن أساس سلطة الامبراطور وكان أهم عامل مزعج فى النظام ، مسألة ولاية العرش . وما كان يجرى عليه الأمر فعلا ، هو أن الأمير الذى يتولى الحكم ، كان فى الكثير الغالب يعين ابنه أو قريبا من الذكور خلفا له بأن يعمل على منحه السلطة imperium وولاية «التربونية» والعرف الرومانى فى التبني كان يعمل به فى كثير من الأحيان وخاصة فى القرن الثانى ، ولم تكن هذه الاحتياطات مجددة فى منع ما كان يحدث بين حين وآخر ، من مشاحنات كما وقع عند موت نيرون عام ٦٦ وكما حدث مرارا عديدة فى القرن الثالث عندما كان يطالب قائد واتاه النجاح ، يظهره أحد جيوش الحدود أو حرس «التربونية» ، بالعرش الحاوى . ان الامبراطورية ، كالملكية القديمة ، لم تكن وراثية ولكن انتخابية . والنظرية القائلة ان أى مواطن روماني كان أهلا للولاية ، ظلت قائمة طوال تاريخها . وهذا يفسر السبب ، كما سيتضح فى فصل قادم ، فى أنه عند اعادةها فى الغرب فى القرن التاسع ، كان يمكن أن يعتبر أحد زعماء الفرنجة ، الخليفة الشرعى لأوغسطس . ولستنا فى حاجة الى اطالة الحديث فى سير أفراد الأباطرة ، مع كل ما فيها من تشويق شخصى (٢) . وعند الكثير من القراء ، تعد قصة الامبراطورية ، قصة حكامها بينما النظام الذى كانوا

-
- (١) بقى مجلس الشيوخ مدة أطول وله كيان ذو أثر فعال . ومن سلطاته ، ظلت سلطة ولاية القضاء الاستثنائى ، حتى القرن الثالث .
- (٢) يمكننا أن نميز مجموعات الأباطرة الآتية فى تسلسل تأريخى :
- (أ) أباطرة الفرع اليولى - القلووى : أوغسطس (حتى عام ١٤) ،
- طبريوس (حتى ٣٧) ، كاليجولا Caligula (حتى ٤١) ، كلوديس (حتى ٥٤) ، نيرون (حتى ٦٨) .
- (ب) أباطرة الفرع أفلاوى Flavian : واسفاميان Vespasian (حتى ٧٩) ، طيطس (حتى ٨١) ، دميان (حتى ٩٦) .
- (ج) أباطرة بالتبني : ناروا Nerva (حتى ٩٨) ، طريان (حتى ١١٧) ، هدریان (حتى ١٣٨) ، انطونيس فايوس (حتى ١٦١) ، ماركس أورليوس (حتى ١٨٠) .
- (د) أباطرة الشكنات (الذين عين أسماءهم الجيش) : من ١٩٢ الى ٢٨٤ . وكان أقدر هؤلاء سفيطميوس ساورس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) ، أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ، وفروبس (٢٧٥ - ٢٨٢) .

يسيطرون عليه والذي يؤثر في مصير الملايين يظل غير معروف فرضا (١) . وحتى في حالة أولئك الأمراء الذين تظهر قدرتهم في أعظم جلاء ، تعنى السجلات الأدبية في معظمها بالسخيف من تفصيلات أقاويل البلاط . اننا فقط بجمع القصة التي تسردها النقوش المتناثرة في أرجاء الأقاليم ، نعرف كيف نسبر غور النظام الامبراطوري في نسبه الحق ، وعند ذلك يتجلى لنا أن شطحات كاليجولا أو نيرون الجامحة ، التي تتراعى بمثل هذا العظم في صفحات طاقيطس وسوطنيس Suetonius ، كان من شأنها فقط أن تثير هياجاً عابراً في الحاضرة . وكانت الآلة الهائلة تؤدي دوراتها المعينة ، دون أن تلقى بالا إلى نزعات صاحبها ، وعندما عرض القديس بولس أمره على المحكمة الامبراطورية فانه كان يتوقع من قيصر ، وليس من نيرون ، العدالة وقد لقيها فعلاً . ويمكن ، من الجهة الأخرى ، أن يظهر عظم التأثير الذي يستطيع حاكم قدير ذو همة أن يحققه في ميادين الدفاع العسكري والادارة الداخلية والقانون ، من مثال واحد .

١٠ - لو أن الحكم الفردي الاستبدادي يستحق المديح اطلاقاً ، فان الامبراطور هدریان (١١٧ - ١٣٨) يمكنه أن يقيم دعواه في أن يعد حاكماً استبدادياً أرسلته السماء . ولما كان قد ولد في روما عام ٧٦ - وأبوه ، من أهل اسبانيا ولكن ينحدر من سلالة ايطالية ، وكان ابن عم طريان Trajan فقد تدرّب في زمن باكر على الوظيفة . وفي سن الخامسة عشرة كان يخدم في الجيش ، وفي السابعة عشرة كان يقوم بوظيفة قاض في القضايا الخاصة . ولقد تولى ، على التعاقب ، في بريطانيا ومويسيا Moesia وعلى الراين وسار في ركاب قريبه العظيم خلال حملاته المظفرة في داقيا وفي الشرق . وعلى هذا فانه عند موت طريان وارتقائه العرش في سن الحادية والأربعين ، كانت قدراته الطبيعية في أصالة الحكم والخيال وتحسنه للعمل الذي لا يعثره كلال ، قد أنضجتها التجربة الواسعة في السلم وفي الحرب جميعاً . لقد كان هدریان سياسياً أكثر من أن يكون جندياً واعتاد أن يزهر بأنه كسب بعة السياسة أكثر مما كسب بعة السلاح . وفي حكمه الذي دام إحدى وعشرين سنة وضع طابعه ، أصلاً وتفصيلاً ، على تكوين الادارة الرومانية والقانون ، بأجمعه ولقد نظم مجلس الدولة الامبراطوري ووظائف كتبة السر

(١) الانستان ماريا وجوليا برترام Misses Maria and Julia Bertram في رواية جين أوستن « منزله منسفيلد Mansfield Park » (فصل ٢) ولهما من العمر ١٣ و ١٢ عاماً على الولاء كان يمكنهما أن يتلوا « في الترتيب الزمني » مع تواريخ اعتلائهم العرش الأباطرة الرومان نزولاً حتى ساورس ، .

الامبراطورية ونظام مواصلات البريد ^(١) الامبراطورى . وقامت الأعمال العامة والأنظمة الخيرية الى حيز الوجود بابتكاره . ولقد سَجعت الزراعة ورصدت الاعانات للجامعات ومنحت صفة المواطن والحقوق اللاتينية فى سخاء وقد كتب واضح سيرته « لقد كانت لديه معرفة شاملة شمولاً تاماً بالمسائل المالية العامة كأي رب بيت يحسن القيام على شئونه الخاصة ولم يوجد أمر تفصيلي تجاوزت دقته حداً لا يسترعى انتباهه ، وقد كشف لوح فى جنوبي البرتغال يظهر فيه وهو ينظم حياة قرية تعدين عاكفاً على ارساء قواعد لصانع الأحذية المحلي والحلاق ووضع الخطة لتنظيف الغلايات فى الحمام العام ، كل شهر ، ومعافاة (وياله من نص رحيم !) أساتذة المدارس من دفع الضرائب . ^(٢) وكانت جهود الامبراطور أكثر ظهوراً وأثبتت على الزمن فى مجالى القسانون والحكومة الاقليمية . ولقد استهل عصر القضاء الرومانى ، الاتباعى ويرجع الى واعز شخصى صادر عنه ، ما جرت عليه الحال من اصدار فتاوى امبراطورية ترتبط بها المحاكم ووضع المرسوم الدائم ^(٣) والاعتراف بأن يكون لآراء عظام الشارعين قوة القانون . ولقد أصبح الامبراطور الآن القاضى الأعلى لكل دعاوى الاستئناف الجنائية . وقد خفف من قسوة سلطة الوالد ومنح النساء حق وضع الوصايا وألغى الضحايا البشرية وفرض قيوداً شديدة على تعذيب العبيد : وكان الشّعور الانسانى أهم ظاهرة فى خليقة هدریان وأفعاله ^(٤) وكان أحد الرموز المحببة على نقوده ، منظر امرأة تبكى ، يرفعها الامبراطور عن الأرض . ولقد أنفق أكثر من نصف عمره فى تجولات سريعة خلال الأقاليم . ولقد قيل انه قطع ٢٠٠٠٠ ميل سيرا على القدم وهو يرتدي عدته العسكرية الكاملة ^(٥) وفى المدة التى تقع بين عامى ١٢١ - ١٢٦ ، زار كل صقع فى الامبراطورية من ايبانيا الى سوريا ومن بريطانيا الى أفريقية وهو يأتى بالاصلاح على الادارة العسكرية

(١) كان معدل السفر فى خدمة البريد خمسة أميال فى الساعة . وكانت رحلة يوم عادية تبلغ من ثلاثين الى خمسين ميلاً ولكن كان يمكن قطع مائة ، اذا استدعت الحال .

(٢) راجع هـ . س . جونس H. S. Jones فى « تراث روما »
The Legacy of Rome

(٣) عن المرسوم الدائم ، راجع ما يلى § ١٧ .

(٤) لقد رفض التصديق على تهم الخيانة العظمى (Majestas) أو قبول تأريث الا من أصحابه الشخصيين ، ومن أولئك فقط اذا ماتوا بغير خلف . وبهذا أزال اثنتين من أشنع المساوئ العرضية فى الامبراطورية .
(٥) كان هدریان صياداً عظيماً كما كان مشاءاً عظيماً ، وكان له قدرة خارقة العادة على تحمل المشاق البدنية ويعيش فى المعتاد عيشاً بسيطاً وكان شديد الشكينة فى المحافظة على النظام .

ويحصن الحدود ويزور الجنود المرضى في المستشفى ، ويعيش وهو في المعسكر على ما يقدم لرجال الكتائب من غذاء ، ويقوم بالتفتيش على الصناعات . وفوق هذا كله ينهض بانشاء الأعمال العامة ويعيد بناء المدائن . وبعد أقل من سنة في روما ، قام برحلة ثانية وأمضى ست سنوات (١٢٨ - ١٣٤) في الشرق الذي كان مزاج عقله يستجيب لدعوته القاسرة بطريقة فريدة . وما يجعل هدریان مشوقا الى حد عظيم ، هو حبه للاستطلاع الذي لا تشفى له غلة والحماسة العقلية التي كانت تلقى بريقا من الابداعية (الرومانسية) على نهوضه ، الذي لا يكل ، بواجبه الرسمي . « قلق في كل أمر ، طوال حياته » هو حكم واضح سيرته اسفرتيانس Spartianus . ولقد كان الشغف بمشاهدة المناظر متأصلا فيه . وقد صعد جبل قاسيس Casius ليرى مطلع الشمس وأطنا لمشاهدة غروبها ، وأعاد دفن عظام أياكس Ajax في طروادة وزار حظائر الخراف في بريطانيا وقبر بومباي في مصر ، وقبر افيمننداس Epaminondas في منطنيا وتلقن أسرار اليوسس Eleusis وحفر اسمه على تمثال ممنون . وفي أثينا حيث أعاد اقامة الابنية على نطاق مسرف ، تولى الرياسة كأحد الموظفين التسعة في عيد ديونوسيوس العظيم وقد كان محبا للهلينية من صميم القلب ولقب وهو صبي بفرايقولس Graeculus (الاغريقي الصغير) ، ووجه عنايته الى مصاحبة رجال الأدب . وكان يزهو كثيرا بمعرفته بالموسيقى وفنون النحت وفي جهوده الخاصة في النشر والشعر (١) . وكان ذوقه كذوق أتباع هلاس في تدهوره ، بعيدا عن أن يكون نقيا . لقد كان يتعشق ما كان غريبا ، بالغ الاسراف ويفضل انطيماخس على هومر وانيوس على فرجل . وكان يضع تصميم المعابد وواحد منها ، أقيم تكريما لقينوس وروما ، كان على موقع الجلجثة Golgotha - الذي فيه ، كما ذكر النقاد الهازلون لم تكن الالهات يستطعن الوقوف منتصبات . وقد وضع المقرب اليه ، انطينوس Antinous ، وهو اغريقي آسيوي ، البطراز لمثالي عصره لجمال الذكور الاباحي . وكان القرن الثاني عهد انتعاشات دينية ، وكلما أمعنت العبادة في أن تكون غريبة وأجنبية ، كان استغواؤها للعالم الروماني أقوى . وكان هدریان يكلف أيضا بالرجوع الى الأحلام واستيجاء مهبط الوحى ويضع الخطة لحياته كل سنة على التعاقب ، وأله انطينوس وسمى نجما باسمه تكريما له ، بعد موته . ولو أن القصص المدونة في التلمود عن أحاديثه مع شراح الشريعة العبرية ، خرافية ، فانها تدل على التأثير الذي تركه في العقل العبرى . ولقد دفعت محاولته الغناء فريضة الحثان واقامة مستعمرة اغريقية رومانية

(١) لقد كان على وفاق مع العبد الروائي افقطيوس Epictetus والمؤرخ الاغريقي فاورينوس Favorinus ، من أهل مرسليا .

(Aelia Capitalina) على موقع المدينة المقدسة المهدم ، اليهود الى القيام بآخر ثورة لهم وأشدّها رعباً (١٣٤ - ٦) . ولقد أظهر الامبراطور للمسيحيين تسامحاً يتسم بالاحتقار . وفي هذا كله كان طراز ثقافة القرن الثاني من حيث شيوعها وقدمها ، ومغالاتها في التائق وانحلالها . ويكتب رينسان « كان الشرق على الأخص يجتذبه ، ولقد كان يشاهد فيه المداجاة والتهريج ، وكان يتسلى بهما » . ولكن هديران لم يكن مجرد غاو للفن الجميل ، فقد ظل في قلبه ابناً لروما الوثنية . ويقول اسفرطيانس « لقد كان يعنى أشد العناية بمراعاة العبادات الرومانية ويحقر عبادات البلدان الأخرى » . ولم تكن لديه أوهام ولم تعق نزواته اطلاقاً سير حكمه المتزن وفي شخصه ، كان الموظف المدني المثالي يرتدى الأرجوان الامبراطوري ولتوضيح هذا بأمنلة حديثة ، كان هديران أكثر قرابة بلورد ملنر Milner أو سر روبرت مورانت Sir Robert Morant منه الى أوسكار وايلد Oscar Wilde . والشهرة ، كما جاءنا النبأ ، كان يسعى اليها في حماسة ولكن بمسالك أخرى غير هذه . وكان يعلم جيداً أنها كانت الطرق العسكرية البريطانية والألمانية ^(١) والمدائن التي ابتناها والقوانين التي وضعها ، هي التي جعلت منه واحداً من صفوة عظام الإداريين الذين ظهرت في الوجود . وآخر أعماله المدونة وهو طريح الفراش ، ينازع الموت في روما ، تعبّر عن شخصية متعددة النواحي : تهكماته من أطباء البلاط « ان أطباء أكثر مما يجب هم الموت لأمر » ، والسطور التي وجهها لروحه الراحلة التي تعكس باللاتينية صورة الجمال الذي يستأنى في آخر عهد للهلينية ^(٢) . وما كان يشغله عن كل شيء آخر وهو تعيين خلف ذى جدارة ، في شخص انطونينس

(١) عن الطرق العسكرية ، راجع ما يلي § ١٣ ، تذكرة ٢ .

(٢) Anīmula, vagula. blandula,
Hospes comesque corporis;
Quae nunc abibis in loca ?
Pallidula, rigida, nudula,
Nec ut soles dabis iocos.

وقد ترجمها « الى الانجليزية » ماركس س. ديمسديل Marcus S. Dimsale
(الادب اللاتيني صفحة ٥٢٦)

« ياروحى الغامضة ، حسنة السمات والخلق
ضيفة هذا الجسد وصديقه
اذكري ، الى أين المسير الآن ؟
وانت شاحبة ، ومتصلبة وعارية
وايتها الروح الصغيرة .
كل دعاياتك قد آتت الى نهاية » .

فايوس Antoninus Pius يؤول اليه العرش الامبراطورى .

١١ - واذا تحولنا من الامبراطور الى الامبراطورية ، نجد أن حكومة العالم فى القرن الثانى تقع فى ايدى بيروقراطية عظيمة . وكان رؤساء المصالح فى روما فى الاصل ، أعضاء فى حاشية الامبراطور وكانوا لا يزالون يعتبرون معاونين شخصيين يشبهون فى ذلك كاتى السر ومديرى الضياع لدى شريف من الأفراد . وكان أهم هؤلاء الأربعة مراقبين procurators وهم مراقب المالية والمستشار القضائى ومستلم الشكاوى وكاتم السر الامبراطورى (١) . وطبقا للمبدأ التاريخى بأنه يجب على الموظف بأن يشد أزره بالنصيحة ، فان الأعمال الهامة كانت فى المعتاد تناقش فى مجلس الدولة الامبراطورى . وكانت ادارة روما وايطاليا موكلة الى أربعة رؤساء ، رئيس المدينة ورئيس الحرس (البريتورى) ورئيس تولى الخنطة ورئيس الحراسة وكانوا كلهم ينهضون ايضا بأعباء وظائف قضائية عالية (٢) . وفى المحاكم الامبراطورية التى أمحت بالتدرج محاكم الشيوخ ، كان استئناف الدعاوى يعرض من جميع أنحاء العالم الرومانى . أما محاكم الأقاليم التى ازدادت فى القرن الثانى حتى أربى عددها على الثلاثين ، فقد كانت محاكم الامبراطورية ضعف محاكم الشيوخ (٣) . وكانت الرقابة الحازمة الفعالة

(١) كان يطلق عليهم ، على الولا.

a rationibus, a cognitionibus, a libellis ab epistulis.

ومن عهد هديران فصاعدا ، لم يعد يشغل هذه الوظائف معتقون ولكن مواطنون من مرتبة الفرسان .

(٢) كان يطلق عليهم على الولا urbi, praetorio, annonae, regilum

وكان الرئيس البريتورى يرأس ، من عهد هديران ، مجلس الدولة ومحكمة الجنايات العليا .

(٣) عن مادة هذا القسم ، راجع و. ت. أرنولد W. T. Arnold ، الإدارة

الأقليمية الرومانية ، ، وخاصة الفصول ٤ و٦ و٧ وقد أدرجت قائمة بالأقاليم ومعها تذكرات شارحة فى الملحق ١ . وهامى ذى القائمة فى عهد أوغسطس:

صقلية (لمجلس الشيوخ) ، سردينيا وقورسيقا والغال (٤ : إقليم

لمجلس الشيوخ) ، اسبانيا (٣ : إقليم لمجلس الشيوخ) ، افريقيا (إقليم

لمجلس الشيوخ) ، قورينا وكريت (لمجلس الشيوخ) ، سموريا وغلاطية

وبثونيا (لمجلس الشيوخ) ، وبنطس (لمجلس الشيوخ) ، وآسيا

(لمجلس الشيوخ) ، ومقدونيا (لمجلس الشيوخ) ، وأخايتيا (لمجلس

الشيوخ) ، ومويسيا ونوريقم وراثطيا واللوريقم ومراكز الالب . وكانت

مصر يديرها على قواعد خاصة ورئيس من مرتبة الفرسان .

تقوم بها الحكومة المركزية . وكان حكام الأقاليم ينتخبون لا مانتهم وقدراتهم وتدفع لهم الدولة مرتباتهم ويعاونهم موظفون ماليون مستقلون وإدارة دائمة من موظفين إداريين متمرنين (١) . وفي عهد الأباطرة الأفلاويين Flavian والأباطرة الأنطونيين كان أفراد من طبقة الفرسان يحلون في أطراد يأخذ في التزايد ، محل المعتقين ، في الخدمة الإمبراطورية . ولم يعد الرومان الأحرار بعد غير راضين عن شغل مناصب في « حاشية قيصر » . وكان يمكن الحصول على عدالة وفيرة ، في المحاكم الإمبراطورية في كل أنحاء الإمبراطورية . وكانت الضرائب ، على فداحتها ، تجبي على أساس عادل منتظم تهيئه سجلات التعداد التي كانت تعيد في أوقات منتظمة لتطابق آخر تاريخ . وكان أهم مصدر للدخل المباشر ضريبة الأرض تضاف إليها ضريبة عينية للقيام بتكاليف الجيش في أقاليم معينة ، وضريبة دخل على مهن وحرف خاصة وضريبة ميراث تبلغ خمسة في المائة كانت تجبي من الطبقات الأكثر ثراء وإيراد أملاك الدولة والمناجم وأراضي الإمبراطور الخاصة (patrimonium Caesaris) . أما الضرائب غير المباشرة فكان أهمها رسوم الجمارك التي كانت تختلف باختلاف الأقاليم . وسنرى في فصل قادم كيف أن ثقل الضريبة ازداد خلال القرن الثالث حتى كاد لا يحتمل مما أتى بنتائج وخيمة على رخاء الإمبراطورية الاقتصادية . ولكن قبل ذلك التاريخ ، أظهرت

وقد أضيفت الأقاليم الآتية بعد موت أغسطس ، ألمانيا (٢) ، في عام ١٧ م) . ومورطانيا (٢) وبريطانيا وطراقيا (هذان بين ٤٠ و ٤٦) ، بلاد العرب وداقيا وأرمينيا وما بين النهرين وأشور (هذه بين ١٠٥ و ١٤١ في عهد طريان) .

ومن وقت إلى آخر كانت الأقاليم يعاد توزيعها بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ . وتتوارى الأقاليم التابعة لمجلس الشيوخ في ختام القرن الثاني . وعلاوة على هذا ، كانت بعض المناطق يقوم بالإدارة عليها مراقبون procurators تحت إشراف حاكم إقليمي مجاور . وعندما تقدمت عملية بسط النفوذ الروماني ، فقد جعلت هذه المناطق في الغالب أقاليم . وكانت اليهودية تحت حكم مراقب يشرف عليه المعاون العسكري (Legate) الإمبراطوري لسوريا (راجع لوقا ٢ : ١) . وعندما كان وطيلىوس Vitellius ، الذي أصبح إمبراطورا فيما بعد Legate لسوريا فإنه تمكن من خلع المراقب بنطيس بلاطس .

(١) يحوى الكتاب العاشر من خطابات بلنى الأصغر (ترجم في المجلد الثانى من طبعة لويب Loeb) الرسائل التي كان يتداولها بلنى والإمبراطور طريان أثناء قيام الأول بحكم بثونيا عام ١١١ وقد جعل طريان بثونيا إقليما إمبراطوريا . وتقدم هذه الرسائل أيضا رائعا لما كانت عليه الإدارة الإقليمية في عهد الإمبراطورية الباكر .

الحكومة كرما منقطع النظير في استخدام الدخل فكانت الاعانات تمنح في سر في حالات الوباء والمجاعة وغيرهما من الكوارث غير العادية وألغيت القيود على التجارة في كل مكان . وقد نهض بالأعمال العامة مثل المرافق والطرق والجسور والرى واستترداد الأراضي البور في جميع أرجاء الامبراطورية بنشاط . وما يسترعى النظر بصفة خاصة « السياسة التي أنشأها ناروا Nerva وتوسع فيها خلفاؤه في القرن الثاني ، في اقامة منظمات في ايطاليا وغيرها لاعانة الأرامل واليتامى ورصد منح للعلماء وشئون التعليم الأخرى ومصارف للأراضي لتشجيع الزراعة وكانت تخصص أرباحها للقيام بأود الأطفال الفقراء وتعليمهم .

١٢ - وكانت المدينة كما كان العهد بها سابقا ، أهم أداة للمدينة استخدمتها الحكومة الامبراطورية للمحافظة على الثقافة الهلينية في الشرق وغرس الثقافة الرومانية في الشمال والغرب (١) . وفي عهد الامبراطورية الباكورة ، كانت بلاد الاقليم تشمل (١) المدن المتحالفة والحررة التي تدين باستقلالها في حالة ، لمعاهدة رسمية وفي غيرها لمنحة من روما (٢) المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia التي كانت تختلف في المكانة الموقرة أكثر من اختلافها في الامتيازات و (٣) كتلة البلاد التي لا تستمتع بامتيازات وتدفع الضريبة ، تلك التي حافظت على منظماتها المحلية القديمة تحت رقابة الحاكم الاقليمي . وهذه ، تحولت غالبيتها على مر الزمان الى بلدان Municipia بمنحها الحقوق المدنية أو الحقوق اللاتينية . ومن القرن الثالث ، قل عدد المدن المتحالفة والمدن الحرة ووضعت قيود على امتيازاتها . ولقد أورد بليني Pliny قائمة بمائة وخمس وسبعين مدينة في اقليم بيطيقا Baetica الأسباني عند ختام القرن الأول : يوجد ثلاث مدن متحالفة وحت مدن حرة وتسع مستعمرات وثمانى بلدان Municepa وتسع وعشرون مدينة لها حقوق لاتينية ومائة وعشرون مدينة تدفع الضريبة . وكانت حكومة البلدة في كل مكان على التقريب ، أرستقراطية وقد نظمت طبقا لشكل روما التاريخي . وكان يقوم بالرقابة على المستعمرات والبلدان Municepa موظفون ينتخبهم كل عام المجلس الشعبي من مواطنين ذوى أهلية عالية ، بما لديهم من أملاك ومجلس شيوخ يتكون معظمه من موظفين ، وموظفين

(١) في مبدأ الأمر ، كانت السياسة الرومانية هي استخدام الأداة الموجودة حتى أقصى مدى ممكن ، فعلى سبيل المثال ، اعترفوا برؤساء القبائل ومجالسها كوسائل للحكومة المحلية . وعندما ظهر عدم كفاية هذا النظام ، فإنهم أقاموا مجتمعات المدن ، يعيش أفرادها من ايطاليين ، ويحلون بين السكان الوطنيين . وحيث وجدوا مدنا قائمة ، كما كانت الحال في الشرق ، فإنهم استخدموها .

سابقين . وعلى مر الزمن أصبح يوجد ميل ملحوظ فى اتجاه التدخل من قبل الموظفين الامبراطوريين . وقد بطل الانتخاب الشعبى وغدا من العسير بدرجة تطرد ازديادا حث المرشحين على مواجهة التكاليف الباهظة التى تلازم القيام بوظيفة البلدية . وقد شاهدت بواكير قرون بعد الميلاد قيام عدد جم من المدن ببقى الكثير منها امدا طويلا بعد سقوط الامبراطورية ولا تزال تزدهر حتى زمننا الحاضر . وقد هيات مواقع كتائب الحدود ، العسكرية نواة البلدان الجدد ويمكننا ان نتتبع الحصن فى نموه الى قرية والقرية الى بلدة . ويحتفظ اسم ليون Leon فى اسبانيا واسم قايرليون Caerleon على اليوسك Usk فى بريطانيا بسجل مثل هذا الاصل (Legionis) كتائب و Castra Legionis معسكر الكتائب) . وكانت كل بلدة تقوم على ادارة مساحة عظيمة من الريف المجاور ويحدث أحيانا أن مدينة عظيمة تقوم بالسيطرة على عدد من البلاد التابعة لها ، وبذلك تنهض حكومة مقدسة (hierarchy) لبلدة . وهكذا كانت حال الغال فى عهد أوغسطس اذ كانت لغدونم Lugdunum (Lyon - ليون) المركز الادارى لأربعة وستين مجتمعا ، لكل منها بلدته الرئيسية (وكانت أميان Amiens ونانت Nantes اثنتين من هذه البلدان) بينما كان لمارسليا ونيم Nimes السيطرة على البلدان الأخرى القريبة منهما . وكانت البلدان الاقليمية أيضا تنتخب مندوبيها لحضور المجالس الاقليمية التى كانت اجتماعاتها ، وهى ترتبط بعبادة الامبراطور ، تقوم بدور هام فى الادارة المحلية وتقدم أقرب مثال فى الأزمنة القديمة لنظام الحكومة النيابية .

١٣ - وكانت أعظم مسئولية ملحة ، خلال القرون الثلاثة الاولى ، المحافظة على الحدود . ان نصيحة أوغسطس بالبقاء داخل الحدود التى وضعها ، راعاها بأمانة خلفاؤه . وأهم استثناءات كانت ضم بريطانيا فى عهد كلوديس Claudius (٤١ - ٥٤) وداقيا Dacia (= هنغاريا قبل ١٩١٤ - ٨) وأرمينيا وأقاليم الدجلة والفرات فى عهد طريان (٩٨ - ١١٧) . وكانت حملات طريان المظفرة فى الشرق قمة السياسة النشيطة التى جرى عليها أباطرة القرن الأول . ولم تعد فارثيا بعد منيعة ، وظل تخم الفرات لا يسوده اضطراب حتى قيام المملكة الفارسية فى منتصف القرن الثالث . وفى الشمال والغرب ، من الجهة الأخرى ، طغى موج هجرة الهمج طغيانا يطرد ازديادا . أما القبائل التيوتنية - وقد كانت مصدر تهديد لايطاليا منذ زمن ماريوس Marius - التى صدها قيصر للوراء عن الغال ، وثبطت جهد أوغسطس فى بسط السيادة الرومانية حتى الالب ، فانها كانت فى ذلك

الحين تحارب دون انقطاع ضد الحاجز الحصين بمحاذاة الراين والدانوب .^(١) وكان قد عمل على تقوية الخط ، بسياج أقامه هديران فيما إلى كبلنز إلى ما يقرب من رجنسبرج على الدانوب ويحصر الغابة السوداء داخل الامبراطورية^(٢) . وقد صمد زهاء قرنين ولكن القتال كان لا ينقطع على امتداد الحدود بأكمله ، وسرعان ما كان يلقى أى تهاون فى قبضة روما الجزء الوفاق . وقد أثارت الانقسامات داخل الامبراطورية وتجاوز القبائل فى تجوالها دائرتها ، الأزمات التى تقح بين حين وآخر فى شدة منقطعة النظر وتعقبها فترات من الهدوء النسبى . ولهذا فانه بعد الحروب المروعة التى شنّها ماركس أورليوس ضد المرقمانى Marcomanni والقواضى Quadi على الدانوب الأعلى ، ساد الهدوء طوال جيلين ، الى أن تحول مركز العاصفة الى مجرى النهر الأدنى حيث كان يهدد غوط من الأكسين ، أقاليم البلقان فى منتصف القرن الثالث (٢٥٠ - ٧٠) . وقد أمنت الهزيمة التى أوقعها قلوديس بهم خط الدانوب مائة سنة أخرى . وفى نفس الزمن الذى نشبت فيه الحرب الغوطية ، حطم الأليمانى والفرنجة (حوالى ٢٥٨)^(٣) حاجز الراين ، وبعد جهاد استثناس استمر فى حظوظ متباينة ، من حكم غلينوس Gallienus حتى حكم ديوقلطيان ، أعيد السلام مرة أخرى فى الشمال الغربى . وفى خلال هذه المناوشات ، أصبحت العادة التى اضتهلها قيصر فى منح الأراضى للمستعمرين التيتون داخل الامبراطورية جزءا من سياسة الحكومة العامة . ولقد قدم الذين كانوا أعداء فى جيل ، مجندين لكتائب دفاع الجيل التالى . وكانت الجيوش الرومانية تجند لمدة خدمة طويلة وكلها

(١) كان موطن التيوتون الأصلى فى أراضى غربى البلطيق أى جنوب السويد وجتلند وبومرانيا . ومن هناك ، بين عامى ٦٠٠ و ٢٠٠ ق م ، ساروا صوب الغرب والجنوب الغربى طاردين القبائل الكلتية من الأراضى الواقعة شرق الراين وفى نفس الوقت ، تشبعوا بالكثير من الثقافة الكلتية المتفوقة التى كانوا على اتصال بها . وفى القرن الثانى قبل الميلاد ، عبر التيوتون الراين لأول مرة وغزوا الغال .

(٢) داخل السياج من القضبان ، كانت تسير الطرق العسكرية ؛ وفى تاريخ لاحق استبدله السياج جزئيا بحائط من الحجر . وقد أقيمت حصون على مسافات تتراوح بين ميلين ونصف ميل ، وتسعة أميال بمحاذاة الطرق العسكرية . وقد امتد هذا الحاجز الحصين بضع مئات من الأميال .

(٣) كان الأليمانى ، كما يدل اسمهم (= كل الناس) تحالفا من قبائل كما كان الفرنجة (= رجال أحرار) . واسم الأولين لا يزال باقيا فى اللفظ الفرنسى Allemagne واسم الآخرين فى France (وكذلك Franconia و Franche-Comité و Frankfurt) وكان الأليمانى على اتصال بروما سن ٢١٣ والفرنجة من ٢٥٣ .

تقريبا من سكان الأقاليم . وقد يعسكر جنود من قماغين Commagene
بآسيا الصغرى ، في ألمانيا أو بريطانيا ويستقرون عند رفتهم ، بمنحة وقطعة
من الأرض ، في الأقطار التي كانوا يخدمون فيها ، وكانت بلدان شهيرة
مثل كولوني (Colonia Agrippinensis) وكلشستر Colchester
(Camulodunum) تدين بنشأتها إلى مستعمرات الجنود القدامى
الذين انقضت مدة خدمتهم ، هذه . وما كانت الصبغة العالمية
للجيش إلا أحد مظاهر الصبغة العالمية للنظام الامبراطوري . وكان الموظفون
المدنيون أيضا يؤخذون من سكان الأقاليم . ولقد أصبحت الخطوط الفاصلة ،
القديمة ، بين الروماني والايطالي وبين الايطالي والاقليمي لا وجود لها .
وعندما منح الامبراطور قرقلا في عام ٢١٢ بموجب دستور انطونيوس
Constitutio Antonina صفة المواطن الروماني لكل مواطن حر المولد
في الامبراطورية . فربما كان الوازع المباشر لديه أن يزيد الدخل ،
ولكن الاجراء كان الاتمام المنطقي لسياسة القرنين السابقين (١) . وبفضل
الحكومة الامبراطورية الأبوية ، تأصلت الأفكار والانظمة التي تمثلها روما
في التاريخ ، تأصلا ثابت الدعائم في جميع أرجاء عالم البحر المتوسط .

١٤ - ويتجلى مغزى هذه الحقيقة وما كان لها من نتائج في المستقبل ،
إذا أوضحنا الوسيلة التي نهضت بها روما بمهمتها في الحكم في أقاليم أوروبا
الغربية - اسبانيا والغال وبريطانيا (١) كانت اسبانيا أحد الأقاليم
الرومانية الباكورة . وقد فتحها ونظمها في القرن الثالث ق.م . القرطاجني
العظيم هملقار بارقا ، Hamilcar Barca ثم آلت في ختام الحرب
الفونية الثانية إلى روما . وكانت السيطرة على قبائل الداخل مهمة طويلة
شاقة أنهكت إلى أقصى حد هم الحكام الرومان المتعاقبين ومن بينهم كان
كاتو الرقيب وطبريوس سمبرنيوس جراكس Tiberius Sempronius
Gracchus والد المصلح الزراعي ، بارزين لقدرتهما .

وكانت الأحوال الطبيعية تعاون حرب العصابات التي كان فيها الاستبان
على الدوام متفوقين واستمرت متاعب الحرب والتنظيم ، دون انقطاع خلال
القرن الثاني . وقد نهض كاتو بالمناجم التي كان الفينيقيون يستخدمونها

(١) كان الدافع المباشر لمرسوم قرقلا هو توسيع مدى تطبيق ضريبة
الخمسة في المائة على مواريث المواطنين . وقد قصر منح صفة المواطن على
الاهلين الأحرار الموجودين فعلا في الامبراطورية ، عام ٢١٢ أما المعتقون
والاشخاص الذين لهم حقوق لاتينية وأولئك الذين استقروا على اراض
داخل الامبراطورية وحازوا مكانتهم في تاريخ لاحق فانهم لم يصبحوا بذلك
ipso facto ، مواطنين . وقد مذ يوستينيان صفة المواطن لتشمل هؤلاء .

قبل ذلك بقرون كثيرة وغرس الكرم والزيتون . وبين عامي ٨٠ و ٧٢ ق.م . عكف الزعيم الديوقراطي سرطريس Sertorius - وقد وجد في اسبانيا ملجأ من انقلاب سلا - على تدريب القبائل الوطنية على فنون الحرب والسلم ، وأسس الكليات العسكرية لتعليم شباب نبلائهم . وقد شجع يوليوس وأوغسطس سياسة صبغهم بالصبغة الرومانية بحماسة ونالت خمسون مدينة اسبانية صفة المواطن الكاملة . وكانت قادس وطراقو (Tarraco) مركزين للتجارة والحكومة ، على الولاة : ولا تزال سرغسا Saragossa وأسطرغا Astorga تحتفظان باسم أوغسطس^(١) وقد مد الطريق العسكري والتجاري العظيم ، الذي كان يسير من ايطاليا حول خليج ليونس Lions الى الأقاليم التي تقع فيما يوالى البرانيس ، بمحاذاة ساحل اسبانيا الشرقي ومنه اخترقت الداخل حتى الوادي الكبير وميناء قادس . وما حان الزمن الذي مات فيه أوغسطس حتى كانت اللغة والملابس والعادات الرومانية قد عمت شطرا عظيما من شبه الجزيرة . وقد قسمت اسبانيا الى ثلاثة أقاليم ، ومن الثلاث كتائب التي وضعها أوغسطس هناك ، كان يمكن سحب اثنتين قبل ختام القرن الأول . وقد سار نشر السلم ونشر الصبغة الرومانية جنبا الى جنب . وكان كاتم سر يوليوس قيصر وأمين مكتبة أوغسطس مواطنين اسبانيين . وقد قدمت اسبانيا الى الادب الروماني ، ويرجع ذلك الى القرن الأول ، عالم الأخلاق سنقا Seneca والشاعر الجمهوري لوكان Lucan وعالم الجغرافيا مالا Mela والكاتب الزراعي قلو ملا Columella وأحسن واضع للأراجيز ومأثور القول ، في روما ، مرطيال Martial وأعظم ناقدى الأدب فيها كونتليان^(٢) Quintilian . وفي بواكير القرن التالى قدمت الى روما واحدا من أنبل أباطرتها هو تراجان وفي النهاية عندما انهالت غزوات الهميج على الغرب ، وجدوا اسبانيا قد اصطبغت تماما بالصبغة الرومانية ، حتى ان استمرار ثقافتها لم يكن يهدده خطر جدى . وكانت العقيدة المسيحية متأصلة كل التأصل في قطر ربما يرجح أنه كان مشهدا لجهود القديس بولس الأخيرة ، الرسالية . ومنذ ذلك الحين ، قامت بدور هام في حياة الكنيسة الغربية . ولقد مثلت سبع وثلاثون كنيسة منفصلة في مجمع الويرا Elvira في القرن الثالث . وكان هسيوس Hosius أسقف قرطبة Cordova المستشار الذي انتخبه قيسطنطين في

(١) في عام ١٨٦١ ، كشفت أجزاء من قوانين ملقا (ملغا) وسلبتسا وفي عام ١٨٧٠ أجزاء من قوانين أسيونا ، تلقي ضروا عظيما على حكومة البلدان في اسبانيا في عهد الامبراطورية الباكر .

(٢) عن سنقا وكونتليان راجع ما يلي § ٢١ و ٢٢ . لقد قيل كتوضيح لعمل روما في بسط المدنية أن جنودا وموظفين من الرومان كانوا يعلمون الأجانب ، مثل سنقا وكونتليان أن يكتبوا اللاتينية الصحيحة .

مجمع نقيلا Nicaea . وكان القوط الغربيون ، على خلاف الوندل ، قد تقبلوا بالترحاب الثقافة الرومانية قبل أن يبسطوا سلطانهم في اسبانيا . وكان أزيدور Isidore السفيلي ، واحدا من العلماء القلائل في أيام التدهور في القرن السابع وهو الذي استطاع أن يحول شذرات من العلم القديم والأساطير القانونية الى مفكرى العصر الوسيط الباكر . وحتى غزو المشاركة الذي حدث في القرن الثامن لم يجد في محو كل آثار الماضي وقصد حفظ الزعماء القوط ضوء التقاليد الرومانية والمسيحية لا تخفت خفقاته في حصونهم الجبلية . ويمكن تقصى أثر مجرى النفوذ الروماني دون انقطاع من أيام اسقفىون حتى قيام مملكتي البرتغال واسبانيا الحديثتين (١) .

١٥ - (٢) « كل الغال تنقسم الى ثلاثة أقسام » هذه ، كما يعلم كل تلميذ مدرسة ، هي الكلمات التي يفتتح بها قيصر « تذكراته » . وقد أعاد أوغسطس ، في تقسيم القطر الى أقاليم ، تنظيم المناطق الثلاث فأصبحت بلجيكا (شمال شرق) ، لقدنيانسس Lugdunensis (شمال غرب ووسط) واكوطانيا Aquitania (غرب وجنوب غرب) وهي أسماء لا تزال باقية في « بلجيكا » و « ليون » و « أكوطين » . وفي الجنوب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ، كان يوجد إقليم الغال النربوني Narbonese Gaul الذي كان يخترقه الطريق العظيم من روما الى اسبانيا ، وكان مركزه في أزمى الجمهورية مستعمرة ماسيليا (مارسيليا) الاغريقية ، القديمة وهي مدينة متحالفة مع روما ، وتحكم بدستور حكومة أقلية أثارت إعجاب شيشرون وبعد سقوطها أمام جيش قيصر في الحرب الأهلية (٢) انتزعتها منشئات أكثر حداثة مثل فورم (منتدى والأصل سوق) يولي Forum Julii (فريس) Fréjus ، محطة الأسطول كطولون في إيامنا (وأرليط Arelate (أرلس Arles) ، عند مصب الرون ، الميناء العظيم للتجارة الداخلية . وقد صبح هذا الإقليم الجنوبي ، « البروفانس Provence » كما تعرفه الأزمنة التي جاءت بعد ذلك ، بالصيغة الرومانية بطبيعة الحال ، قبل أقاليم الداخل حديثة العهد بالفتح ، بأمد طويل . وظل الاختلاف قائما في زمن متأخر ، في مجال اللغة يمثله الفارق بين لغة أك Langue d' Oc ولغة أوي Langue d' Oil في بقية فرنسا . ولقد نظمت أقاليم أوغسطس الثلاثة الجدد الى أقسام فرعية cantons ، قبلية يحكمها موظفون كلتيون ، لديهم

(١) في أفريقيا معا المشاركة كل آثار النفوذ الروماني . وكان أمراء المشاركة في قرطبة ، من الجهة الأخرى ، حكاما متنورين حافظوا على الكثير من مخلفات الماضي .

(٢) دانتى « المطهر : ١٨ ، ١٠٢ » - « لاختضاع الردا Ilerda ، طعن قيصر مارسيليا ثم أسرع الى اسبانيا » .

جنود غير نظاميين (مليشيا) . وكانت لـ *Lugdunum* (ليون) المركز الرئيسي للحكومة والتجارة . وهي مستعمرة أسست عام ٤٣ واستوطنها مواطنون رومانيون عند الموقع الذي يتشعب فيه الطريق الصاعد في وادي الرون ، الى فروع تؤدي الى مختلف المعسكرات على النخمل الألمانية . وهناك كان يعقد مجلس الأقاليم الغالية الذي كان يتعاون مع الحكومة الرومانية في الضرائب وفي جمع شمل القبائل الكلتيية حول عبادة روما وأوغسطس (١) . وقد تقدمت الحياة الحضرية في الأقسام *Cantons* بسرعة . ومن بين المدن الأولى التي أصبح لها شأن كانت ريمس وترير *Trier* في إقليم بلجيكا وصارت الأخيرة منهما عاصمة الغال والغرب في مستهل القرن الثالث . وقد كان شرق الغال أسرع اصطياغا بالصبغة الرومانية من الغرب . وكلما نهضت جماعات حضرية ، كانت الحقوق الرومانية تنسحب عليها ، وقد سمح قيصر للغالين بدخول مجلس الشيوخ ووصلت إلينا خطبة قلوديس التي منح فيها حق تقلد الوظائف للغالين الذين منحوا الحقوق السياسية (٢) . ولقد كتب قيصر عن هذا الشعب « كل مجتمع ينقسم الى حزبين » وقد استخدمت السلطات الرومانية هذه الانقسامات ، أتم استخدام ، لتوثيق حكمهم ضد الثورة . وقد ألغى الدين الدرويدى *Druïdic* بقانون . ولم يقاوم طويلا وكان قد أوشك على التوارى عندما انتشرت المسيحية في الأقاليم الشمالية . وكان القطر غنيا بالموارد المادية . ولقد كتب يوسيفوس « فى الغال ، يوجد موطن موارد الثروة وتغمر الأرض بفيضها » وكانت الزراعة أساس رخائه بينما فى الشمال الشرقى ، هيات تربية الأغنام قيام صناعة المنسوجات مما جلب ، فى زمن مبكر لمدينتى أراس وطورناى شيئا من شهرتهما فى العصور الوسطى والحديثة . وكان الكلتيون رجال صيد عظام وقدموا فرقا كبيرة من المحاربين لحياة جيسوش روما . وكان لهم ميل نادر للتعلم وكانت أوطان *Aulun* (أغسطو دونم *Augustodunum*) وبردو (بردغالا *Burdigala*) مقرى جامعات ومدارس شهيرة ، وقد عادت البديهة الحاضرة وهاب الكلام لدى الكلتيين ، عليهم بصيت بعيد فى الخطابة والتعليم

(١) لم يكن كل سكان الغال من الكلتيين ، ولكن كانوا يضمون قبائل برية وجرمانية . وقد أنزلت الحكومة الرومانية الجرمانيين المهزومين فى أرض غالية .

(٢) يلخص طاقيطس (فى الحوليات : ١١ ، الفصول ٢٣ - ٢٥) الخطبة . وفى زمن مبكر فى القرن السادس عشر ، وجدت أقسام منها فى ليون . راجع أرنولد الصفحات ١٤٥ وما بعدها ، عن التفاصيل .

يرجع مبكرا ، الى القرن الأول (١) .

وقد قامت فنون النحت وخاصة ما كان يعالج مناظر من الحياة اليومية ، تلك التي كانت تنبئ مقدما بالنقوش البارزة التي تزخر بها الكاتدرائيات الغوطية في فرنسا في العصور الوسطى ، حول ترير . وفي القرن الرابع ، كان أوسنيوس Ausonius البردوي ، أحد عظام الشعراء اللاتين المتأخرين المبدعين ، يتغنى بالقصيد ذي المقاطع الستة ، بمحاسن مناظر موزل الرائعة . ولقد قدمت كنائس الغال ، منذ القرن الثاني وما بعده الكثير من قادة العالم المسيحي الغربي . وكان الأساقفة من بريطانيا ، يرحلون الى أربلس لحضور مجالسها . وقصارى القول ، انه قبيل الوقت الذي انهال فيه القوط الغربيون والبرغنديون والفرنجة على سهول ووديان أنهار الغال ، كانت الغال قد تهيأت لمهمة بسط الرومانية والمسيحية على غزاتها وفي زمن لاحق ، في القرن التاسع ، كانت مدارسها الموطن المختار لعلم العصور الوسطى (٢) .

١٦ - (٣) وكانت بريطانيا تقع في ارباض العالم الروماني ، القاصية وكان احتلالها في عهد قلوديس هو الاستثناء الوحيد الدائم للمبدأ القائل ان الامبراطورية يجب ألا تمتد فيما يلي الحدود التي أقرها أوغسطس . وكانت تحكم كجزء من الامبراطورية قرابة أربعمئة عام . ولقد اتخذت ثلاث كتائب (أكثر من ١٥٠٠٠ جندي) جندت غالبيتهم من الوطنيين الذين اصطبغوا بالرومانية ، مراكزها باستمرار في الجزيرة . وكان نفوذ المدينة الرومانية ينحصر ، فيما عدا فترة وجيزة ، في المناطق التي تقع في الجنوب من السور الذي أقامه ساورس من ولسند ، الى الشرق من نيوكاسل ، حتى كرسلي ولا يزال جزء كبير منه باقيا (٣) . وقد ظلت كرنول وحدها ، داخل

(١) كانت مدرسة أطون لتعليم شباب نبلاء الغال موجودة في عهد طبريوس وسابقة له .

(٢) يجب ألا يغيب عن البال انه بين الأقاليم الغالية والحدود ، كان يمتد اقليمان (الأعلى والأسفل) يتكونان من شريط ضيق من الأرض تحرسه حاميات عسكرية أمامية ومعسكرات كتائب الراين العظيمة . كانت ألمانيا العليا أعرض الأقليمين اذ كانت تشمل رقعة عظيمة من الأرض البور المتنازع عليها بما فيها الغابة السوداء . وقد عزلها واسفاسيان وجعلها موطن Coloni Caesaris ، وهم زراع مرتبطون بالأرض . ولقد امتدت الثقافة الرومانية هنا ، بين القبائل الجرمانية الى حد أبعد مما كانت عليه الحال في ألمانيا السفلى فوق كيلنز .

(٣) كان هديران قد أنشأ طريقا (limes) في محاذاة هذا الخط . وقد أقيم في مكان أبعد الى الشمال ، حفرة وجسر من التراب وطريق ، من خليج

هذه المنطقة ، لم تقسها روما على الاطلاق . وفي الشمال كانت توجد مستعمرات عسكرية فسيحة ، نكدست على الاخص في محاذاة السور وفي مدينة يورك . ولكن في الجنوب وخاصة في جلوسستر وشرقي سومرست وهمبشر وبورثمبتنشر كان يوجد ، كما يدل الكثير من بقايا المنازل الرومانية المنعزلة ، عدد وفير من السكان المدنيين المصطبغين بالرومانية وهناك على الاخص وضعت روما طابعها على السكان الكلتيين وكما جرت عليه الحال في جميع أصنقاع الامبراطورية ، كان حكم روما يعنى قيام مستعمرات وطرق عسكرية . ولقد كانت لولسستر ولنكولن وبورك وجلوسستر مستعمرات رومانية وكانت فرو ليم (سانت البانس) تستمتع بالتكريم باعتبارها بلدة Municipium . وكانت يورك مشهد تنويع الامبراطور قسطنطين ومنوى الامبراطور ساورس . ومن الطرق العظيمة كان شارع واطلنچ يتجه الى الشمال الغربى ، من لندن الى روكستر ويسير شارع ارمين من كولشسندر بجوار هنتنجدون ولنكلن الى يورك وكان الطريق من لندن بجوار استيننس ، يتفرع عند سلسستر الى شعاب تنجه صوب سوثبتن وسالسبورى والجنوب الغربى ، وجلوستر . وكان طريق فوس يسير بانحراف من لنكولن بجوار ليستر الى كيرنستروباث . وقد اخلت ارض الغابات للزراعة وكانت بريطانيا قد كتائب الراين بالحنطة . وكان الهنءون البريطانيون معروفين فى أوروبا الغربية . وكانت المنسوجات البريطانية تصدر للخارج . وكان محار كنت يزداد الطلب عليه فى روما ، وأصبحت مرافىء الجنوب الشرقى مراكز تجارة رائجة . ولهم يكن نفوذ روما على الدوام خيرا ، ففي الأدوات التى يعم استخدامها كالأوعية ، أفسدت طرز الزخرفة التى اتخذت طابعا ثابتا ، حرية التخطيط القومية الكلتية . وذاغت اللغة الرومانية أولا بين اشراف الكلتيين ثم بين المجموع الأكبر من السكان الوطنيين فى الجنوب والشرق . وكان القانون الرومانى ومناهج الحكومة عوامل للمدنية قوية المفعول . ويقص فلوطرخوس حديثه مع معلم اغريقى عائد من بريطانيا الى وطنه على شواطىء المشرق . وبتوسع المسيحية دخلت بريطانيا نطاق الكنيسة . ولقد كشفه عن أسس كنيسة مسيحية فى سلسستر وامتدت العقيدة الجديدة الى ويلز وفيما يلى تخوم الامبراطورية الى ايرلنده . وفى بداية القرن الخامس أدى الضغط على تخم الامبراطورية القارى الى تخلى الحكومة الامبراطورية عن بريطانيا (١) . وعند انهيار الحكم الرومانى استعاد العنصر الكلتى فى الاقليم مكانته . وتتمثل

فورث الى خليج كلايد . ونهض بذلك انطونيس فايوس وأتمه ساورس فى ختام القرن الثانى .

(١) عندما التمس البريطانيون الحماية من الامبراطور أنوريوس Honorius ، فانه أمر مدنيهم أن تحمى نفسها على أحسن ما يستطيعون .

فى شخص أرثر وهو زعيم كلتى كان يحمل اسما رومانيا وشبطره تاريخى والشطر الآخر أسطورى ، مقاومة الكلتيين للسكسون ، وباحتلال السكسون ، زال معظم آثار نفوذ روما . ولم يكن القانون الأنجلوسكسونى يدين بشئ من محتوياته لقانون روما . ولقد تراجعت المسيحية أمام الوثنية الا فى ايرلنده والحصون التى لم تغلب ، فى ويلز . وأتى الغزاة على المدن الرومانية بالتخريب . ان ما تبقى من آثار الحياة الاقليمية القديمة فى بريطانيا السكسونية ، كان كلتنا ولم يكن على الاخص رومانيا ^(١) . وفى لندن وهى أعظم المدن الرومانية ، لا يوجد شارع واحد باق الى الآن يمكن أن يبرهن على أنه يسير فى خط رومانى ^(٢) . ويمكن فى الواقع أن يقتصر أثر بقية من السكان الكلتيين تحت حكم أسياذ سكسون فى كنت ووسكس وقد حفظت المساحات التى أخلت من الغابات لزراعة الحنطة ، والطرق العظام سجل سياسة روما . ومن بين متنوع الأشكال الزاخرة التى تظهر على أقدم عملة انجليزية ، يمكن الرجوع بالكثير منها الى أصول رومانية . ولا تزال أكثر من ثلاثين مدينة وقرية تحمل أسماء مشتقة من تلك التى كانت متداولة خلال الاحتلال الرومانى ^(٣) - سواء أكانت كلتية أم لاتينية - ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات القليلة ، لم تترك روما أية علامة باقية على الزمن ، فى تاريخ حياة بريطانيا ^(٤) .

(١) فى كل أنحاء انجلترا ، تسلم الغزاة السكسون أسماء الأنهار التى كانت كلتية فى آخر أمرها ، دون تغيير .

(٢) مثال ذلك ، تقع أسس الأبنية الرومانية وهى تتقاطع مع خط تشيبسايد Cheapside . وتسير كثير من الطرق الرومانية على مسافة قصيرة من المدينة مثل شارع Clapham High Street ، (شارع استين) و Mile End Road (طريق لندن - كلشستر) و Kingsland Road (شارع ارمين Erminé Street) وشارع اكسفورد Oxford Street (الطريق الى سلشستر وتفرع شارع واتلنج صوب الشمال عند Marble Arch)

(٣) مثال ذلك ، Lichfield (Letocétum) و Manchester (ربما Mammiun) و Richborough (Rutupiaec Repata Caestir) و Winchester (Venta) و قرية Mancetter فى Warwickshire

(٤) عن بريطانيا الرومانية - راجع طاقيطس « حياة أغريقولا » زوج أمه الذى كان القائد فى انجلترا فى عهد طيطس ودمطيان . وفى هذا القسم كنت مدينا بصفة خاصة الى معاونة زميلى السابق الأستاذ F. N. Stenton ف.ن. استنتون (المؤلف) .

٣ - القانون والأدب

١٧ - كانت الفترة التي تقع بين أوغسطس وديوقلطيان العصر الذهبي للقضاء الروماني الذي نما ووصل إلى الكمال على أيدي نابهي الشراع الذين كانوا يعملون كأعوان للزعامة الملكية . ولقد فصل القانون المدني القديم عن الزيادات الربحية والبقايا المنهالكة . وعلى سبيل المثال ، فقدت سلطة الوالد patria potestas الكثير من صلابتها التقليدية . ولقد مهد توسيع قرقلا لصفة المواطن الروماني حتى تنسحب على كل سكان الأقاليم الأحرار ، الطريق لإدماج قانون الأمم (jus gentium) في قانون روما المدني jus civile . وأهم مظاهر التاريخ القانوني في القرون الثلاثة التي نستعرضها ، كانت :

١ - تكملة القانون البريتوري بالمرسوم الدائم .

٢ - نهوض التشريع الإمبراطوري .

٣ - إنشاء قضاء علمي .

(١) بلغ النشاط البريتوري في مجال وضع القوانين ذراه في آخر قرن للجمهورية . وقد جرت العادة في عهد الأباطرة الأوائل بأن يتخذ الموظفون البريتوريون مرسوم سالفهم دون تعديل إلا في النادر . وقد اعترف هيريان بهذه العادة عندما وكل إلى محام جليل وهو سالويس يوليانس Salvius Julianus مهمة مراجعة مراسيم بريتوري الأجانب والمدن واصدار النتيجة التي وضعت في مدونة قانون ، كمرسوم دائم edictum perpetuum ملزم . ومنذ ذلك الحين ، لم يكن في الاستطاعة ، إدخال اضافات أو تعديلات . وقد أجرى أيضا ما يماثل هذا على مراسيم الموظفين في الأقاليم . وهكذا أكمل مرسوم يوليانس ، على هذا النحو واختتم مجموعة القوانين البريتورية . وبهذا كان العلامة على توطيد السيادة الإمبراطورية على سلطة الموظفين الجمهوريين نهائيا ، في مجال القانون .

(٢) وكانت سلطة التشريع في عهد الجمهورية هي مجلس (Comitia) الشعب الروماني . وكان أوغسطس لا يزال يعرض المشاريع الهامة التي تتصل بالأصلاحات الحلقية وعتق العبيد ومركز المعتقين والإجراءات القضائية ، على المجلس للتصديق عليها رسميا ولكن منذ حكم طبريوس فصاعدا ، تحولت مهامه التشريعية إلى مجلس الشيوخ وكان من بين أعضاء هذا اللفيف كثير من نابهي المحامين وأدت مراسيمه Senatus Consulta دورا عظيما في تقدم القانون في القرنين الأولين . وبينما كان الأباطرة يقومون برقابة

لا تنى تزايد ، على مداولات مجلس الشيوخ ، فانهم كانوا يترددون حتى ذلك الحين فى وضع تشريع بموجب سلطتهم الحاصلة . ولكن قبل القرن الثالث ، كان قد أصبح « للدساتير » الامبراطورية قوة القانون ، وبعد ذلك التاريخ غدت الاداة الوحيدة للتشريع . وكانت تشمل : (أ) المراسيم أو الاوامر العامة التى تفسر القانون والتى كان الامبراطور بما له من سلطة imperium يعلنها على لافتات كما كان يفعل البريتوريون فيما مضى من الزمان . (ب) الفتاوى أو الأحكام المكتوبة عن الالتماسات التى يوجهها اليه الافراد العاديون والموظفون (ج) المراسيم أو القواعد التى توضع عن الاستثنافات القضائية و (د) الوصايا أى التعليمات التى تكون لها فى الغالب صفة ادارية والتى ترسل الى حكام الاقاليم (١) . ويجب أن نوجز شرح أداة سير القانون الجنائى الذى كان قد نظم لأول مرة ، تنظيما فعالا ، فى آخر عصر للجمهورية عندما وسع سسلا نظام المحاكم الدائمة (quaestiones perpetuae) التى يرأسها رؤساء بريتوريون وتضم قضاة من طبقة الفرسان equestrian ويتوارى هؤلاء فى ختام القرن الثانى . وكذلك ولاية مجلس الشيوخ للقضاء الجنائى التى منحها أوغسطس لهذه الجماعة . وهنا ، مرة أخرى ، كان الامبراطور وهو يعمل عن طريق مندوبيه وخاصة الرؤساء البريتوريين ، يجمع كل سلطة قضائية . وعلى هذا ففى الدعاوى المدنية والجنائية ، أصبحت منصبه القضائية ، المحكمة العليا للاستئناف ، للعالم الرومانى .

(٣) لقد صيغ القانون الرومانى ، ليس على مذهب سبق تصوره ولكن عن طريق الاستقراء على أساس التجربة العملية وكان يشتمل على مجموعة عظيمة من الأحكام والقواعد المرعية التى ترجع الى العادات القديمة أو توضع لسد مطالب خاصة . وكانت مبادئه تجيى ضمنا فى تكوينه ، أكثر من أن تكون مصاغة فى وضوح . وكان أول شارع حاول استخلاص هذه المبادئ وتنظيم هذه المجموعة العظيمة من القوانين الخاصة وفقا لطبيعة محتوياتها هو كينتس مكيوس سكاولا Quintus Mucius Scaevola الأصغر ، الذى كان حبرا أعظم Pontifex Maximus حوالى عام ١٠٠ ق.م . ويمكن أن يقيم سكاولا دعواه بحق ، فى اعتباره مؤسس القضاء الرومانى . ومنذ عهده

(١) من الوجهة النظرية ، كانت المراسيم تفقد صحتها عند موت الزعماء princeps ولو أن خلفاءهم كانوا ، فى الكثير الغالب يجددونها . وكانت الفتاوى ، تعليمات ملزمة للقاضى فى المادة الخاصة بالقضية المتنازع عليها بينما كانت المراسيم ، قواعد لها أهمية عامة والوصايا ، عندما كانت تعنى بنقاط قانونية ، كان لها قوة الفتاوى وفى حالات كثيرة ، كانت تعالج مواد سياسية مؤقتة . وفى معنى أدق ، لم تكن تعد « دساتير » .

فصاعدا تقدمت دراسة القانون دراسة علمية ، تقدما سريعا . وقد أصدر أوغسطس اعترافا رسميا بعمل الشارعين بأن قرر أن يكون لطائفة منهم ، ينتخبون لتفوقهم ، حق الادلاء بآراء يكون لها سلطة امبراطورية (jus respondendi ex auctoritate principis) . وكانت اجاباتهم المكتوبة عن مسائل القانون التي تعرض عليهم والتي تسلم للمحكمة مختومة ، يلتزم بها منذ ذلك الحين ، الموظفون والمواطنون العاديون ، الذين غالبا ما يكونون غير متفهمين في القانون ، وكانوا يؤدون وظائف القضاة Judices ومن عهد أوغسطس فصاعدا ، كان لمدارس القضاء التي نظمت في جمعيات متحدة ، تأثير على تقدم القضاء ، يطرد ازديادا^(١) . وهي لم تصنع القانون في مذهب وحسب ، ولكن خمرته بآراء نظرية من طراز لم يخطر على بال في أ زمن الجمهورية . وقد تجلت بواكير ثمار هذه الجهود للعيان في مرسوم يوليانيوس سالف الذكر وفي العجالات المنظمة التي كان يضعها المحامون في عصر هدریان والأنطونيين ، من أمثال كالسوس (Celsus) وكيكليوس Caecilius وأفريقانس Afrekanus وجايوس Gaius . وقد تبع هؤلاء بين عامي ١٧٠ و ٢٣٠ كينتس كروديس سكاولا وتلميذه بابنيان Papinian ، أعظم الشارعين الرومان . وكان كلاهما من سلالة هليينية . وكان من خصائص هذا العصر ذى النهج العالمى أن عقل اليونان وضع طابعه على القانون الرومانى . وفى عهد ساورس الكسندر (٢٢٢ - ٣٥) كان يعيش أولبيان Ulpian وبول Paul وقدم أولهما ويرجع أصله الى صور ، المواد لنصف مجموعة قوانين جوستينيان المختارة^(٢) Justinian's Digest وكان خاتمة الشارعين العظام فى منتصف القرن الثالث تلميذ أولبيان Ulpian ، الاغريقى هرنينوس مدهستينوس Herennius Modestinus ولم يمض كبير زمن بعد ذلك ، حتى حلت الفتاوى الامبراطورية محل استفتاءات علماء القانون responsa prudentium وفى التفسير كما فى التشريع ، يظل الامبراطور معين القانون الاوحد .

(١) فى القرن الاول وبواكير القرن الثانى ، كانت توجد مدرستان عظيمتان فى روما أسسهما ، على الولاء ، لابن Laben وأطيوخس كابيتوس Atteius Capito ، من رجال التشريع فى عهد أوغسطس . وكان يطلق عليهما اسمى أتباع المؤسسين ، المدرسة البروكيولية Proculian والمدرسة السابينية Sabinian راجع سوهم Sohm «أنظمة القانون الرومانى» § ١٥٠ . (٢) كان سكاولا Scaevola عضوا فى مجلس دولة ماركس أورليس . وكان بابنيان Papinian الرئيس البريتورى فى عهد ساورس ، زميله القديم فى التلمذة ، وقتل بأمر قرقلا (٢١٢) . وتولى ألبيان Ulpian وبول Paul الرئاسة البريتورية فى عهد ساورس الكسندر وكان امبراطورا من السلالة الهليينية .

١٨ - ولقد بحث أساتذة القضاء العظام أولئك روحا جديدة في قانون روما ويتجلى نشاطهم العقلي فيما بذل من جهد لتقصي النية التي ترجع اليها المعاملات بين المتعاملين وصياغتها في مبدأ منظم لجميع الحالات التي يمكن تصور قيامها . فعلى سبيل المثال ، في معالجتهم لقانون الالتزامات فانهم قلبوا كثيرا وجوه الرأي في العقود التي يجب أن تقدر فيها النية غير المفصوح عنها bona fides . ويقول أحد الثقات المحدثين « ان قانون الالتزامات ، وهو دون سواء ، يتكون منه ، في أصدق وأدق معنى ، القسم الذي لا يغنى ، من القانون الروماني . وهو لا يمكن الغاؤه . ان نية الشاري والمؤجر الخ هي بعينها في جميع العصور وهي هذه النية التي جلاها القانون الروماني . . . انه هذا التمييز العجيب ، هذا البصر الصافي في التوفيق بين المبادئ المتعارضة ، تهديه قدرة لا يعترىها فتور أبدا ، على تبني العناصر المشتركة وهذه الموهبة الفريدة في وضع تعبير ظاهري عن قانون ملازم لحالات معينة وهو القانون الذي اذا وجد ، فانه يأتي بالقاعدة التي تنسحب - مع تغيرات عملية كثيرة بطبيعة الحال - على جميع الحالات الأخرى من هذا النوع ، هي المظاهر التي تدين لها كتابات الشارعين الرومان بروعتها التي لا تضارع ، والعمل الذي حققوه بقوة التي لا تقنى» (١) . وفي نفس الوقت ، كان هؤلاء المفكرون يبعثون في القضاء الروماني بأفكار مستمدة من الفلسفة الاغريقية ، تلك التي قدر لها ، في هذا الوسط الجديد ، أن تؤثر على فكر العهود اللاحقة ، الخلق والتشريع . وأعظم مثال يسترعى النظر هو تصور قانون الطبيعة (jus naturale or naturae) . ويرجع مصدره الى الرواقية ، المذهب الهليني الوحيد الذي أثار استجابة واسعة النطاق من العقل الروماني العملي والذي كان لا يزال في القرن الثاني مدرسة الاغريق الفلسفية التي لها المنزلة الأولى . وكان البيان المسئول أصيلا عن ادماج هذا التصور ، في تكوين القضاء الروماني . وكان يشمل القواعد العامة للأخلاق ، التي تفيض من طبيعة الانسان ككائن عاقل ، بغض النظر عن السلالة أو الزمن كتلك التي تأمر بالاعتراف بأصرة القرابة واحترام التعهدات والتقسيم العدل للكسب أو الخسارة واستعلاء النية على الألفاظ التي عبرت عنها تعبيرا غير مكتمل . وعلى هذا ، فان الرقيق له بموجب قانون الطبيعة ، حقوق ينكرها عليه القانون المدني وقانون الأمم jus gentium وسنرجع الى هذا التصور لقانون الطبيعة jus naturae في فصل قادم (٢) . لقد كان له تاريخ طويل

(١) سوهم § ١٥ الصفحتان ٧٣ - ٧٤ .

(٢) راجع فصل ١١ § ١٥ وما يليه . كان من العسير تحديد الخط

الفاصل بين قانون الطبيعة (jus naturae) وقانون الأمم (jus gentium) . قد حل البيان المسألة بتعريف أولهما بأنه القانون الذي تشترك فيه جميع الكائنات الحية وثانيهما بأنه ذاك الذي يشترك فيه كل البشر . ولم يأخذ

لا يغيب عن الأذهان وقدم مبدأ سيطر على الفكر الخلقى والسياسى فى أوربا الغربية خلال ألف وخمسمائة عام ونيف .

ب - الأدب

١٩ - ان أدب الحقبة يرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة العامة دائمة التغير فى الدولة الرومانية .

(أ) أنجب آخر جيل فى الجمهورية شاعرين عظيمين . لقرطيس الذى عبر فى شعر من ستة مقاطع عن مبادئ أبيقور الفلسفية ، وكاتولوس الذى تضارع قصائده الغنائية قصائد برنز Burns أو هين Heine بينما يذكرنا فى مداه وشخصيته بيرون (١) . وبين كتاب النثر ، يبرز اتمان بروزا ظاهرا . لقد كانت عبقرية قيصر فى الأدب تلى فقط عبقريته فى الحرب والسياسة . وكانت خطبه ورسائله ذائعة الصيت ، كنماذج عليا للأسلوب .

أحد من شاعرى ذلك العصر بهذا الرأى ، ولو أنه يظهر فى مجموعة جوستنيان المختارة Digest وفى كتابات القرون الوسطى . وجايوس ، وهو روماني خالص ويسبق عهده عظام الشارعين الاغريق والاغريق الشرقيين ، هو دون سواء الذى يتعرف هوية واحدة لقانون الطبيعة وقانون الأمم وقد عرف الأخير بأنه « القانون الذى يخصه العقل الطبيعى بجميع البشر » وقد احتذى جوستنيان مثاله فى هذا . وتبين حالة الرقيق التى أشير إليها فى النص وجه الاختلاف . ان الحرب والرق كليهما يناقضان قانون الطبيعة الذى بمقتضاه يولد جميع الناس أحرارا ، وهما والعقود يصدران عن قانون الأمم . قابل « أنظمة » lib. i و Iit. ٢ و ٣

Servitus autem est constitutio juris gentium, qua quis domino alieno contra naturam subiacitur

« ان الرق هو من وضع قانون الأمم ، وبمقتضاه يصبح الرجل خاضعا لسيد غريب بما يناقض الطبيعة » . وكان jus gentium يتضمن jus inter gentes وهو أقرب ما وصلت اليه الأزمن القديمة للقانون الدولى راجع دائرة المعارف البريطانية المجلد ١١ فى موضوع القانون الرومانى ، الصفحتين ٥٦١ و ٥٦٢ .

(١) عن « أبيقورية لقرطيس » راجع عاليه فصل ٦ § ١٨ . لم ينل الا اليسير من التقدير فى الأزمن القليلة ، الا من فرجل الذى يكشف فكره وشعره على السواء ، عن نفوذه . ويضعه كونتليان فى مصف شاعر من الطبقة الثالثة فى عهد أوغسطس وينحيه على أنه أنيق فى مجاله ولكنه عسير الفهم (Inst. Orat. ١٠ فصل ١ § ٨٧) ولقد ترك للقرن التاسع عشر تعرف عبقريته الشعرية .

وكتابه عن الحرب الغالية لا يبارى كسردي تاريخي عظيم ، كما يبعث اخفساء المؤلف لشخصه ، تأثرا فريدا بعمله العظيم الرائع ^(١) . ولكن اصدق ممثل للعصر كان شيشرون الخطيب والسياسي الجمهوري ، الذي كانت كتاباته النثرية - خطبه ورسائله وعجالاته عن الخطابة والفلسفة - يعترف بها كنماذج للغة اللاتينية بالغة أعلى ذروة في زمنه وفي كل زمن لاحق . واللاتيني الاتباعي (الكلاسيكي) هو اللاتيني كما كان يكتبه شيشرون . ولقد استخدمه شيشرون ليحوى صنفين عظيمين من الآراء - عظمة روما والمثل الأعلى للثقافة الانسانية . أما عن الأول فيمكننا أن نقترن ألفاظ نيومن : « لقد أدرك شيشرون في جلاء مكانة غصو الشيوخ والسياسي الروماني و «منزلة الفخار» التي كانت لروما في كل الساحة والعظمة اللتين اتسمت بهما ، ولقد امتنع ما كان يعجب به وصار من خصاله . وكما أن مغامرات اسقفيون أو بومباي هي التعبير عن هذه العظمة في الأفعال ، كذلك كانت لغة شيشرون في التعبير عنها بالألفاظ . وكما أن أفعال الحاكم أو الجندي الروماني تمثل لنا ، بطريقة خاصة بها ، العظمة التي اختص بها سادة العالم فهكذا توردها خطب أو عجالات خطيبها مكتمل الثقافة الى خيالنا بما لا يمكن لكتابة أخرى أن تفعل » .

وما كان لوي أو طاقيطس أو طرنس أو سينا أو بلني أو كونتليان بالمتحدث عن المدينة الخالدة ، الكفيل بذلك . انهم يكتبون اللاتينية أما شيشرون فيكتب الرومانية ^(٢) . وقد كانت الخطابة منذ البداية الفن الذي يمارسه الرومان وله عندهم أعظم احترام . ومنذ زمن شيشرون فصاعدا أصبح الموضوع الرئيسي في الأدب وفي التعليم . وكانت قيمة الشعر والتاريخ ، والفلسفة وحتى العلم تنحصر في أنها عوامل للفصاحة . وكان مطمح الشاب القدير في ايطاليا والأقاليم أن يكون خطيبا . وكانت جميع دراساتهم في المدرسة وفي الجامعة تنظم كترويض لبلوغ هذه الغاية . واستمر تأثير شيشرون ، وهو يعمل عملا مباشرا ، على هذا النحو في جيله

(١) في تقدير كونتليان ، أنه لو أن قيصر تاح له وقت فراغ ، لتعادت خطابته مع خطابة شيشرون . وقد كانت تتميز بالقوة وتوخي القصد والحماسة ، الصفات التي كانت تتجلى في ادارته رحي الحرب (Inst. Orat ١٠ ، ١١٤) .

(٢) « فكرة جامعة » (محاضرة في الأدب) الصفحتان ٢٨١ و ٢٨٢ . ان معنى العبارة الأخيرة ، بطبيعة الحال ، ليس أن أسلوب شيشرون كان أسلوب الروماني النموذجي ولكنه يعبر تعبيرا بالغا عن فخر وجلالة الدولة الامبراطورية . وقد اتهم بعض المعاصرين بأنه « متبجح وآسيوي ومتغال بنير حق » (خطابة شيشرون ، طبعة ساندر Sandys ، المقدمة صفحة ٦٠) .

والأجيال المتعاقبة ، دون انقطاع خلال القرون الوسطى حتى الأزمئة الحديثة .
وبينما قدر لشيخرون الجمهورى أن يلهم الثورة الفرنسية ، فان شيخرون ،
الباحث فى طبيعة الانسان أثر تأثيرا عميقا فى ثقافة عصر النهضة . وقد
ينعدم فى عادة كتاباته الفلسفية الابتكار وقوة التفكير ، ولكن شهرة شيخرون
كأعظم رجال الأدب الذين عاشوا أبدا ترجع أكثر ما ترجع الى أنه وحّد
فى شخصه الرجل المفكر ورجل الأعمال وفوق كل شيء الى أنه استوعب
وعبر عن الروح الحضارية والمعرفة بالطبيعة الانسانية وهو ما يّتميز بهما عصر
المدنية الإغريقية الرومانية .

وبفضل المحافظة على رسائله ، فان لدينا معرفة به أفضل من معرفتنا
بأية شخصية تاريخية أخرى فى الزمن القديم .

٢٠ - (٢) وكما أن الحرب مع قرطاجنة هيأت موضوعا لانيوس وهيا
غزو الغال موضوعا لقيصر - فهكذا كان لم شمل العالم المتمددين فى عهد
أوغسطس ، معين الالهام الأساسى لكتاب عهد أوغسطس . ولما كان قد ربّا
ازدهار هذا العهد فى كل مجال تقريبا فى الشعر والنثر على السواء ، فقد
كان كما يدل اسمه ، عصرا للرعاية الأدبية المباشرة من جانب الامبراطور
ووزراء دولته ، وانا لا نزال نتحدث فى شيء من السطحية عن عهد كأمثال
عهدى لويس الرابع عشر أو آن Anne بأنها عهد « أوغسطية » فى الأدب
الفرنسى والانجليزى . وكان حذب أوغسطس حرا وسخيا وعمل دون ريب
كمحافز لرجال الأدب للاشادة بالامبراطورية وحاكمها . ولكن أهم مصدر
للإلهام كانت الامبراطورية نفسها - العصر الذهبى للقانون والسلام - الذى
كان يظهر بأنه يضم البشرية المتمدنية كلها ، وأنه وضع حدا ، الى الأبد
لفوضى واضطراب الحروب الأهلية . وقد صنف لوى ، وقد تملكه احساس
بهذا العمل الجليل ، تاريخ روما من بداياته الاسطورية الى قمة البنيان الذى
وصل اليه أوغسطس ، وحتى هوريس الذى كان جمهوريا فيما سبق ، تحول
عن مباحج مزرعته السابنية الوداعة ليمجد عمل الامبراطور وواجب حب
الوطن فى طائفة نبيلة من القصيد الغنائى (١) . ولكن القصيدة التى تظل الى
الأبد التعبير الرائع عن بهاء وعظمة روما هى الانبياد لفرجل . ولقد ألهم بكل

(١) توجد القصائد الغنائية المشار اليها فى الكتاب الثالث Odes ١-٦ و
Odes (١) ، ١٢ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٧ و (٣) ، ١٤ و (٤) ، ٢ ، ٤ - ٥ ، ١٤ ، ١٥
و Carmen Seculare تعالج نفس الموضوع . وينصح الى القارىء الذى
لا يلم بالأدب القديمة (الكلاسيكية) ألا يحمل نفسه مشقة قراءة لوى
حتى ولو كان مترجما وهو كمؤرخ ، أقل مرتبة من الاغريق ومن قيصر
وطاقيطس بين الرومان .

سنظر تقريبا احساس بالمصير الالهى للمدينة الامبراطورية التى غدت فى ذلك الوقت سيدة العالم *nunc maxima rerum* . لقد رسم القدر أن يساق انيساس Aeneas ليضرب فى الاتفاق برا وبحرا بعد سقوط طروادة الى أن أوجدت له عناية السماء مستقرا على التربة اللاتينية كجد لمؤسسى روما . (١) وكان التقى - الولاء الجنوى للآلهة - هو الدافع لكل أعماله ، لهجرانه ديدو Dido ، مؤسسة قرطاجنة ، عدوة روما التاريخية ولرحلته فى العالم السفلى حيث شاهد أشكال عظماء الرومان الذين سيتمخض عنهم المستقبل ولتحالفه مع أمير لاتينى وتأسيسه مدينة لاتينية (٢) . ومن البداية الى النهاية يداخلنا الوعي بغرض الشاعر وهو أن يخبر عن مبلغ الجهد الذى بذل لوضع أساس سلاله روما (٣) .

٢١ - ان أدب ما بعد العصر الأوغسطى يختلف جدا فى نغمته . لم يكن الا للحظة أن أمكن لنبيع الخيال الخالق أن يجد الرضى فى واقعة قيام الامبراطورية وما كان باستطاعته أن يعقد اتفاقا دائما مع ما كان فى نهاية الأمر حكما استبداديا عسكريا . وانا نرى آيات التغيير بادية فى أوفيد آخر شاعر فى العهد الأوغسطى . ولما كان أوفيد رجل متعة لا يأبه لشيء ولا يقيم وزنا لمسئولية والمحب للمجتمع وعالم العاصمة البهيج . فانه كان يملك مهارة عجيبة فى القريض والصنعة الشعرية ومما له دلالة أعظم ، فى وضع القصص الايداعى (الرومانتيكى) . ولم يكن أوفيد شاعرا من الطراز الأعلى ولكن واحدا من أحسن شعراء الطبقة الثانية فى الأدب (٤) ، وهو جدير بتنويه خاص فى هذا المقام لأن أحسن عمل له ، « التحول » "Metamorphoses"

(١) انياد : ١ ، ٣٢ (acti fati) - قابل ١ ، ٢٠٨ - ١٠ .

(٢) انياد : ١٢ ، ٨٣٨ - ٩ . كانت كهرياء الرومان تتميز بتميز تقواهم (انياد : ٦ ، ٧٨١ ، ٨٢٣) . ولقد أدرك فرجل أن المزاج الرومانى كان مسالما وليس محاربا (انياد : ١ ، ٢٨٦ *Romanos verum dominos gentemque togatam* » ان الرومان ، أسياد العالم ، السلاله التى ترتدى ثوب السلام ») .

(٣) انياد : ١ ، ٣٧ - قابل ١ ، ١ - ٣٠٠ و ٦ ، ٧٦٩ - الى النهاية و ٧ ، ١ - ٢٨٥ و ٨ ، ٦٠٨ - الى النهاية و ١٢ ، ٧٩١ - ٨٤٢ وهى نصوص تتضمن فكرة روما الامبراطورية . وقد دفع فرجل الى كتابة مؤلفه الأسبق *Georgics* - « أعمال الزراعة » - أصلا ، حبه لحياة الريف ، ولكن أيضا رغبة أوغسطس الصريحة فى اجتذاب الارستقراطية الرومانية للعناية بالزراعة .

(٤) لقد كان « شاعرا تعشق الشعر عشقا جارفا » ، اذا كنا لنقتبس تقدير الأستاذ جلبوت مري أوفيد فى « مقالات وخطابات » .

حيث تنعكس نسخوص الأساطير الاغريقية من خلال جو ابداعى غريب ، كان له تأثير عميق على العصور الوسطى وعلى عصر النهضة كليهما ، وكان دانتي يستمد منه معرفته بالأسطورة الاغريقية . وكان المرجع الكلاسيكى المحبوب لمونتيني Montaigne عالم الآداب القديمة . وأوسع من ذلك فى مداه هو دين العصور اللاحقة لسنقا القرطبي وزير نيرون ، الأول وضحيته ، والرجل الذى يجىء فى مقدمة أدباء زمنه .

ولقد وضع سنقا مصنفاً هائلة وفى أسلوب زاهى الألوان ومؤلفة فى الطبيعة ، ولو أنه يخلو من قيمة علمية فانه قوبل على أنه من الأسانيد ، فى العصور الوسطى ، وماآسيه وهى تزخر بالثرثرة المضنية كان يضعها بن جنسون Ben Jonson فى مصاف ماآسى كتاب الفاجعة الاثيكية (١) . أما العجالات الأخلاقية ، من الناحية الأخرى ، فانها فى الأسلوب والمادة على السواء أكثر استحقاقاً ، لما كان لها من صنيت عظيم فى الزمن السابق . ولقد عاجلت عقائد المذهب الرواقى فى صورة أنيقة وجذابة وكانت تتميز بالاخلاص فى العقيدة . وبالبصيرة النافذة فى طبيعة البشر ، وبأدراك صاف للمبادئ الفلسفية . وكانت فى نظر علماء الدراسات القديمة فى القرن السادس عشر وحتى لديكارت فى القرن السابع عشر ، تعتبر القول الفصل فى موضوع الأخلاق ، ان هذا واحداً فقط من أمثلة كثيرة للقيمة التى لا تناسب فيها تلك التى كانت تضافى فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة على كتاب ما بعد العصر الأوغسطينى الذين نقلوا تراث الزمن القديم الاتباعى النبيل . وفى الواقع ، لم يكن سنقا بالسياسى العظيم أو المفكر العظيم ، وكانت أهميته كرجل يقوم بالوساطة فى الثقافة تربو على مزاياه الحقيقية (٢) . وفى عطفه على ضعف الانسان وترحه ، فانه كان يضرب على

(١) مكيل : « الأدب اللاتينى » فى السطور التى كتبها بن جونسون على أول طبعة من الحجم الكبير لشكسبير ، نقرأ :

ولو أنك حصلت على القليل من اللاتينى ، والأقل من الاغريقى
ولهذا فانى لا أبحث ، لتكريمك عن أسماء
ولكن استدعى اسخولس الراعد
ويوريبيدس وسنفوكلس الينا
وباكوفىوس Pacuvius وأتيوس ، وذاك القرطبي ، الموتى ،
الى الحياة مرة أخرى لسمعوا حذاءك الثقيل يخطو
ويهبز مسرحاً .

(٢) ان كونتليان الذى كان يقدر مزاياه بينما يشعر بالأسى لتأثيرات أخطائه الضارة على الذوق المعاصر ، يختتم نقده بهذه العبارة : « لقد حقق الهدف الذى نصبه أمامه ومع هذا فان طبعه كان يهينه لأغراض اسمى »
(Inst. Orat : ١٠ ، ١١ § ١٣١) .

نغمة غريبة على تقاليد الرواقية الصادقة ، وكان يعلن مقدما عن المشروعات الخيرة التي نهض بها أباطرة القرن الثاني . وكان وجود هذه الروح الجديدة في كتابات سنقا ، هو الذى سبب قيام الأسطورة المسيحية عن صداقته الشخصية للقديس بولس . كذلك لا ينبغي أن نتجاهل الدور الذى قام به فى العملية النسقية التى تغير بها صوغ اللاتينى الاتباعى الى ذلك الذى كان فى القرون الوسطى ^(١) . واعتبار آخر مماثل يرتبط بآثنين آخرين من معاصريه وكلاهما لاقى المصير الذى لاقاه على يدى نيزون هما لوكان Lucan ابن عم سنقا الذى تغنى بالحروب الأهلية بشعر الملحمة وبعباطف جمهورية ، وترونيوس أربتر الذى وصلتنا قصته وهى تصف مغامرات معتق اغريقى فى ايطاليا ، وهى لا تعطينا صورة رائعة للأخلاق الاجتماعية فحسب ، بل ان الشذرات الفريدة الباقية منها تعد النموذج الوحيد للكلام الشعبى فى عهد الامبراطورية الباكرا ^(٢) .

(١) فى روايات سنقا الفاجعية تصلب وزهو ولكن لسنقا أهمية حقيقية فى « ديالوجاته ورسائله » لأنها تعرض اللاتينية فى مرحلة تكون فيها قد اكتسبت مرونة اللغات الحديثة التى انحدرت من اللاتينية الدارجة (الرومانسية) . ويستبين منه حرية مستحدثة فى استخدام المصادر والصفات كأسماء وفى التوسع فى استخدام حروف الجر التى يمكن أن تحمل فى دقة ، معناها فى الفرنسية . وكان مجددا فى اختراع الألفاظ أو على أية حال فى تقديم الكثير منها فى الكتابة المحترمة . وعلى سبيل المثال تلك الأصول اللاتينية للألفاظ

“Inspector”, “favourable”, “vulnerable”, temporary”

ومن العسير تقدير الى أى مدى كان حديث الأشخاص العاديين أو المثقفين يختلف عن أسلوب اللاتينية الذى فرضه على العالم تفوق شيشرون ، ولكن من الجلى أن سنقا أدخل الكثير من الألفاظ النافعة التى كانت حتى ذلك الحين تعتبر عامية ، فى النشر الجيد . أن الكسب الذى جلاه فى مرونة اللغة ملحوظ . ولو أنه يغلو فى الرغبة فى تحديد النقاط ، فانه يكتب فى أحسن مايسطيع فى حرية ونهج طبيعى ، كما فى العصر الحديث تماما . وكما فى العصر الحديث أيضا تمكنه من وضع الجمل القصار وفضحه ضعفاته الصغيرة الخاصة به ومظهره الواثق بأن القارئ يعنى بالصغائر التى تتصل به . ويرجع اجمال كتاباته الى القرن التاسع عشر وهو ليس حقيقا به . لقد تعلم مونتاني استاذ المقالة الحديثة الكثير منه (عن هذه التذكرة ، أقر بانى مدين لعطف السيد فرنون رندال Mr. Vernon Rendall) .

(٢) لقد نشأت الرواية لتبقى . ويرجع أصلها الى الاغريق فى العهد الهلينى ولكن كتابة « التهكم » Saturae الرومانية اضافت عنصرا جديدا . وفى منتصف القرن الثانى كان أفولاييس Apuleius أهم كاتب روايات =

٢٢ - وتعرف الفترة الواقعة بين واسفاسيان وهديريان بالعصر الفضى فى الأدب اللاتينى . ومن بين طائفة من الكتاب ، يبرز ثلاثة ، لما كان لهم من نقودا على الازمن اللاحقة وهم استاتىوس Staius وكونتليان اللذان عاشا فى عهددمييطان ، وطاقيطس الذى عاش فى عهد ناروا وطريان . ان استاتىوس يلم به جميع قارئى ملحمة دانتي الكوميديا الالهية Divina Commedia على أنه الشاعر الذى صحبت روحه الحجاج فى المطهر وبعد رحيل فرجل ، صعد مع دانتي وبيترس Beatrice الى الفردوس ويرجع بعض ظفـره بهذا التكريم الى صفته كشاعر ملحمة ، اقتفى ولو من مسافة بعيدة خطى فرجل . ولكن يرجع معظمه للأسطورة الغريبة التى سجلت تحوله للدين المسيحى . وكانت لكتابات كونتليان قيمة ذاتية عظيمة وأتت بتأثير أوسع نطاقا . وكان على مثال سنقا ، اسباني المولد ، وقام فى روما بمهنة التعليم والمحاماة . وكان يسهم الى أتم حد فى التحمس الرومانى للخطابة ونشر فى عام ٩٣ أهم أعماله «شغف الخطابة» Institutio Oratoria . وكان لاعادة الكشف عنه فى القرن السادس عشر ما ميز عصره فى تاريخ احياء الآداب القديمة وفى الاثنى عشر كتابا التى كان يضمها مع كثير من المواد الأخرى التى تتصل بدراسة الفصاحة . أدمجت مراجعة لكل نطاق الأدب الاغريقى والأدب اللاتينى لا يضارعه شئ فى العصور القديمة فى سعة النظر والحكم التقديرى ، ومبحثان عن تعليم صغار الأطفال وأولئك الذين بلغوا سن النضوج . وكان هذان الأخيران هما اللذان أثارا بصفة خاصة ، عقول علماء القرن السادس عشر الذين وجهوا تفكيراً جدياً لمشاريع الإصلاح التعليمى . ولقد حملت العجالات عن التعليم فى جميع الأزمنة ، فى معظمها ، طابع الوتسط من الجودة ، ولكن عجالة كونتليان هى استثناء مكرم . وفى أسلوب يتسم بالوقار والصقل ويتجرد من الحشو والادعاء على السواء وضع خطة مجملـة للتعليم الذى يناسب رجل الامبراطورية الرومانى فى مبادئ تصلح لكل عصر (١) . وزيادة على

= نثرية ، لاتينى وأشهر أعماله قصة Cupid و Psyché فى الكتب ٤ - ٦ من Metamorphoses (أوالحمار الذهبى) . وقد قام ولتر باتر Walter Pater بترجمة القصة فى « ماريوس الأبيقورى » وفى ترجمة لويب Loeb لافولايس وفى طبعة أندور لنج Andrew Lang لنسخة أدلنجتون Adlington وروبرت جريفس Robert Graves فى Penguin Classics . راجع مكيل « الأدب اللاتينى » .

(١) لقد ترجم بتلر Butler كونتليان فى سلسلة لويب Loeb . يوجد عرض الأدب الكلاسيكى (الاتباعى) فى الكتاب العاشر فصل ١ ومعالجة موضوع التعليم فى الكتابين ١ و ١٢ . كان كونتليان يذهب الى أن مساوى العصر الخلقية ترجع الى التنشئة الناقصة ومن بين أشياء كثيرة ، كان يلج فى اظهار قيمة الأدب فى التعليم وضرورة دراسة أحسن المؤلفين ، فى سن

هذا فان كونتليان وهو يحتذى بدقة مثال شيشرون ، حدد ، للخير أو للضرر ، تصور الفصاحة الذى ظهر بمثل هذا الكبر ، فى التعليم الرومانى المتأخر وتعليم القرون الوسطى . والاسم الثالث الذى يستدعى التنويه ، ليس على الأكثر لعظمته التى لا يرقى اليها تساؤل ، ككاتب ولكن لما كان له من تأثير على حكم الخلف ، هو اسم طاقيطس ، وفى الجو المنسجم الوداع الذى ساد حكم طربان « وهو زمن تاح للناس فيه أن يفكروا فيما يشاءون ويتنطقوا بما يفكرون » ، كان يتطلع الى الوراء الى تلك الأيام التى كانت ترتعد فيها فرائص المجتمع تحت وقع شكوك طبريوس المشنومة ، ونزعات نيرون الجامحة . وعندما عملت جيوش المطالبين بالعرش المتنازعة تخريباً فى العالم الرومانى

الشباب وفيما يسببه حشو الذاكرة من ضرر وكذلك الكتب المدرسية التى ينخفض مستواها وعن الحاجة الى أفضل المدرسين ، للبادئين وأضرار العقوبة البدنية وقيمة الحركات الايقاعية الجيدة والتمارين الرياضية . وعن التعليم فى عهد الامبراطورية الباكر راجع هاتش Hatch « محاضرات هبترت Hibbert Lectures » (١٨٨٨) . وعن تأثير الآراء والعادات الاغريقية على الكنيسة المسيحية ، محاضرة : ٢ . ولقد كانت توجد مدارس ثانوية فى البلدان وجامعات فى أهم المدائن فى جميع أرجاء العالم الرومانى . وكانت تدفع الى الأساتذة رواتب عالية من المنح التى تصرفها الدولة وبالإعفاء من أثقال البلدان وهى ميزة كان نفعها يطرد ازيداً . وكان لدى معلمى الجامعات أجازات ويختارهم : اما الامبراطور (وازن أستاذة رجيوس Regius عندنا) واما المجالس المحلية واما لجان خاصة ، من الناخبين . وكان المعلمون والطلاب يرتدون ملابس الأكاديمية . ويرجع تاريخ لفظي "professor" و "faculty" الى هذا العصر . وفى الواقع يكون المذهب الرومانى مرحلة فى تطور «الجامعة» وهى فترة انتقال تقع بين الأكاديمية الاغلاطونية وما أعقبها من أكاديميات اغريقية ، من جهة ، وجامعات العصور الوسطى والحديثة من الجهة الأخرى . وكانت فروع التعليم الأساسية فى عهد الامبراطورية (أ) النحو أى دراسة أساليب الحديث والأدب الاثنيق . (ب) الفصاحة أى دراسة وممارسة التعبير الأدبى والجدل ويشمل الانشاء المبتكرة وكذلك المنطق . وهو ما كان يصل بهم الى (ج) الفلسفة . ويقص ديو خرومستوم Diogenes Chrysostom كيف وجد فى مستعمرة اغريقية شمال الأكسين أن كل واحد من السكان على التقريب كان يعرف الياذة عن ظهر القلب . ولقد أصبحت عادة القاء المحاضرات العامة ذات شأن عظيم أضافت (كما فعلت رعاية الدولة) الى تدهور الحياة العقلية بايجاد تعطش فى المحاضرين الى العرض الشعبى وحب استطلاع سطحى فى المستمعين . ووجود رغبة صادقة فى المعرفة ، أيضاً ، توضحه قصة أونفيس Eunapius عن طالبين فى كلية ، لم يكن لهما الا رداء واحد فكان على أحدهما أن يلزم فراشه ، بينما كان الثانى يختلف الى المحاضرات .

عند موت نيرون ، وفي « الحوليات » و « التواريخ » وسم حكام القرن الاول سمة لا تمحى من تهكمه ومقته . وطاقيطس ، اذا لم يكن أعظم المؤرخين الرومان فانه كان أعظم كاتب روماني للتاريخ وبقوة أسلوبه ، واثقانه للنوادر والأراجيز وضروب الایعاز واللمز ودهائه فى تحليل الدوافع فانه وضع لمدى خمسة عشر قرنا قرار العالم المتمدين على الامبراطورية الباكزة . انه أحد انتصارات البحث التاريخى الحديث ، انه قلب ذلك الحكم أو على الأقل عدله تعديلا عميقا . ولم يعد بعد طاقيطس أو تهكم وسخرية معاصره يونال Juvenal كاثنين لهداية تقديرنا لروما الامبراطورية . ولكن ما وجهه من تهمة مروعة عن انحطاط الحياة والأخلاق الرومانية واحساسهما بالاصطدام بالواقع المرير يبرزان على نقيض فاجعى ، مع الآمال التى حيا بها فرجل ، قبل ذلك بقرن مؤسس الامبراطورية ، كرسول عصر ذهبي .

٢٣ - وبين طاقيطس وأوغسطين لا توجد شخصية من الطراز الاول فى الأدب اللاتينى . ولقد وصلت الينا مجموعة عظيمة من الكتابات من القرون الثلاثة التى تقع بينهما معظمها من وضع مؤلفين مسيحيين ، وتباين فى أغراضها وينكز للعالم بفترة اللغة ، على سبيل المثال ، أن يتقصى التغير المنوء عنه آنفا ، من اللاتينى الاتباعى (الكلاسيكى) الى لاتينى القرون الوسطى . والقصيدة الجميلة Pervigilium Veneris فى استخدامهما الموشحة والمرجع (المصراع) تعلن مقدما عن شعر البروفانس فى بواكير العصور الوسطى . (١) وفى بداية القرن الخامس ، وضع جيروم Jerome فى غرفة سجنه فى فلسطين الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس (Vulgate) التى كان لها تأثير على مستقبل اللغة يبلغ فى عمقه تقريبا ، ما كان لترجمة لوثر من اثر على اللغة الألمانية أو الترجمة المعتمدة فى ١٦١١ ، على اللغة الانجليزية ، وكان أوغسطين معاصر جيروم فى الغرب ، آخر مؤلف لاتينى ذى عبقرية أصيلة . ولما كان يقف على الخط الفاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فانه يمثل امتزاج الثقافة اليونانية الرومانية التى أصبحت الآن فى حشجة الانحلال وروح المسيحية المظفر . أما عن عمله كمفكر وعالم لاهوت ونفوذ الذى لا يمكن حصره ، كثقة ، على العالم المسيحى الغربى ، فاننا سنتحدث فى فصل قادم . وننوه هنا فقط باحترامه لروما والقانون الرومانى وبالحماس الذى استوعب فيه فكر وأدب الماضى . ولو أنه قرأ حكم السماء فى تدمير الأرق Alaric لروما ، لقد برر دعوى الامبراطورية الحققة فى حكم العالم على أنها الجائزة الجديرة بها فضيلة روما . ولقد استمدت أدلة الكتاب الثانى لدانتى de Monarchia من كتاب أوغسطين ، « مدينة الله » (Civitas Dei) .

(١) راجع مكيل ص ٢٤٣ - ٦ . واضع القصيدة غير معروف وتاريخها غير محقق ولو أنها دون نزاع تنتمى الى هذه الفترة المتوسطة .

وقد بقيت رابطة الأدب اللاتيني الوثيقة ، بحياة الدولة الامبراطورية محفوظة فى هذه المقالة الأخيرة العظيمة لروما القديمة . وعند بويثيس وثير ثيودرق ملك القوط الغربيين ، فى القرن السادس ، وهو كاتب جليل بالتأثيره على علم القرون الوسطى أكثر من وجود ابتكار عقلى لديه ، وصل الأدب اللاتينى الى ختامه (١) .

٢٤ - وفى الوقت نفسه ، فى الاقاليم الشرقية احتفظت اللغة ، والأدب الاغريقين على ما لهما من مركز . وقد خلق ذيوخ الهلينية فى الغرب للمؤلفات الاغريقية جمهورا أعظم انتشارا وكان كل رومانى مثقف فى استطاعته أن يقرأها فى مظانها الأصلية .

وقد وضع مؤلفون اغريق كتباً لا عد لها فى التاريخ والسير والعلوم الطبيعية والرياضية والنقد الأدبى والفلسفة فى القرن الذى يقع قبل وبعد ميلاد المسيح . ويرجع تاريخ مصنف جالن Galen فى الطب وهو فاتحة عصر ، الى النصف الأخير من القرن الثانى . وسنعالج فى الفصل التالى نهج الفكر الفلسفى وقيام علم اللاهوت المسيحى . ويجب أن نذكر اسم فلوطرخوس من خايرونيا الذى أحيا كمواطن وككاتب ، شيئاً من أفضل روح سادات أزمنة اليونان العظام . وقد كتب كثيراً وعن موضوعات عديدة من بينها علم الأخلاق والدين (٢) . ولكن يرجع صيته لدى الخلفاء إلى سيره التى لا تضارع لشاهير اغريق ورومان الماضى ، ولم يكن فلوطرخوس مؤرخاً عظيماً ، ويرجع بعض السبب فى كتابته إلى النهوض بالمعرفة والبعض الآخر لتحمس عارم للخلقة النبيلة والعمل النبيل . وربما كان تأثير « سيره » على الأدب والتاريخ ، أوسع نطاقاً من تأثير أى مصنف واحد آخر من العصور القديمة الاتباعية . ولقد هيات لسكسبير مادة فاجعته وقطعت شوطاً بعيداً فى بحث المثالية الجمهورية فى زعماء الثورة الفرنسية ، وهى لا تزال تكون أفضل تهديد للصغار والكبار ، للتاريخ الاغريقى والرومانى ، ولجميع عشاق الشخصيات التاريخية ، تقدم بهجة قوية اليوم ، كما كانت تفعل منذ ألف وثمانمائة عام خلت .

(١) عن أوغسطين ، راجع ما يلى فصل ٩ و ٢٢ وعن بويثيس فصل ١٠ و ٨ وفصل ١١ و ٨ .

(٢) عن فلسفة الدين عند فلوطرخوس ، راجع ما يلى فصل ٩ و ٧ و ١٠ وفصل ١١ و ٨ .

« خاتمة »

٢٥ - كن التغيير من جمهورية الى امبراطورية أحد عوارض التغير الأكثر تدريجاً وأبعد غوراً ، الذى كان يطرأ على فكر وحياة العالم الاغريقى الرومانى . لقد نهضت المدنية الهلينية وازدهرت وهى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدولة المدينة وسبب الغاؤها بحكم استبدادى عالمى ، ثورة فى نظرة الناس العقلية والروحية .

ومنذ ذلك الحين فصلت المثل العليا للحياة ، عن النشاط السياسى والتبسس الناس الغراء والعون ، اما فى التفكير الفلسفى واما فى دين خارق الطبيعة . ولقد رأينا عندما كنا نتحدث عن العالم الهليني فى عهد خلفاء الاسكندر كيف أن المدرستين الفلسفتين اللتين كان لكليهما السيادة ، الرواقية والابيقورية ادعتا أنهما تسدان هذا المطلب لروح الفرد ، بمعزل عن حياة الدولة العامة . وفى الدين ، برهنت جهود أوغسطس المحافظة ، لاعادة العبادات القومية العتيقة على عدم جذورها . ولم تستطع التغلب على المعتقدات القريبة الجدد التى ذاعت فى هذا العصر من العالم الشرقى الى روما . لقد وجدت ديانات ازيس وكوبيلا Cybele ومثرا Mithra أتباعاً كثيرين ، فى المدينة الامبراطورية وفى أرجاء الأقاليم ، بين أولئك الذين لم تكن لديهم قدرة أو ميل لمتابعة مسالك الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) الصارمة . تلك المسالك التى لم تتيسر الا للحكيم وللقوى وهم قلة . وقد تحول آخرون ، وهم فى حاجة مماثلة للرضى الروحى صوب جهات أخرى وعلى الأخص صوب الشرق . وكان الشرق بدوره يتحول صوبهم . وسنتحدث فى الفصل التالى عن طبيعة ونتائج هذا الاتصال ، وقد دل كحافز خالق وكثير لرد الفعل ، على السواء . على أنه أعظم أزمة فى تاريخ البشر ، أهمية .

٢٦ - وجنبا الى جنب مع هذا المطلب للرضى الروحى من جانب الفرد ، نلاحظ وعياً يطرأ ازديادا بشعور انسانى عام ينتظم البشر . ولقد رأينا الافصاح عنه ، فى تصور الشارعين لقانون الطبيعة وفى انعكاس العالمية الرواقية داخل مجال القانون ، وفى أصاليب حب البشرية العام التى استنتجها عناية الأباطرة العظام الابوية فى القرن الثانى : طريان وهديان والائشان الانطونيان ، وأكثر من هذا روعة هو وجود هذا الاحساس بأخوة عامة فى قصيدة الملحمية التى وضعها فرجل . لقد تحدثنا عن الانيد كانبيل أثر تذكارى يبقى على الزمن لعظمة الامبراطورية الرومانية وهذه هى الفكرة التى عبر عنها تنيسون فى أبياته عن فرجل :

والآن لم تعد ساحتك بعد تعج بالأصوات
وهوت كل قبة أرجوانية لقيصر
ولو أن محيطك يتلاطم بنغم
إيقاعى أبدا لروما الامبراطورية .

ولقد عبر شعراء لاتينيون آخرون ، ولو في شعر أقل روعة ، عن احساسهم بعظمة روما الامبراطورية . ولكن توجد خصيصة أخرى في شعر فرجيل ليس لها نظير في الأدب السابق . انه يتطلع الى الحياة في صفة من العطف واحساس مرهف عام عميق ، وهذا ما يناقض مناقضة عجيبة الكبرياء العقلية والثقافة الشاملة اللتين كان يتميز بهما أدب وفلسفة سابقيه . ان فرجيل في تعميم شعوره هو رسول عهد جديد في تاريخ البشر الروحي . وقد كانت الأجيال اللاحقة التي نشأت على العقيدة المسيحية تبرزه من بين كتاب ما قبل المسيحية ، على أنه روح بالطبيعة مسيحية *anima naturaliter Christiana* أي دون عون من وحى . ودون شك ، كانت أرجوزة الرعاة *Eclogue* الرابعة الشهيرة ، التي تنبأ فيها الشاعر بعودة العصر الذهبي بلغة توحى بطريقة تلفت النظر ، بنبؤات أشياء عن مسيا ، الواعز بهذا التبجيل نحو فرجيل ، لروح القرون الوسطى الباكرة غير الناقدة ، (١) ودون شك كذلك كان الشاعر الامبراطوري يسهم في أعينهم ، في القداسة الخاصة التي كانت ترتبط بأنظمة الامبراطورية الرومانية . ولكن الشعور كان ينبغ من شيء أعمق من هذه الدوافع الأكثر وعيا . ان فرجيل وحده من بين شعراء ما قبل المسيحية كانت تؤثر فيه « موسيقى الانسانية ، الحزينة الساكنة » ، في « عة من الرفق الانساني تعلن مقدما عن رسالة المسيحية الديمقراطية . وفي الكتاب السادس من الأنيد يطالع ابو روما في العالم السفلي ، الموتى يحتشدون على الشطوط بالقرب من « برك ققوطس *Cocytus* العميقة وغدير استوجيا *Stygia* » . « وهنا اكتظ الجميع واندفعوا منهمرين الى الشاطئ » أمهات ورجال وأبطال جسورون ، موتى انقطعت أسبابهم بالحياة وغلما وبنات لم يتزوجن وأطفال وضعوا وهم صفار على النعش أمام أعين والديهم ، جموع حفل كأوراق تهوى متساقطة في الغابات في أول بواكير صقيع الخريف أو الطيور تهبط أسرابها صوب الأرض من الخليج العميق عندما يقتلعهم قر السنة من فوق البحار ، ويسوقهم الى أراض تغمرها الضحوة . ولقد وقفوا يتوسلون ليتاح لهم أول عبور ، وبسطوا أيديا منفعة الى الشاطئ الآخر ، (٢) . ويمكننا أن نقف في رغبة فرجيل في الحياة فيما يلي القبر ، وهي أكثر دنوا من روح الرجاء المسيحي عن أي قول نطق به الفلاسفة الاغريق . انه لم يكن مجرد اخلاص جمالي لشاعر نحو شاعر ، او مجرد صدى تقليد شعبي ذلك الذي حدا بدانتى لأن يلتبس هداية فرجيل عبر الجحيم والمطهر ، الى عتبة الفردوس المسيحي .

(١) راجع ما سبق صفحة ٦٦ تذكرة ١ . كان الكتاب السادس من الأنيد *Aeneid* السبب في أن يعتبر فرجيل أيضا ثقة فيما يتعلق بعالم ما وراء القبر .

(١) Aen. ٦ : ٣٠٥ - ١٤ (ترجمة مكيل)

٢٧ - والعصور الوسطى وهى فوية فى نزعة الاعتقاد بالحق الموحى به .
جسرت على أن تفسر تاريخ الامبراطورية الرومانية فى ضوء الحطة الالهية حكم
ينتظم العالم . ولقد راوا فى عمل يوليوس واوعسطس كما فى قصة الشعب
العبرى المختار *praeparatio evangelica* .

ومن الجهة الأخرى فان المؤرخين المحدثين قد رضوا بقصر بحثهم وحكمهم
على نتائجها الفعلية على سعادة البشرية ومدنيتها . واذا ما سألنا بهذه الروح
ماذا كان يعنى توطيد المذهب الامبراطورى للعالم الرومانى ، فيجب ألا يكون
اعتمادنا فيما نصل اليه من نتائج على المؤلفات التاريخية الأدبية التى تعبر
عن عداوة أصحاب المثل العليا الجمهورية ، الطبيعية أكثر من اعتمادنا على
الأدلة عن نتائج النظام على الملايين الصامته الذين كان صالحهم الشأن الأول
لدى الحكومة الامبراطورية . انه فى تنظيم الضرائب تنظيما عادلا ، وفى تطبيق
القانون دون محاباة ، وفى تأسيس المدن والأعمال العامة ، وفى نهوض
التجارة دون عائق ، وفى توسيع حقوق المواطنين والحكومة الذاتية المحلية
مما أفسح المجال ، لأول مرة لآمال عراض فى الرقى لجميع الأحرار ، وفوق
كل شئ فى الدفاع الفعال عن الحدود والاحتفاظ بسلام عالمى ، أن طبيعة
المذهب الامبراطورى الحققة تتكشف . ان المؤرخين العظمين اللذين « عينا
بشرح روما للعالم الحديث » يظهران اتفاقا فى حكمهما ، يسترعى البال .
وقد لخص جيون وهو يكتب فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر نظريته
الشاملة على دولة العالم الرومانى فى القرن الثانى بعد الميلاد فى هذه الألفاظ
التى يلم بها الناس تمام الامام . « لو أن امرء طلب اليه أن يحدد حقبة
فى تاريخ العالم ، كان الجنس البشرى فى خلالها فى أعظم حالة من السعادة
والرخاء فانه دون تردد كان ليذكر تلك التى وقعت بين موت دميبيان الى
اعتلاء كومودس Commodus^(١) العرش . وكان يحكم رقعة الامبراطورية
الرومانية المسيحية سلطة مطلقة تسير على هدى الفضيلة والحكمة . وكانت
تكبح جماح الجيوش يد رفيقة قوية لأربعة أباطرة متعاقبين ، استرعت
خصالهم وسلطتهم احترامما يجيء عفوا . وقد حافظ على شكول الادارة المدنية
محافظة دقيقة ، ناروا وطريان وهديبان والانطونيون الذين كانوا يبتهجون
بمراى صورة الحرية ويسرون بأن يعتبروا أنفسهم خدام القسوانين
المسؤولين » (٢) .

وقد صنف مؤلف جيون أصلا من مجلات أدبية . ومنذ أن وضع مصنفه ،
كشفت تقدم البحث التاريخى عن مقدار عظيم متباين من الكتابات (٣)

(١) ٩٦ - ١٨٠ ميلادية

(٢) « التدهور والسقوط » . فصل ٣

(٣) وقد استخدم جيون أيضا السجلات التى جمعتها « أكاديمية
النقوش الفرنسية Académie des Inscriptions » .

المعاصرة . وبعد قرن من نشر «التدهور والسقوط Decline and Fall» جمع ثيودور مومسن Theodor Mommsen احصاءا شاملا لهذه المواد الجدد في كتابه عن الأقاليم الرومانية في عهد الامبراطورية . وحكمه ، ولو أنه أكثر حذرا في تعبيره ، يحمل نفس المعنى الذى انطوى عليه حكم جيون .

« وحتى الآن ، توجد اقاليم متنوعة في الشرق ، كما في الغرب ، تبلغ الحقبة الامبراطورية بالنسبة لها الذروة في الحكم الصالح ، وهو متواضع في ذاته ، ولكن مع هذا لم يتح الوصول اليه من قبل أو من بعد . ولو أن ملاكا من لدن الرب ، كان ليقيم الميزان بما اذا كانت الممتلكات التى كان يحكمها ساورس أنطونينس Severus Antoninus كانت تحكم في ذكاء أعظم وإنسانية أعظم في ذلك الوقت ، أو في زمننا الحاضر وعما اذا كانت المدنية والرخاء القومى على وجه عام قد تقدما منذ ذلك الحين أو تأخرا ، فانه من المشكوك فيه جدا أن يجىء القرار في صالح الحاضر » (١) .

الى أى مدى يصدق هذا الحكم ؟ يجب أن تواجه المسألة اذا كنا لنقيس قدر عمل روما في التاريخ أو القوات الجدد التى اقتحمت سيادتها واستولت على ميراثها . ويجب ألا ندع بصرنا يعميه عظم قوتها واستعطالة زمنها ، أو ننسى أن حكم التاريخ يصدر دائما على نوع العمل الجليل أكثر مما يكون على كنهه ، وانا اذا وجهنا عقولنا الى هذا ، فانه يشق علينا أن نقبل أقوال جيون ومومسن دون تحفظ . ان حكمهما صادق ، اذا كنا نعنى بالسعادة الراحة المادية واذا اعتبرنا الصالح الاقتصادى واقامة النظام الاجتماعى معايرنا للمدنية . انه من السهل أن نفهم كيف أنه بعد قرون من الصراع العام والالم الخاص ، كان مجيء سلام عالمى تحت حوى القياصرة يظهر لشعراء روما في عهد أوغسطس كأنه فجر عصر ذهبي (٢) . ان الدولة الرومانية أدركت المثل الأعلى للحكومة أبوية في درجة لا يقدم التاريخ مثيلا لها الا حكم بريطانيا الهند ومصر (٣) حتى الأزمن الحديثة . واذا كانت الحكومة الأبوية هى المنتهى ما تصل اليه المدنية ، فان سقوط تلك الامبراطورية في القرون التى تعاقبت كان أكثر الحوادث مجلبة للحزن في حويلات البشر . لقد كان الشعراء يحلمون بأن روما ستبقى ابد الدهر وحتى حقيقة التدهور والسقوط القاسية ، لم تجد نفعا في تبديد الخدعة . ومع هذا ففي ساعة قيامها كان يوجد داخل الامبراطورية ذلك الذى كان ينبىء بانحلالها . ما كان يمكن

(١) أقاليم الامبراطورية الرومانية - تمهيد

(٢) مثل Aen. : ١ ، ٢٩٥ و ٦ ، ٧٩١ - ٢ .

(٣) هذا رأى المؤلف نوره وان كنا كمصريين لا نقره فيما ذهب اليه

من مثالية حكم الانجليز لبلادنا (المترجم) .

الحكومة استبدادية بيروقراطية ، مع كل ما فيها من أمانة واستنارة أن تشير استجابة حية من الشعوب المحكومة التي كانت تحصد منافعها . ان روح الانسان تصبو ليس الى الراحة ولكن الى الحرية وليس للاستقرار الاقتصادي أو الادارة العادلة ولكن الى الحق في أن تجد السبيل الى خلاصها ملاقية في ذلك ما لا نهاية له من نصب ورزايا . ورغبتها في كل المصور ليس في السعادة ولكن في الحياة . وفي تكوين الحكومة الرومانية المائل ، كان الناس يدركون فقط الحمل الساحق وانتظروا في جمود أخرس ، ساعة انقاذهم ، لقد كانوا دمي في يد القدر المتعالى الذى لا يتسامح ، الذى كان يجثم على حظوظ العالم (١) . وكانت روما عاجزة مع كل ما لها من جلال قوة ، على أن تعيد الانتعاش للشعوب التي دانت لحكمها . لم تقدم لهم أية « دعوة » ، في استطاعتها أن تحرك قلوب الناس للقيام بجهد من جانبهم ، فيه أمل صالح لتحقيق مظفر كالذى تقدمه المسيحية (أو الشيوعية) الى العالم الحديث (٢) . ان ينايع الحياة كانت فى مكان آخر ، فى جحافل التيوتون الجامحة التي كانت الآن تعمل فى الحدود ضربا وفى العقيدة الجديدة التي كان مولدها فى عهد رياسة أوغسطس بين شعب محتقر من الشرق وقدر لها قبل مضى كبير زمن أن تهز بنيان المدنية الاغريقية من أساسها هذا .

تم الجزء الأول

(١) وازن قول نابوليون « ان السياسة هي القدر » . عن امستحالة عاطفة ولاء فعالة ، نحو الامبراطورية راجع ريفس : « أوروبا العصور الوسطى » الصفحتين ١٩ و ٢٠ .

(٢) راجع بيفان فى « العصر الهليني » (الصفحات ٩٨ وما يليها) ، عن عدم وجود « دعاوى » فى عصره وكيف أن المسيحية قدمت « دعوة » .

الصفحة	السطر	تصويب	الصواب
١٠٠	٢٦	hand	
٣٥	١ - هامش (١)	بيخو	
٤٢	١ - هامش (٣)	Nineveh	
٤٨	٣١	وأخضع	
٥١	١٣	sont	
٥٧	٢٨	لعبقريّة	
٥٧	٢٩	موادا	
٧٠	٢١	حتى ، بعد ككثرة	
١٤٣	٢٢	باتحاد	
١٧١	٩	حقيقتيها	
١٧٦	٥ - هامش (٢)	هذا السطر يجيء بعد الذي يليه	
٢١٨	٤ - هامش (٢)	Hellenistic	
٢٣٣	١٨	هذين العليين	
٢٤٧	١٧	ونفس	
٢٥١	٧	الأسر.	
٢٥٢	١٢	٢ - قيام الجمهورية	
٢٨٠	٤ - هامش (١)	Digest	
٢٨٢	٣ - هامش (٢)	gentium	
٢٨٣	١٣	تكيّف	
٢٨٩	٤	الأرب	
٢٩٤	٨	الا	
٢٩٦	٩ - هامش (١)	كنفسي	
٣١٣	٢٢	طريان	
٣١٥	٢ - هامش (١)	ابرية	
٣٢٠	٥ - هامش (١)	موادا	
٣٢٧	٤	الآداب	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٨٦٥

I.S.B.N 977 - 01 - 6168 - 3



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل -
للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية وما زال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم وما زلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن
مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



٣٠٠ قرش

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩